



Wasit University
Repository

Wasit University Repository

repository.uowasit.edu.iq

أثر البيئة في تشكل صور الخلق وجوهره في الفكرين العراقي والمصري القديمين - دراسة مقارنة

The Impact of the Environment on the Formation of Creation Imagery and Its Essence in
Ancient Iraqi and Egyptian Thought – A Comparative Study

العبادي, محمود انعيمة خليفة

إشراف: أ.د. سعدون عبد الهادي برغش الأمير

جامعة واسط — 2026

<https://repository.uowasit.edu.iq/handle/123456789/235>

<https://doi.org/10.31185/uowasit-79>

حُمِّلَ هذا الملف من مستودع جامعة واسط

Downloaded from the Wasit University Repository — repository.uowasit.edu.iq



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة واسط

كلية التربية للعلوم الإنسانية - قسم التاريخ

أثر البيئة في تشكّل صور الخلق وجوهره في الفكرين العراقي والمصري القديمين - دراسة مقارنة

أطروحة تقدّم بها الطّالب

محمود انعيمة خليفة العبادي

إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية في جامعة واسط

وهي جزء من متطلبات شهادة الدكتوراه

فلسفة في التاريخ القديم

بإشراف

أ. د. سعدون عبد الهادي برغش الأمير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾

صدق الله العلي العظيم

التين: ٤

الإهداء

إِلَى مَنْ أَرَادَنِي عِلْمِي فَفَهِّمَهَا

إِلَى بَنِي عَجَّةٍ الصَّابِرِ وَالْمُتَوَكِّلِ وَالْأَمِينِ

إِلَى مَنْ كَانَ مَلَاوِفِي وَمُلَاجِنِي

أُمِّي وَأُمِّي

مُحَمَّد

بالشكر تدوم النعم ، وأنا أنهى بحثي هذا ، أحمد الله العلي القدير على فضله ونعمته علي ،
وتوفيقى لذلك ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، لهذا فاني أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى كل من
ساعدني على إكمال بحثي هذا ، وفي مقدمتهم أستاذي ومشرفي الأستاذ الدكتور سعدون عبدالهادي
الأمير، الذي كان لتوجيهاته وارشاداته العلمية والمنهجية الفضل الأكبر في إكمالي للبحث ، فلأستاذي
الفاضل أقدم عظيم شكري وأمتاني ثناءً وعرفاناً .

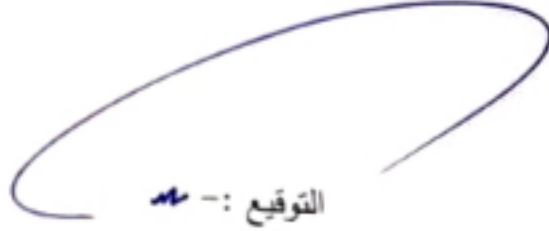
وفي معرض العرفان والثناء بالجميل لا يفوتني أيضاً أن أقدم أوفرهما إلى أساتذتي في السنة
التحضيرية ، لما قدموه من فيض علمهم وغزارة أفكارهم ، ونصائحهم التي لم تنقطع في مرحلة كتابة
البحث ، إلى كل من الأستاذ الدكتور حسين سيد نور جلال الأعرجي، والأستاذ الدكتور فاضل كاظم
حنون والأستاذ الدكتور ماجد مشير، والأستاذ الدكتور محمد فهد حسين، والاستاذ المساعد الدكتور احمد
بشار جمعة.

ويقتضي واجب الوفاء أن أقدم شكري إلى الأصدقاء الذين كانوا لي خير عون في توفير المصادر
وتقديم النصائح ، لاسيما أخي وصديقي صاحب القلب الطيب مؤيد مجيد محمد لجود كرمه وتقضله عليّ
بالمصادر، ولا انسى ان اشكر زملائي وزميلاتي في دفعتي، فلهم جميعاً ومن لم يسعني ذكره جزيل
الشكر والامتنان.

ختاماً أتقدم بأوفى وأجمل عبارات الشكر والعرفان إلى أخواني وأخواتي وعائلتي، الذين لولا
دعائهم ودعمهم المستمر لما كان باستطاعتي إكمال المشوار.

إقرار المشرف

أشهد أن إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ (أثر البيئة في تشكل صور الخلق وجوهره في الفكرين العراقي والمصري القديمين دراسة مقارنة)، للطالب (محمود أنعم خليفة العبادي) تم تحت إشرافي في كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة واسط ، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه فلسفة في التاريخ القديم .

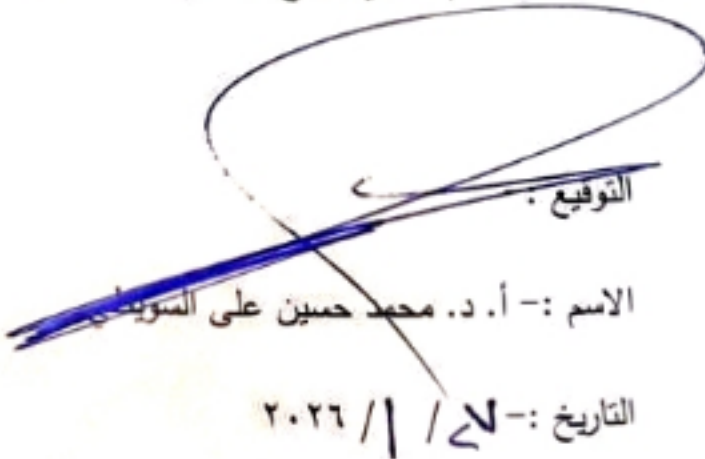

التوقيع :-

الاسم :- أ. د. سعدون عبد الهادي الأمير

التاريخ :- ٢٠٢٦ / ٦ / ٤

توصية السيد رئيس القسم

بناءً على التوصيات المقدمة من قبل المشرف والمقوم اللغوي أرشح هذه الرسالة للمناقشة .


التوقيع :-
الاسم :- أ. د. محمد حسين علي السويدي
التاريخ :- ٢٠٢٦ / ١ / ٤

إقرار المقوم اللغوي

أشهد أنّ إعداد هذه الأطروحة الموسومة (أثر البيئة في تشكل صور الخلق وجوهره في الفكرين العراقي والمصري القديمين دراسة مقارنة)، قد جرت مراجعتها من الناحية اللغوية بإشرافي ، وأصبحت سليمة من الناحية اللغوية والأسلوبية ولأجله وقعت .

التوقيع :-

الخبير اللغوي : أ.م.د. بدرية ناصر عبد سعيد

التاريخ :- ٦ / ٧ / ٢٠٢٦

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن أعضاء لجنة المناقشة أننا أطلعنا على أطروحة الطالب (محمود أنعيمة خليفة العيادي) الموسومة (أثر البيئة في تشكل صور الخلق وجوهره في الفكرين العراقي والمصري القديمين دراسة مقارنة)، وقد ناقشنا الطالب بمحتوياتها وكل ما يتعلق بها ، ونعتقد أنها جديرة بالقبول ، لنيل شهادة الدكتوراه فلسفة في التاريخ القديم وبتقدير (جيد جداً) .

التوقيع :

الاسم : أ. د. عبد الرزاق حسين حاتم

عضواً :

التوقيع :

الاسم : أ. م. د. علي جبار عزيز

عضواً :

التوقيع :

الاسم : أ. د. سعدون عبد الهادي الأمير

مشرفاً وعضواً :

التوقيع :

الاسم : أ. د. محمد فهد حسين

رئيساً :

التوقيع :

الاسم : أ. د. نهاد حسن حجي

عضواً :

التوقيع :

الاسم : أ. م. د. احمد بشار جمعة

عضواً :

صادق مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة واسط على الأطروحة .

التوقيع :

الاسم : ١٥ / ٩ / ٢٠٢٦

عميد كلية التربية

المحتويات

الصفحة	الموضوع
	الآية القرآنية
	الإهداء
	الشكر والإمتنان
أ- هـ	المحتويات
و- ز	المختصرات
٤-١	المقدمة
١١-٥	التمهيد: مفاهيم الدراسة
٨-٥	أولاً: الصورة
٦- ٥	١- الصورة لغة
٨-٦	٢- الصورة اصطلاحاً
١١-٩	ثانياً: الجوهر
٩	١- الجوهر لغة
١١-٩	٢- الجوهر اصطلاحاً
٣٩-١٢	الفصل الأول: البيئة وأثرها في الفكر الإنساني
٢٣-١٣	المبحث الأول: وصف البيئة الطبيعية في العراق ومصر
١٧-١٣	أولاً: وصف البيئة الطبيعية في العراق
١٣	١- أقسام السطح
١٤	٢- التربة
١٥	٣- الأنهار
١٧-١٥	٤- المناخ
١٧	٥- الموقع الجغرافي
٢١-١٨	ثانياً: وصف البيئة الطبيعية في مصر
١٨	١- أقسام السطح
١٩-١٨	٢- التربة
٢٠-١٩	٣- نهر النيل
٢١-٢٠	٤-المناخ

٢١	٥- الموقع الجغرافي
٢٣-٢٢	ثالثاً: المقارنة بين بيئتي العراق ومصر الطبيعيتين
٣٢-٢٤	المبحث الثاني: البيئة وأثرها في الفكر الإنساني وفقاً للنظريات والمدارس الفكرية
٢٨-٢٤	أولاً: المدرسة الحتمية
٣٠-٢٨	ثانياً: المدرسة الإمكانية
٣٢-٣٠	ثالثاً: المدرسة الاحتمالية (التوافقية)
٣٩-٣٣	المبحث الثالث: أثر البيئة في الفلسفة الوجودية للفكرين العراقي والمصري القديمين
١٦٠-٤٠	الفصل الثاني: أثر البيئة في تشكل صور الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين
٩٦-٤٠	المبحث الأول: أثر البيئة في تشكل صور الخلق في الفكر العراقي القديم
٦٩-٤٠	أولاً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الكون
٤٩-٤١	١- صورة الكون قبل التشكل
٥٣-٥٠	٢- صورة التشكل الكوني الأول
٦٦-٥٣	٣- صور تنظيم الكون
٥٨-٥٣	أ- صور تشكل أجزاء الكون الأساسية
٦٦-٥٨	ب- صور تنظيم الكون المخلوق
٦٩-٦٦	٤- الصورة النهائية للكون في الفكر العراقي القديم
٨٢-٦٩	ثانياً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الآلهة
٧٣-٧١	١- أزلية المادة الإلهية
٨٢-٧٤	٢- صور خلق الآلهة
٧٨-٧٤	أ- التوالد
٨٢-٧٨	ب- الخلق
٩٧-٨٢	ثالثاً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الإنسان
٨٤-٨٢	١- الإنجابات
٨٦-٨٤	٢- التطور
٩٣-٨٦	٣- الصنع
٩٦-٩٣	٤- صور أخرى لخلق الإنسان
١٤٢-٩٧	المبحث الثاني: أثر البيئة في تشكل صور الخلق في الفكر المصري القديم
١٢٥-٩٧	أولاً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الكون

١٠٤-١٠٠	١- صورة الكون قبل التشكل
١١٠-١٠٥	٢- صورة التشكل الكوني الأول
١٠٨-١٠٥	أ- ظهور التل الأزلي
١١٠-١٠٨	ب- ظهور الشمس
١٢٢-١١٠	٣- صور تنظيم الكون
١١٩-١١٢	أ- صور تشكل أجزاء الكون الأساسية
١٢٢-١١٩	ب- صور تنظيم الكون المخلوق
١٢٥-١٢٢	٤- الصورة النهائية للكون
١٣٤-١٢٥	ثانياً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الآلهة
١٢٨-١٢٥	١- أزلية المادة الإلهية
١٣٤-١٢٩	٢- صور خلق الآلهة
١٣١-١٢٩	أ- التوالد
١٣٣-١٣٢	ب- التمايز (الانقسام)
١٣٤	ج- الصنع
١٤٢-١٣٥	ثالثاً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الإنسان
١٣٧-١٣٥	١- الإنسان خلق من مادة الإله وصورة عنه
١٣٧-١٣٦	أ- دموع الإله
١٣٧	ب- جسد الإله
١٣٨	٢- الخلق بالتمييز أو بالنوع
١٤٢-١٣٨	٣- الخلق بالصنع
١٦٠-١٤٣	المبحث الثالث: أوجه الشبه والاختلاف لصور الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين وأثر البيئة في ذلك
١٤٨-١٤٣	أولاً: مقارنة حول أثر البيئة في تشكل صور خلق الكون في الفكرين العراقي والمصري القديمين
١٤٥-١٤٣	أ- أوجه الشبه
١٤٨-١٤٥	ب- أوجه الاختلاف
١٥٤-١٤٨	ثانياً: مقارنة حول أثر البيئة في تشكل صور خلق الآلهة في الفكرين العراقي والمصري القديمين

١٥١-١٤٨	أ- أوجه الشبه
١٥٤-١٥١	ب- أوجه الاختلاف
١٦٠-١٥٥	ثالثاً: مقارنة حول أثر البيئة في تشكل صور خلق الإنسان في الفكرين العراقي والمصري القديمين
١٥٦-١٥٥	أ- أوجه الشبه
١٦٠-١٥٦	ب- أوجه الاختلاف
٢٤٠-١٦١	الفصل الثالث: أثر البيئة في تشكل جوهر الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين
١٩٢-١٦١	المبحث الأول: أثر البيئة في تشكل جوهر الخلق في الفكر العراقي القديم
١٦٦-١٦١	اولاً: أثر البيئة في تحديد الآلهة الخالقة في الفكر العراقي القديم
١٨٩-١٦٧	ثانياً: أثر البيئة في تشكل جوهر الآلهة الخالقة في الفكر العراقي القديم
١٧٢-١٦٨	١- جوهر السماء
١٧٨-١٧٢	٢- جوهر الهواء
١٨٣-١٧٩	٣- جوهر الأرض
١٨٩-١٨٣	٤- جوهر الماء
١٩٢-١٨٩	ثالثاً: أثر البيئة في تنظيم الآلهة الخالقة في الفكر العراقي القديم
٢٢٩-١٩٣	المبحث الثاني: أثر البيئة في تشكل جوهر الخلق في الفكر المصري القديم
١٩٧-١٩٣	اولاً: أثر البيئة في تحديد الآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم
٢٢٤-١٩٨	ثانياً: أثر البيئة في تشكل جوهر الآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم
٢٠٧-١٩٨	١- جوهر الشمس
٢١٢-٢٠٧	٢- جوهر الماء
٢١٧-٢١٣	٣- جوهر الهواء
٢١٩-٢١٧	٤- جوهر الأرض
٢٢٤-٢٢٠	٥- جوهر السماء
٢٢٩-٢٢٤	ثالثاً: أثر البيئة في تنظيم الآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم
٢٤٠-٢٣٠	المبحث الثالث: أوجه الشبه والاختلاف لجوهر الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين وأثر البيئة في ذلك

٢٣٢-٢٣٠	اولاً: مقارنة حول أثر البيئة في تحديد الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري القديمين
٢٣٢-٢٣٠	أ- أوجه الشبه
٢٣٢	ب- أوجه الاختلاف
٢٣٧-٢٣٣	ثانياً: مقارنة حول أثر البيئة في تشكل جوهر الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري القديمين
٢٣٤-٢٣٣	أ- أوجه الشبه
٢٣٧-٢٣٤	ب- أوجه الاختلاف
٢٤٠-٢٣٨	ثالثاً: مقارنة حول أثر البيئة في تنظيم الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري القديمين
٢٣٨	أ- أوجه الشبه
٢٤٠-٢٣٨	ب- أوجه الاختلاف
٢٤٤-٢٤١	الاستنتاجات.
٢٦١-٢٤٥	المصادر والمراجع.
1-2	Abstract

ABBREVIATION المختصرات

ANET	Ancient Near Eastern Texts, 2 rd .ed, Princeton, U. S. A. 1955.
CAD	The Assyrian Dictionary of the Oriental Institute of the University of Chicago.
CANE	Civilizations of the Ancient Near East.
DANEM	A Dictionary of Ancient Near Eastern Mythology, (London, New York, 1992).
JEA	Journal of Egyptian Archaeology, London, 1938.
JNES	Journal of Near East Studies, (Chicago).
TITC	Toward the Image of Tammuz and other Essays on Mesopotamian History and Culture, (Cambridge, 1970).

المختصرات والرموز العامة

المختصرات الانكليزية		المختصرات العربية	
المختصر	المعنى	المعنى	المختصر
Ibid	Ibidem	بدون تاريخ	ب.ت
No/Nos	Number/ Numbers	بدون طبعة	ب.ط
p.	Page	جزء	ج
pp.	Pages	صفحة	ص
Vol/Vols	Volume/ Volumes	أكثر من صفحة	ص ص
		طبعة	ط
		قبل الميلاد	ق م
		مجلد	مج
		عدد	ع

مفاهيم الدراسة:

أولاً: الصورة

١ - الصورة لغةً:

وردت كلمة الصورة في اللغات العراقية القديمة السومرية والآكدية، إذ جاءت في اللغة السومرية بالصيغة (الأم -نو) (ALAM- NU)، وتقابلها باللغة الآكدية الصيغة (صلّمو) (Salmu) والصيغتان بمعنى الصورة، تمثال، رسم أو تصوير، وهيئة الجسم^(١). إما في اللغة المصرية القديمة فقد وردت بصيغة (توت) (TWT) والتي تعطي معاني الصورة، تمثال، هيئة ممثلة، والشبه^(٢).

وردت لفظة صورة في "لسان العرب" بمعنى: "الشكل، والجمع صور، وقد صوّره فتصوّر، وتصورت الشيء توهمت صورته، فتصور لي، والتصاوير: التماثيل"^(٣)، وفي المعجم الوسيط يأتي معنى الصورة: "الشكل والتمثال المجسم ... وصورة المسألة أو الأمر فيقال: هكذا الأمر على ثلاث صور، وصورة الشيء: ماهيته المجردة وخیاله في الذهن والعقل"^(٤)، ويرد في القاموس المحيط: "الصورة هي الشكل، جمعها صوّر-صور-صور، وقد صَوَّرَ فتصوّر، وتُسَنَعَمَلُ بمعنى النوع والصفة"^(٥). أما ابن الأثير فيقول: "الصورة ترد في لسان العرب - يقصد ألسنتهم - على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته، يقال صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة كذا وكذا أي صفته"^(٦). والتصوّر هو "مرور الفكر بالصورة الطبيعية التي سبق أن شاهدها وانفعل بها ثم اختزنها في مخيلته". أما التصوير فيقصد به "إبراز الصورة إلى الخارج في شكل فني"، فالتصوّر هو أسلوب عقلي أداته الفكر فقط أما التصوير فهو عملية شكلية أداتها الفكر واللسان واللغة^(٧).

(١) CAD, Vol. 16, p. 78.

(٢) Faulkner, Raymond O., A concise Dictionary of Middle Egyptian, (Oxford, 2002), p. 363.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مج ٤، دار صادر، ط٣، بيروت، ١٩٩٤، ص ٤٧٣.

(٤) إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤، ص ٥٢٨.

(٥) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ط٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٤٢٧.

(٦) نقلاً عن صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير عند سيد قطب، دار الفنون المطبعية، الجزائر، ١٩٨٨، ص ٧٤.

(٧) صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير ...، ص ٧٤.

وردت لفظة الصورة واشتقاقاتها في آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى " الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك"^(١)، وقوله تعالى: " الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء، وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك رب العالمين"^(٢). أن معنى لفظة الصورة في المعاجم العربية تدور حول معاني: الهيئة والشكل والخصوصية، أما في آيات القرآن الكريم فنجدها تدور حول معاني: الخلق والإيجاد، التشكيل والتركيب، والتحسين والتجميل^(٣).

٢- الصورة اصطلاحاً :

يعد مصطلح الصورة في مقدمة المفاهيم الأدبية والنقدية الأكثر استعمالاً في الدراسات الإنسانية ذات الطابع التحليلي والنقدي، ومع ذلك فإن الإشارات المتعددة لمصطلح الصورة تجعل من مهمة تعريفه في شكل مفهوم جامع مهمة صعبة وشاقة^(٤). ومرجع هذه الصعوبة عدة أسباب منها: تداول مصطلح الصورة في علوم متباينة، واختلاف المذاهب والمناهج النقدية التي تدرسه^(٥).

يرى أرسطو بأن: "الصورة هي الشكل والهيولي هي المادة"، وقد ضرب لهذا مثاله المشهور (المنضدة) ليبين الفرق بين الصورة أي الشكل وبين الهيولي أي المادة، فالخشب والغراء يمثلان هيولي المنضدة، إما صورتها فهي التركيب المخصوص الذي تكون من دمج الخشب والغراء حتى ظهر بهذا الشكل^(٦). ويُعرّف الشاعر الفرنسي "بيار ريفاردي" (١٨٨٩ - ١٩٦٠) لفظة صورة IMAGE بأنها: "إبداع ذهني صرف، وهي لا يمكن أن تتبثق من المقارنة وإنما تتبثق من الجمع بين حقيقتين واقعتين تتفاوتان في البعد قلة وكثرة، ولا يمكن إحداث صورة المقارنة بين حقيقتين واقعتين بعيدتين لم يدرك ما بينهما من علاقات سوى العقل"^(٧).

(١) سورة الانفطار : الآية ٨

(٢) سورة غافر : الآية ٦٤.

(٣) حماد حسين، مصطلح الصورة، حولية كلية اللغة العربية، ١٥ع، مج٥، جامعة الازهر، ٢٠١١، ص ٣٨٢٢.

(٤) بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، (بيروت، ١٩٩٤)، ص ١٩.

(٥) صلاح حفني، في الصورة الشعرية دراسة تطبيقية على شعر الحبس في تراث المشرق العربي، ط٢، مكتبة دار العلوم،

العلوم، (الفيوم، ٢٠٠٦)، ص ص ١٩-٢٠.

(٦) علي البطل، الصورة في الشعر العربي-أصولها وتطورها، ط٣، دار الأندلس، (بيروت، ١٩٨٣)، ص ١٥.

(٧) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار الثقافة ودار العودة، (بيروت، ١٩٧٣)، ص ١٦٨.

يفسر الاستاذ يونغ مفهوم الصورة، في معرض حديثه عن فكرة النماذج العليا أو ما اطلق عليه الصور الفطرية التي تظهر في بعض الأعمال الشعرية بصورة رموز عضوية، ويعرفها بقوله: " إنها صور ابتدائية لا شعورية ، أو رواسب نفسية لتجارب ابتدائية لا شعورية لا تحصى شارك فيها الأسلاف في عصور بدائية ، وقد ورثت في أنسجة لا الدماغ بطريقة ما، فهي إذن نماذج أساسية قديمة لتجربة إنسانية مركزية "(١). وهذه الصورة (الانموذجية): " هي التي تصدر عن اللاوعي الجمعي، الذي يرقد في نفس الإنسان كونه : مستودعاً للتراث الإنساني ، الذي يتردد في عبر الزمان والمكان، مرة إثر أخرى، معبراً عن رؤى الأجيال "(٢).

يتضح مما سبق اتساع الصورة كمفهوم يعبر عن كثير من مجالات الإبداع الإنساني. والتي يمكن اجمالها بشكل عام: الصورة الشعرية، الصورة الفنية، الصورة الأدبية، الصورة الكلية، والصورة البيانية. وسنحاول التركيز على الصورة الشعرية والصورة الأدبية لاتصالهما المباشر بموضوع دراستنا.

تُعرف الصورة الشعرية بأنها: " القصيدة كلها ، بوصفها رمزاً حسيّاً واحداً يكشف عن أشياء كثيرة جوهرية في حياة المبدع، ويعكس شخصيته ، وطبيعة تفكيره، غير أنها تبنى بناءً بلاغياً، يرمز لعالم واحد، يمتزج فيه الواقع وغير الواقع على نحو متكامل لا يشير إلى غيره، لأنه نفسه إشارة "(٣). وتوصف بانها : " أداة الخيال ووسيلته ومادته الهامة التي يمارس بها ومن خلالها فاعليته ونشاطه"(٤). أما الصورة الأدبية فتُعرف بأنها " التركيب القائم على الجودة في التنسيق الفني لوسائل التعبير التي ينتقها وجود الشاعر - أعني خواطره ، ومشاعره وعواطفه- المطلق من عالم المحسوسات ليكشف عن حقيقة المعنى أو المشهد في إطار قوي نام محس مؤثر على نحو يوقظ المشاعر والخواطر في الآخرين"(٥). ويصفها الدكتور زكي مبارك: " أثر الشاعر المفلق الذي يصف المرئيات وصفاً يجعل قارئ شعره ما يدري أيقراً قصيدة مسطورة أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود، والذي يصف الوجدانيات، وصفاً يخيل للقارئ أنه يناجي نفسه ويحاور ضميره لا أنه يقرأ قطعة مختاره لشاعر مجيد"(٦).

(١) نعيم اليافي، مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، (دمشق، ١٩٨٢)، ص ٧٧.

(٢) عبد الحميد قاوي، مفهوم الصورة الفنية في النقد الأدبي الحديث، مجلة الباحث، مج ٧، ع ٢، ص ٣٩.

(٣) عبد الحميد قاوي، مفهوم الصورة الفنية ... ، ص ٣٢.

(٤) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، ط٣، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٤.

(٥) حماد حسين حسن محمود، مصطلح الصورة بين النقد العربي....، ص ٣٨٣٧.

(٦) زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء، ط٢، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٦٤.

إن الصورة (الشعرية-الأدبية) هي وسيلة الشاعر في ترجمة أفكاره وصياغتها، فعن طريقها بإمكانه نقل المحسوسات والمشاهدات التي رآها من حوله في الطبيعة أو من إحساسه النفسي الداخلي إلى خيال وفكر وشعور، ولكي تكون تلك الصورة صادقة ومؤثرة في نفس المتلقي وتجعله يحس ويشعر بما أحس وشعر به الشاعر، ويتفاعل ويتجاوب معه، لا بد من حدوث تآزر وتعاطف بين هذه الأشياء التي رآها الشاعر في طبيعته وبين إحساساته ومشاعره^(١). لهذا تُعرف الصورة الأدبية بأنها : " الإدراك الأسطوري الذي تتعقد في الصلة بين الإنسان والطبيعة، طالما أحس الشعراء والفلاسفة هذه الصلة العميقة"^(٢).

لقد كان أحد أهداف الفكر في الشرق الأدنى القديم، وفي مقدمته الفكريين العراقي والمصري القديمين، تصوير انتلاف الإنسان مع الطبيعة في صور شعرية^(٣)، احتوتها نتاجاتهم الأدبية ذات الطابع الأسطوري، والتي تعرض العلاقة بين إنسان تلك المنطقة والبيئة التي عاش فيها^(٤). فقد ساعد النظم الشعري مؤلفي أو واضعي الأساطير العراقية والمصرية القديمة، خاصة تلك التي تعلقت بفكرة الخلق، في نقل ملاحظات وإحاسيس الشاعر حول أعاجيب الكون المحيط به إلى مصطلحات وأفكار بشكل صور شعرية مثلت تصوراتهم وأفكارهم حول فلسفة الخلق^(٥). والمستخلصة من تجربتهم الأدبية التي تعد حصيلة شعب بأكمله^(٦). فالصور في الفن والآدب القديم وأن غدت صوراً تقليدية، لكنها ولا ريب رويت في الأصل كوشي هو جزء من التجربة الإنسانية نفسها، لهذا لا يمكن فصل الصور عن الفكر: لأنها تمثل الشكل الذي أصبحت التجربة فيه واعية بذاتها^(٧). ولأن استعمال العقل وكل ما نسميه تفكيراً يجب أن

(١) حماد حسين حسن محمود، مصطلح الصورة بين النقد العربي...، ص ٣٨٣٧-٣٨٣٨.

(٢) مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، دار مصر للطباعة، (القاهرة، ١٩٥٨)، ص ٧.

(٣) هـ. فرانكفورت، "الأسطورة والواقع"، بحث في كتاب، ما قبل الفلسفة- الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ١٩٨٠)، ص ٤٠.

(٤) يوسف الحوراني، البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الأسوي القديم، دار النهار، (بيروت، ١٩٧٨)، ص ٤٤.

(٥) ليو أوبنهايم، بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، دار الرشيد للنشر، (بغداد، ١٩٨١)، ص ٣٢٥-٣٢٨.

(٦) حكمت بشير الأسود، أدب الرثاء في بلاد الرافدين، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق، ٢٠٠٨)، ص ٣٧.

(٧) هـ. فرانكفورت، الأسطورة والواقع...، ص ١٨.

أن يتضمن عمليات ذهنية تستخدم فيها ما يسميه علماء النفس بـ(الصور) الصورة المنظورة أو الصورة الذهنية^(١).

ثانياً: الجوهر

١ - الجوهر لغةً:

لم ترد كلمة الجوهر في اللغات العراقية القديمة السومرية والآكدية، ولكن وردت صيغ في تلك اللغات تشابها بالمعنى والاستخدام اللغوي، ومنها الصيغة السومرية (شا-شاك) (ŠÁ - Šag₄) ، وتقابلها الصيغة الآكدية (ليبو) (libbu) ، والصيغتان بمعنى القلب، الداخل، الباطن، الوسط، وطبيعة الشيء^(٢)، ويقترب معنى الصيغة الآكدية من الكلمة العربية (لَبْ) وهي كلمة قريبة جداً من معنى الجوهر. كذلك لم ترد كلمة الجوهر في اللغة المصرية القديمة، ولكن الصيغة الهيروغليفية (جت) (dt) تقترب من المعنى ذاته، فهي تعني الجسد، الذات، الداخل، الأبدية، النفس، وطبيعة الشيء في سياق استخدامها^(٣).

الجوهر مشتق من الفعل جهرَ، والذي يعني الظهور، " الجهرة ما ظهر ورآه جهرَةً : لم يكن بينهما سترٌ، وجهر الشيء : علن وبدا "^(٤). والجهر بالشيء في اللغة يعني الإعلان به، ويمكن أن يأخذ معنى الإعلاء بذلك الإعلان ، وقد يعني البينة بذاتها اذا ما وصل التجهير بالشيء - أي التشهير به - حدّ الوضوح التام والبدهة^(٥). ويذكر الفارابي بأن الجوهر هو " الحجر الذي هو أنفس الأموال عند الجمهور وأجلها "^(٦)، وتشير بعض قواميس اللغة العربية إلى أن كلمة الجوهر اسم مشتق من (الكوهر) وهي كلمة الفارسية تطلق على الحجارة الثمينة^(٧).

٢ - الجوهر اصطلاحاً:

أن مفهوم الجوهر في الفلسفة الطبيعية اليونانية التي سبقت سقراط يدل على : " الموجود القائم بذاته لا في موضوع، ولا يحتاج في وجوده إلى شيء آخر خارج عنه، وهو علة ذاته والمبدأ الأول (غير

(١) جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ، ترجمة: جورج حداد، الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص ٨.

(٢) CAD, Vol. 9, p. 165..

(٣) Faulkner, Raymond O., A concise Dictionary ... , pp. 62-63.

(٤) ابن منظور، لسان العرب ... ، ص ٧١٠.

(٥) سنوسي سامي، نظرية الجوهر الكلامية، مجلة العقيدة، ع ٢١، (كربلاء، ٢٠٢٠)، ص ٢٠١.

(٦) الفارابي ، الحروف ... ، ص ٥٠.

(٧) صادق جلال العظم، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة، ط٣، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٩، ص ٥.

القابل للتحويل) الكامن في كل الأشياء الموجودة^(١)، فالجوهر عند طاليس أصل العالم، وعند ديمقريطس البنية الأساس لكل موجود^(٢). أما سقراط فالجوهر عنده عبارة عن : " ماهيات معقولة، وكليات مفارقة من صنع العقل، مثل الإنسانية والنقوى، والحرية والعدالة ، لا وجود لها في الواقع الخارجي "^(٣). أما أفلاطون فمعنى الجوهر لديه يختلف تماماً، فهو: " كليات عقلية لها وجود حقيقي، وبالفعل في عالم المثل، وهي جواهر ثابتة غير متغيرة أزلية وقديمة وأبدية وليست من صنع العقل "^(٤).

الجوهر وفق الفلسفة الإسلامية هو: " ذلك الشيء المتضمن ذاته في وجوده بمعنى أنه هو الحقيقة والواقع معاً، أي ذاتية الجوهر هي الماهية والوجود، أي أنه علّة ذاته، بل إنه أساس باقي الأشياء ومبدأ كل الموجودات "^(٥). ويرى ابن النفيس " أن من خواص الجوهر أنه إما متحيز، وهو الجسم الطبيعي، وإما مفارق، وإما متعلق بتدبير الجسم مثل: النفس أو لا يكون؛ مثل: الملك أو العقل، مضافاً إلى ذلك أنه دون ضدّ؛ لأن الضدّ يكون في الموضوع والجوهر ليس فيه ولا منه "^(٦). ويقدم الفارابي معنيين للجوهر، أحدهما خاص ويعرفه بأنه : " ما يقال على المشار إليه لا في موضوع أصلاً "، والآخر عام هو: " ما عرف ماهية أي شيء كان من أنواع جميع المقولات وعلى ما به قوامه "^(٧).

احتل مفهوم الجوهر موقعاً مركزياً في دراسات فلاسفة العصر الحديث، لكنهم اختلفوا في تبيان معنى الجوهر وأهمية إعطاء تعريف محدد له. فجان لوك يرى أن فكرة الجوهر غامضة للغاية ، وليس لها أية أهمية للفلسفة؛ ويبرر ذلك بقوله: " إن الفلاسفة يطلقون اللفظ نفسه وهو الجوهر على الله وعلى النفس وعلى الجسم، رغم أن هذه الأفكار مختلفة ومتمايزة؛ فإن من الأجدر إعطاؤها أسماء مختلفة "^(٨). الجوهر في نظر ديكارت: " هو ما لا يعتمد في وجوده على غيره " ، وهو يقصد بهذا أن الله وحده الذي يمتلك

(١) صلاح سعد الدين احمد ، الجوهر عند ليبنتز - عرض ومقارنة بالفكر الإسلامي، المجلة العلمية لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، المجلد ٣٩ ، ٢٠٢٠، ص ١٦٦٩.

(٢) يوسف كرم ، الطبيعة وما بعد الطبيعة ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٥.

(٣) سامي نصر لطف ، فكرة الجوهر في الفكر الفلسفي الإسلامي ، كلية الآداب ، جامعة عين الشمس، ط١، ١٩٧٨، ص ٢٠.

(٤) صلاح سعد الدين احمد ، الجوهر عند ليبنتز ... ، ص ١٦٧٠.

(٥) سامي نصر لطفي، فكرة الجوهر في الفكر ... ، ص ص ٥٢-٥٣.

(٦) ابن النفيس، شرح الوريقات في المنطق، تحقيق: احمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠١٥)، ص ص ٥١-٥٠.

(٧) الفارابي ، كتاب الحروف ... ، ص ٤٩.

(٨) صلاح سعد الدين احمد ، الجوهر عند ليبنتز ... ، ص ص ١٦٧٤-١٦٧٥ .

جوهر حقيقي ومطلق، ومع ذلك فإن ديكارت وأتباعه يؤمنون بوجود نوعين آخرين من الجوهر هما: النفس والجسم، لكنهما نسبياً أي أن وجودهما راجع إلى الله^(١). ويعرفه اسبينوزا بكونه: " ما يوجد بذاته، وما يتصور بذاته ، أي ما لا يتوقف بناء تصوره على تصور شيء آخر"^(٢). ومعنى ذلك أن الجوهر علة ذاته، وهو واحد لا متناه، وبالتالي فلا فرق - حسب اسبينوزا - بين الله والطبيعة إلا من جانب أن الله بوصفه جوهر هو مصدر الصفات والأحوال، التي هي بطبيعة الحال الطبيعة ذاتها^(٣). أما ليبنتز فالجوهر عنده غير قابل للتجزئة، ويقول عن الجوهر: " إن هذا الأنا الذي أشعر بأنه يفكر ويحس ويريد لا شكل في أنه جوهر واحد وغير قابل للتجزئة، وهو دائم بالرغم من التغيرات التي تمر به"^(٤).

بصورة عامة فإن الجوهر لا يخلو من طبيعتين: إما أن يكون مادياً (فيزيقياً) أو يكون روحياً (ميتافيزيقياً) ، إذ يكون "الجوهر ماهية إذا وُجِدَتْ في الأعيان كانت لا في موضع، وهو منحصر في خمسة : هيولي وصورة وجسم ونفس وعقل"^(٥)، فالجسم والهيولي من طبيعة مادية بلا شك، وأما العقل والنفس من طبيعة روحية^(٦).

مما تقدم يمكننا القول، أن الجوهر هو علة الشيء، سواء أكان ذلك الشيء مادياً أم روحياً، هو خواصه وصفاته، أي أن الجوهر هو الذي يحدد طبيعة الشيء وماهيته. وإن ما نقصده بجوهر الخلق في دراستنا هذه، ينطوي على مقصدين، أولهما: الإشارة الإلهية، القوة أو المصدر الذي خطط ودبر ونفذ ذلك الخلق بمختلف أشكاله وأساليبه وصوره. والثاني: هو تبيان جوهر تلك الآلهة، بوصفها وفقاً للفكرين العراقي والمصري القديمين تجسداً لظواهر ومظاهر الطبيعة، من حيث (الخواص، الماهية، الإرادة، والوظيفة).

(١) صادق جلال العظم، دراسات في الفلسفة الغربية ... ، ص ١٠.

(٢) باروخ سبينوزا ، علم الأخلاق ، ترجمة: جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة ، (بيروت، ٢٠٠٩) ، ص ٣١.

(٣) صلاح سعد الدين احمد ، الجوهر عند ليبنتز ... ، ص ١٦٧٥.

(٤) غوتفريد فيلهلم ليبنتز ، المونادولوجيا أو مبادئ الفلسفة ، ترجمة: البير نصري نادر، المنظمة العربية للترجمة، (بيروت، للترجمة، (بيروت، ٢٠١٥)، ص ٢١.

(٥) جبرار جيهامي ، موسوعة مصطلحات الفلسفة والمنطق، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط ١، ١٩٩٨، ص ٢٢٦.

(٦) سنوسي سامي، نظرية الجوهر الكلامية ... ، ص ٢٠٩.

المفصل الأول

(البيئة وأثرها في الفكر الإنساني)

المبحث الأول: وصف البيئة الطبيعية في العراق ومصر

المبحث الثاني : البيئة وأثرها في الفكر الإنساني وفقاً للنظريات والمدارس الفكرية

المبحث الثالث: أثر البيئة في الفلسفة الوجودية للفكرين العراقي والمصري القديمين

المبحث الأول

وصف البيئة الطبيعية في العراق ومصر

إن أية دراسة تتناول الحضارات القديمة لا تتضمن الاطلاع على البيئة الطبيعية التي قامت عليها، لن يكون بمقدورها تبيين تلك الحضارة أو إعطاء صورة واضحة عنها. لأن تجاهل أيّاً من العوامل البيئية المختلفة يعني بالضرورة تجاهل الأسس التي بُنيت عليها تلك الحضارات^(١). وإذا كانت تلك القاعدة تنطبق بصورة عامة على أية دراسة، فأنها تنطبق بصورة خاصة على موضوع دراستنا، الأمر الذي نراه يوجب علينا إعطاء وصف للبيئة الطبيعية في العراق ومصر.

- مفهوم البيئة

يشمل مفهوم البيئة، وفقاً لمؤتمر ستوكهولم (١٩٧٢م)، البيئة الخارجية: وهي كامل المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، والبيئة الداخلية: وهي مجموع المشاعر والتفاعلات والأحاسيس المتولدة داخل الإنسان^(٢). أي البيئة مفهوم واسع النطاق، يشمل كل ما يحيط بنا من مكونات بيولوجية (بشر وحيوان ونبات)، ومكونات مادية (مياه وأرض وتنوع بيولوجي والمناخ)، وأخيراً العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يخطط لها وينفذها البشر^(٣). وهذه العناصر وإن كانت تبدو مستقلة عن بعضها إلا أنها في واقع الحال مرتبطة بعضها ببعض الآخر ارتباطاً وثيقاً ضمن نظام معين يسمى النظام البيئي أو الايكولوجي Eco-System^(٤).

إن البيئة بدون تحديد الموضوع الذي ترتبط به هي مفهوم شامل واسع النطاق، فهناك : البيئة الاقتصادية، البيئة الثقافية، البيئة الاجتماعية... وغيرها^(٥)، لهذا فإن البيئة التي نقصدها في دراستنا هذه ونتوخى أثرها في موضوع الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين، هي البيئة الطبيعية تحديداً.

(١) دانيال تي بوتس، حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة: كاظم سعد الدين، الهيئة العامة للآثار والتراث، (بغداد، ٢٠٠٦)، ص ٢٣.

(٢) اياد عاشور الطائي و محسن عبد علي، التربية البيئية، المؤسسة الحديثة للكتاب، (طرابلس، ٢٠١٠)، ص ٣٩.

(٣) علي حسين حنوش، البيئة العراقية وسبل حمايتها، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ٢٠١٣)، ص ١٧.

(٤) كرار محمد جهاد و اريج خيرى عثمان، "أثر الأنشطة البشرية ودورها في تلوث هواء البيئة الحضرية في محافظة ذي قار"، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مج ٢٩، ع ١٠، ٢٠٢١، ص ١٣٨.

(٥) محمد محمود محمد، المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، دار المريخ، ص ص ١٤-١٥.

والتي يمكن تعريفها بكونها: " ذلك الجزء من العالم الذي يؤثر فيه الإنسان ويتأثر به، أي الجزء الذي يستخدمه ويستغله ويؤثر فيه ويتكيف له"^(١). فالبيئة الطبيعية بظواهرها المتعددة من سهول وجبال وصحاري وأنهار وبحار ومناخ وكذلك الموقع الجغرافي تؤلف بمجموعها العوامل الأكثر تأثيراً في حياة الإنسان ومنجزاته الحضارية^(٢).

أولاً- وصف البيئة الطبيعية في العراق

١- أقسام السطح

شهدت أرض العراق في الدهور والعصور القديمة تغيرات جيولوجية وتبدلات مناخية مختلفة حتى استقر فيها الوضع نسبياً في أواخر العصر الحجري الحديث، واستمرت على حالها تقريباً في العصور التاريخية وإلى الوقت الحاضر^(٣). وبالإمكان تقسيم سطح العراق إلى أربعة أقسام رئيسية هي (المنطقة الجبلية، المنطقة شبه الجبلية، الهضبة الغربية، السهل الرسوبي)^(٤).

لعل أول ما يجلب انتباه الدارس لأرض العراق القديم أنها مؤلفة من أقسام متباينة في صفاتها الجغرافية وقدم تكوينها الجيولوجي، أدى إلى التباين في التوزيع السكاني وأسبقيات ظهور الإنسان في مناطق قبل المناطق الأخرى، فنتيجة لقدم تكوين المنطقة الجبلية وشبه الجبلية في شمال العراق، فقد أنحصر استيطان الإنسان في تلك المنطقة في العصور الحجرية القديمة، بينما يؤرخ أقدم دور حضاري في السهل الرسوبي، أي الأقسام الوسطى والجنوبية من البلاد، إلى الطور الأول من عصر العبيد المسمى طور اريدو في حدود ٥٠٠٠-٤٠٠٠ ق.م ، نتيجة لحدثة تكوين منطقة السهل الرسوبي في العصر الجيولوجي الحديث (البلايستوسين)^(٥).

(١) هولي. ام، وآخرون ، الانسان والبيئة ، ترجمة : عصام عبد اللطيف، الموسوعة الصغيرة ، ص ١٠.

(٢) سامي سعيد الاحمد، العراق القديم ، جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٧٨)، ج ١، ص ص ٢٥-٢٦.

(٣) عامر سليمان واحمد مالك الفتیان، محاضرات في التاريخ القديم، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي العراقية، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٧٨)، ص ٢٩.

(٤) محمد ازهر سعيد السماك وآخرون، العراق دراسة اقليمية، جامعة البصرة ، (البصرة، ١٩٨٥)، ص ص ١٩-٢٨.

(٥) طه باقر وآخرون، تاريخ العراق القديم، مطبعة جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٨٠)، ج ١، ص ٩.

٢- التربة

تتميز أرض العراق وبيئته الطبيعية بمميزات عدة قلما توفرت لغيره من البلدان، والتي كان لها شأن كبير في نشوء وازدهار الحضارات فيه^(١)، فالمنطقة الجبلية وشبه الجبلية تتخللها سهول خصبة مثل سهل شمرزور وسهل رانية وسهل كركوك وأربيل ومخمور، وهي تتمتع بمعدلات جيدة من مياه الأمطار مما يساعد على نمو كثير من النباتات والأشجار وزراعة الحبوب على اختلافها، كما كانت ملائمة جداً لعيش وتكاثر الحيوانات التي اعتمد انسان العصر الحجري القديم على صيدها لتأمين طعامه، كما تنتشر في المنطقة الكهوف والمغاور التي التجأ اليها ذلك الإنسان، وعلى أطراف هذه المنطقة عند سفوح الجبال وبالقرب من السهول الخصبة قامت أولى المستوطنات الزراعية في العصر الحجري الحديث^(٢).

أما تربة السهل الرسوبي في وسط وجنوب العراق فتتميز بخصوبتها المتجددة سنوياً وكثرة نباتاتها وتنوعها، وقد ساعد ذلك على نشوء أولى القرى الزراعية في العصر الحجري المعدني، وشهد السهل الرسوبي نمو وازدهار أقدم حضارة أصلية معروفة فقد قامت فيه أولى المدن المتقدمة التي كانت نواة دول المدن السومرية^(٣). بينما لا تساعد تربة الهضبة الغربية الصحراوية على نمو النباتات إلا في بعض الواحات، وكانت هذه المنطقة مسرحاً شهد هجرة الأقوام الجزرية من شبه الجزيرة العربية إلى أرض العراق، فقامت على الطريق الذي سلكته مراكز حضارية مهمة كمدينة ماري على نهر الفرات^(٤). لم تشكل هذه المنطقة من الناحية الحضارية جزءاً مهماً في تاريخ العراق القديم، فقد كانت موطن البدو المتنقلين الذين كثيراً ما هاجروا الى موطن السهول الخصبة وأغاروا عليها وهددوا طرق القوافل، ولذلك عمد معظم حكام العراق القديم إلى السيطرة عليها وإقامة الحاميات فيها لتأمين القوافل التجارية ولاسيما القوافل التي كانت توصل العراق بمنطقة البحر المتوسط^(٥).

(١) عامر سليمان واحمد مالك الفتیان، محاضرات في التاريخ القديم ...، ص ٢٨.

(٢) عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم- موجز التاريخ السياسي، دار ابن الاثير للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٩٢) ج ١، ص ٢٤.

(٣) علي حسين حنوش، البيئة العراقية وسبل حمايتها، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١٣، ص ص ٣٢-٣٣.

(٤) عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم ...، ج ١، ص ٢٤.

(٥) طه باقر وآخرون، تاريخ العراق القديم ...، ج ١، ص ص ١٧-١٨.

٣- الأنهار

يجري في العراق رافدين عظيمين هما دجلة والفرات ، يعدان في مقدمة العوامل التي ساعدت سكان العراق الأقدمين على إنشاء أولى الحضارات الراقية وخاصة في منطقة السهل الرسوبي، فبالإضافة إلى كونهما عماد نظام الري الذي يعد مع الزراعة الركيزة الأساسية لاقتصاد حضارة العراق القديم فإن للنهرين أهمية كبيرة في المواصلات النهرية وازدهار التجارة التي كانت الركيزة الثانية لاقتصاد تلك الحضارة^(١). يمتاز نهري دجلة والفرات بفيضاناتهما العنيفة والمفاجئة، مختلفين بذلك عن نهر النيل، إذ يفيض نهر الفرات في شهر مايس بينما يفيض نهر دجلة في شهر نيسان^(٢). ويسبب طبيعة الأرض التي يجري فيها النهران ، تصبح من الكوارث بكل يسر إلا إذا تم الاحتفاظ بها تحت الرقابة الصارمة، فالنهران ينبعان من المرتفعات الجبلية في جنوب وجنوب شرق تركيا، وكلاهما يجريان بقوة مدمرة، ويشقان قنواتهما عبر الجبال، ويجرفان ويصقلان كتل الصخور التي تعترض مجراهما العنيف، وما إن يذوب الجليد وتفيض الأنهار حتى تغطي المياه على السهل مخلفة الدمار في كل شيء أثناء مسيرتها^(٣). كان الفيضان في العراق القديم من الظواهر الطبيعية التي بسبب عنفها وما تسببه من دمار للمحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية والمواقع السكنية ، ترك انعكاساً واضحاً في أغلب المفاهيم الحضارية والمعتقدات الدينية عند سكان العراق القديم^(٤).

٤- المناخ

خلال مرحلة العصور الجليدية كان العراق من الناحية المناخية يقع بين منطقتين متميزتين هما المنطقة شبه الثلجية والمنطقة شبه الممطرة، فأثر ذلك في تكوين الوديان والأنهار في البلاد، ومن ضمنها المناطق المقفرة في الوقت الحاضر، وربما بسبب من ذلك نشأت الحضارة في العراق القديم منذ عهد

(١) طه باقر وآخرون، تاريخ العراق القديم ، ج ١، ص ص ١٩-٢٠.

(٢) نعيم عودة الزبيدي وجمعة حريز الطلبي، "أثر البيئة في ظهور المدينة ونشوء الدولة في بلاد الرافدين، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية"، مج ٢٢، ع ١، ٢٠١٩، ص ٤٠٥.

(٣) جورج كونتينو ، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم طه التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٨٦)، ص ١١.

(٤) نخبة من اساتذة التاريخ ، دراسات في تاريخ العراق وحضارته - العراق في مواجهة التحديات ، ج ١، ص ١٣.

مبكر، فقد عُثِرَ على أدوات حجرية في شمال العراق يعود زمنها إلى الحقبة الواقعة ما بين (١٠٠,٠٠٠-٦٠,٠٠٠ ق.م)^(١).

أجمع الباحثون في أحوال المناخ القديم وتطوراته على أن المناخ الذي كان سائداً في العراق القديم منذ العصر الحجري الحديث (١٠٠٠٠ ق.م) ، لم يكن يختلف بصورة عامة اختلافاً كبيراً عن المناخ في وقتنا الحاضر من حيث درجات الحرارة صيفاً وشتاءً وكمية الأمطار المتساقطة ومن حيث هبوب الرياح^(٢). ومناخ العراق غير متجانس فهو خليط من ثلاثة أنواع هي ، المناخ المتوسطي الذي يسود المنطقة الجبلية بشكل خاص وتتراوح كمية الأمطار فيه بين ٤٠٠-٥٠٠ ملم سنوياً وتكون درجات الحرارة معتدلة صيفاً، والمناخ الصحراوي الذي يسود السهل الرسوبي والهضبة الغربية (وهما يشكلان نسبة ٧٠% من سطح العراق) وتتراوح فيه الأمطار بين ٥٠-٢٠٠ ملم سنوياً، ويمتاز بدرجات الحرارة العالية صيفاً ، والمناخ السهوبي وهو مناخ انتقالي بين النوعين السابقين في مناطق ضيقة ومحدودة^(٣).

لهذا يعد المناخ في العراق القديم انتقالي بين المناخ الصحراوي الحار والمناخ المعتدل ، فالمنطقة الجبلية تدخل ضمن مناخ البحر المتوسط المعتدل ويبلغ معدل سقوط الأمطار السنوي فيها بين ١٠-٤٠ سم، أما مناخ منطقتي السهل الرسوبي والهضبة الغربية فيسودهما المناخ الصحراوي، ويبلغ معدل تساقط الأمطار السنوي فيها بين ٥-٢٠ سم^(٤). وتهب على أجواء العراق رياحاً عدة تختلف في اتجاهاتها وفي مميزاتها المناخية، فالرياح الشمالية والشمالية الغربية رياح باردة وممطرة، وهناك الرياح الجنوبية الشرقية التي قد تصاحبها في بعض الأحيان أمطارٌ في فصل الشتاء، بينما تتميز الرياح الجنوبية بحرارتها العالية ورطوبتها الخانقة^(٥).

يمتاز مناخ العراق القديم بالتباين بين أقسامه الثلاثة، والتفاوت في درجات الحرارة صيفاً وشتاءً وليلاً ونهاراً، فضلاً عن المتغيرات والتقلبات الجوية المفاجئة^(٦). فعلى عكس الأجواء المعتدلة في المناطق

(١) عبد الرضا الطعان ، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد للنشر والطباعة، (بغداد، ١٩٨١)، ص ٨٩.

(٢) فؤاد سفر ، "البيئة الطبيعية القديمة في العراق" ، سومر، مج ٣٠، ج ٢+١، (بغداد، ١٩٧٤)، ص ٢.

(٣) خزعل الماجدي ، عراقلوجي - عراق ما قبل التاريخ- ، دار الرافدين، (بيروت، ٢٠١٧)، ص ٨٥.

(٤) تقي الدباغ ، "العراق في عصور ما قبل التاريخ"، في كتاب العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٨٣)، ص ص ٣٥-٣٦.

(٥) تقي الدباغ ، "البيئة الطبيعية والإنسان"، في كتاب حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج ١، ص ٢٥.

(٦) علي حسين حنوش، البيئة العراقية ...، ص ٣٣.

الشمالية من البلاد، كانت المنطقة السهلية في وسط وجنوب العراق تمتاز بحرارة مرتفعة وخانقة في فصل الصيف، وقصر مدة فصل الربيع، فضلاً عن انعدام أو شحة الأمطار وشدة حرارة الشمس التي تتلف كل أنواع الخضار^(١).

٥- الموقع الجغرافي

من الظواهر الجغرافية التي كانت وما زالت تؤثر في تاريخ العراق هو موقعه الجغرافي الخاص، والذي انعكس تأثيره في تركيب سكانه وحياتهم الاقتصادية، وفي تبلور معتقداتهم وآدابهم وسلوكهم، والحضارات التي قامت في تلك المنطقة^(٢). يشغل العراق القسم الجنوبي الشرقي من قارة آسيا، يمتد محوره الطولي بين الشمال الغربي وبين الجنوب الشرقي، وينحدر سطحه انحداراً عاماً مع هذا الاتجاه الأخير، وهو مكون من صخور رسوبية متنوعة^(٣). ولهذا الموقع أهمية سوقية (استراتيجية) وتجارية حيث كان ملتقى طرق القوافل وواسطة الاتصال ما بين البحر المتوسط ومناطق الهادئ والهند والأقطار الشرقية^(٤)، كذلك كان العراق يقع بين منطقتين جغرافيتين، رغم تباينهما من ناحية العوارض الأرضية، متشابهان من حيث قلة مواردهما الطبيعية وفقرهما بالمقارنة مع العراق، فالمنطقة الأولى هي التي تحده من الشرق والشمال الشرقي وهي أراضٍ جبلية فقيرة بالمقارنة مع سهول العراق القديم الخصبة، وتحده من الغرب والشمال الغربي مناطق الصحاري والبادي المجربة الفقيرة في مواردها المائية والزراعية بحيث لا تصلح إلا لسكنى البدو والرعاة ومواشيهم، وتلك المناطق لم يكن يفصلها عن أرض العراق حواجز طبيعية منيعة^(٥).

إن تلك المميزات لموقع العراق الجغرافي، جعلت منه إقليماً جغرافياً مفتوحاً مع الأقاليم المجاورة له، لانعدام وجود الحواجز الطبيعية، الأمر الذي سهل الهجرات البشرية إليه، وكذلك الغزوات الحربية عبر العصور، والتي كانت بمجموعها طامعة بالحصول على ما يتمتع به من خيرات طبيعية وحضارية^(٦).

(١) جورج كونتينو ، الحياة اليومية ... ، ص ١٣.

(٢) بهنام ابو الصوف، "تجارة العراق الخارجية في عصور ما قبل التاريخ"، مجلة ما بين النهرين، ع ٤٨، (بغداد، ١٩٨٥)، ص ص ١٩١-١٩٢.

(٣) ابراهيم شريف، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الاسلامي ، مطبعة شفيق، بغداد، ج ١، ص ١.

(٤) تقي الدباغ، البيئة الطبيعية والإنسان... ، ص ١٧.

(٥) طه باقر وآخرون، تاريخ العراق القديم ... ، ج ١، ص ص ١٤-١٥.

(٦) صبري فارس الهيتي وآخرون، الفكر الجغرافي وطرق البحث، مطبعة بغداد، (بغداد، ١٩٨٥)، ج ١، ص ١٦.

ثانياً - وصف البيئة الطبيعية في مصر

١ - أقسام السطح

كانت معظم أرض مصر في بداية عصر الايوسين، جزءاً من بحر عملاق يدعى (بحر تيش) كان يضم أفريقيا وجنوب أوربا وغرب آسيا^(١). وفي بداية عصر البلايوسين بدأت الأرض بالظهور تدريجياً بفعل رواسب فيضانات نهر النيل، وتراجع مياه البحار، ولا توجد تغيرات ملحوظة على أقسام سطح أرض مصر في الخمسة آلاف سنة الأخيرة^(٢).

يمكن تقسيم أرض مصر جغرافياً على ثلاثة أقسام رئيسية: وادي النيل، الدلتا، والصحاري^(٣)، وهذه الأخيرة تضم: الصحراء الغربية، الصحراء الشرقية، وشبه جزيرة سيناء^(٤). وتكاد تكون مصر مقسمة إلى منطقتين متباينتين هما: وادي النيل، الذي يتمثل بالوادي الطويل الضيق في الجنوب، وعرف بمسميات مختلفة (الصعيد، ومصر العليا، والوجه القبلي)، والمنطقة الثانية هي الدلتا: وهي دلتا عريضة تقع شمالي مصر، وعرفت بـ(مصر السفلى، دلتا النيل، والوجه البحري)^(٥).

٢ - التربة

إن رقعة الأرض المهمة في مصر هي عبارة عن شريط أخضر يمتد عبر أراضي صحراوية قاحلة، حتى أن الفرد بمقدوره الوقوف على طرفي ذلك التناقض في أرض مصر، واضعاً إحدى قدميه على التربة الخصبة المروية والأخرى على رمال الصحراء^(٦). فأغلب الأراضي المصرية، وفقاً لموقعها الفلكي، يدخل في نطاق الإقليم الصحراوي الجاف فيما عدا شريط ضيق من الأرض في أقصى شمالها يمكن إدخاله تجاوزاً في نطاق إقليم البحر المتوسط المناخي، ومن هنا كانت الصحاري الجرداء القاحلة

(١) سليم حسن سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، مؤسسة هنداوي، (القاهرة، ٢٠١١)، ج ١، ص ص ٧-٨.

(٢) إبراهيم أحمد رزقانة وعبد الغني عبد العزيز، الجغرافية التاريخية: الهدف والميدان، الزعيم للخدمات المكتبية، (القاهرة، ٢٠١٦)، ص ١٠٩.

(٣) إبراهيم أحمد رزقانة، الحضارات المصرية في فجر التاريخ، مكتبة الآداب، (القاهرة، ١٩٤٨)، ص ٣٥.

(٤) محمد صفى الدين أبو العز، مورفولوجية الأراضي المصرية، دار غريب، (القاهرة، ١٩٩٩)، ص ص ١٤-٢٥.

(٥) إبراهيم أحمد رزقانة وعبد الغني عبد العزيز، الجغرافية التاريخية ...، ص ٥١٦.

(٦) جون. ا. ولسن، "مصر"، بحث في كتاب، ما قبل الفلسفة الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، ط ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ١٩٨٠)، ص ٤٤.

تحتل أكثر من ٩٦% من مساحتها الإجمالية^(١). بينما يقتصر الجزء المأهول بالسكان على ٣,٥% من مساحة مصر الكلية، والتي تتمثل بوادي النيل ودلتاه، حيث تجمعت منذ أقدم العصور التجمعات السكانية الأولى مكونة حضارة وادي النيل^(٢).

أرض دلتا النيل عبارة عن سهل فيضي تَكُون من الطمي والغرين الذي ظل نهر النيل يرسبها لعشرات الآلاف من السنين ، لهذا تعد تربته من اخصب وأغنى تربات العالم^(٣)، أما وادي النيل فهو عبارة عن وادي طويل ضيق على جانبي نهر النيل، يمتد من الشلال الأول عند أسوان إلى رأس الدلتا قرب القاهرة^(٤)، وأرضه عبارة عن سهل رسوبي شديد الخصوبة، إذ يغمره نهر النيل بطينه الغني بالرواسب سنوياً، وهو أقدم أرض سكنها الإنسان في مصر منذ العصور الحجرية الحديثة وحتى الآن^(٥). وعلى الرغم من أن مساحة الدلتا أو مصر السفلى ضعف مساحة الوادي أو مصر العليا^(٦)، لكن شتان بين الوادي والدلتا في مصر القديمة ، فالوادي ذو التاريخ العمراني والزراعي الضارب في القدم، كان له أثر ملحوظ على افكار ومعتقدات المصري القديم^(٧)، في أوقات كانت الدلتا كلها براري ومستنقعات، لم يستخدم المصريون منها سوى أجزاء محدودة في وسطها أو ما يسمى بالدلتا الداخلية، بينما ظلت الأطراف الشمالية للدلتا مستنقعات وبراري ، وبقيت الأجزاء الشرقية والغربية تكسو سطحها الرمال^(٨).

٣- نهر النيل

كان لوجود نهر النيل ومياهه الغزيرة الدائمة وطميه الغني أكبر الأثر في تكوين أرض مصر الخصبة ، وإعدادها لتكون مهداً لاستقرار الإنسان المصري القديم وتكوين حضارة عريقة أصلية^(٩)، لهذا

(١) محمد صفي الدين أبو العز، مورفولوجية الأراضي المصرية ... ص ١٣.

(٢) جون. ا. ولسن، مصر ... ص ٤٤.

(٣) محمد حجازي محمد، نحو دراسة في جغرافية مصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (القاهرة، ١٩٨٦)، ص ٨.

(٤) وسناء حسون يونس، "أهم الخصائص الجغرافية لمصر القديمة"، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج ١٧، ع ٩، تشرين الأول ٢٠١٠، ص ٤٧٨.

(٥) عبد الحميد زايد، مصر الخالدة- مقدمة في تاريخ مصر الفرعونية منذ اقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق.م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ٢٠٠٢)، ج ١، ص ٩.

(٦) محمد حجازي محمد، نحو دراسة في جغرافية مصر ... ص ١٥.

(٧) عبد الحميد زايد، مصر الخالدة ...، ج ١، ص ١٠.

(٨) محمد حجازي محمد، نحو دراسة في جغرافية مصر ... ص ١٥.

(٩) محمود عليوي جلاوي العبدلي، "أهمية نهر النيل وأثره في المعتقدات والافكار الدينية للحضارة المصرية القديمة"، مجلة ايسن، جامعة القادسية، ع ٢، تموز-كانون الاول ٢٠٢١، ص ١٢٨.

يعد مصدر الحياة بالنسبة لمصر، وهو ما عبر عنه (هيرودوت) بقوله المأثور " مصر هبة النيل"^(١). ففي بلد مثل مصر تنعدم فيه الأمطار تقريباً، كانت لتصبح ارضها صحراء جرداء يتعذر السكن والعيش فيها، لولا وجود نهر النيل^(٢).

يمتاز نهر النيل بانتظام موعد فيضاناته، الذي أصبح بهذا الانتظام، وبما تحمله مياهه من رواسب غنية، مصدر خصوبة أرض مصر وحياة سكانه، حيث تبدأ مياه النيل بالارتفاع سريعاً خلال شهر آب، ومن ثم تبدأ بالهبوط التدريجي من شهر تشرين الأول ويستمر حتى شهر أيار حيث يصل إلى أوطاً مستوى له^(٣). وهذا يتلاءم مع موعد الدورة الزراعية في مصر، لهذا فقد أعتبر نهر النيل من أكثر أنهار العالم اتزاناً، فهو لا يسلك سلوكاً مفاجئاً في فيضاناته، فضلاً عن أنه يحمل من الغرين ما يكفي لتخصيب الأرض دون أن يؤدي إلى طمر القنوات، كما أن مياهه خالية من الاملاح^(٤).

٤- المناخ

بصفة عامة تعتبر مصر ذات مناخ متذبذب بين الممطر والجاف^(٥)، لكنها، وبحكم موقعها الجغرافي، تخضع لنظام المناخ الصحراوي الجاف أو قليل المطر، وبالرغم من تبعيتها لهذا النظام المناخي، فإنه لا يلحق بها إلا القليل من آثاره السيئة، والسبب في ذلك هو جريان النيل العظيم في الأراضي المصرية ، فأصبحت مصر بحق في الصحراء وليست منها، فقد فرضت عليها ظروف الموقع الفلكي ظروف الصحراء ولكن النظام الموسمي الحبشي أعطاها مزايا الواحة^(٦).

كان للرياح الشمالية أو الشمالية الغربية السائدة في البلاد معظم أيام السنة، دور كبير في تلطيف المناخ بصفة عامة، وحرارة الجو في فصل الصيف بصفة خاصة، كونها رياح ذات نسيمات باردة

(١) ابراهيم احمد رزقانة وعبد الغني عبد العزيز ، الجغرافية التاريخية ... ، ص ص ٥١٧-٥١٨.

(٢) ابراهيم احمد رزقانة، الحضارات المصرية ... ، ص ٥٩.

(٣) ابراهيم احمد رزقانة وعبد الغني عبد العزيز، الجغرافية التاريخية ... ، ص ص ٥١٧-٥٢٠.

(٤) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، دار الورق للطباعة والنشر والتوزيع، (بغداد، ٢٠١١)، ج ٢، ص ص ٨-٦.

(٥) دوجلاس بريور وإيملى تيتير، مصر والمصريون، ترجمة، عاطف معتمد، ومحمد رزق، ط ١، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ٤٥.

(٦) محمد حجازي محمد، نحو دراسة في جغرافية مصر ... ، ص ٣٥.

مصدرها البحر المتوسط^(١). وعلى النقيض من الرياح الشمالية، كانت هناك الرياح التي تهب في أواخر الربيع من الجنوب، وهي رياح حاره جافة، وهناك تقلبات رياح الخماسين التي تشتت بصفة خاصة في شهري مارس وابريل، حيث تغزو البلاد من الغرب إلى الشرق تحمل معها الأتربة والرمال والحرارة الشديدة، لكن هذه الرياح لا تستمر إلا لأيام معدودة^(٢). أما الحرارة فتتميز باتساع مداها اليومي والفصلي- باستثناء الجهات الساحلية- حيث تعمل المؤشرات البحرية والرياح الشمالية السائدة على تقليل تلك الاختلافات الحرارية^(٣).

٥- الموقع الجغرافي

تقع مصر في أقصى الشمال الشرقي للقارة الأفريقية ، وتبلغ الرقعة التي تحتلها مصر نحو ٣% من المساحة الاجمالية لهذه القارة^(٤)، وجعل هذا الموقع من مصر مفرق البحرين: البحر المتوسط والبحر الأحمر وملتقى القارتين وشعوب من آسيا وأفريقيا وجنوب أوربا^(٥). وقد أثر موقعها هذا في تكوين شخصيتها الجغرافية، وكذلك كان له أثر في توجيه دورها التاريخي والحضاري في منطقة الشرق الأدنى القديم^(٦). فضلاً من أن موقع مصر الجغرافي أعطاها ميزة استراتيجية، جعل منها نقطة التقاء بين قارات العالم القديم(آسيا-أفريقيا-وأوربا)^(٧)، فإنه وفر لها ايضاً عزلة جغرافية، جاعلاً منها إقليماً يكاد يكون مقفول ومنعزل عن الخارج، فمن الشمال الشرقي كانت صحراء سيناء لا تسمح إلا لعدد محدود من الاتصالات مع آسيا، كذلك شكلت الصحاري القاسية في الشرق والغرب عائقاً طبيعياً بوجه الهجرات والغزوات الكبيرة الرامية للسيطرة على مصر بالقوة^(٨).

(١) جان فيركونير، مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاتي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (القاهرة، ٢٠١٢)، ص ص ١٨-١٩.

(٢) مزهر الخفاجي ، خصائص الشخصية العراقية والشخصية المصرية في التاريخ القديم، بيت الحكمة ، (بغداد، ٢٠١٤)، ص ٢٩٧.

(٣) محمد حجازي محمد، نحو دراسة في جغرافية مصر ... ، ص ٢٧.

(٤) محمد صفي الدين أبو العز، مورفولوجية الأراضي المصرية ... ، ص ١٣.

(٥) رمضان عبده علي ، حضارة مصر القديمة منذ اقدم العصور حتى نهاية عصور الاسرات الوطنية ، مطابع المجلس الأعلى للآثار، (القاهرة ، ٢٠٠٤)، ج ١، ص ٥٦.

(٦) محمد حجازي محمد، نحو دراسة في جغرافية مصر ، ص ٥.

(٧) احمد فخري، مصر الفرعونية ، دار ممفيس للطباعة ، (القاهرة، ١٩٥٧)، ص ١٣.

(٨) عبد الحميد زايد، مصر الخالدة ...، ص ص ١٩-٢٠.

ثالثاً: المقارنة بين بيئتي العراق ومصر الطبيعيتين

عند إجرائنا لمقارنة بين البيئتين، نلاحظ أن العراق، من حيث الموقع الجغرافي، كان عبارة عن إقليم جغرافي مفتوح، جعله قبلة للعديد من الهجرات والغزوات عبر تاريخه الطويل، وخصوصاً في عصوره القديمة، على العكس من موقع مصر الجغرافي، الذي نراه، بفضل كثرة الحواجز الطبيعية بينه وبين الأقاليم المحيطة به، جعل من مصر القديمة أقلّياً شبه مغلق، وقلل كثيراً من تعرضها للهجرات والغزوات، بالمقارنة مع العراق القديم^(١).

إما من حيث الأنهار، فعلى الرغم من أن نهري دجلة والفرات كانا عماد الخصب والرخاء في حضارة العراق القديمة، مثلما كان نهر النيل بالنسبة للحضارة المصرية، فكلاهما حضارة زراعية بالأساس تعتمدان على الري في زراعتهما^(٢). إلا أن نهري دجلة والفرات كانا، بالرغم من ذلك، مصدراً للعرب والخوف في نفوس العراقيين القدماء، بسبب فيضاناتهما العنيفة والمدمرة، وما كانت تخلفه من تلف للمحاصيل الزراعية، ونشرها المياه في مساحات واسعة مخلفة مستنقعات وبطائح فسيحة تضرّ بالصحة وتجعل المنطقة التي تعمّها غير صالحة للسكن، مما تطلب جهوداً جبارة لمواجهة كل ذلك. أما نهر النيل فكان بخلاف ذلك، إذ كان منتظم الجريان والفيضانات، وملائم للدورة الزراعية في مصر^(٣). لهذا كانت رواية الطوفان من الأحداث التي شغلت مكاناً بارزاً في أدب حضارة العراق القديم ومآثرها التاريخية. وبالمقابلة مع هذه الحقيقة لم يصل إلينا من حضارة وادي النيل أية رواية عن الطوفان^(٤).

ومن حيث باقي مظاهر البيئة الطبيعية، فقد اتصفت البيئة العراقية بالقسوة والعنف، من حيث تباين مناخ المواسم المختلفة والتفاوت الشديد بين درجات الحرارة صيفاً وشتاءً ونهاراً وليلاً، وتباين المناطق المختلفة التي يتكون منها العراق، والرياح كثيرة العواصف بزوايا رملية مؤذية^(٥). على العكس من مظاهر البيئة الطبيعية في مصر، التي اتصفت بصورة عامة بالاعتدال النسبي، من حيث الرياح ودرجة الحرارة وتقلبات المناخ. فضلاً عن وجود نوع من التوافق بين عناصر البيئة الطبيعية والجغرافية^(٦).

(١) فرج بصره جي، "أقوام الشرق الأدنى القديم وهجراتهم"، مجلة سومر، مج ٣، ج ١، (بغداد، ١٩٤٧)، ص ٨٩.

(٢) ليو أوبنهايم، بلاد ما بين النهرين ...، ص ٥١.

(٣) غوستاف لوبون، حضارة بابل وآشور ...، ص ٩.

(٤) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٧٦)، ص ٢١٥.

(٥) عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم...، ج ١، ص ٣١-٣٢.

(٦) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة ...، ج ١، ص ٥٥.

مما سبق يمكننا القول، أن البيئة الطبيعية في العراق كانت تتصف بالعنف والقسوة وعدم الثبات، على النقيض منها في مصر التي كانت تتصف بالاعتدال النسبي. وهذا كان له أثر مباشر بسلوك الإنسان وطابع الحضارة التي انتجها في كل من العراق ومصر. فنجد الحضارة العراقية القديمة قد اتصفت بالعنف والتشاؤم والتوتر والتأزم وتوقع المفاجآت وطغت عليها الناحية العملية في الحياة ، بينما اتصفت الحضارة المصرية القديمة بالطمأنينة والتفاؤل والاستقرار والثبات وعدم توقع المفاجآت .

المبحث الثاني

البيئة وأثرها في الفكر الإنساني وفقاً للنظريات والمدارس الفكرية

إن موضوع تأثير البيئة الطبيعية (Physical Environment) على الإنسان من الموضوعات القديمة التي عالجها الفلاسفة والكتاب كما عالجها المؤرخون والجغرافيون منذ القدم^(١). ونظراً لصلته الوثيقة مع موضوع دراستنا، سوف نتطرق بشيء من الإيجاز لأهم النظريات والمدارس التي تناولته.

أولاً- المدرسة الحتمية

ترتكز هذه النظرية على فكرة أساسية مفادها أن البيئة هي المسيطرة على الإنسان ونتاجاته المادية والفكرية المختلفة^(٢)، إذ يُعدّ رواد هذه المدرسة الإنسان كائناً سلبياً خاضعاً للظروف البيئية المحيطة به، وإن حياته الجسدية والاجتماعية والحرفية انعكاس لتكيفه مع البيئة فهو منها وإليها^(٣).

أخضع أصحاب هذا المذهب الإنسان للمؤثرات البيئية الطبيعية ولاسيما الموقع الجغرافي وأشكال السطح وخصائص المناخ وملامح التربة، فالمؤثرات متبادلة بين الإنسان والبيئة، وهي نتيجة حتمية تقتضي أن يكون تطورها مشتركاً مما يفرز في النهاية الثقافات الإنسانية، وتلك الثقافات لا تعني التحرر من قيود البيئة وملاحمها بل تعني التواءم معها^(٤). وعلى الرغم من أن بروز التفكير الحتمي في الدراسات التي عالجت موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة الطبيعية قد بدأ في القرن التاسع عشر واستمر إلى أوائل القرن العشرين، إلا أن بواذر هذا التوجه قديمة ظهرت في القرون الأولى ق. م، وتحديدًا عند الفلاسفة والمفكرين الاغريق. الذين يلاحظ على آراءهم اتفاقها على أن الحتمية البيئية لا يقتصر تأثيرها على اكتساب الفرد لطبائعه وسماته فحسب، بل يتعدى ذلك التأثير إلى الدول من حيث اكتسابها للعظمة والقوة أو ما يعاكسها^(٥).

(١) محمد حميد عباس الساعدي، "البيئة والمجتمعات البشرية واثار العلاقة المتبادلة بينهما"، مجلة لارك، مج ٣، ع ٤٦، (واسط، ٢٠٢٢)، ص ٦٠٦.

(٢) ساعد هماش، "سوسيولوجيا البيئة في ظل المدارس النظرية والاتجاهات المفسرة، مجلة الباحث الاجتماعي"، ع ١٣، ٢٠١٧، ص ١٨٢.

(٣) عبد الله عطوي، الجغرافية البشرية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٩٦)، ص ٢٥.

(٤) محمد خميس الزوكه، البيئة ومحاور تدهورها وآثارها على صحة الإنسان، دار المعرفة، (القاهرة، ٢٠٠٠)، ص ٧٧.

(٥) عبد الله عطوي، الجغرافية البشرية ...، ص ٢٦.

فنجذ هيبيوقراط (٤٢٠ ق.م) في كتابه (الجو والماء والأقاليم) قد أرجع الاختلافات في الصفات الجسدية والنفسية بين سكان الأقاليم الجبلية وسكان الأقاليم السهلية إلى اختلاف مستوى تعرضهما المباشر للعوامل الطبيعية كالرياح والأمطار، فسكان الجبال يتصفون بالقوة كونهم يتعرضون إلى تلك العوامل بنسبة أكبر من سكان السهول، الذين بدورهم يتصفون بنحافة القامة وفيهم طباع السيادة والإمارة^(١)، أما ارسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) في كتابه (السياسة) فقد ربط بين المناخ وطبائع الشعوب وسمات أفرادها، فسكان البلاد الأوربية الباردة على الرغم من أتصافهم بالقوة، ولكن ينقصهم الفهم والمهارة والتنظيم السياسي، مما جعلهم غير قادرين على السيطرة على سواهم، بينما سكان آسيا رغم أتصافهم بالحكمة والمهارة، ولكن تنقصهم الجرأة والشجاعة مما جعلهم في أغلب الأحيان محكومين بغيرهم عبيداً لسواهم. أما الاغريق كونهم يعيشون في منطقة وسط الأوربيين والآسيويين، فهم يجمعون بين فضائلهم، واسترابو (٦٣ ق.م - ٢١ م) عزا قوة مدينة روما وعظمتها الاجتماعية والسياسية والحضارية إلى أثر العوامل الطبيعية كالمناخ والتضاريس، فطبيعة روما الممتازة خلقت الشعب الروماني الممتاز^(٢).

على الرغم من المكانة المهمة للمفكرين والفلاسفة السابقين إلا أن تفسيراتهم لأثر البيئة الطبيعية على الفكر الإنساني تأخذ الطابع العنصري المتحيز للإنسان الأوربي بوصفها جزءاً من نظرة الاستعلاء في التفكير الفلسفي عند اليونانيين والرومانيين، والتي ترى أنهم السادة وبقية الشعوب برابرة وهمج وعبيد، لأنهم وحدهم - أي اليونانيين - القادرين على الأبداع الحضاري والثقافي والاستمتاع بالحرية والحريصون على القيم الإنسانية العليا. وأكبر دليل على بطلان هذه النظرة الاستعلائية والآراء المفسرة لها هو النتائج الحضاري والفكري للإنسان العراقي والمصري القديمين والذي أمتاز بالأصالة والرقى والأسبقية التاريخية على نظيره اليوناني والروماني، فضلاً عن كونه بالأساس يمثل استجابة ذلك الإنسان للتحدي الذي فرضته بيئة البلدين، والتي هي جزء من البيئة الشرقية التي انتقدها هؤلاء الفلاسفة.

تناول عدد من العلماء والمؤرخون العرب والمسلمون موضوع الحتمية البيئية، فقد أشار ابن المقفع (٧٢٤-٧٥٩ م) إلى أثر البيئة في الجزيرة العربية في تطوير طباع وسجايا الإنسان العربي وتكوين لغته، وهذا يتطابق مع رؤية الفارابي (٨٧٠-٩٥٠ م)، الذي أرجع خصائص الشخصية العربية إلى مميزات بيئته الطبيعية والموقع الجغرافي^(٣). كذلك بحث ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦ م) في مقدمته الشهيرة

(١) حسين عبدالحميد رشوان، البيئة والمجتمع، المكتب الجامعي الحديث، (مصر، ٢٠٠٦)، ص ٨٧.

(٢) عبد الله عطوي، الجغرافية البشرية ...، ص ٢٦.

(٣) ندى موسى عباس، "تأثير البيئة الطبيعية على شخصية الفرد العراقي"، مجلة ديالى، ع ٤٠، ٢٠٠٩، ص ٥-٦.

موضوع تأثير العامل الطبيعي على الإنسان وتوجيه نشاطاته الاجتماعية والعمرانية، إذ ربط بين ألوان البشر وأحوالهم وأخلاقهم بنوع البيئة، خاصة المناخ والموقع الجغرافي، التي يعيشون فيها، متبنياً بذلك فكرة الحتمية البيئية^(١).

استمر مبدأ الحتمية البيئية مسيطراً على الفكر الجغرافي في أوروبا خلال عصر النهضة^(٢)، ويعد جان بودان (١٥٣٠ - ١٥٩٦م) من أشهر كتّاب هذا العصر الذين اعتنقوا مبدأ الحتمية، إذ ربط بين طبائع الإنسان ومناخ بيئته^(٣)، وفي كتابه (الجمهورية) حاول بودان البرهنة بأن شكل الجمهورية أو الحكومة ينبغي أن يتطابق مع الصفات المختلفة والمتنوعة للبشر^(٤). كما تبنى مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥م) مبدأ الحتمية البيئية وجعلها ركيزة أساسية في كتاباته المختلفة، ففي كتابه (روح القوانين) يرى بأن المناخ أهم العناصر البيئية المؤثرة في صفات الإنسان وطباعه، فالقوة والشجاعة والصدق من صفات سكان المناطق الباردة، بينما الضعف والسلبية أهم صفات سكان المناطق الجنوبية الحارة، لهذا يرى مونتسكيو بوجوب مراعاة تلك الفروقات عند وضع القوانين، أما التربة فتؤثر في أنواع الحكومات، حيث تظهر أنظمة الحكم الملكية في المناطق ذات التربة الخصبة، وتقوم الأنظمة الجمهورية والديمقراطية في المناطق ذات التربة الفقيرة، بينما تسود الأنظمة الدكتاتورية والارستقراطية والاقطاع في مناطق التربة الغنية^(٥).

لقد ارتكزت النهضة الأوربية على أحياء التراث الاغريقي والروماني^(٦). ويتضح أن فلاسفة هذه النهضة قد تبنا آراء أسلافهم من الاغريق والرومان حول موضوع أثر البيئة في جسم الإنسان وطباعه وتفكيره وما تضمنته من رفع شأن الإنسان الأوربي في مقابل الانتقاص أو التقليل من شأن الإنسان الشرقي. لكنهم أضافوا إلى ذلك مفهوم (الاستبداد الشرقي)، إذ ربطوا بين أثر البيئة الطبيعية في الشرق وظهور أنظمة الحكم الاستبدادية فيها، وهو الأمر الذي أخذ شعاراً وغطاءً سياسياً يسوغ الغزوات الاستعمارية الأوربية للشرق، بدعوى تخليص شعوبها من الاستبداد.

(١) عبدالله الدوبوي وآخرون، الإنسان والبيئة دراسة اجتماعية تربوية، ط٣، دار المأمون للنشر والتوزيع، (الأردن، ٢٠١٢)، ص ص ٢٢-٢٣.

(٢) عبد الله عطوي، الجغرافية البشرية ... ، ص ٣٠.

(٣) عبد الفتاح محمد وهيبه، جغرافية السكان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (بيروت، ١٩٨٠)، ص ص ١١-١٢.

(٤) ساعد هماش، سوسيولوجيا البيئة ... ، ص ١٨٤.

(٥) عبد الله عطوي، الجغرافية البشرية ... ، ص ٣١.

(٦) عبد الفتاح محمد وهيبه، جغرافية السكان ... ، ص ١١.

كان لظهور نظرية النشوء والارتقاء لداروين دوراً في بروز الفكر الحتمي في الدراسات الحديثة، إذ أدى الاهتمام بمعرفة القوانين الطبيعية وفي الجغرافية البشرية إلى تفسير مسألة الصراع والبقاء تفسيراً حتمياً، حتى أعتقد بعض الباحثين مثل البريطاني هربرت سبنسر بتمائل المجتمعات البشرية والمتعضيات الحيوانية والنباتية إلى حد بعيد، حيث يتوجب على المجتمعات البشرية في بيئات معينة أن تصارع من أجل البقاء حالها حال الأنواع الحيوانية والنباتية^(١). أي أن العلاقة بين البيئة والكائنات الحية، ومن ضمنها الإنسان، علاقة تكيف وملاءمة، إذ يتحتم على تلك الكائنات أن تتلاءم مع الظروف البيئية وتتكيف مع ضرورتها، وتقوم البيئة من جانبها باختيار الأصلح للبقاء من الكائنات الحية ويكون الفناء مصير من عجز عن الملاءمة والتكيف^(٢).

ينسب إلى العالم الألماني فردريك راتزل (١٨٤٤-١٩٠٤م) الفضل في وضع مفهوم أو مبدأ الحتمية البيئية في إطار نظري مبني على أساس منهجي موضوعي، لأنه أبعد عن الانطباعات الشخصية والأحكام الذاتية في تحليل العلاقة بين البيئة والإنسان^(٣)، فانطلاقاً من تأثره بنظرية النشوء والارتقاء، أعتقد راتزل بأن البيئة الطبيعية هي التي تتحكم بالصفات العقلية والنفسية للبشر وتحدد نوعية نشاطاتهم، فالطبيعة هي القوة المسيطرة والإنسان ليس بمقدوره إلا الإذعان وتقبل قوانينها. فضلاً عن ذلك يعد راتزل واضع أساس علم الجغرافية البشرية، الذي عرفه في كتابه (جغرافية الإنسان) بأنه العلم الذي يدرس أثر البيئة على الإنسان^(٤).

من الواضح أن الفكر البيئي أو كما يسميه البعض بالفكر الحتمي هو فكر لا يعترف بقدرة الإنسان على التفكير الإيجابي فيجعل منه إنسان تابع ومسير بالدرجة الأولى وهذا الطرح أكدّه أحد مؤيدي الاتجاه البيئي وهو فيكتور كزن Victor Katze الذي قال قولته الشهيرة " أعطني خريطة لبيئة ما ومعلومات كافية عن موقعها ومناخها ومواردها الطبيعية وبإمكاني على ضوء ذلك أن أحدد لك أي نوع من الإنسان يمكن أن يعيش في هذه البيئة وما هي نشاطاته الاقتصادية"^(٥). ومع أننا لا نتفق مع هذا

(١) رائد راكان قاسم الجوّاري، " اسهام حضارة وادي الرافدين في ظهور المدارس الجغرافية الحديثة (دراسة في الفكر الجغرافي) " ، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية ، مج ٣، ع (٢٠١٩)، ص ٢٤٢.

(٢) حسين عبدالحميد رشوان، البيئة والمجتمع ... ، ص ص ٨٧-٨٨.

(٣) ساعد هماش ، سوسولوجيا البيئة ... ، ص ١٨٥.

(٤) عبد الله عطوي، الجغرافية البشرية ... ، ص ٣٦.

(٥) نقلاً عن: بن لعلام سمهان وبنان كريمة، " التربية البيئية والانسان - مقارنة نظرية شاملة حول جدلية العلاقة والتأثير"، مجلة العلوم الانسانية والطبيعة (HNSJ) ، مج ٣، ع ٦، (الجزائر، ٢٠٢٢)، ص ص ١٢٣-١٢٤.

الطرح، كونه يلغي دور الإنسان الفاعل الرئيسي في صناعة التاريخ والحضارة، لكننا مع ذلك نرى بأن البيئة الطبيعية كان تأثيرها حتمياً على إنسان العصور الحجرية الأولى عندما كان لا يتمتع بقدرات ذهنية وحضارية كافية تمكنه من تحدي تأثيرها عليه، لكن هذه الحتمية لا تستمر طوال مراحل الحضارة الإنسانية، إذ تتناقص عكسياً مع ازدياد مكتسبات الإنسان الذهنية والحضارية في العصور التاريخية اللاحقة، مع التأكيد أن هذا الأمر لا يؤدي لوصول الإنسان لمرحلة الانفكاك التام عن تأثير البيئة الطبيعية، وهذا ما سنوضحه في الفصول اللاحقة.

ثانياً - المدرسة الإمكانية Possibilism

نتيجة لكثرة الانتقادات الموجهة لمبدأ الحتمية البيئية، بسبب مبالغتها في تغليب دور البيئة وأثرها على الإنسان في محاولتها لتفسير العلاقة بينهما، وأغفال ما يتمتع به الإنسان من قدرات عقلية وجسدية. قامت فلسفة أخرى مناهضة لأي نوع من الحتمية البيئية، وتؤمن هذه المدرسة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين بأن الإنسان بإمكانه أن يختار ما يلائم حياته من البيئة، فالإنسان يستجيب لظروف البيئة، ولكنه لا يخضع لها خضوعاً تاماً^(١). لأن الإنسان بما يمتلكه من قدرات ذهنية عقلية تجعل منه قوة فعالة وذكية يكون قادراً على اختيار الطريقة الأمثل لاستغلال مكونات وموارد بيئته^(٢). أي أن الإنسان هو سيد اختياراته في علاقته مع البيئة.

إن الإنسان وفقاً لأصحاب المدرسة الإمكانية يسهم في النشاط الطبيعي على سطح الأرض ، فالتأثير بين الإنسان والبيئة متبادل، وهناك تداخل دقيق بينهما ومن الصعوبة معرفة متى ينتهي مؤثر ويبدأ الآخر^(٣). ويعد العالم فيدال دي لابلانـش Vidal de la Blache (١٨٤٥ - ١٩١٨) من أبرز مؤسسين الجغرافيا البشرية، وينسب إليه مبدأ الإمكانية الذي يعطي للقدرات البشرية أهميتها في الاستجابة للظروف الطبيعية، إذ يرى فيدال بأن ليس هناك شيئاً أسمه الضرورية necessitism في الجغرافيا بل هناك الإمكانية possibilism . بمعنى أن الشعب الذي يعيش في بيئة معينة ليس من الضروري أن يتأثر بهذه البيئة بصفة خاصة ، ولكن الشعوب بصورة عامة من الممكن أن تستجيب لتأثير بيئاتها الطبيعية من بعض الوجوه، وتلك الاستجابة تختلف باختلاف الخصائص الحضارية الموروثة لتلك الشعوب

(١) عبد الله عطوي، الجغرافيا البشرية ... ، ص ٣٨.

(٢) بن لعلام سمهان وبنان كريمة، التربية البيئية والانسان ...، ص ١٢٤.

(٣) رائد راكان قاسم الجواري، اسهام حضارة وادي الرافدين ... ، ص ٢٤٤.

وتتنوع تنظيماتها الاجتماعية. بالرغم من تأكيد فيدال على أهمية البيئة الطبيعية في حياة الإنسان ونشاطاته المختلفة ، وذلك في كتابه (أسس الجغرافية البشرية) ، إلا أنه حذر في الوقت نفسه من المغالاة في تأثير البيئة الطبيعية على الإنسان ، مؤكداً أن دراسة العلاقة بين الأرض والإنسان هي ما نسميه الجغرافيا البشرية^(١).

ويرى لوسيان فيفر Lucien Febvre أن الإنسان يلعب الدور الأهم في العلاقة الدائمة بينه وبين البيئة، فالإنسان حُرٌّ في اختيار ما يناسبه من مكونات البيئة لكي يسخرها لخدمته ويحقق أهدافه واحتياجاته وطموحه ، لهذا فإن استجابته لها اختيارية وليست حتمية بالضرورة. هاجم لوسيان في كتابه (الأرض والتطور البشري) أصحاب المدرسة الحتمية ، لأن الإنسان صاحب الإمكانيات لا يمكن أن يصبح عبداً للبيئة وضرورياتها توجهه كيفما تشاء^(٢).

بالرغم من إيمان رواد المدرسة الإمكانية بسيادة الإنسان وسيطرته على محيطه البيئي الذي يعيش فيه، إلا أنهم مع ذلك يؤكدون على استحالة امتلاك الإنسان القدرة أو الحرية الكاملة في تغيير كامل بيئته، لأن فيها من العراقيل والحدود التي لا يستطيع تجاوزها مهما تمتع بقدرات وإمكانيات، فندرة المياه وقلة الأمطار لا تيسر للإنسان حياة مستقرة، وتدفعه إلى حياة الارتحال، فضلاً عن أن تأثر الإنسان ببيئته يختلف تبعاً لمقدار تطوره الحضاري ، فتأثر الإنسان البدائي ببيئته يكون أكثر وأعمق من تأثر الإنسان المتحضر صاحب القدرات الذهنية والتكنولوجية المتقدمة^(٣).

أستند أصحاب هذه المدرسة على بعض الأدلة لأثبتات صحة نظريتهم، منها إنشاء الإنسان للمدن واختياره لمواقعها، إذ لم تكن الظروف الطبيعية الملائمة السبب الوحيد في اختيار الإنسان لموقع المدن، فهناك عوامل أمنية أو سياسية تتعلق بتوفير الحماية، وعوامل ثقافية كالدين مثلاً، ومن الأدلة الأخرى مظاهر البيئة التي تعد من فعل الإنسان مثل الحقول الزراعية وما يلحقها من مشاريع كالسدود والقناطر وشق الترع ومجاري الأنهار، وهناك الصناعة التي رغم اعتمادها على مقومات بيئية لتوفير المادة الخام، إلا أنه لولا المهارة والتكنولوجيا البشرية لما كان لها وجود أساساً^(٤).

(١) احمد موسى محمود، مقدمة في الجغرافيا البشرية المعاصرة، المكتب العربي للمعارف، مصر، ٢٠١٤، ص ١٦-١٧.

(٢) عبد الله عطوي، الجغرافية البشرية ... ، ص ص ٣٨ - ٣٩.

(٣) حسام الدين جاد الرب، الجغرافيا البشرية ، مكتبة الاسكندرية، (مصر، ب.ت)، ص ١٨.

(٤) ساعد هماش ، سوسيولوجيا البيئة ... ، ص ١٨٧.

إن المتأمل في تفسير المدرسة الإمكانية للعلاقة القائمة بين الإنسان والبيئة، يجدها قد ارتكزت على اعتبار الإنسان العنصر الفعال والمؤثر في تلك العلاقة ، مخالفتاً بذلك ما ذهب إليه المدرسة الحتمية، فالإنسان بما يمتلك من عقل وتدبر يستطيع مسايرة الطبيعة ومعايشتها ومحاولة تطويعها ولو جزئياً، وعدم الخضوع لها ومنحها الفرصة كلية للسيطرة والتحكم بحياته وطباعه .

ثالثاً- المدرسة الاحتمالية (التوافقية) (Probablesim)

تحاول هذه المدرسة التي ظهرت في الآونة الأخيرة الابتعاد عن التعصب والمغالاة الذي اعتمدته المدرستين السابقتين عند تفسير العلاقة بين الإنسان والبيئة، فهذه العلاقة متباينة ومتغيرة التأثير ينشط ويبرز دور البيئة تارة ودور الإنسان تارة أخرى ، ومن ثم فهي علاقة متوازنة لا وجود فيها للحتمية المطلقة أو الامكانية المطلقة ^(١). فالبيئة، وفقاً لأصحاب هذه النظرية، قد تفرض على الإنسان اتباع نمط أو إطار اقتصادي معين في بيئة ما، لكن أسلوب التنفيذ لذلك النمط يحدده الإنسان ^(٢). أي أن هذه النظرية تحاول التوفيق بين آراء النظريات السابقة لهذا يطلق عليها اسم المدرسة الاحتمالية أو النظرية التوافقية ^(٣).

يمثل جريفت تايلر Griffith Taylor أحد رواد هذه المدرسة، الذي شبه دور البيئة بشروطي المرور الذي ينظم حركة الإنسان في البيئة الطبيعية، مستخدماً لفظ Stop-go-determinism ، لأن الإنسان ليس باستطاعته استغلال البيئة اعتماداً على إمكانياته فقط، بل لابد من صلاحية البيئة ومساعدتها ^(٤).

يؤمن أصحاب المدرسة التوافقية بفعالية دور طرفي العلاقة القائمة بين الإنسان والبيئة وتبادل التأثير بينهما ولكن بشكل متغير، فقد يتعاظم تأثير البيئة الطبيعية ويتضاءل تأثير الإنسان عليها في بيئات معينة، بينما يكون العكس في بيئات أخرى، معتمدين في تفسيرهم هذا على تصنيف نوعية البيئة من جهة ، ونوعية الإنسان من جهة أخرى، حيث يتفاعل الاثنان معاً مكونين جوهر العلاقة بين الإنسان والبيئة ^(٥)، وتم تحديد التنوع في طرفي العلاقة على النحو الآتي:

(١) بن لعلام سمهان وبنان كريمة، التربية البيئية والانسان ...، ص ١٢٤.

(٢) ساعد هماش ، سوسيولوجيا البيئة ... ، ص ١٨٨.

(٣) جودة حسنين جودة، أسس الجغرافيا العامة ، منشأة المعارف، (الاسكندرية، ٢٠٠٤)، ص ٣٥٨.

(٤) عبد الله عطوي، الجغرافية البشرية ... ، ص ٤٣.

(٥) احمد موسى محمود خليل، مقدمة في الجغرافيا البشرية ...، ص ١٨-١٩.

الطرف الأول : البيئة

بيئة صعبة × ----- بيئة سهلة ×

فالبيئة الصعبة تتطلب بذل مجهود كبير من الإنسان للتكيف معها ، بينما تستجيب البيئة السهلة ، والتي تمثل الطرف الآخر ، لأقل مجهود ، وهناك بيئات أخرى متفاوتة الصعوبة تقع بين طرفي هاتين البيئتين ، إذ يتعاضد دور البيئة كلما اتجهنا نحو اليمين ، ويقل كلما اتجهنا يساراً .

الطرف الثاني: الإنسان

إنسان إيجابي × ----- إنسان سلبي ×

يتفاعل الإنسان الإيجابي بشكل كبير مع البيئة لتحقيق طموحاته وإشباع احتياجاته ، بينما يقل تفاعل الإنسان السلبي مع البيئة ويتضاءل دوره كونه محدود القدرات والمهارات، وتقع مجموعات بشرية مختلفة بين هذين الطرفين تتباين في المهارات والقدرات وبالتالي في التأثير في البيئة^(١). وهذا التباين في طرفي العلاقة (الإنسان-البيئة) يؤدي بالضرورة إلى تنوع في طبيعة التأثير الناتج بينهما، كما في الشكل الآتي:

بيئة صعبة + إنسان سلبي = حتمية بيئية

بيئة سهلة + إنسان إيجابي = إمكانية

بيئة سهلة + إنسان سلبي = توافقية

بيئة صعبة + إنسان إيجابي = توافقية^(٢).

إن المؤرخ الإنكليزي(أرنولد توينبي) ، في محاولته جعل الناتج من التأثير المتبادل بين الإنسان والبيئة هو الأساس الذي يجب الانطلاق منه في تفسير تطور الحضارات العالمية^(٣)، قد اقترب كثيراً من

(١) ساعد هماش ، سوسولوجيا البيئة ... ، ص ١٨٨ .

(٢) حسين سيد نور الاعرجي، جذور الفكر وروافده في العراق القديم: قراءه في نشأة وتشكل الفكر العراقي القديم، دار آرام للدراسات والنشر، (بغداد، ٢٠١٩)، ص ٦٧ .

(٣) حسين طه نجم وآخرون، ، البيئة والإنسان، دراسات في الايكولوجية البشرية، ط٣، وكالة المطبوعات للنشر، (الكويت، ١٩٨٤)، ص ٦٥ .

هذه النظرية التوافقية، وذلك من خلال الاستجابات الأربعة التي وضعها هذا المؤرخ، وحدد عن طريقها العلاقة بين الإنسان والبيئة. وهي: (استجابة سلبية، استجابة التأقلم، استجابة إيجابية، واستجابة إبداعية)^(١).

مما سبق، يتضح لنا أن كل المدارس أو النظريات التي حاولت تفسير العلاقة بين الإنسان والبيئة، تتفق بصورة عامة على أن تلك العلاقة قائمة على التأثير المتبادل بين الطرفين، وهذا التأثير المتبادل أو التفاعل بين الإنسان والبيئة هو الذي يخلق الحضارة الإنسانية. لكنها من جانب آخر اختلفت في الطابع الخاص لهذه الحضارة، نتيجة لاختلافها في ترجيح تأثير أحد طرفي العلاقة وجعله المسؤول عن اتخاذ الحضارة لذلك الطابع الخاص، فنجدها تارة تكون البيئة وفقاً للمدرسة الحتمية، وأخرى يكون الإنسان بالنسبة للمدرسة الإمكانية. وبقدر تعلق الأمر بموضوع دراستنا، وانطلاقاً من أن الفكر هو ناتج تفاعل الإنسان مع بيئته، نجد أن المدرسة الاحتمالية (التوافقية) هي الأنجح في تفسير العلاقة بين الإنسان والبيئة، فهي لم تستند إلى توجهات وآراء مسبقة تؤدي بالضرورة إلى حتمية أحد الأطراف أو إمكانية الآخر، بل اعتمدت على أن التنوع والتباين في الظروف البيئية للأقاليم والبلدان يقابلها اختلاف البشر في قدراتهم الجسمية والعقلية والنفسية، مما يؤدي إلى وجود تنوع واختلافات في طبيعة العلاقة الناتجة من التفاعل أو التأثير المتبادل بينهما.

إن ترجيحنا للمدرسة الاحتمالية لا يعني بالضرورة نفي صحة تفسير المدرستين الحتمية والامكانية بالأجمال، بل نراهما مناسبتين لتفسير بعض مراحل حضارة الإنسان وعلاقته مع البيئة. فالأخيرة كان لها التأثير الأكبر في توجيه فعاليات الإنسان المختلفة خلال الفترات الزمنية الأولى لتواجده على الأرض، وهو ما يتناسب مع ما ذهب إليه نظرية الحتمية البيئية، التي نراها تقل في تناسب عكسي بالتزامن مع تطور الإنسان وزيادة امكانيته التي تمكنه من إخضاعها والسيطرة عليها، ولكنه لا يصل ابداً، مهما تمتع بإمكانيات، إلى مرحلة الانفكاك التام عن البيئة.

(١) حسين سيد نور، جذور الفكر ...، ص ٦٧.

المبحث الثالث

أثر البيئة في الفلسفة الوجودية للفكرين العراقي والمصري القديمين

كان للإنسان الدور الأول والأساس في نشوء وتطور الحضارات^(١). لكن مما لا ريب فيه بأنه كان للبيئة الطبيعية أثر كبير وفعال في توجيه مصائر الإنسان ودفعته إلى اتباع سلوك معين دون غيره من خلال تأثيرها بفكره^(٢). الذي تميز بامتلاكه عن باقي الكائنات الحية^(٣). ويؤكد غالبية المؤرخين على قوة الأفكار بوصفها عاملاً مؤثراً في مسيرة الإنسان وتاريخه الحضاري^(٤)؛ فالحضارة هي نسيج من الأفكار والمعتقدات تسير الشعب وتسيطر لحد كبير على فعالياته. وإن أية حضارة هي الإنتاج المباشر لمجموع المؤثرات البيئية للمنطقة التي تعيش فيها^(٥). وبالرغم من أن الطابع العام لفكر حضارة ما أمر غير ملموس، لأنه شيء ضمني قائم في تفكير الناس وقيمهم، إلا أنه مع ذلك يسبغ على نتاجاتهم الحضارية المختلفة - فنونهم ومؤسساتهم وآدابهم ولاهوتهم - صفة أو طابعاً مميزاً نهائياً يتضمن كمالاً خاصاً بها^(٦). يجعلها تختلف وتتميز عن باقي الحضارات. وهذا الطابع المميز للحضارة وفكرها، وما ينتج عنه من اختلاف وتمايز فيما بين الحضارات، يُفسر على أنه نابع من الاختلاف في الاستجابات والتكيفات لمجتمعات تلك الحضارات إلى بيئات مختلفة^(٧). فكيفية التفاعل واسلوب التحدي وطرق تسخير الطبيعة لخدمة الإنسان هي التي تكسب الحضارة طابعها الخاص^(٨).

وتأتي أفكار الخلق الخاصة بكل شعب من الشعوب، ونعني بذلك القصص والأساطير التي تبحث في أصل الكون ووجود الآلهة والإنسان، في المكانة الأولى من حيث الأهمية والدلالة لتعكس

(١) علي شحيلات وعبد العزيز الياس، مختصر تاريخ العراق القديم، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠١٢)، مج ١، ص ١٩.

(٢) حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ط ٨، دار المعارف، (القاهرة، ٢٠٠٠)، ص ٣٢-٣٣.

(٣) حسين سيد نور، "أثر الحتمية البيولوجية في الفكر الديني العراقي القديم"، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، مج ١٦، ع ٢٤، (واسط، ٢٠٢٠)، ص ٢٧٣.

(٤) سامي سعيد الاحمد، العراق القديم، ج ١، ص ٢٣.

(٥) شاكر مصطفى سليم، المدخل الى الانثروبولوجيا، مطبعة العاني، (بغداد، ١٩٧٥)، ص ٩٦.

(٦) هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، ترجمة: ميخائيل خوري، دار مكتبة الحياة، (بيروت، ١٩٥٩)، ص ٣٧.

(٧) جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ، ترجمة: جورج حداد، الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، (القاهرة ب.ت)، ص ١٥-١٦.

(٨) عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم...، ج ١، ص ١٩.

الطابع المميز لفكر تلك الشعوب وحضاراتها، بوصفها فلسفة وجود لديها^(١). إذ على الرغم من إن الطبيعة البشرية (البيولوجيا) قد شكلت الإطار العام لمفاهيم الإنسان حول الحياة وتفاصيلها، ولكن الفكر هو الذي أكسب تلك المفاهيم فلسفة متنوعة ودقيقة، باختلاف الأفكار ناتج من تنوع واختلاف البيئات وليس من اختلاف الأثر البيولوجي، إذ أن كل المجتمعات البشرية لها ديانات وهذا من أعداد البيولوجيا ولكن الاختلاف والتنوع في تلك الديانات فمتأتي من الاختلاف في الفكر المتأثر والمنفعل بالبيئة^(٢). وتعد حضارات الشرق الأدنى القديم، ومن بينها حضارتي العراق ومصر، من أماكن العالم القليلة التي يظهر فيها تأثير الجغرافية بعواملها الطبيعية المختلفة على الإنسان وتاريخه واضحاً وجلياً^(٣). خاصة فلسفة الخلق في كلا الحضارتين، كونها أصدق ما ينقل لنا أحوال أقدم المجتمعات الإنسانية وعقائده ونظراته إلى أصل الأشياء والآلهة ونظام الحكم، كما تصور لنا أحوال البيئة البشرية والطبيعية التي نمت فيها تلك الحضارة^(٤). فهي بالتالي تمثل الطابع الخاص للحضارة ، بوصفها الفكر الذي يعكس ذلك الطابع.

إن الأسلوب الذي اتبعه رجال الدين والفكر العراقيين والمصريين القدماء في إدراك العالم المحيط بهم وفي التعبير عن هذا الإدراك، لم يكن أسلوباً يمكن أن نسميه فلسفة، بمعناها الحديث، وإنما أوجدوا ما نسميه لاهوتاً أو ميثولوجيا لعقائدهم الدينية^(٥). لهذا لا يمكن فهم فلسفة الفكر الشرقي القديم بمنأى عن الجانب الديني فيه، فلقد فسر الشرقي القديم الكون والحياة والقيم على أساس ديني، ففكرة بدء الخلق في الشرق تستمد عناصرها من الدين أكثر مما تستمدتها من الفلسفة، وبكلمة أوضح، أن الدين والفلسفة في الفكر الشرقي القديم شيء واحد لهذا لم يعرف التاريخ نظرية فلسفية في الشرق القديم مستقلة عن الدين^(٦).

إن ميل الإنسان القديم في علاقاته ومفاهيمه وفكره الديني إلى الأسس المادية جعل منها مرتكز كل ديانات العالم القديم، إذ كان فهم فكرة الإله المعنوي (غير المادي) غاية في الصعوبة على ذهنية

(١) صموئيل نوح كريم، الأساطير السومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، الناشر جمعية المترجمين العراقيين، مطبعة المعارف، (بغداد. ١٩٧١)، ص ٥٥.

(٢) حسين سيد نور، أثر الحتمية ...، ص ٢٨٣.

(٣) عامر سليمان، العراق في التاريخ القديم...، ج ١، ص ٢٠.

(٤) طه باقر، مقدمة في أدب العراق ...، ص ص ٥٥-٥٦.

(٥) جوردون تشايلد، ماذا حدث ...، ص ١٣٦.

(٦) علي عبد الفتاح المغربي، الفكر الديني الشرقي القديم وموقف المتكلمين، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٩٦)، ص ٥.

المجتمعات القديمة^(١)، فمن خلال الاطلاع على الديانات القديمة، ومنها الديانة العراقية والمصرية القديمة، أدركنا أن فكرة الألوهية لم تنبثق طفرة في قلب البشر^(٢). فقد كان الحافز الأول لأفعال الإنسان القديم وافكاره ومشاعره، اعتقاده الجازم بأن الألوهة حالة في الطبيعة، وإن الطبيعة مرتبطة بالمجتمع ارتباطاً صميمياً^(٣)، فالعقيدة الدينية في الفكر العراقي والمصري القديمين تتميز بصفات عديدة لعل من أبرزها وأهمها مبدأ الحيوية (الارواحية Animism)^(٤)، أي إيمان الإنسان بوجود أرواح تكمن في قوى الطبيعة لتجعل منها كائنات ما فوق طبيعية خارقة^(٥)، أعتبرها المسؤولة عما يحدث حوله في الطبيعة من تقلب وتغير مظاهرها المتنوعة. إذ من المعروف عن إنسان تلك العصور أنه كان شديد التأثر، بحكم أسلوب حياته البدائية، بالظروف الطبيعية. ولا شك في أنه أحس من خلال تأملاته في ظواهر الطبيعة ومن خلال صراعه معها، وخاصة تلك التي كان لها مساس مباشر بحياته اليومية، بأن في تلك الظواهر قوى أو أرواحاً مما تسبب مثلاً هبوب الرياح والعواصف، وحدوث البرق والرعد، وهطول الأمطار وحدوث الفيضان..^(٦) وبمرور الزمن جسد الإنسان تلك القوى بهيئة آلهة جعلها تمنحه مساعدتها أو تعاديه وفقاً لتصرفاته واستحقاقه^(٧).

إن إيضاحنا فيما سبق للترابط الجوهرى بين الطبيعة والفكر الدينى للإنسان العراقي والمصري القديمين، كان ضرورياً لكي يهيئ لنا قاعدة لفهم الفكر الأسطوري. لأنها كانت ذات الطريقة التي استخدموها في بحثهم المتواصل عن معنى الحياة البشرية وقيمها، أو سبب وجود العالم ووجودهم^(٨)، لأن فلسفة الوجود للإنسان القديم، ومن ضمنهم الإنسان العراقي والمصري القديمين، كانت تعني فلسفة

(١) حسين سيد نور، أثر الحتمية ...، ص ٢٨٣.

(٢) غوستاف لوبون، حضارة بابل وآشور، ترجمة: محمود خيرت، دار الرافدين، (بيروت، ب.ت)، ص ٩٠.

(٣) هـ. و. هـ. ا. فرانكفورت، "انعتاق الفكر من الأسطورة"، بحث في كتاب، ما قبل الفلسفة الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى، ترجمة: جبرا ابراهيم جبرا، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ١٩٨٠)، ص ص ٢٦٣-٢٦٤.

(٤) فاضل عبدالواحد وعامر سليمان، عادات وتقاليد الشعوب القديمة، مؤسسة دار للكتب للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٧٩)، ص ١٠٨.

(٥) حسين سيد نور، أثر الحتمية ...، ص ٢٨١.

(٦) فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٨٦)، ص ص ١٣١-١٣٢.

(٧) قاسم الشواف، ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، الكتاب الأول- أناشيد الحب السومرية، تقديم واشرف: ادونيس، دار الساقى، (بيروت، ١٩٩٦)، ص ١٦.

(٨) طه باقر، ملحمة كلكماش، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٧١)، ص ص ٣-٤.

الحياة^(١). والتي ارتكزت على فلسفة خلق طبيعية (كونية) نشأت على مر العصور وصفت بأنها فلسفة الوجود لشعبي البلدين ، وأساس لحضارتيهما^(٢). وخلاصة تلك الفلسفة التي توصل إليها المفكر العراقي والمصري القديم، بوصفها تقليداً دينياً حقيقياً متأصلاً في الحضارتين وموروث نموذجي غير تاريخي وذات تعقيد وتراكم متعدد الطبقات^(٣)، مفادها: أن الآلهة علة الوجود، فهم خالقي الكون وأسياده، يعرفونه ويفهمون سيره، وأن لديهم وحدهم التصميم الذي يهيمن عليه، وأنهم وحدهم يستطيعون الإجابة على الأسئلة العديدة والمستعصية التي يطرحها علينا الفكر^(٤).

التأثير الواضح للبيئة الطبيعية على فلسفة الخلق العراقية والمصرية القديمة، لا يعني إلصاق تهمة القصور الذهني بهذه الفلسفة، وفكر الحضارتين بصورة عامة، ووصمه بالبدائية أو عدم المنطقية^(٥). لأننا إذا ما حاولنا العثور في تلك الفلسفة على ما نسميه بقانون (العلية) الذي هو أساس منهج العلوم الحديثة، فإننا لا نجد لها آثاراً واضحة^(٦). فالمفكر العراقي والمصري القديم تعتمد القفز إلى العلة الروحية البعيدة، أي من المحسوس المرئي إلى العلة الخفية لأنه أسهل وأكثر ملائمة لذهنيته ما دام ينفر من التحليل المنطقي. بهذا تكون العلة في عدم ارتفاع النهر، في الفكر العراقي، غضب إله النهر، والعلة للطوفان غضب الإله على شرور البشر، وعندما نتفحص الأسطورة نجد المنطق السببي فيها واضحاً، لكنه سبب يجسد العلاقات بين الظواهر على غرار علاقات البشر بعضهم مع بعض، فالفكر الميثولوجي إذن قائم على السببية المغايرة للسببية العلمية مادامت تبحث عن رابطة بين الظاهرة المحسوسة المباشرة وبين العلة الغيبية البعيدة^(٧)، فنحن حين نعود إلى الزمن الذي كان فيه الإنسان مرتبط بالحاسيس بالطبيعة وفواعلها حوله، وكأنها كائن حي ، لا نكون بحاجة إلى تشبيهه، بل إلى حس يقظ متدقق عبر الأشياء وكأنها امتداد للإنسان تتجاوب إحاسيسه معها وتتفاعل، أن هذا الحس بالأشياء

(١) حسين سيد نور جلال الاعرجي، "الفكر الوجودي في العراق القديم- ملحمة كلكامش نموذجاً"، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، ٣٨٤، ج ١، (واسط، ٢٠٢٠)، ص ٣١٧.

(٢) Frankfort, Henry, Kingship and gods, Chicago, 1948. ,pp. 215-216.

(٣) ليو اوينهايم ، بلاد ما بين النهرين ، ص ٢٢٦.

(٤) جان بوتيرو، بلاد الرافدين -الكتابة - العقل- الآلهة، ترجمة: الأب البير ابونا، مراجعة: وليد الجادر، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٩٠)، ص ص ٣٢٤-٣٢٥.

(٥) جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ ... ، ص ١٣٤.

(٦) طه باقر، مقدمة في أدب ... ، ص ٥٧.

(٧) ولاء مهدي محمد، الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين وأثره في العهد القديم، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ،جامعة بغداد، ١٩٩٩ ، ص ص ٧٥-٧٦.

وخلال الأشياء وحركتها كان امتيازاً من امتيازات الإنسان القديم فقد انساني العقلاني بفعل نمو تصنيفاته الذهنية ورقابة وعيه التجريبي^(١).

لقد أخذت فلسفة الخلق للحضارتين العراقية والمصرية القديمتين طابعاً أسطورياً لأنها كانت من وحي أهداف عملية محضة^(٢). فالفكر الأسطوري ليس محاولة فلسفية لتوضيح (طبيعة الأشياء) بالرغم من أن الرغبة للتفسير والتوضيح موجودة عادة هناك. بل هو عبارة عن محاولة الإنسان القديم، العراقي والمصري، ورغبته في السيطرة على البيئة التي يعيش فيها^(٣). هو وسيلة عقلية مرتبطة بمرحلة معينة من تاريخ تطور العقل الإنساني، يستهدف قهر الطبيعة من قبل الإنسان. الذي لم يكن يملك، في حدود تطوره الحضاري، وسيلة أخرى غير الأسطورة. فهي تمثل مرحلة من مراحل تطور العقل الإنساني الذي انصرف إلى السيطرة على الطبيعة^(٤). التي علّوها بالوسائل الوحيدة التي كانت في حوزتهم، فالتجأوا إلى تركيب صور وظروف واحداث لا يمكن السيطرة عليها وقادرة على تزويدهم بما يفهمهم، أي بشرح محتمل على الأقل للأسرار التي كانوا يحسون بكونهم يعيشون فيها. قادهم كل ذلك إلى الإيمان أن الآلهة هي مصدر خلق الكون والإنسان وكل الموجودات^(٥). وأن كل ما يمكن أن يدركه الإنسان فهو انعكاس لتجلي العقل الإلهي ولنشاط خارق للطبيعة^(٦). ولهذا نستطيع القول بأن الأساطير هي أول محاولة في تاريخ الفكر الإنساني لوضع مفاهيم فلسفية تهدف إلى انقاذ الإنسان من متاهات الجهل بأسرار الطبيعة وظواهرها^(٧).

صحيح أن التأكيد على التأثير المادي بمعزل عن التأثير الروحي، لا يعطي تفسيراً مقنعاً للتاريخ الإنساني وفكره وحضارته^(٨). وأن أكثر سمات الفكر الوجودي وضوحاً هي كونه يبدأ من الإنسان لا من الطبيعة. لأن الفكر الوجودي مختص بالذات الانسانية أكثر منه بالموضوع، ولكن بالرغم من ذلك فقد ارتبطت الأفكار الوجودية بواقع وطبيعة الإنسان البيئي، إذ إن انطلاق بواكير التساؤلات الأساسية حول

(١) يوسف الحوراني، البنية الذهنية الحضارية ... ، ص ص ١٤٣-١٤٤.

(٢) جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ ... ، ص ١٣٤.

(٣) فاضل عبد الواحد علي ، سومر اسطورة وملحمة، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ٢٠٠٠)، ص ٨٧.

(٤) عبد الرضا الطعان ، الفكر السياسي ... ، ص ٤٢.

(٥) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ... ، ص ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٦) جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة، ترجمة إمام عبد الفتاح، مراجعة عبد الغفار مكاوي، سلسلة منشورات عالم المعرفة، (الكويت، ١٩٩٣)، ص ١٢.

(٧) صموئيل نوح كريم، الأساطير السومرية ... ، ص ١٣.

(٨) سامي سعيد الاحمد، العراق القديم ... ، ج ١، ص ص ٥٩-٦٠.

الذات البشرية في الحقبة الزمنية التي كان فيها الفكر البشري يمتاز بطابع أسطوري، جعل من تلك الانطلاقة تكافح لكي تعبر عن نفسها، وهذا واضح في الأساطير القديمة لاسيما تلك التي تحكي أصل الإنسان^(١). لهذا كان تأثير البيئة الطبيعية على فلسفة الخلق في الفكرين العراقي القديم والمصري القديمين، قد أسهم إلى درجة كبيرة في تحديد ملامح تلك الفلسفة، بل في ملامح الحضارتين بصورة عامة، بوصفها الطابع المميز أو فلسفة الوجود لكل منهما^(٢). كما أنها أسهمت لاحقاً في تقييد هذه الفلسفة أو الفكرة، والحيلولة بينها وبين الانطلاق نحو الآفاق الطبيعية للطاقت الكبرى التي كان يختزنها في ذاته؛ لكن هذا ليس معناه أن العلاقة بين البيئة وفلسفة الخلق قد ارتدت لبوس الميكانيكية المباشرة، لأن أي تصور من هذا القبيل يترتب عليه التسليم بفكرة كون تلك الفلسفة مجرد نسخة ثانية للوضع الاجتماعية (الطبيعية) المعنية. وهذا ما لا ننطلق منه، بل ننطلق من واقعة تعقد العلاقة بين الفكر والواقع (البيئة)، هذه العلاقة التي يتحدد فيها الفكر، ليس بالواقع مباشرة، بل بالبنية الفكرية التي تحددها البنية الاجتماعية الشاملة بتحديداتها للبنية الأيديولوجية الخاصة بها. إن تعقد هذه العلاقة هو الذي يخضع فعل الفكر في الواقع لشروط محددة تجعله ممكناً، الشرط الأساسي لإمكان هذا هو أن يكون تفاعلاً. معنى هذا أن الفكر ليس له أثر في الواقع الاجتماعي إلا لأن لهذا الواقع أثراً فيه. فالبنية الاجتماعية حاضرة في البنية الفكرية بحضورها في البنية الأيديولوجية الخاصة بها والتي هي نتاج لها. في سياق هذا الفهم لطبيعة العلاقة بين الفكر والواقع (البيئة)، نرى أن الفكر الأسطوري قد لامس في جوانب عدة منه الواقع الحياتي مباشرة، بل أنه كان يغدو في مناسبات كثيرة جزءاً من الطقوس المرافقة للأعمال المختلفة التي كانت تستهدف تحقيق أهداف عملية.

لقد استمرت فلسفة الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين قائمة على أسسها القديمة منذ بداية حضارة البلدين وحتى عصورها المتأخر، ولم تحرز غير تقدم جد بطيء، لأن مفكري المجتمعين أقاموا فلسفتهم تلك، شأنهم شأن معاصريهم من الشعوب القديمة، على مبادئ ما وراثية (ميتافيزيقية) فأوصدوا بذلك الأبواب أمام البحث المستمر عن تفسيرات عقلانية لمنشأ الكون والإنسان؛ فأصبحت فلسفة الخلق على مر العصور فلسفة الوجود للشعبيين العراقي والمصري القديمين، وأساس لحضارتهما^(٣). أما

(١) حسين سيد نور جلال الاعرجي، الفكر الوجودي ... ، ص ٣٠٨

(٢) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، دار الكتاب الثقافي، (عمان، ٢٠٠٥)، ص ٤٧.

(٣) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة ... ، ص ٤٧.

أبرز سمات تلك الفلسفة الأسطورية فهي تتمثل في نفي تصور الخلق من العدم، وتبني تصور وجود مادة أولى غير محددة المعالم، وتأكيد حيوية الفعل الإلهي الذي كان يُعدُّ بموجب مبدأ حيوية الطبيعة فعلاً طبيعياً كونياً^(١). وبالتالي فإن جوهر الخلق وصوره التي نراها في الترابطات والعلاقات ما بين الآلهة في أساطير البلدين وما ينتج عنها. ليست بالأساس والجوهر سوى صور أسطورية عكسها مفكري البلدين عن الصور الواقعية للترابطات والتأثيرات المتبادلة بين أجزاء الطبيعة^(٢).

إن تأثر فلسفة الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين بالبيئة الطبيعية للبلدين من جهة، واختلاف البيئة الطبيعية للبلدين من جهة ثانية، أدى إلى وجود تباين واضح في أساطير الحضارتين الخاصة بالخلق من حيث جوهر الآلهة الخالقة وصور الخلق فضلاً عن الجو العام لعملية الخلق. وهو ما سنحاول تبيانه في الفصول القادمة.

(١) عبد الباسط سيداً، من الوعي الاسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري (بلاد الرافدين تحديداً)، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، (دمشق، ١٩٩٥)، ص ٢٦٩.

(٢) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ... ، ص ص ٣٥٦-٣٥٧.

الفصل الثاني

(أثر البيئة في تشكل صور الخلق في الفكرين العراقي
والمصري القديمين)

المبحث الأول: أثر البيئة في تشكل صور الخلق في الفكر العراقي القديم

المبحث الثاني: أثر البيئة في تشكل صور الخلق في الفكر المصري القديم

المبحث الثالث: أوجه الشبه والاختلاف لصور الخلق في الفكرين العراقي
والمصري القديمين وأثر البيئة في ذلك

المبحث الأول

أثر البيئة في تشكل صور الخلق في الفكر العراقي القديم

شغل موضوع الخلق بصوره المتعددة فكر العراقي القديم، فحاول تفسير تلك المعضلة التي أُرقت تفكيره في فلسفة خلق أسطورية احتوت على تصورات وتفسيرات عدة، امتازت بعدم الثبات والاختلاف فيما بينها^(١). وهذا الاختلاف وعدم الثبات متأني من تأثير البيئة الطبيعية على فكر العراقي القديم الذي أنتج تلك الفلسفة وما تضمنته من أساليب وصور خلق^(٢)، إذ ساعد النظم الشعري الذي دونت به الأساطير العراقية القديمة، ولاسيما أساطير الخليقة منها^(٣)، مؤلفي أو واضعي تلك الأساطير على نقل ملاحظات وأحاسيس المفكر العراقي القديم حول أعاجيب الكون المحيط به إلى مصطلحات وأفكار بشكل صور شعرية احتوتها فلسفته الخاصة بالخلق^(٤)، والتي أكدت على ثلاثة أمور أو تحولات كونية، كانت محط اهتمام المفكر العراقي القديم، وأصبحت بمثابة المرتكزات الأساسية لتلك الفلسفة، وهي خلق الكون، وخلق الآلهة، وخلق الإنسان^(٥). وستكون ذاتها عنوانياً لمحاول هذا المبحث. والذي سنستعرض فيه صور الخلق التي احتواها الفكر العراقي القديم، وأثر البيئة في تشكلها بهذا الفكر.

أولاً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الكون

إن صراع العراقيون القدماء مع بيئتهم الطبيعية قد مر بمراحل عدة حتى تمكنوا في الأخير من بناء حضارتهم الراقية في تلك البقعة من الأرض ذات البيئة الصعبة، وقد جاء صدى ذلك الصراع مع الطبيعة في نتاجاتهم الأدبية ولاسيما الأساطير التي احتوت تصوراتهم عن خلق الكون، إذ عدّ الإنسان العراقي القديم مراحل صراعه مع بيئته وتفاعله معها، هي ذاتها مراحل تشكل الكون وخلقته؛ ففلسفة الخلق في الفكر العراقي القديم، ورغم طابعها الأسطوري، تمثل في الواقع مدارك العراقي القديم ونضوج آرائه في الطبيعة وقواها وفي خصائص وجوده في هذا الكون^(٦)، عبّر عنها بصور خلق متعددة.

(١) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية في العراق القديم، المركز الاكاديمي للبحوث، (بيروت، ٢٠١٣)، ص ٦٥.

(٢) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق ...، ص ٣٣

(٣) فاضل عبد الواحد علي، سومر اسطورة ...، ص ص ٧٦-٧٧.

(٤) ليو اوينهايم، بلاد ما بين النهرين ...، ص ص ٣٢٥-٣٢٨.

(٥) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب في الحضارة العراقية القديمة، المؤسسة العربية، (بيروت، ٢٠٠٢)، ص ١٩.

(٦) ف.آ. بيلافسكي، اسرار بابل، ترجمة: رؤوف موسى، دار المأمون للترجمة والنشر، (بغداد، ٢٠٠٨)، ص ١٠.

١- صورة الكون قبل التشكل

إن الحالة السابقة لبدء خلق أو تشكل الكون في أساطير التكوين العراقية القديمة، هي حالة من العماء المائي، ساكن، لا متمايز، لا متشكل، في زمن أزلي متماثل، لا ينتابه تغيير ولا تبديل كأنه عدم^(١)، فأصحاب اللاهوت في الفكر العراقي القديم لم يفترضوا انعداماً كلياً للأشياء كأصل للوجود بل افترضوا فوضى وعدم انتظام شامل، وبهذا فإن الكون لا يبدأ بـ(خلق)، بما لهذا التعبير من معانٍ، ولكن يبدأ بتنظيم ما هو في حالة فوضى^(٢)، أي أن الفكر العراقي القديم كان مادياً حسيّاً في تناوله موضوع الخلق^(٣)، ففكرة الخلق من العدم (Ex-nihilo) لم تكن مدار بحث في أية اسطورة عراقية قديمة، ذلك لأن فكرة الخلق كما تضمنتها تلك الأساطير ان هي إلا عملية استخلاص النظام من حالة فوضى أصلية^(٤).

إن الصورة الذهنية للمكان لدى الإنسان البدائي هي صور مظاهر محسوسة^(٥)، فالعدم صعب التصور حتى لأفكار مثل أفكارنا التي قد ألفت نوعاً من التجريد، ولم يؤخذ بعين النظر لدى أناس كانت مداركهم مطابقة للواقع الملموس والمادي ولما يمكن تصوّره^(٦). أي أن الإنسان العراقي القديم كان يفتقد في إدراكه للأشياء إلى القدرة على التجريد، إذ كان نمط تفكيره نمطاً عينيّاً، فهو في إدراكه للأشياء كان ينطلق مما تقع عليه عينيه، ومما يحسه، ومما يعيش معه يومياً^(٧)، فالوصف الذي كان يعطيه للأشكال الوجودية والصورة المجسدة لها، لا أثر فيها للفكر التأملّي، بل نجد بدلاً من ذلك، رؤية مباشرة: مجسدة، لا منطقية، مأخوذة على علاتها^(٨).

وهذا لا يعني أن أفكار العراقيين القدماء عن الخلق والتكوين، أفكاراً بدائية، بل أفكاراً ناضجة بالدرجة التي تتيحها معارف تلك الفترة من بداية حضارة الإنسان، فلقد اثبت العراقيين القدماء مقدرة فائقة على الملاحظة الذكية والربط، واستخلاص النتائج المنطقية من المقدمات المنطقية والحقائق والوقائع

(١) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ط ١١، دار علاء الدين للنشر، (دمشق ١٩٩٦)، ص ٢٧.

(٢) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين، ترجمة: وليد الجادر، مركز الانماء الحضاري، (دمشق، ٢٠٠٤)، ص ١٠٢.

(٣) ولاء مهدي محمد، الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين ...، ص ٢٦.

(٤) صموئيل هنري هوك، الأساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة: يوسف داود عبد القادر، وزارة الثقافة والاعلام، (العراق، ١٩٦٨)، ص ١٠.

(٥) حسام الآلوسي، الزمان في الفكر الديني والفلسفي وفلسفة العلم، دار أوما، (بغداد، ٢٠١٧)، ص ٥٤.

(٦) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ...، ص ٣٣٤.

(٧) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ...، ص ١١.

(٨) ه. و. ه. ا. فرانكفورت، الأسطورة والواقع ...، ص ٢٠.

المشاهدة^(١). فكونوا آراء وعقائد في أصل الكون والالهيات اتسمت بقدر عظيم من الاقتناع العقلي، وأصبحت فيما بعد عقائد ومبادئ أساسية لكثير من شعوب الشرق الأدنى القديم^(٢).

لقد مثل هذا التصور نقطة انطلاق الوعي الأسطوري العراقي القديم عموماً، بل وامتد إلى الفكر الديني والفلسفي اللاحق، ويبدو أن أحد العوامل التي أدت إلى هذا التصور هو عجز الإنسان العراقي القديم عن تصور العدم بمعناه المطلق الذي تم التوصل إليه لاحقاً، وذلك بفعل التصاقه بالأرض، واعتماده على ما تقدمه له من موارد. هذا إلى جانب أن تصور العدم المطلق يقتضي وجود ملكة تجريدية كبرى، وتجربة إنسانية ذاتية عميقة لم يكن العراقي القديم يمتلكها بما فيه الكفاية^(٣). بمعنى أن أثر البيئة في الإنسان العراقي القديم وجعله إنسان مادي حسي منعه من الوصول إلى الروحية التي تجعله يدرك العدم المطلق.

يتضح من دراسة نصوص أساطير الخلق السومرية والبابلية بأن مادة النشوء الأول وأصل الحياة والتي كانت في حالة من الفوضى والسكون لم تكن سوى المياه، والتي أطلقوا عليها المياه الأزلية أو البحر الأول، وهي في نظرهم أصل الكون^(٤)؛ ولا يعرف شيئاً عن أصلها أو مولدها، وربما تصورها العراقيون القدماء قد وجدت منذ الأزل^(٥). فإذا يغيب الأيمان بالخلق من العدم عن تفكير الإنسان العراقي القديم، فهو قد أمن بتلك الفوضى الهيولانية التي تعيش السرمدية السكونية ممثلة بالبحر البدئي حيث الماء أصل الوجود، مما فرض عليه عدّه تلك الفوضى معطى جاهزاً لا حاجة للبحث عما وراءه^(٦).

إن تلك الصورة كانت هي الشائعة في عموم الفكر العراقي القديم الذي تتدرج تحته حضارات سومر وبابل وآشور^(٧). ولكن على الرغم من ذلك فقد كان لتنوع البيئة الجغرافية والاجتماعية في حضارة

(١) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى ... ، ص ٣٢.

(٢) صموئيل نوح كريم، من الواح سومر، ترجمة: طه باقر، مراجعة وتقديم: احمد فخري، دار الوراق، (بغداد، ٢٠١٠)، ص ١٥١.

(٣) عبد الباسط سيداً، من الوعي الأسطوري ... ، ص ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٤) اسامة عدنان يحيى، الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم - دراسة في الأساطير، دار اشور بانبيال، (بغداد، ٢٠١٥)، ص ٢٣.

(٥) كارم محمود عزيز، اساطير العالم القديم، مكتبة النافذة، (القاهرة، ٢٠٠٧)، ص ٧٨.

(٦) محمد حسين النجم، فلسفة الوجود في الفكر الرافديني القديم واثرها عند اليونان، بيت الحكمة، (بغداد، ٢٠٠٣)، ص ٥٢.

(٧) جورج رو، العراق القديم، ترجمة وتعليق: حسين علوان حسين، مراجعة: فاضل عبد الواحد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، (بغداد، ١٩٨٤)، ص ١٣٧.

بلاد الرافدين أثره المباشر في اختلاف الصياغات لصور الخلق في الفكر العراقي القديم بشكل عام، لهذا نجد صورة المياه الأزلية عند المفكر السومري كانت مياه الأهوار والمستنقعات المنتشرة في جنوب العراق. في المقابل نجد المفكر البابلي عكس صورة فيضانات الأنهار وكيفية تكون منطقة السهل الرسوبي في العراق على تصوراته الفكرية حول المياه الأزلية، بينما أثرت الطبيعة الجبلية والمرتفعات على عقلية المفكر الآشوري^(١). ونضيف إلى ذلك عاملاً بشرياً نشأ من طبيعة الموقع الجغرافي للعراق^(٢)، ونعني بذلك أن بلاد الرافدين يعد إقليمياً مفتوحاً إلى الخارج بالنسبة إلى موقعه الطبيعي وبالمقارنة مع وادي النيل الذي يعد مقللاً تقريباً من هذه الناحية، فتعرض العراق القديم إلى هجرات الأقوام الكثيرة والغزوات العنيفة واختلاط السكان واتصال الثقافات وما كان يستتبع ذلك من عنف وتدمير وتطور وتبدل في التكوين السياسي والاجتماعي وظهور ذلك في سير حضارته^(٣). فقد كان لزيادة هجرات الشعوب والغزوات إلى المراكز القديمة أثرها في كثرة الوسائل الروحية والمادية، كاللغات الجديدة وطرق التفكير التي تنتج عنها، والتي كانت قد أوجدت في الأصل لأجل بيئات أخرى^(٤).

ومما يقال عن أساطير الخليقة المدونة باللغة السومرية أنها قصيرة وكثير منها ناقص غير كامل^(٥). إذ لم يُعثر إلى الآن على أسطورة سومرية خاصة بنشوء الكون على غرار أسطورة الخليقة البابلية، والتي يعتقد أن أصولها سومرية، ولكن هذا لا يعني عدم وجودها، كما لا يعني عدم وجود تصورات ميثوبية سومرية حول هذا الموضوع، فهناك العديد من مقدمات بعض القصص والأساطير والتراتيل التي تعطينا تصوراً واضحاً عن فكرة القوم حول أصل الكون وطريقة نشوئه^(٦). ومما توصلوا إليه في هذا السياق هو أن المياه الأزلية تمثلها الآلهة (نمو) (Nammu)^(٧). "البحر الأول والأم التي ولدت جميع الآلهة"^(٨).

(١) حسين سيد نور، اثر الحتمية البيولوجية ... ، ص ٢٧٩.

(٢) ينظر: الفصل الأول، ص ١٧.

(٣) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الوراق، (بغداد، ٢٠٠٩)، ج١، ص ص ٤٩-٥٠.

(٤) جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ ... ، ص ١٧٤.

(٥) طه باقر، مقدمة في أدب ... ، ص ٩١.

(٦) صموئيل نوح كريم، السومريون- تاريخهم حضارتهم وخصائصهم، ترجمة: فيصل الوائلي، وكالة المطبوعات، (الكويت ١٩٧٣)، ص ١٩٣.

(٧) عبد الباسط سيديا، من الوعي الأسطوري ... ، ص ص ١٧٤-١٧٥.

(٨) علي فاضل عبد الواحد، سومر أسطورة وملحمة ... ، ص ٩٦.

تعد نمو أم جميع الأشياء والنواميس وتسمى (أما - تو - آن - كي) أي (الأم التي ولدت السماء والأرض)، وتسمى أيضاً (أما-باليل-و-تو-دنكر) أي (الأم الأولى التي ولدت الآلهة)^(١). انحدرت الطبيعة الأنثوية للإلهة (نمو) من عصور بعيدة ربما تعود إلى العصر الحجري الحديث عندما سادت الإلهة الأم ذلك العصر كله طيلة أكثر من ثلاثة آلاف سنة شمال بلاد الرافدين، إذ كانت الإلهة الأم تعد خالقة كل الأشياء ومصدر الحياة، ومالئة الكون بالخصب وأسباب النماء^(٢)، وانحدرت الطبيعة الفيزيائية (المادية) لها من المحيط المائي الذي وجد السومريون أنفسهم فيه خصوصاً الأهوار ومياه الخليج العربي ومياه دجلة والفرات وفروعهما^(٣).

وجدت هذه الأفكار السومرية صداها في الفكر البابلي، بفضل وحدة المنبع وقرب المنطلق الفكري والعقدي والمزاج النفسي، إذ نجد استمرار القول بالماء مصدراً للوجود. فقد اقتبست الشعوب السامية في العراق القديم، والذين يعرفون بشكل عام بالبابليين، الحضارة والمدنية السومريتين بصورة كاملة تقريباً، وباستثناء اللغة، كانت الطرق التعليمية والديانة والميثولوجيا والآداب البابلية تتطابق تقريباً مع ما يقابلها عند السومريين، باستثناء ما ينتظر طبعاً من تغييرات واختلافات تفرضها التطورات السياسية ومرور الزمن^(٤). ويؤكد وجود تواصل تاريخي واضح المعالم في إطار العقيدة الدينية الرافدينية عموماً على مسار مراحلها المختلفة، لكن هذا التواصل لا ينفي التمايز أو التفاضل النسبي بين مستويات عدة من التطور العقدي، نجم عن تباين الظروف الموضوعية وتفاعلها مع العوامل الذاتية، وانعكاساتها على هذه الأخيرة في سياق كل مرحلة تاريخية.

تمتاز الرؤية البابلية بالمقارنة مع الرؤية السومرية، بسعة الرؤية والتنوع والدقة. وكأنا أمام حقبة أولى سومرية كانت قليلة الاستعداد للأمور النظرية، تبعثها حقبة بابلية في الألف الثاني ق.م من النضج والتطلب والعمق، عكف الناس فيه على الأمور النظرية بكثافة وتوفيق. ولدينا من هؤلاء المؤلفين الجدد ليس عدد من التلميحات إلى ميلاد العالم مبنوثة هنا وهناك حسب، بل تحف فنية عولج فيها هذا الموضوع بسمو حقيقي وسعة النظر، لعل أهمها قصة الخليقة البابلية^(٥).

(١) يوسف الحوراني، البنية الذهنية ... ، ص ١٣٣.

(٢) فراس السواح، لغز عشتار، الألوهة المؤنثة واصل الدين والأسطورة، ط٨، دار علاء الدين، (دمشق، ٢٠٠٢)، ص ٥٠.

(٣) خزعل الماجدي، متون سومر، الاهلية للنشر والتوزيع، (عمان، ١٩٩٨)، ص ٦٨.

(٤) صموئيل نوح كريم، السومريون ... ، ص ٤١٥.

(٥) جان بوتير، بلاد الرافدين ... ، ص ٢٦٧.

ففي مطلع تلك القصة، يعرض لنا المفكر البابلي صورة للعالم قبل تعرف الإنسان اليه، مفترضاً أن ذلك العالم كان خليطاً عماء من المياه المختلطة ولم تكن هناك يابسة^(١). كان كل ما وجد ، قبل ظهور أي شيء، كتلة هائلة من المياه ابتدأت منها الحياة. أن ماهية تلك الكتلة شيء بعيد عن التحديد، فهي العماء والسكون، الشمول والغموض، وقبل كل شيء هي العتق الذي سيزول فيما بعد، كما أنها لم تكن مجسدة بقوة واحدة وإنما بثلاث قوى (عناصر) أو على حد تعبير البابلي (آلهة عتيقة)^(٢)، هي : (أبسو) و (تيامة) و (ممو). فأبسو هو الماء العذب، وتيامة زوجته كانت الماء المالح، أما ممو، فيعتقد البعض بأنه الأمواج المتلاطمة الناشئة عن المياه الأولى، ورأي آخر يرى بأنه يمثل الضباب المنتشر فوق تلك المياه والناشئ عنها، هذه الكتلة المائية الأولى كانت تملأ الكون وهي العماء الأول الذي أنبثق منه فيما بعد بقية الآلهة والموجودات، وكانت آلهتها الثلاثة تعيش في حالة سرمدية من السكون والصمت المطلق ممتزجة ببعضها البعض في حالة هيولية. لا تمايز فيها ولا تشكل^(٣). وهذا ما أشار إليه النص الآتي من قصة الخليقة البابلية:

" حينما في الأعالي لم تكن السماء (بعد) قد سُميت،

وفي الأسافل لم تكن الأرض (بعد) قد ذكرت باسم،

(حينما) كان (أبسو) الأول، منجبهم،

و(مُمو) و (و) ((تيامة))، التي ولدتهم جميعاً

ما زالت أمواهم خليطة ببعضها،

ولم يكن قد تشكل مرعى، (ولا) كان بالإمكان رؤية هور قصب،

حينما لم تكن أية آلهة (أخرى) قد جاءت إلى الوجود،"^(٤).

(١) يوسف الجوراني، البنية الذهنية ... ، ص ص ١٣٠-١٣١.

(٢) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٢٢.

(٣) فراس السواح ، مغامرة العقل ... ، ص ٥٢.

(٤) الكسندر هايدل، سفر التكوين البابلي قصة الخليقة ملحمة " حينما في الأعالي"، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الجمل، (بغداد، ٢٠٠٧)، ص ٣٥.

نرى في هذه الصورة أبكر مرحلة من مراحل الكون، وهو بعد فوضى من الماء ، ولم تكن قد وجدت فكرة السماء فوق يابسة مستقرة أسفلها، إنما الكل ماء: لا مستنقع ولا جزيرة ولا حتى آلهة. وأيضاً لم تكن هناك خطط للخلق والحياة .

إن أساطير الخلق العراقية القديمة، منها قصة الخليقة البابلية على سبيل المثال، تزخر بإشارات أسطورية غامضة مزوقة بتصورات ذات طبيعة تأملية تسبق التأملات الفلسفية^(١). فهي تقوم على الربط بين الرمز الذهني وموضوعه في العالم الخارجي ، للركون إلى قناعة في تطابق الفكرة مع موضوعها في العالم الخارجي، وتلك هي المعرفة الحقة ومنها تتشكل الصورة الفلسفية التي كونها المفكر العراقي القديم عبر دراسة معقدة للمشكلات^(٢). أي بمعنى أن فلسفة نشوء الكون(الخلق) عند السومريين والبابليين (والعراقيين القدماء بصورة عامة) ليست ضرباً من الآراء البدائية مهما بلغ قدمها، ذلك لأنها تمثل مدارك المفكر العراقي القديم وتعبر عن نضوج آرائه وتأملاته في ضوء الطبيعة وفي ضوء خصائص وجود هذا الكون^(٣). لهذا فإن أساطير نشوء الكون وظهور سلسلة الآلهة من أقدمها وأكبرها إلى أصغرها وأحدثها أو كيفية خلق الإنسان، لم تكن تسير وفق أقاصيص اعتباطية وروى وأخيله كيفية، برغم أنها كانت تخضع لتداول أجيال متعاقبة، إنها مشيدة على بنية محكمة خفية تحمل أبعاداً فيزيائية وبايولوجية صحيحة^(٤)، فمن نظرته للواقع الملموس (المرئي) عكس العراقي القديم معرفته بطبيعة المياه في بيئته ، صورةً تخيلها لبداية الكون وأصله^(٥). لهذا فإن ما تطرحه أساطير الخلق في الفكر العراقي القديم إنما هو انعكاس للبيئة أو الظروف البيئية الموجودة في بلاد الرافدين، وخاصة القسم الجنوبي منه^(٦).

فقد كانت البيئة الطبيعية في القسم الجنوبي من العراق القديم عند مقدم أولى الجماعات البشرية إليها في بادئ الأمر بهيئة أهوار ومستنقعات تغمرها المياه، ثم ظهرت فيها اليابسة بهيئة جزر اتسعت وصارت سهولاً خصبة بمرور الزمن بفعل الغرين والطمي المحمولين بمياه الرافدين^(٧)، فمن ينظر إلى

(١) ليو اوينهايم ، بلاد ما بين النهرين ، ص ص ٣٣٩-٣٤٠.

(٢) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة ... ، ص ٤٠.

(٣) مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية العراقية ...، ص ٢٤٦.

(٤) خزعل ماجدي ، متون سومر ... ، ص ص ٦٥-٦٦.

(٥) الأب سهيل قاشا، اثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية، بيسان للنشر والتوزيع ،(عمان، ١٩٩٨)، ص ١٠٩ .

(٦) ثوركيلد جاكوبسن، "أديان ما بين النهرين"، بحث ضمن كتاب، موسوعة تاريخ الأديان، ترجمة، محمود منقذ الهاشمي،

منشورات دار علاء الدين، (دمشق، ٢٠٠٤)، ج ٢، ص ١٦٨ .

(٧) طه باقر ويشير فرنسيس، " الخليقة واصل الوجود "، مجلة سومر، مج ٥، ع ٢، ج ١، (بغداد، ١٩٤٩) ، ص ١٠.

خارطة سومر والمدن السومرية الأولى التي تمتد من جنوبي غربي بغداد حيث (سبار) إلى أقصى جنوب الناصرية حيث (اريدو) ويرى بدقة كيف أن حدود الفرات (القديمة والجديدة) من خاصرة غرب بغداد حتى منطقة الفهود، وحدود دجلة من مروره ببغداد حتى الكوت حيث يمتد منها نهر الغراف باتجاه المدن السومرية (اوما) و(لكش) وباتجاه الفهود أيضاً (أي الغراف) إلى الشرق منه، بينه وبين دجلة، أهواراً كبرى تتصل بالخليج العربي. وهذه الحدود المائية التي تشبه الشكل المعين الضيق تحصر بينها سهلاً رسوبياً خصيباً يحتاج إلى تنظيم أروائي لكي يعطي كل ثماره، ومن هذا الشق المعين، الذي يبدو وكأنه فرج الأرض أو رحمها، ولدت أول حضارة بشرية ظهرت بداخله وعلى جوانبه المدن السومرية المتلاحقة، حيث أنكب السومريون على الأرض التي بين أيديهم وحولوها من ارض غفل إلى جنة عدن^(١).

كذلك كان لظاهرة الفيضانات، التي تُعدّ من الظواهر الطبيعية المألوفة في بلاد الرافدين، أثرها في عدّ المياه صورة بداية الكون. فمنذ قديم الأزمان وحتى تاريخنا المعاصر ما زالت مياه نهري دجلة والفرات وروافدهما تغمر في موسم الفيضان مساحات واسعة كل عام تقريباً خاصة في الجزء الجنوبي من القطر، وهذه الظاهرة الطبيعية المروعة التي لم يستطع الإنسان في العراق القديم من السيطرة عليها بوسائله المتوفرة آنذاك كانت في نظر الفرد عبارة عن صورة لـ(الطوفان الأول) الذي ارسلته الآلهة ضد البشرية في كل مكان في الدهور الأولى^(٢). فيمكن، مثلاً، لأية أسطورة تتأسس في مدينة ما، أو في عدة مدن تأثرت بوقت ما، بفيضان قاسٍ بشكل استثنائي، أن تتحول في مخيلة سكان العراق القديم إلى فيضان كوني. ويمكن في المقابل التفكير بحصول جائحة كبيرة شملت كل أرض بلاد الرافدين^(٣)، فأثرت في تخيلات سكانه. أو أن الطوفان قد حدث فعلاً ولكن في عصور ما قبل تاريخية جد مبكرة. فالأمطار الأعاصرية الغزيرة، التي حلت محل الزحف الجليدي في الأقطار شبه المدارية كالعراق خلال عصر البلايستوسين، قد شهدتها الإنسان ويمكن لذكريات تلك الأمطار أن تكون قد انتقلت شفاهاً من جيل لآخر وتحولت أخيراً إلى قصة لكارثة واحدة^(٤). وهذا الفيضان أو الطوفان كان الإنسان العراقي يعود ويسقطه على بدء الزمن، فهو هنا يرى فيها صورة الزمن الأول حيث لا يوجد شيء في هذا الكون سوى فوضى المياه.

(١) خزعل الماجدي، متون سومر ... ، ص ١٥.

(٢) فاضل عبد الواحد علي، الطوفان في المراجع المسمارية، مطابع جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٧٥)، ص ص ١١٠-١١٢.

(٣) كان يعتقد وفقاً لرأي المنقب وولي بأن الطوفان حدث على مستوى أرض العراق القديم، لكن التنقيبات التالية لذلك اشارت إلى الطوفان كان محلياً في مناطق مختلفة، ينظر : جورج رو، العراق القديم ، ص ص ١٦٢-١٦٣.

(٤) جورج رو ، العراق القديم ، ص ١٦٣.

وكما اعتبرت المياه الأولى في منظور الإنسان العراقي القديم صورة للوجود قبل تشكل أو خلق أي شيء، كذلك عدت العلة الأولى أو (المحرك الأول) ومنطلق كل شيء في الوقت ذاته^(١)، بمعنى أن المادة الكونية والقوى الخالقة متلازمتان ومتشاركتان في الأزلية^(٢). بعبارة أخرى إن المادة والروح متلازمتين منذ البدء، لهذا فإن المادة الأزلية ذات صفة ثنائية لأنها تتكون من جوهرين هما مادة الخلق والاله الخالق في الوقت نفسه، فتولد من هذه (المادة - الاله) أو (الاله المادي) جميع الأشياء والموجودات^(٣).

لقد مثل الماء عنصراً رئيساً وجوهرياً في ثقافة الشرق الأدنى القديم وفكره حتى أخذت مجمل الحضارات الشرقية الرئيسية منه تسمياتها من أنهارها العظمى التي تخللتها كما في حضارة بلاد الرافدين ووادي النيل، وهذه الملازمة هي ليست نتاج الحاجات المادية النمطية للماء بوصفه هبة الحياة فحسب، وإنما كذلك لحال الترابط التي ارتكزت في الذهنية الشرقية بين الماء والفكر والمثيولوجيا بصورة عامة وبين الماء وفكرة الخلق بصورة خاصة، حيث لعبت المياه دوراً رئيساً في دورة حياة الحضارات والأديان في إعادة خلقها وتجديد حياتها عبر فكرة أطوار الفناء (الطوفان) أو مصدر الخلق والحياة (الهيولية الأزلية)^(٤).

كان للمياه، متمثلة بنهري دجلة والفرات وروافدهما، أهمية كبيرة في تاريخ الحضارات التي نشأت في العراق القديم^(٥)، فعلى ضفاف الأنهار تأسست القرى الزراعية الأولى في العراق وكانت الزراعة وما تزال أهم الحرف الاقتصادية لسكانه، وكانت للأنهار أهمية عظمى في الري والمواصلات وازدهار التجارة ونقل التأثيرات الحضارية^(٦). ولعله من البديهي القول أن وجود هذه الثروة المائية الكبرى لم يسبب نشوء الحضارة تلقائياً، بل كان للجهود الشاقة التي بذلها الإنسان العراقي القديم في ترويض هذه البيئة النهرية للإفادة من إمكانياتها الأثر الحاسم في الموضوع.

(١) عبد الباسط سيده، من الوعي الأسطوري ...، ص ص ١٧٤-١٧٥.

(٢) الكسندر هايدل، قصة الخليقة ...، ص ١٨٠.

(٣) طه باقر وبشير فرنسيس، الخليقة واصل الوجود ...، ص ص ٦-٧.

(٤) فؤاد جميل، "الطوفان في المصادر السومرية البابلية الآشورية والعبرانية"، مجلة سومر، مج ٢٨، ج ١+٢، (بغداد، ١٩٧٢)، ص ٥.

(٥) عامر سليمان واحمد مالك الفتيان، محاضرات في التاريخ القديم، ص ٣٢.

(٦) تقي الدباغ، "البيئة الطبيعية والإنسان"، كتاب حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج ١، ص ٤٦.

مثّل الري والسيطرة على الأنهار العامل الحاسم الذي تفاعل مع جهود الإنسان فنتج عن ذلك أولى الحضارات البشرية في التاريخ^(١). ومنذ ذلك الوقت كان مفهوم التحدي عند هذا الإنسان هو العامل في مسيرة الحضارة والتاريخ، بيد أننا يجب أن ننظر إلى أثر الإنسان في طريقة التفاعل بينه وبين بيئته والوسائل التقنية التي ابتدعها لترويض الطبيعة وتسخيرها له والاستفادة من الإمكانيات التي تقدمها له^(٢). لقد كانت الحاجة الدائمة والملحة للسيطرة على المياه المتدفقة لها تأثيرها في أساطير العراق القديم، ولقد انعكس هذا العنصر من التوقع والقلق بالنسبة لخصوبة الأرض على الديانة العراقية القديمة ونظرة العراقي القديم للحياة^(٣). إذ يعتقد أن سيطرة الإنسان العراقي القديم على المياه واكتشافه للري الصناعي، نتيجة عدم وجود أمطار كافية للزراعة، قد مثلت أولى شرارات الخلق في تفكيره^(٤). فقد ادرك الإنسان القديم بالتجربة الحسية المباشرة أن لا حياة في المناطق الصحراوية الخالية من المياه، وأن النبات يُرى دائماً حيث يتواجد الماء، وعليه فقد أقر حقيقة جد موضوعية خلاصتها أن لا حياة بلا ماء^(٥). وبالتالي فقد مثلت المياه أساس الحياة ومصدر خلقها في الفكر العراقي القديم.

وإذ تمثل المياه الأزلية مصدر نشوء الكون في الفكرين السومري والبابلي إلا أن طبيعتهما تختلف اختلافاً جذرياً، ففي الفكر البابلي كان لها طبيعة ثنائية تتمثل بتيامة المياه المالحة وآبسو زوجها المياه العذبة، لكننا لا نرى مثل هذا التمايز في الفكر السومري، إذ نجد الإلهة (نمو) تمثل المياه بصورتها المطلقة أو بصورتها المزدوجة (المالحة والعذبة) أي مياه البحار والأنهار^(٦). ونرى أن مرجع هذا الاختلاف هو اختلاف مصدر المياه الذي اعتبره العراقي القديم المياه الأولى أو الأزلية، ففي الحالة السومرية كان مصدرها مياه الأهوار والمستنقعات التي قام بتجفيفها من أجل استصلاح البيئة وجعلها صالحة للزراعة، إما في النظرة البابلية فكانت تمثل مياه الفيضانات والتي يختلط فيها الماء العذب مع الماء المالح.

(١) طه باقر، مقدمة في تاريخ ... ج ١، ص ٤٦.

(٢) مزهر الخفاجي، خصائص الشخصية العراقية ...، ص ١٨٤.

(٣) هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة: خالد اسعد واحمد غسان، مؤسسة ودار رسلان، (دمشق، ٢٠١١)، ص ١٧٩.

(٤) خزعل الماجدي، متون سومر ...، ص ١٥.

(٥) يوسف اليوسف، قراءة في ملحمة التكوين البابلية، مجلة المعرفة السورية، العدد ١٩٧، تموز، ١٩٧٨، ص ٨٢.

(٦) خزعل الماجدي، متون سومر ...، ص ص ٦٨-٦٩.

٢- صورة التشكل الكوني الأول

وفقاً للفكر العراقي القديم كانت أول مراحل خلق الكون قد تمت بخروج التشكل الكوني الأول من العماء (المياه الأزلية)^(١)، فمن أجل أن ينتهي سكون العماء الأول كان لابد لصدفة ما أن تحدث بصورة مفاجئة إلى الدرجة التي لا تسمح معها لأي قوة بإجهاضها في الوقت المناسب. فتلك الصدفة ستقود حتماً إلى استهلاك المادة الأولى، كتلة العماء، في وقت ما من مراحل تطورها^(٢)، وفي لحظة معينة، هي هزة ودمار، يليها بناء جديد، ينبثق الكون من لجة العماء، ويبدأ النظام من قلب الفوضى، ويتحد الشكل من صميم الهيولي، لحظة يقرر فيها الآلهة خلق العالم، ووضع أسس الكون والحياة^(٣). لكن فعل الخلق الأول لا يعطي الوجود دفعة واحدة، ينطلق بعدها في مساره إلى الأبد^(٤)، بل نجد أن ميلاد أو خلق أول أشكال الوجود كان بظهور عنصر كوني جديد من البحر البدئي في حالة امتزاج أولي^(٥)، حيث برز الكون في شكل بدائي من البحر الأول، تصوره السومريون مكوناً من السماء والأرض وهما ملتصقين غير منفصلين أطلق عليه اسم (الجبل الكوني)^(٦)، وهذا ما يوضحه النص السومري بقوله:

" على جبل السماء والارض

قد ولدت آلهة الانانوكي العظام" ^(٧).

إن الأسماء في نظر العراقي القديم، لم تكن مجرد نبرة صوت ألصقت بالأشياء عن طريق المصادفة للإشارة إليها، بل كانت الأشياء ذاتها مصوّتة. وكانت هذه الأسماء تنبثق من الأشياء التي تعرب عنها. ومن ثمة لكل نبرة صوتية معناها الخاص. ومهما كانت قيمة القول المشار إليه، تاريخية كانت أم غير تاريخية، فإنه يساعدنا في الأقل لفهم كيف أمكن الاجتياز من تتابع حدثين معابنين تجريبياً إلى تقريب أوثق بكثير بينهما، حتى يعني أحدهما الآخر، ويشكل هيئته التصويرية^(٨).

(١) محمد فهد ، قصة الخليقة بين الألواح المسمارية والكتب السماوية، دار تموز ، (دمشق، ٢٠١١) ، ص ٥٠.

(٢) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٢٢.

(٣) خزعل الماجدي، متون سومر ... ، ص ٦٦.

(٤) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى ... ، ص ٢٨.

(٥) محمد حسين النجم ، فلسفة الوجود ... ، ص ٥١.

(٦) صموئيل نوح كريم، الأساطير السومرية ... ، ص ٦٥.

(٧) فوزي رشيد، "المعتقدات الدينية"، حضارة العراق القديم، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج١، ص ص ١٦٧-١٦٨.

(٨) جان بوتيريو، بلاد الرافدين ... ، ص ٥٦.

فكلمة جبل، كما تُستعمل في العراق القديم، عبارة تحمل معنى دينياً حتى أن ترجمتها البسيطة لا تنصفها أبداً، تماماً كما يقع لكلمة الغرب أو نون في الاستعمال المصري. إن لفظة الجبل في الفكر العراقي القديم تعني المكان الغمر الذي تتركز فيه قوة الأرض الخفية، وبالتالي كل الحياة الطبيعية. وكانت بعض الآلهة كونها تجسيدا للحياة الطبيعية، مثل تموز، فقد كان يظن أنها تصبح عاجزة في صيف مثل صيف العراق القديم الذي يُعدّ لعنة تدمر النبات تدميراً كلياً وتنهك الإنسان والحيوان. وتعتبر الأساطير عن ذلك بالقول أن الإله يموت أو يؤسر في الجبل، ومن الجبل يعود في السنة الجديدة عندما تنتعش الطبيعة. وعندما يمثل إله الشمس مشرقاً كل يوم من وراء جبال المشرق فإن هذا المشهد ليس مجرد تذكير بجغرافية البلاد. والمطر المحيي يُجلب أيضاً من الجبل بواسطة إله الطقس. وهكذا يكون الجبل، في جوهره، المجال الغامض لنشاط القوى التي هي فوق قدرة الإنسان أو المسكن الطبيعي للنشاط الإلهي. ولقد أوجد السومريون الظروف التي فيها أصبح الاتصال مع الآلهة ممكناً عندما شيدوا الجبال الاصطناعية لهياكلهم (الزقورة)^(١). فهذه الأخيرة كانت تمثل الجبال الكونية في الفكر العراقي القديم^(٢).

إن الفيضانات السنوية كانت تمون باستمرار الأهوار والمستنقعات التي تشغل مساحات كبيرة من السهل الرسوبي، وعندما تمتلئ تمتد المياه إلى أراضي شاسعة خارج تلك المنخفضات حتى تصل المناطق التي تغمرها المياه حوالي ٢٠ ألف كيلو متر مربع، وبعد انحسار المياه إلى الخليج العربي كانت الأجزاء المرتفعة من الأرض هي أول الأراضي اليابسة التي تظهر من تلك الفوضى المائية^(٣). لهذا فإن مفردة الجبل تكشف لنا عن تصور الإنسان العراقي القديم للانبعاث الكوني الذي نجده لا يختلف كثيراً عن انبعاث اليابسة من وسط الماء وهي الصورة التي استقاها من واقعه^(٤). حيث ظهرت جزيرة يابسة على هيئة جبل قبته هي السماء وقاعدته هي الأرض ومن لقاء القبة بالقاعدة ظهر الهواء، العنصر المادي الثالث بعد المياه والتراب.

وتبعاً لاختلاف الصورة الطبيعية التي عكسها كل من المفكر السومري والبابلي، كما اسلفنا، فقد اختلفت الصورة الأسطورية بينهما؛ فالصورة الأدبية في ملحمة الخليقة البابلية وما احتوته من تأملات

(١) هنري فرانكفورت، فجر الحضارة ... ، ص ص ٧٠-٧١.

(٢) هاري ساكز، عظمة بابل ... ، ص ٤٦.

(٣) على محمد مهدي ، دور المعبد في المجتمع العراقي من دور العبيد حتى نهاية دور الوركاء، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٥ ، ص ص ٢٧-٢٨.

(٤) محمد حسين النجم ، فلسفة الوجود ... ، ص ٥٣.

وأفكار البابليين القدماء والتي حاولوا أن يفسروا من خلالها تكوين أو نشأة الكون، هي صورة ذهنية مبنية على معرفتهم بالطريقة التي تتكون بها المساحات الجديدة من الأرض في بلادهم، فالعراق-السهل الرسوبي- بلد نشأت أرضه على مرّ آلاف السنين من الطمي الذي يجيء به نهري دجلة والفرات ويرسبانه في المصب من كليهما، سنة أثر سنة، بامتداد الأرض في الخليج العربي^(١).

إن المبدأ الأكبر الذي يستشف من ملحمة الخليقة البابلية هو لا شك مبدأ التطور الطبيعي الخلاق^(٢)، لهذا نجد أن أول أشكال الكون التي خرجت من الهيولية كانت ألوهات (أشكال كونية) بدائية ذات صنع ما يزال أولياً، فالآلهة وفقاً للفكر العراقي القديم يشكلون جزءاً من الكون، وهم مثله خاضعين للتشكل من العدم إلى الوجود^(٣)، وهذا ما نجده في النص الآتي من تلك الملحمة:

" (حينئذ) خُلِقَ الآلهة فيما بينهما.

فجاء إلى الوجود ((لخمو)) و((لخامو))، ودُعيا باسميهما.

حتى قبل أن يشبّا (و) يكبرا،

خُلِقَ ((أنشار)) و ((كيشار)) وزادا عليهما في المكانة^(٤).

فكانت أول الآلهة (العناصر الكونية) التي ظهرت وفقاً للنص، هما (لخمو) و(لخامو) وهما يمثلان الطمي الذي يتراكم في مجاري المياه، ثم جاء الإلهان (أنشار) و(كيشار) وهما الأفقان التوأمين للسماء والأرض، ثم أنجب (أنشار) و(كيشار) أبنيهما الإله (أنو) الذي أنجب بدوره الإله (آيا) (انكي)^(٥). أي أن طمي الزمان الأول المتمثل بـ(لخمو ولخامو) بعد أن ولدته المياه العذبة والمالحة في فوضى المياه الأولى، يستقر ويتراكم في حلقة فسيحة هائلة تمثل الأفق. ومن سطح الحلقة (أنشار)، وأسفل الحلقة (كيشار) نشأ بتراكم الأيام والسنين (أنو) السماء و(نوديموت- انكي) الأرض^(٦).

(١) ثوركلد جاكوبسن، أرض الرافدين ... ، ص ٢٠٢.

(٢) مرغريت روثن، علوم البابليين ، تعريب وإيضاحات: يوسف حبتي، دار الرشيد ، (بغداد، ١٩٨٠)، ص ٥١.

(٣) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ... ، ص ٢٦٨.

(٤) الكسندر هايدل، قصة الخليقة ... ، ص ص ٣٥-٣٦.

(٥) جورج رو ، العراق القديم ... ، ص ١٣٩.

(٦) ثوركلد جاكوبسن، أرض الرافدين ... ، ص ٢٠٣.

ولو تخيلنا عن هذا الغطاء الأسطوري المشبع بالرموز الدينية وجعلنا في مكانه رؤية واقعية "لصباح يوم كثيف الضباب قرب ساحل العراق الحالي عند فم شط العرب، فإننا سنرى، بلا ريب، سحباً منخفضة تتعلق في الأفق، وينابيع مياه عذبة تنز من تحت الأرض وتختلط بالمياه المالحة للخليج. أما المسطحات الطينية المنخفضة المؤلفة للأرض اليابسة، فلا يمكن رؤية أكثر من بضعة أقدام منها. وكل ما حولنا من السماء والأرض والبحر يمتزج في فوضى مائية- ضبابية مبهمة، هكذا تصور مؤلفو هذه الملحمة، الذين يجب أن يكونوا قد لاحظوا مراراً مثل هذا المشهد، كيفية بدء تكون العالم. فعندما " لم يكن هناك أي شيء مسمى "، - أي عندما لم يكن هناك أي شيء مخلوق- كتب واضعو هذه الأسطورة: (كونت) الآبسو (المياه العذبة) و تيامة (المياه المالحة) و (ممو) (الغيوم) مع بعضها جسماً مضطرباً واحداً"^(١).

٣- صور تنظيم الكون

أ- صور تشكل أجزاء الكون الأساسية

رغم ظهور أول أجزاء الكون متمثلة بالجبل الكوني (Cosmic Mountain) لكن صورة خلق الكون لم تكتمل بعد. فتلك الكتلة الكونية مضطربة ومتشابكة تتكون من الأرض والسماء المتحدتين. ومن أجل خلق باقي أجزاء الكون ليصل إلى مرحلة الاكتمال أقتضى فصل تلك الكتلة البدائية^(٢). إذ تقوم فكرة الخلق لدى السومريين بصورة عامة، على مبدأ انقسام الوجود الكوني الأول إلى أجزاء منفصلة، ستمثل في النهاية أجزاء الكون الأساسية^(٣). والذي ينقسم إلى شقين، أولهما ما يتصل بالسماء وثانيهما ما يتصل بالأرض، والسماء عند السومريين هي الفضاء وما فوقه ويطلقون عليها اسم (الأعلى العظيم) إما الأرض فتعني عندهم ما على وجه الأرض وكذلك الفضاء في أسفلها ويطلقون عليها اسم (الأسفل العظيم)^(٤). وهذا ما يوضحه النص الآتي من مقدمة ملحمة كلكامش بقوله:

" بعد أن أبعدت السماء عن الأرض

(١) جورج رو ، العراق القديم... ، ص ١٣٨.

(٢) عبد الباسط سيدا، من الوعي الأسطوري ... ، ص ٢٦٨.

(٣) محمد فهد ، قصة الخليقة ... ، ص ٧٦.

(٤) صموئيل نوح كريم، الأساطير السومرية ... ، ص ٦٧.

وبعد أن فصلت الأرض عن السماء" (١).

إن هذا الفصل تم بعمل الإلهين الكبيرين : آن/آنو من جهة وإنليل من جهة أخرى. إذ كان كل منهما يرغب في السيطرة على جزء منه. وقد أهتم هذا الأخير بأن يسلم القسم السفلي كله من الأرض إلى الإلهة التي كانت في بادئ الأمر سيدهته الوحيدة (٢). وهذا ما يوضحه النص المسماري بقوله:

" حينما أخذ (آن) العلى لنفسه

وأخذ (أنليل) الأسفل لنفسه،

وجهاز ارشكيكال بجزئه السفلي" (٣).

لقد أعتقد العراقيون القدماء بأن الأرض والسماء عنصرين صليبين، وأن العنصر الغازي الموجود بينهما، أي الهواء، قد تولد منهما وأن الميزة الأساسية التي يتسم بها الهواء هي التمدد، ولهذا السبب فإن انفصال الأرض عن السماء كان نتيجة هذا التمدد (٤). وبإسقاط الصورة البشرية (التشبيه) التي اعطاها المفكر السومري إلى الهته، فإن إنليل إله الهواء قام بفصل والده آنو إله السماء عن أمه كي إلهة الأرض (٥). وهذا ما أشار إليه النص الآتي من أسطورة خلق الفأس بقوله:

" (انليل) الذي يجلب البذور إلى الأرض لزرعها

تولى برعايته فصل السماء عن الأرض

تولى برعايته فصل الأرض عن السماء" (٦).

إن الذي اعطى الهواء (انليل) تلك القدرة على الفصل هو طبيعته التي يبدو أن أكثر خصائصها هي الحركة والامتداد، والتي استقاها السومري من واقع بيئته ، ويسقطها على انليل للتعبير عن قوة البعث

(١) صموئيل نوح كريم، من ألواح سومر ... ، ص ١٦٠.

(٢) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ... ، ص ٢٦٧.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٦٧.

(٤) صموئيل نوح كريم، الأساطير السومرية ... ، ص ١١٩.

(٥) محمد فهد ، قصة الخليقة ... ، ص ٥٢.

(٦) صموئيل نوح كريم، الأساطير السومرية ... ، ص ص ٦٥-٦٦.

والإيجاد التي يملكها هذا العنصر أو الإله في الوجود^(١). فقد لاحظ العراقي القديم أثر الرياح في الفيضانات ونشر الطين في الحقول وتجفيفه، حتى أنه أطلق على الطين الذي كان يحمله الفيضان معه (طين إنليل)^(٢). لهذا تعاظمت سلطة الإله إنليل في الفكر العراقي القديم وطغت على سلطات غيره من الآلهة أحياناً، وذلك بسبب ما في فواعله الطبيعية من عنف يؤثر في حياة الإنسان العراقي القديم^(٣). فعندما يسكن الهواء، يكون إنليل في حالة هدوء ودعة واطمئنان، وإذا هب النسيم العليل فإن إنليل يسرح ويمرح. وإذا هبت العاصفة فإنليل في حالة حركة وانفعال. أما إذا اشتدت العاصفة وثار الإعصار فإن إنليل في حالة غضب وهياج^(٤).

إن تنوع مظاهر البيئة في أرض العراق أدى إلى تنوع الصور التي استقاها المفكر العراقي القديم من تلك البيئة وبنى عليها تصوراته عن كيفية خلق الكون^(٥)؛ لهذا فبالرغم من أن الرؤية السومري السابقة لتشكل أجزاء الكون من انقسام الوجود الكوني الأول، والتي استقاها من رؤيته لكيفية تشكل اليابسة في الأهوار. تعد الأساس الذي تعتمد عليه تصورات البابليين لخلق الكون كذلك^(٦). لكن المفكر البابلي قدم لنا صورة مغايرة تركز على كيفية تشكل أرض العراق الرسوبية (السهل الرسوبي). حيث تشكلت الأرض من طمي أنهار العراق الذي يرسبانه سنة تلو الأخرى^(٧).

فوفقاً لقصة الخلق البابلية أن طمي الزمان الأول المتمثل بـ(لخمو ولخامو) بعد أن ولدته المياه العذبة والمالحة في فوضى المياه الأولى، يستقر ويتراكم في حلقة فسيحة هائلة تمثل الأفق. ومن سطح الحلقة (انشار)، وأسفل الحلقة (كيشار) نشأ بتراكم الأيام والسنين (أنو) السماء و(نوديموت - انكي) الأرض^(٨). وهذا ما وضعه النص الآتي من قصة الخليقة البابلية بقوله:

" طالت الأيام ، تزايدت السنون .

(١) محمد حسين النجم ، فلسفة الوجود ... ، ص ص ٥٢-٥٣ .

(٢) يوسف الحوراني، البنية الذهنية ... ، ص ١٨٩ .

(٣) Bottero, Jean, Religion in Ancient Mesopotamia, Translated by Tresa Lavender Fagan, (Chicago, 1992),, p.67.

(٤) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى ... ، ص ١٩٩ .

(٥) حسين سيد نور، اثر الحتمية البيولوجية ... ، ص ٢٧٩ .

(٦) جورج رو ، العراق القديم ... ، ص ١٣٧ .

(٧) طه باقر وبشير فرنسيس، الخليقة وأصل الوجود ... ، ص ٤ .

(٨) ثوركلد جاكوبسن، ارض الرافدين ... ، ص ٢٠٣ .

آنو، وريثهم، صار منافساً لآبائه،

جعل أنشار آنو، بكره، ممثلاً له.

وآنو، ليكون مثيلاً له، أنجب نوديمود،^(١).

إن أنشار وكيشار، كما أسلفنا، هما في الواقع أفق السماء وأفق الأرض على التوالي. لهذا فإن تعبير ملحمة الخليقة البابلية من أن أنشار صنع آنو على صورته وأن الأخير صنع آيا على صورته يمثل تصور خاص لأن السماء تشبه الأفق في استدارتها ولأن الأرض كانت في نظر البابليين في شكل قرص بل في شكل إناء مستدير^(٢). ولذا فإن السماء ، التي بدت لهم جماداً كالأرض، تكونت ولاريب على النحو نفسه، ثم رفعت إلى مكانها العلي^(٣).

وحتى إذا انتقلنا إلى نسخة أخرى للقصة البابلية من أجل أن نطلع على صورة أخرى أقدم وأسلم لتأملات البابلي القديم، لتفادي التحوير الذي أصاب قصة الخلق البابلية، ونعني هنا النسخة التي حفظت في القائمة العظيمة القديمة الخاصة بآلهة العراق القديمة والمعروفة بقائمة (آن-انوم). نجد السماء والأرض نشأت من الأفق (أنشار وكيشار). أي أن البابلي، كان ينظر إلى السماء والأرض كقرصين هائلين تكونتا من الطمي الذي أستمتر تراكمه داخل حلقة الأفق، ذلك الذي ((عاش أياماً كثيرة ، مضيفاً العام إلى العام)). وفيما بعد انفصل القرصان بفعل الريح، التي نفختهما في شكل كيس كبير نعيش في داخله، الأرض جانبه الأسفل والسماء جانبه الأعلى^(٤).

بعد أن فصل انليل بين السماء والأرض، وأعطاهما شكلهما الذي نعرفه اليوم، أنصرف إلى خلق بقية عناصر الكون الأساسية. ويصور الفكر العراقي القديم طرق خلق أو ظهور أجزاء الكون تلك، وخاصة الأجرام السماوية، مثل الشمس والقمر، بأنها جاءت نتيجة الفعالية الجنسية للآلهة. ففي أسطورة إنليل وننليل ونتيجة الفعل الجنسي بينهما يولد القمر. والقمر بدوره أنجب الشمس بفعل جنسي آخر^(٥). وهذا ما يوضحه النص الآتي من تلك الأسطورة:

(١) نائل حنون، أسطورة الخليقة البابلية- النص المسماري الشعري، شركة المطبوعات، (بيروت، ٢٠٢١)، ص ٦٨.

(٢) اسامة عدنان يحيى ، الآلهة في رؤية ... ، ص ص ٤١-٤٢.

(٣) عبد الرضا الطعان ، الفكر السياسي في وادي الرافدين ووادي النيل ... ، ص ٦٩.

(٤) ثوركلد جاكوبسن، أرض الرافدين ... ، ص ٢٠٣.

(٥) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى ... ، ص ٣٨.

"سكب إنليل في أحشائها بذرة ابنه سين - آشيمابار"^(١).

إن طريقة التوالد التي اعتمدتها تلك النصوص وسيلةً لتفسير ظهور أو تكاثر الآلهة، ربما تجعل من الصعب تبيان أثر البيئة في تشكلها بتلك الصورة، بسبب طغيان تأثير خاصية تشبيه الآلهة بالإنسان التي اتصفت بها الآلهة في الفكر العراقي القديم. لكننا عندما نستذكر أن تلك النصوص تعبر أيضاً، وربما في الأساس، عن تأملات العراقي القديم في نشوء أجزاء الكون، يتبين لنا أثر البيئة في التصورات التي توصل إليها بهذا الشأن. والتي يمكن حصرها في: طبيعة المادة التي تكونت منها أجزاء الكون، وأسبقية ظهور تلك الأجزاء. إذ أن تلك التصورات كانت مستندة في الأساس على أهمية ومدى تأثير أجزاء الكون تلك في حياة العراقي القديم .

فلما كان الهواء أخف وزناً وأقل كثافة من السماء والأرض، الصلبتين بنظر العراقي القديم، فقد تولد عنه القمر. أي إن العراقيين القدماء اعتقدوا بأن القمر قد تكون من نفس المادة التي تكون منها الهواء، وكذلك كانوا يعتقدون بأن القمر ولد الشمس بنفس الأسلوب الذي تولد به هو عن الهواء^(٢).

أما ظهور القمر قبل الشمس وكونه فيما بعد أباً للشمس، فسبب تكون تلك الفكرة لدى العراقي القديم هو اعتقاده بأن تأثير القمر أكبر من الشمس في بيئته الطبيعية، فعلى الرغم من أنهم قدسوا الشمس وعدوها علة تغير ظروف حياة الإنسان والحيوان والنبات، وتلك حصيلة الخبرة المتراكمة^(٣)، إلا أنهم رأوا في تأثير القمر، نتيجة اهتمامهم بمراقبته ودراسته، أثراً أكبر على مجريات الأمور على هذه الأرض كتقلبات المناخ والمد والجزر، ويظهر عمق الاعتقاد بهذا التأثير في وضعهم التقويم القمري، لقربه من حركة الطبيعة ولعله أصل إدراك الزمن وتحديد مفاهيمه الحيوية ، مثلما أشارت إلى ذلك قصة الخلق البابلية حينما قام مردوخ بخلق الأبراج^(٤). لقد كان مشهد الليل الجليل وقبة السماء الحالكة بنجومها وشهبها المارقة ومذنباتها السابحة، من أكثر المشاهد تأثيراً في نفس الإنسان القديم. فكان الليل بالنسبة إليه هو الأصل والنهار هو الفرع. الليل هو الأزلي والنهار هو الحادث. من عتمة الليل القديمة، أخذ الكون بالتمايز، وعن العماء الأولي ظهرت الموجودات وترتبت كما تظهر نجوم السماء في كل يوم من جوف الليل لما يأتي، إن أولوية الليل على النهار تستدعي أولوية القمر سيد الليل على الشمس وأسبقية

(١) قاسم الشواف، ديوان الأساطير - الكتاب الأول ...، ص ٤٢.

(٢) صموئيل نوح كريم، الأساطير السومرية ...، ص ١١٩.

(٣) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى ...، ص ٤٢.

(٤) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات ...، ص ٦١.

الديانات القمرية على الديانات الشمسية^(١). فالقمر غالباً، أول الكواكب التي راقبها العراقي القديم لقربه من الأرض وتغييراته الملحوظة والاعتيادية علاقة في ذلك. فهناك الكثير من نصوص الفأل المستندة إلى القمر وتحركاته وأشعاله وخسوفه وعلاقته بالشمس^(٢).

من الناحية الجغرافية والعلمية فإن الشمس تعد أهم بكثير من القمر، لكن في البيئة الطبيعية للعراق فإن الصورة تنعكس، إذ بينما كان الناس يرحبون بشمس الصباح الباكر والتي تدفئ الأرض وتطارد الظلال التي تكمن فيها الأرواح الشريرة مثيرة الرعب، لكن عندما تبلغ الشمس وسط النهار نجدها تفتقد هذا الترحيب الذي حظيت به أول النهار، فلا تعد صانعة الخير للإنسان، بل أنها تصبح قاتلة تلهب جلود كل الأشياء النامية، فتحول بحرارتها الشديدة جداً السهول إلى صحاري وتسبب ضربة الشمس التي تأتي بالموت والألم. وزيادة على ذلك فإن الشمس في طريقها للغروب تفتقد عند هذه الدرجة صفتها التي تجعل منها (شمس) وتصبح (نركال) إله العالم السفلي والذي يسكن في دنياه ضحايا الألم والأوجاع التي سلطها بنفسه على البشرية.

ب- صور تنظيم الكون المخلوق

الحقيقة أن الإنسان هو الذي أبتدأ المعركة مع الطبيعة من خلال محاولته السيطرة عليها باستصلاح الأرض وتخليصها من الأهوار والمستنقعات لكي تغدو قابلة لاحتضان التاريخ الإنساني^(٣). فالتمتعن في أسلوب كتابة قصة الخلق البابلية يجدها تبدأ بأسلوب هادئ ليس فيه شيء من العنف والقسوة، ولكن في المرحلة الثانية مع بداية تنظيم الفوضى الطبيعية من قبل الآلهة الجديدة يبدأ العنف الذي يصل إلى القتل^(٤)، وهذا التسلسل يمثل مراحل العلاقة بين الإنسان والطبيعة وتبادل أدوار التأثير والتأثر، فعندما لم يكن باستطاعة الإنسان تطويع الطبيعة لقلّة إمكاناته وقف يستجدي ما تتكرم به عليه، ولكن مع تتطور إمكاناته والتي شعر بوجودها بقوته وبقدرته على استصلاح البيئة العنيفة وجعلها آمنة لسكنه وزراعته وبناء حضارته ، نجد بداية العنف المتبادل بين الطبيعة والإنسان.

(١) فراس السواح ، لغز عشتار ... ، ص ص ٧٨-٧٩.

(٢) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية ... ، ص ١٣٥.

(٣) يوسف اليوسف، "قراءة في ملحمة التكوين البابلية" ، مجلة المعرفة السورية، ع ١٩٧، تموز، ١٩٧٨، ص ٨٦.

(٤) فراس السواح ، مغامرة العقل الأولى ... ، ص ٩٧.

وهذا ما أكدته جاكبسون بقوله : أن الأسطورة (أي أسطورة الخلق البابلية) تكاد تتكون من جزأين يعالج الجزء الأول منها أصل معالم الكون الرئيسة ، ويروي الثاني كيفية تأسيس نظام العالم الحالي^(١). وهو السبب وراء وجود تناقض في صور الخلق التي تطرحها الأسطورة، فهي تصور لنا خلق السماء بطريقتين مختلفتين، الأولى يتم خلق السماء بفعل جنسي، وفي الثانية يصنع إله الريح السماء من نصف جسم البحر^(٢)، وهذا الأمر ينطبق على خلق الأرض أيضاً، إي أن العراقي القديم مثلما، وكما مر بنا سابقاً، جعل مما يراه من حقائق عن نشوء الأرض في بلده أساساً في تأمله وتصوراتهِ في أصل معالم الكون الكبرى، فإنه من جانب آخر جعل أيضاً صراعه مع بيئته الطبيعية ومحاولته السيطرة عليها وتنظيمها لتكون صالحة لبناء حضارته عليها أساساً لتأمله وتصوراتهِ في أصل تنظيم الكون.

تُعرف بيئة الحياة بأنها: "مجموع الأجزاء المادية الطبيعية من العالم والأجزاء التي يخلقها الإنسان، والتي يُؤمن الإنسان من خلالها وبمساعدها احتياجاته المادية والحضارية . فهو بهذا الأسلوب يغير ويحدد البيئة ويخلق في نفس الوقت الشروط المادية لحياته هو وحياة الأجيال المقبلة ، وهو ما يعني كذلك كل التغيرات الطارئة على الحياة من جراء التغيرات الجارية في الشروط المادية وبيئتها من الناحية الأخرى"^(٣). والعراقيون القدماء بنوا على الأرض المصطنعة التي كسبوها بفضل جهودهم وتعاونهم وبواسطة عمليات التجفيف وأعمال الري ، قرى مؤلفة من أكواخ مصنوعة من القصب وبيوت الطين^(٤). والتي جعلوها تعبر، في صور أسطورية، عن وعيهم بكيفية تشكل الكون ونشوء الحضارة .

تعتبر أسطورة خلق العالم من قبل مردوخ عن هذه التصورات بكل وضوح. وعلى الرغم من أن هذه الأسطورة تعود إلى حقبة متأخرة نسبياً، العهد البابلي الحديث، إلا أن هناك عدة ملاحظات تجعلنا نعتقد بأنها تمثل وجهة نظر العراقيين القدماء بصورة عامة وليس البابليين فحسب. الملاحظة الأولى إن تلك الأسطورة ثنائية اللغة، أي مدونة باللغتين السومرية والبابلية^(٥). الملاحظة الثانية أن مدينة أريدو، التي تتناول الأسطورة كيفية بنائها وظهرها، كانت من الناحية التاريخية أقدم مدينة في جنوب العراق إذ يعود استيطانها إلى أقدم أطوار دور العبيد، وهذا الدور يمثل أول استيطان للإنسان في المنطقة وفقاً للدليل

(١) ، أرض الرافدين ... ، ص ٢٠٠.

(٢) ثوركليد جاكبسون ، أرض الرافدين ... ، ص ص ٢١٣-٢١٤.

(٣) ١. م. هولي وآخرون ، الإنسان والبيئة ... ، ص ١١.

(٤) جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ ... ، ص ٨٩.

(٥) الكسندر هايدل، قصة الخليقة ...، ص ص ٩١-٩٢.

الآثري المتوفر حتى يومنا هذا. والملاحظة الثالثة والأخيرة، تخص موقع أريدو نفسها على مقربة من أهوار جنوب العراق حيث يمكن للأرض أن تُستَحْدَث في وسط الماء. من هنا فإن الأسطورة تنقل لنا، بشكل أو بآخر، أحداث تاريخية تتناول بدء السكن في جنوب العراق ونشوء أقدم المدن ولكن بصياغة أسطورية، بتعبير آخر فإن هناك نوع من الحس التاريخي يختفي بين سطور هذا النص الأسطوري. وهذا الحس التاريخي ينقل لنا صورة عن وعي العراقيين القدماء بكيفية نشوء الحضارة وموضعها في بلادهم^(١).

تقدم هذه الأسطورة الأمور بنوع مختلف، إذ تصف تكوين الأرض بطريقة أكثر واقعية فالإله يربط قصبات بعضها إلى بعض ويبسط الأرض فوقها على طريقة تكوين القرى في المستنقعات الجنوبية في العراق^(٢). وهذا ما يوضحه النص الآتي من تلك الأسطورة بقوله:

" كانت الأراضي كلها بحراً،

[... ...]

أقام ((مردوك)) إطاراً من قصب على وجه المياه،

خلق الوحل وصبّه في إطار القصب. " ^(٣)

يتضح لنا من النص أعلاه أننا أمام وصف دقيق للطريقة التي أعتمدها العراقي القديم في صنع الأرض اليابسة أو الجزر الصغيرة منها في وسط مياه الأهوار، وهي بطبيعة الحال الطريقة ذاتها التي يعتمد عليها عرب الأهوار جنوب العراق في الوقت الحاضر في صنع الجزر الاصطناعية لإقامة أكواخهم المصنوعة من البردي عليها.

لقد افترض العراقي القديم قانوناً للوجود هو (الحركة والتغير). فعالم الإنسان بطابعه الديناميكي المتغير لم يثر استغراب المفكر العراقي لأنه مدرك تماماً أهمية الحركة والتغير في إيجاد الموضوعات وقد صاغ هذا القانون في أدبياته المعبرة عن فكره بشكل واضح وجلي^(٤). ذلك القانون كان في صيغة اعتقاد راسخ عند الإنسان العراقي القديم مفاده أن أصل النظام الكوني في صراع مستديم بين مبدئين هما القوى

(١) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ص ٢٨-٢٩.

(٢) جفري بارندر، المعتقدات الدينية ... ، ص ١٨.

(٣) الكسندر هايدل، قصة الخليقة ... ، ص ص ٩٢-٩٣.

(٤) ولاء مهدي محمد، الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين ... ، ص ٨.

الدافعة إلى الحركة والقوى الدافعة إلى السكون. الإنسان العراقي القديم بقوة عمله الهادف إلى بناء الحضارة في مواجهة بيئته الطبيعية القاسية الهادفة إلى منع ذلك وابقاء الأرض على حالتها الطبيعية.

إن اقتران خلق الإنسان بالعمل لصالح الآلهة كان قد مثل خطوة كبيرة في طريق التأكيد على أهمية العمل الإنساني^(١). فطيلة المدة التي كان فيها العراقي القديم يعتمد في معيشتة على ما تدر به الطبيعة فإن مفهوم العمل بصورة عامة، لم يكن له وجود بالنسبة له. وبالتالي فإن ما كان يعتقده هو أن ما تدر به الطبيعة هو من عمل الآلهة الصغار التي وجدت لخدمة الآلهة، وهو مكرس بالأصل لصالح الآلهة. ولكن انتقال العراقي القديم إلى مرحلة جديدة هي مرحلة الحضارة، كان قد أقترن ببدء تغيير الإنسان للطبيعة. وقد تم ذلك فعلاً بفضل عمله. أن ذلك كان قد دشن، بالنسبة للعراقي القديم قيام مفهوم العمل. كذلك فإنه يمثل خروج الإنسان من حضن الطبيعة والتحرر منها، إلى مرحلة التحكم فيها وتوجيهها لمصلحته بعد تاريخ طويل من الاستسلام والعيش في كنفها.

تعطينا عبارة (تشكيل الكون) الواردة في أسطورة الخليقة البابلية اشارة إلى بداية ظهور تشكيل أو تخطيط للأمور. لقد أمر آيا بأن تكون الأشياء كما هي ، فكانت^(٢). أنها بداية العمل على تنظيم الطبيعة الوحشية واستصلاح الأراضي والسيطرة على المياه. إذ ان نشوء أول حضارة في العراق القديم تحقق بعد أن تغلب المزارعون على فيضانات الأنهار وبعد أن ضبطوا الري بإنشاء السدود وحفر الجداول والترع وتجفيف الأهوار. وهذا ما يوضحه النص الآتي من تلك الأسطورة بقوله:

" إيا العليم بكل شيء، أدرك خطتهم.

فكّون واقام إزاءها

تشكيل الكون، صنع

بفائق مهارته رقيته القدسية الغالبة.

تلاها ثم ألقى بها على الماء (على آبسو)^(٣).

(١) عبد الرضا الطعان ، الفكر السياسي ... ، ص ٦١٣.

(٢) ثوركلد جاكوبسن، ارض الرافدين ، ص ٢٠٦.

(٣) ثوركلد جاكوبسن، ارض الرافدين ، ص ص ٢٠٥-٢٠٦.

لقد غادرت القوى الحضارية الجديدة مرحلة الوئام مع الطبيعة ودخلت مرحلة السيطرة على الطبيعة ، فلم تعد المرحلة الجديدة مجرد حالة استقرار حول الماء العذب ، بل هي انتقال إلى استصلاح الأرض وجعلها قابلة لزراعة شديدة التطور ، من خلال القيام بمشاريع الري الكبرى . ولم تكن سيطرة أيا على أبسو إلا رمزاً لسيطرة الإنسان على الماء العذب وتسخيرها للزراعة والري، وذلك بحفر الآبار وبناء السدود وحفر القنوات . ولم يكن بناء الآلهة لمدينة بابل إلا رمزاً لشروع الإنسان في بناء حواضره. وهذا ما يوضحه النص الآتي من قصة الخليقة البابلية بقوله:

" (أيا) قيد أبسو وذبحه،

اسر ممو وهشم جمجمته،

وعلى أبسو اقام مسكنه " (١).

لعل أهم ما يعلمنا إياه هذا النص من قصة الخليقة البابلية أن السؤال الوجودي، أو موضوعه خلق الكون، يتأثر بشكل واضح ومباشر بالهم الحضاري الأول، أو ربما بجملة هموم حضارية أو تاريخية لها الأولوية على كل ما عداها. ففي هذه الأحداث يتبدى الوجودي بوصفه عنصراً ثانوياً فيها، مع أنها تحاول أن تحل لغز التكوين، بينما هي في الحقيقة تعكس همين حضاريين أساسيين، أولهما نهاية مرحلة حضارية قديمة وبداية أخرى جديدة، وثانيهما الصراع ضد طبيعة همجية تحتاج إلى ترويض كيما يستتب المشروع الحضاري الجديد. إذن ، أحدهما تاريخي وآخرهما اقتصادي. إن المعركة بوضوح هي معركة السيطرة على الماء العذب الذي هو أساس كل حضارة متقدمة. لقد قام أيا بقتل أبسو، وأصبح هو إله الماء العذب. لتبدأ عملية التكوين بقيام أيا بتغيير جسم أبسو إلى المياه العذبة الموجودة تحت الأرض خالقاً بذلك أول جزء من الكون .

إن التنظيم كان ضرورياً في نظر العراقي القديم، بسبب الموقف الخاص الذي اتخذته إزاء الفوضى، هذا الموقف الذي يرجع بالدرجة الأساسية إلى المعنى المتميز الذي أتمت به في نظره. فالفوضى هي الصورة التي عبر من خلالها عن حالة بيئته الطبيعية قبيل سكنه فيها . وهذا الوصف نجده في القسم الأول من قصة الخليقة البابلية^(٢). فسكان العراق القديم لم يتمكنوا من السكن وبناء حضارتهم

(١) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٢٤.

(٢) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ... ، ص ص ٣٦٢-٣٦٤.

في البلاد إلا بعد أن استطاعوا تنظيم تلك الفوضى في بيئتهم، الأمر الذي يوحي بفكرة مفادها أن التنظيم يمثل ركناً ضرورياً، لا يستغني عنه في أي توجه يبغى المحافظة على استمرارية الحياة، وترسيخ السلام والطمأنينة في النفوس والمجتمع؛ وقد تناولت معظم الأساطير العراقية القديمة هذه المسألة ومن جوانبها المختلفة واعتبرتها الأهم، بين سائر المسائل التي مثلت محور اهتمام المجتمع العراقي القديم.

لقد امدتنا النتاجات الفكرية التي جاء بها العراقيون القدماء، ولاسيما أساطير التنظيم، بصورة أدبية رائعة عن أوجه التفاعل بين الإنسان والطبيعة فهي بلا شك جاءت انعكاساً لأحداث من واقع الوجود الاجتماعي، فأسطورة انكي ونظام الكون رغم طابعها الميثولوجي تشير إلى صور مهمة لمجالات النشاط الاجتماعي في المجتمع السومري، فإلى جانب اهتمامها بالمجالات الروحية ومكانة الآلهة ومركز الإله انكي في تقرير المصائر^(١)، فإنها تخبرنا كيف تم تنظيم الاقتصاد الطبيعي في أرض الرافدين^(٢).

وفقاً لقصة الخليقة البابلية فإن مسألة خلق الكون وتنظيمه كانت بفضل إله واحد هو مردوخ^(٣). فبعدما كانت نتيجة الجولة الأولى وضع أساس الأرض بتحويل آبسو إلى مياه العمق من قبل أيا، نجد الجولة الثانية تؤدي إلى خلق بقية أجزاء الكون بعد انتصار الآلهة الجديدة نهائياً وتدمير قوى العماء وآلهتها العتيقة. فبعد قتال محتدم تمكن مردوخ من قتل تيامة الهائجة الغاضبة، ثم تمالك نفسه ليتولى فيما يجب عليه فعله. بعد ذلك أنهمك في عملية شاملة لإكمال بناء الكون وتنظيمه. وقد بدأ بجسم تيامة الهامد فشقه إلى شطرين ليخلق من السماء. ومن الآخر الأرض وأعدّ الحواجز والحرس لمنع المياه العليا من الانفلات، وفي السماء بنى داره قُبالة آبسو - إيا مباشرة، واسمها إشارا، التي يقول النص إنها السماء. ثم شكّل مجموعات النجوم، ونظّم التقويم، وثبت نجم القطب، وأصدر للقمر والشمس الأوامر بشأن حركتيهما^(٤). وهذا ما يوضحه النص الآتي من تلك الأسطورة:

" استراح الربّ، وهو يتفحص جسدها الميّت،

لكي يقسم حطامها، ويخلق(منه) أشياء فذة.

شطرها، كالصدفة، إلى قسمين،

(١) علي محمد مهدي، دور المعبد في المجتمع العراقي ...، ص ٣٣.

(٢) ثوركليد جاكبسون، أرض الرافدين ...، ص ١٨٩.

(٣) طه باقر، مقدمة في أدب ...، ص ٩٩؛ نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ٢٥.

(٤) ثوركليد جاكبسون، أديان ما بين النهرين ...، ص ٢٤٠.

وضع نصفها في مكان، وكَوّن منه السماء سقفاً.

ثبت العماد، وعين الحرس،

وأمرهم ألا يسمحوا لمائها بالإفلات"^(١).

بعد سلسلة من الأعمال الكونية التي قام بها الإله مردوخ متخذاً من جسم تيامة مادة لتشكيل
أؤسس الكون الرئيسية ، نراه يعود مرة أخرى لما تبقى من جسدها لاستكمال بناء أو تشكيل باقي أجزاء
الكون وتنظيمها.

" وضع رأسها(تيامة)، (و) عليه نصب الجبال

الثقوب تفتحت، المياه تدفقت

فتح من عينيها، الفرات(و) دجلة

سد منخريها، [...] ترك عمله

كَوّن من ضرعيها ، الجبال المرتفعة

ثَقّب المنابع، لملء الأحواض

لوى ذيلها، عقد ((دور ماخ)) (الرباط العظيم)

[.....] أبسو، تحت قدميه

جعل خالها، مرعى السماوات

بسط نصفها ، (و) كَوّن الأرض

[.....] الغبار، من أحشاء تيامة نتف

[نشر] شبكته، أخرجها كلها

خلق، السماوات والأرض و....."^(٢).

(١) الكسندر هايدل، قصة الخلق، ص ٦٧.

(٢) نائل حنون، أسطورة الخليقة ... ، ص ص ١٩٢-١٩٣.

إن فكرة الصراع أو المقاتلة بين الآلهة كما يقول الفيلسوف اليوناني تياجنس^(١) ليست مقاتلة حقيقية بل يُعَبَّرُ عنها بالتنازع بين العناصر المختلفة مثل الهواء والماء والنار والتراب أو بين العواطف النفسية مثل الحب والعداوة^(٢). ويمكن القول بأن الصراع بين مردوخ وتيامة، هي معركة الحضارة ضد الطبيعة^(٣). هي معركة إحياء أرض العراق القديم بتنظيم مياهها الآروائية في القنوات^(٤)، فعندما ندقق فيما يفعله مردوخ بجسد تيامة، فهل نرى مردوخ يقوم بصنع الكون؟ أم نرى الإنسان العراقي القديم وهو يقوم بأعداد رقعة من الأرض إعداداً حضارياً؟ في العقل الأسطوري يختلط الأمران بحيث يتعذر التمييز بينهما وبحيث نلاحظ أن العنصريين (الوجودي والحضاري أو التاريخي) مندغمان في تركيبة واحدة .

إن كفاح الإنسان العراقي القديم ضد بيئته الطبيعية الصعبة، وخاصة المياه، كان له بالغ الأثر في الميثولوجيا^(٥). ففي وسعنا أن نستشف من وراء الغلاف الأسطوري لرواية الخلق البابلية أحوال العراق القديم البيئية في بداية ظهور أولى الحضارات في السهول الرسوبية منه في المراحل الأولى من استيطانها. وأثر تلك الأحوال في تصورات العراقي القديم ومعتقداته حول أصل الكون وكيفيه تشكله. فقد كان ينظر إلى خلق الكون على أنه إشاعة النظام في الفوضى التي كانت سائدة^(٦)؛ فالصراع الذي دار في هذه الملحمة بين الإله مردوخ أو انليل من جهة وبين تيامة من جهة أخرى ، وهي معركة في الجوهر معركة بين الرياح والماء، تتضمن رمزاً قديماً لفيضان الربيع. ففي كل ربيع تغطي المياه على سهول ما بين النهرين وتعود الدنيا إلى فوضى الزمن الأول المائية، إلى أن تصارع الرياح المياه وتجففها وتستعيد الأرض اليابسة^(٧). كل هذا وغيره يصوّر لنا صراع العراقيين الأوائل مع بيئتهم الطبيعية والسيطرة عليها وبناء الحضارة. فالسهول الرسوبية التي نشأت فيها أولى الحضارات إن لم تكن مغمورة بمياه البحر،

(١) تياجنس أو ثياجينس (Theagenes) : هو فيلسوف وناقد أدبي يوناني عاش في أواخر القرن السادس وأوائل القرن الخامس ق.م، وينسب إلى مدينة ريجيون في جنوب إيطاليا. ويعد من أوائل من حاولوا تفسير الأساطير اليونانية تفسيراً رمزياً (أليغورياً) بدلاً من فهمها علة ظاهرها. للمزيد ينظر: ماجد فخري ، تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس ٥٨٥ ق.م إلى أفلوطين ٢٧٠م وبرقلس ٤٨٥م، دار العلم للملايين، (بيروت، ١٩٩١)، ص ص ٢١-٢٢.

(٢) نقلاً عن: اسامة عدنان يحيى، الآلهة في رؤية ... ، ص ٩٥.

(٣) سبتينو موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب بكر، دار الرقي، (بيروت، ١٩٨٦)، ص ٨٥.

(٤) سامي سعيد الاحمد، العراق القديم ... ، ص ٣٢.

(٥) هاري ساكر، عظمة بابل ... ، ص ١٨٥.

(٦) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ... ، ص ص ٣٦٢-٣٦٤.

(٧) ثوركليد جاكسون، أرض الرافدين ... ، ص ٢١٣.

بحسب النظرية القديمة، وإلا فبمياه الأهوار والأحراش الناجمة عن فيضانات الأنهار، ثم استطاع الإنسان بمرور الأزمان أن يسيطر على تلك الأحوال الطبيعية العنيفة بما أقامه من سدود ونظام للري^(١).

على أن الطبيعة لم تبقى مكبلة من جانب الإنسان ، فبعد مدة زمنية على ظهور الحضارة في العراق القديم ثار مارد الطبيعة وكسر الأصفاد التي قيده بها الإنسان وجاء ذلك برموز أسطورية واضحة في قصص الطوفان السومرية والبابلية وأستمر الصراع ما بين الإنسان والطبيعة من بعد الطوفان فعاد الإنسان الجهود وتمكن من الغلبة ولاسيما أبان أوقات الازدهار الحضاري في تاريخ العراق القديم، في حين أن قوى الطبيعة تعاود الثورة على سيطرة الإنسان في أوقات الركود الحضاري^(٢)؛ ولذلك فقد كان من المحتم على الآلهة أو ممثليها في الأرض (كالمملوك والحكام والكهنة) خوض هذه المعركة وكسبها كل عام مثلما فعلت الآلهة في الدهور الأولى وإلا تهدد الكون بالفناء^(٣).

إن عنف البيئة في العراق القديم وتكرار مظاهر العنف مثل الفيضانات الذي كان يهدد بإرجاع الكون إلى حالته الأولى التي كان عليها قبل بدء تشكله أو قبل خلقه من قبل الآلهة، أدى إلى وجود عقيدة أو مبدأ يؤمن بوجوب تكرار دوري لفعل الخلق الأول في كل عام، ففي كل سنة يُخلقُ العالم من جديد، ويجري تجديده ليعود نضراً كما كان ، لحظة تشكله لأول مرة. وهذا التكرار الأبدي للخلق يجري بمعونة البشر ومشاركتهم فيه، عن طريق الطقوس التي من شأنها شد أزر الآلهة ومعاضدتها ضد قوى العدمية التي تتصدى لحركة الكون بغية استعادته إلى حالته السكونية. وهذا الإيمان كان السبب في ظهور ما يعرف باحتفال رأس السنة الذي بقي يقام سنوياً في بلاد الرافدين إلى قرون متأخرة جداً من تاريخ الحضارة البابلية ولعل من أهم وأبرز الطقوس المنتشعبة عن هذا الاحتفال قيام الملك بتقمص شخصية الإله مردوخ، بطل أسطورة التكوين البابلية وبمحاربة كنكو قائد قوات تيامة والقضاء عليها في مسرحية دينية هي عبارة عن تمثيل لوقائع أسطورة التكوين .

٤- الصورة النهائية للكون في الفكر العراقي القديم

إن الحقائق المادية التي عكسها العراقيون القدماء في نتاجاتهم الفكرية الأسطورية في شكل صور خلق عديدة، تضمنت آراءهم وتصوراتهم حول نشأت الكون وطريقة تشكله أو خلقه، عند جمعها تظهر

(١) طه باقر، مقدمة في أدب ...، ص ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) طه باقر وآخرون، تاريخ العراق القديم ...، ص ص ١١-١٢؛ سامي سعيد الاحمد، العراق القديم، ج ١، ص ٣٢.

(٣) فاضل عبدالواحد وعامر سليمان، عادات وتقاليد الشعوب ...، ص ١٧٤.

لدينا صورة كاملة لشكل أو هيئة الكون في نظر العراقي القديم. فذلك الكون كان في نظرهم بشكل كرة عظيمة، مكونة من نصفي كرة متعادلين، أي ما هو فوق (آن/شمو - An/Šamû) أي السماء، وما هو أسفل (كي/إرستو - Ki/Ersetu) أو الجحيم. أنهما مفصولان بخط قطري، كانت في منتصفه ما نسميه بالأرض، أرض الأحياء^(١)، والكون كله محاط من جميع الجهات، مثل جزيرة، بمياه البحر أو بمحيط لا حدود له من الحياة البدائية غير المخلقة. الذي يكون فيه الكون ثابتاً وغير قابل للحركة نوعاً ما^(٢).

وفي صورة أخرى تخيل سكان العراق القديم الأرض في هيئة قرص مسطح محاط بحاشية من الجبال يطفو على محيط من المياه العذبة (الآيسو أو الآبزو - Apsû/ AB-ZU)^(٣)، أو هي عبارة عن نصف كرة مقلوبة أو قبة طافية في المحيط أو قفه مقلوبة، وإن للأرض ثلاث مناطق هي المنطقة العلوية وهي الظاهرة والتي يسكن عليها البشر، والأرض الوسطى موضع المياه ومنطقة إله المياه آيا، والأرض السفلى وهي أرض العالم الآخر^(٤)؛ فالأرض مسطحة في نظرهم لأن شكل السهل الرسوبي، الذي يمثل القسم الجنوبي من العراق ويمثل في الوقت نفسه مكان ظهور فجر الحضارة العراقية القديمة، يتميز بأرض منبسطة تخلو من التضاريس المتعرجة كالجبال. بينما مثلت الأخيرة أطراف الأرض لأنها تمثل الطبيعة المميزة للأقاليم المحيطة بأرض العراق ولاسيما في الشمال والشرق. والأرض مكونة من ثلاث طبقات: لأن الطبقة الأولى منها وهي سطح الأرض التي نعيش عليها قد ظهرت، كما ذكرنا سابقاً، فوق المياه نتيجة صناعة الجزر الصناعية فوق الأهوار والمستنقعات أو بفعل طمي وغرين الأنهار. أما الطبقة الثانية فتمثل المياه المحبوسة تحت الطبقة الأولى وقد أصبحت تمثل المياه الجوفية. والطبقة الثالثة والتي عدت أرض الأموات. فربما كان مرجعها الطريقة التقليدية في البلاد لمعالجة الجثث التي كانت تدفن في الأرض دوماً، سواء في حفر أو في لحود أو في أقبية (سرديب)^(٥).

كانت السماء في نظر العراقيين القدماء تتكون من ثلاث طبقات، طبقة الكواكب أولاً ثم طبقة النجوم وأخيراً الطبقة العليا^(٦)، القبة حيث (سماء آنو) ومحل سكنى الآلهة العظيمة السامية وتعرض لنا

(١) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ...، ص ٣٣٧.

(٢) جورج رو، العراق القديم...، ص ١٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٤) عامر عبدالله الجميلي، المعارف الجغرافية عند العراقيين القدماء، دار المشرق الثقافية، (دهوك، ٢٠١١)، ص ١-٢.

(٥) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ...، ص ٣٣٧.

(٦) محمد فهد، قصة الخلق ...، ص ٥٦.

أسطورة (إيتانا) علو هذه الأخيرة حيث الصقر يصلها بـ(ثلاثة أضعاف الساعة) بطيران عمودي^(١). أن العراقيين القدماء عندما وضعوا تصوراتهم عن الكون بحثوا عن نوع من التناسق والتطابق بين المكونين الرئيسيين لهذا الكون وهما الأرض والسماء، فوفقاً للفكر العراقي القديم كان عالم الأرض انعكاساً لعالم السماء ، اعتماداً على أن الثانية تمثل عالم الآلهة خالقة الأولى. لكن الواقع الفعلي يخبرنا بأن السماء كانت مرآة للأرض، أي أن العراقي القديم عكس معرفته بالطريقة التي تكونت بها أرضه أساساً لتصوراته عن الطريقة التي تكونت بها السماء ، ليخلص إلى صورة جعلت منهما متماثلتين في صورة الخلق والتكوين.

انعكست معارف العراقيين القدماء الجغرافية بالأقاليم المكونة لبلادهم والأقاليم المحيطة بهم على طبيعة العالم حسب نظرتهم ، ولما كان اقليمهم الجغرافي الذي يعيشون عليه يتصف بكونه اقليماً مفتوحاً على الأقاليم المحيطة بهم، لذلك جاءت أوصافهم واسعة كسعة افقهم الجغرافي. لكن بقت معرفتهم بطبيعة التضاريس المكونة لبلادهم هي المنطلق في تصوراتهم للعالم أو الكون^(٢). فلم تكن الأرض أو العالم عند العراقيين القدماء لتشمل أكثر من بلاد الرافدين والمناطق المجاورة له^(٣). وكذلك الشعوب التي كان لهم علاقات معها، ونعرف، استنتاجاً من الأدلة الآثرية والأدبية المتيسرة، بأن العالم المعروف عنده لم يمتد إلى أبعد من الهند من ناحية الشرق، وإلى أبعد من بلاد الأناضول ومنطقة القوقاز والأجزاء الغربية من أواسط آسيا من ناحية الشمال، وإلى أبعد من البحر المتوسط من الغرب، على الرغم من احتمال شمول قبرص وحتى جزيرة كريت، وإلى أبعد من مصر والحبشة من ناحية الجنوب . وقسم السومريون العالم إلى أربعة أقاليم أو مناطق (أوبدا Ubdā)، كانت على ما يبدو تقابل إلى حد ما الجهات الجغرافية الأربع ، وأقدم إشارة إلى ذلك ما ورد في قصيدة إينمركار وسيد أراتا^(٤).

وهناك (خريطة العالم البابلية)^(٥) التي تصور الأرض بسطح مستوٍ على هيئة دائرة أو قرص يحده محيطياً (النهر المر) وفي الوسط يسير نهر الفرات . وعلى الجهات الأربع للبوصلة يجري ذكر أسماء بلدان غير معروفة بكلمات مقتضبة. وقد رُسمت مثلثات ذات ضلعين متساويين أما القاعدة فإنها محيط

(١) جان بوتيرو ، الديانة عند البابليين ... ، ص ص ١٠٤-١٠٥ .

(٢) عامر عبدالله الجميلي، المعارف الجغرافية ...، ص ص ٤٧-٤٨ .

(٣) جورج رو ، العراق القديم... ، ص ١٣٦ .

(٤) صموئيل نوح كريم، السومريون ... ، ص ص ٤٠٩-٤١٠ .

(٥) للمزيد عن هذه الخارطة ينظر: عامر عبدالله الجميلي، المعارف الجغرافية ...، ص ص ٢٠٥-٢٠٩ .

الدائرة أو وراء المحيط السماوي على أطراف الاوقيانوس وحافته وفي أقصى الشمال ، جرت الإشارة إلى بلد يدعى (الأرض التي لا ترى الشمس مطلقاً) والذي يوحي لنا بأن البابليين كانوا قد سمعوا بالشتاء القطبي المظلم^(١). وفي وسط هذه الأرض تقع مدينة بابل بالنسبة للبابليين - وربما مدينة نمر - بالنسبة للسومريين^(٢).

كان العراقيون القدماء ، مثل غيرهم من الشعوب القديمة، يعتقدون بأن بلدهم هو (محور العالم). وهذا تقليد كارتوكرافي (خرائطي) سار عليه محررو ومنشؤو الخرائط ولا تزال تعتمد مؤسسات رسم الخرائط في العالم^(٣). كما اعتقدوا كذلك بأنهم الأحفاد المباشرون لأول المخلوقات البشرية. ومن الواضح أن السومريين كانوا يشخصون أنفسهم بأنهم السكان الأوائل لأرض العراق القديم، بل وحتى أول من استوطن الأرض طراً^(٤). وهذا يتطابق مع نظرتهم لخلق الكون، فهذا الأخير كانت نقطة انطلاقه من أرض العراق القديم، وهو لم يتشكل إلا بعد وصول أولى الجماعات البشرية إليه. فمن الطبيعي - وفقاً لتصوراتهم - إن يكون العراقيون القدماء أول من سكن الأرض وبلادهم هي مركزها.

وإذا استثنينا تلك الصورة الأسطورية، كانت معارفهم الجغرافية مطابقة للجغرافية المعروفة آنذاك، فقد كان لدى العراقيين القدماء معرفة كبيرة بكيفية رسم مخططات مدنهم، وأبرز الأدلة على ذلك خارطة مدينة نمر، وقد أثبت هذا المخطط أنه يتطابق تطابقاً عجبياً وشديداً مع المخططات التي رسمتها البعثة الأمريكية أثناء تنقيبها في المدينة^(٥).

ثانياً : أثر البيئة في تشكل صور خلق الآلهة

إن انطباع الإنسان حيال القوى الفائقة للطبيعة (الآلهة)، مهما كان غامضاً، مع الشعور الغامض (الشعور الديني) الذي ينتابه نحوها، يدفعان الإنسان إلى البحث في مخيلته عن تشخيص وتحديد لها، لهذا فعلى الرغم من (الآلهة) تشير لذاتها بأنها من عالم غير عالمنا، إلا أننا مع ذلك نحاول أن

(١) جورج كونتينو، الحياة اليومية ... ، ص ٣٧٥.

(٢) جورج رو ، العراق القديم ... ، ص ١٣٦.

(٣) عامر عبدالله الجميلي، المعارف الجغرافية ...، ص ٢٠٥.

(٤) جورج رو ، العراق القديم ... ، ص ١٥٢.

(٥) جورج كونتينو، الحياة اليومية ... ، ص ص ٣٧٤-٣٧٥.

نتصورها، إذ نكوّن لذواتنا عنها تداعياً للصور والأفكار: إيديولوجيا دينية. والشعور الديني والإيديولوجيا الدينية معاً يمليان على الإنسان تصرفاً دينياً يُقاس بما يشعر به تجاهها وما يعتقد أنه يعرفه عنها^(١).

تتمثل علة الوجود وفقاً للمفكر العراقي القديم بالآلهة خالقة سائر الموجودات^(٢). لكن فلسفة الوجود تلك تستند في الوقت ذاته على ديانة قديمة كان أبرز خصائصها الحيوية. أي أن الآلهة في جوهرها ليست سوى تجسيد مادي لظواهر ومظاهر الطبيعة المختلفة^(٣). وهذا الأمر فرض على الإنسان العراقي القديم اتباع منطق مادي لفهم القوى الروحية المتمثلة بالهته تلك، حيث كان يسير في استنتاجه من المعلوم إلى المجهول في محاولته لتصور عالم الآلهة. لذلك نجد أن العراقيين القدماء جعلوا مما يعرفونه عن طبيعة أرضهم، التي كانت الآلهة تشكل جزءاً منها في نظرهم، أساساً لتأملهم حول ما يجهلونه عن أصل الآلهة وكيفية خلقها وتكوينها^(٤). أي إن نظرة العراقي القديم إلى تشكل أو تكون الأشياء المادية تشمل أيضاً نظرتهم إلى تكون الآلهة بشخصها، لهذا نجد أن الآلهة، في أساطير الخلق العراقية القديمة، لا تكون بحد ذاتها (نظاماً) يختلف -بالمعنى الميتافيزيقي للكلمة- عن نظام الأشياء المادية، بل نجدها مشمولة بالنظام الكوني، وما صور خلقها إلا عبارة عن تصورات العراقي القديم عن كيفية تشكل العالم المادي. بمعنى أن فكرة الخلق كانت مادية حسية في الفكر العراقي القديم حتى في موضوع خلق الآلهة. لأن صور الخلق فيها متأثرة بالبيئة الطبيعية ومنبعثها منها.

تعطينا أساطير الخليفة في الفكر العراقي القديم صور متعددة عن موضوع نشأة الآلهة وظهورها^(٥). إذ أن الإنسان العراقي القديم لم يكن يؤمن بأن الآلهة قد ظهرت أو خلقت دفعة واحدة وإلى الأبد، بل كان لديه إيمان بوجود تسلسل وتدرج في ظهور تلك الآلهة، وهذا الإيمان كان مستنداً على اعتقاده بأن الكون قد تشكل هو الآخر تدريجياً. وثُجِّسَ قصة الخليفة البابلية مفهوم التطور أو التدرج هذا الذي كان يأخذ به العراقي القديم تجسيدا واضحا^(٦). إذ أننا نلاحظ - من خلال نصها - ثلاثة أنواع من الآلهة . النوع الأول لم يكن سوى تجسيدا للعلماء الأزلي. والنوع الثاني هو الذي ظهر وسط كتلة المياه

(١) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ... ، ص ٢٤٥.

(٢) ولاء مهدي محمد، الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين ... ، ص ١١.

(٣) خليل سعيد، معالم من حضارة وادي الرافدين، مطبعة النجاح الجديدة، (المغرب، ١٩٨٤م)، ص ٨٠.

(٤) عبد الرضا الطعان ، الفكر السياسي في وادي الرافدين ووادي النيل ... ، ص ص ٦٩-٧١.

(٥) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ... ، ص ٢٦٨.

(٦) عبد الرضا الطعان ، الفكر السياسي ... ، ص ٦٢٦.

المنتزجة وضم أجيال الآلهة القديمة^(١). أما النوع الثالث فهي السلالة الإلهية الكاملة والتامة والتي ما زالت حاكمة^(٢). وتعطينا الأساطير العراقية القديمة صوراً متعددةً لكيفية خلق أو نشوء إلهة تلك الأجيال، والتي سنقوم باستعراضها مع بيان أثر البيئة في تشكلها وطريقة الخلق التي جرت فيها، مراعين في ذلك تسلسل ظهورها في الفكر العراقي القديم.

١- أزلية المادة الإلهية

سبقت الإشارة ، في المحور الأول من هذا المبحث، إلى أن الآلهة، والتي تمثل أجزاء الكون، بدأت بالظهور فجأة في وسط كتلة من الهولوية المائية التي كانت تملأ الكون. وهذه المادة الأولى أو الهولوية المائية عند العراقيين القدماء ذات طبيعة ثنائية، إذ كانت مادة وإلهاً في الوقت نفسه، أي أن المادة أزلية ووجدت منذ البدء ولم تخلق^(٣). فهل يعني هذا أن العراقي القديم أعتقد بأزلية الآلهة بصورة عامة وبأنها لم تخلق؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل تكمن في إيضاح الفرق في نظرة العراقي القديم للآلهة الهولوية المائية وبين نظريته للآلهة الجديدة أو الآلهة العراقية المعروفة، والمرحلة التي مثلها كلاً من النوعين في سلسلة صور خلق الكون وتشكله.

على الرغم من إن ماهية الهولوية المائية شيء بعيد عن التحديد، إلا أنه يمكننا القول بأنها مثلت في نظر العراقي القديم خليطاً من العماء والسكون، الشمول والغموض^(٤)، إنها الفوضى التي يبغضها العراقي القديم متجسدة في أبشع صورها؛ فالآلهة التي جسدتها تعيش في حالة أزلية من الفوضى لا تمايز فيها ولا تشكل^(٥). لأنها تمثل مرحلة الكون قبل تشكله وتعرف الإنسان إليه، فالأشياء لم تكن متميزة ولم يكن لأي منها وجود خاص أو فعل خاص به^(٦)، فالوجود الدافق بالحياة والذي تتصارع فيه (الأنثا) مع قوى الطبيعة (الانت) لم تحقق الأشياء وجودها فيه إلا من خلال إسهاماتها الفعلية المحسوسة في هذا الواقع الحركي، فالوجود عند العراقي القديم (موضوعي)، وسمة الموضوعية شرط أساسي لوجود الشيء أو

(١) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ص ٣٨-٣٩.

(٢) جان بوتير، بلاد الرافدين ... ، ص ٢٦٨.

(٣) طه باقر، مقدمة في أدب ... ، ص ١٠٢.

(٤) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٢٢.

(٥) فراس السواح ، مغامرة العقل ... ، ص ٥٢.

(٦) يوسف الحوراني، البنية الذهنية ... ، ص ص ١٣٠-١٣١.

الظاهرة . لهذا لم يكن بالتالي وجود للآلهة المدبرة للأشياء المتميزة ، لأن الآلهة، في نظر العراقي القديم، هي لضبط أنظمة الأشياء . وهذا ما أشارت إليه مقدمة قصة الخلق البابلية عند وصفها حالة الفوضى المائية التي كان عليها الكون بقولها:

" حينما لم يظهر إلى الوجود أي من الآلهة"^(١)

فقد نفى النص ظهور الآلهة إلى الوجود، بالرغم من أن الفقرات التي سبقته قد ذكرت كل من (آبسو وتيامة)، مما يوحي بأن الأسطورة لا تعدهما من الآلهة^(٢)، لأنهما من إلهة الهولوية المائية، التي في نظر العراقي القديم ليست سوى تجسيدا للعماء الأزلي الذي سبق الحياة وكان لابد ان يختفي مع تطور الحياة نفسها^(٣)، فكل شيء في سياق عملية الخلق هو ضد طبيعة كتلة العماء، وهو النقيض لسكونها^(٤).

وتبعاً لذلك، يمكننا القول، بأن العراقي القديم عدّ المادة الأولى أزلية ، وبالتالي فإن الآلهة التي جسدتها أزلية هي الأخرى. لكنهما في الوقت ذاته ليسا أزليا البقاء. لأن تلك الهولوية الأولى والآلهة التي مثلتها لم يكونا في نظر العراقي القديم سوى تجسيد لفوضى أزلية من المياه التي وجدها عند مقدمه إلى القسم الجنوبي من العراق، أي أنها مثلت مرحلة فوضى البيئة الطبيعية التي يجب أن تنتهي بفضل جهود الإنسان العراقي القديم الرامية إلى صنع الحضارة المنظمة في ربوع البلد. فمن عرضنا لصور خلق الكون في المبحث الأول ، نلاحظ قاعدة عامة وهي: أنه كانت هناك كتلة المياه الأولى التي لم تسبقها حياة مطلقاً، وبعدها ظهر الآلهة وشكلت أجزاء الكون. لكن هناك أساطير أخرى لم تذكر كتلة المياه الأولى في صدد روايتها للتكوين، وبصورة عامة فإن كل الأساطير التي تناولت موضوع الكون تشترك جميعها في عدم تطرقها مطلقاً للبحر الأول، بعد أن تبدأ في رواية أخبار الآلهة أو خلق بعض عناصر الكون.

إن الاختلاف بين أسطورة وأخرى يتمثل في بداية أحداث كل منها، فإذا ابتدأت أحداها بظهور الآلهة أو بخلق أجزاء الكون لا تكون هناك عودة لذكر المياه الأولى. وتفسيرنا لهذا يتلخص في الاتفاق العام بين النصوص القديمة على استنفاد مادة المياه الأولى في أول مراحل التكوين^(٥).

(١) طه باقر، مقدمة في أدب...، ص ٩٤.

(٢) محمد فهد، قصة الخليقة ... ، ص ١٨.

(٣) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ص ٣٨-٣٩.

(٤) عبد الحميد زايد، من أساطير الشرق الأدنى ... ، ص ص ٨٣٨-٨٣٩.

(٥) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٦٨.

ولما كان لابد، في نظر العراقي القديم، من وجود مصدر للحياة أو الخلق الأول، لأن الفكر العراقي القديم، وكما مر بنا سابقاً، أبتدأ مادياً حسيّاً، وبعيداً عن التجريد. وفكرة القوة المبدعة المنفصلة عن الكون الفاعلة فيه عن بعد، لم تكن موجودة في ذهن المفكر العراقي. لهذا كانت في البدء المياه الأولى، أزلية غير مخلوقة. وهي مصدر الحياة أو خالقة الأجيال الأولى من الآلهة؛

فبالنسبة للعراقي القديم لم يكن ممكناً تأسيس العالم فعلياً في لحظة معينة بفضل عنصر وحيد: فالقانون الكبير الملازم للطبيعة والذي ينظم الكون ينبغي أن يكون حاضراً بشكل من الأشكال في العنصر الأصلي الذي خرج منه العالم رويداً رويداً^(١). ويمكننا القول مع الدكتور فوزي رشيد " إن سكان بلاد الرافدين لم يتساءلوا عن نوعية القوة التي قامت بخلق الآلهة الرئيسة، بل اعتبروا وجودها من الأمور الأزلية التي لا تحتاج إلى نقاش وأن هذه الآلهة هي التي قامت بخلق الكون والإنسان وسبب هذا الإيمان، لأنهم كانوا يتحسسون تأثير هذه العوامل على حياتهم وعلى محاصيلهم الزراعية ولكنهم لا يعلمون كيف تكونت في الأصل فحولوها إلى إلهة واعتبروها أزلية أيضاً"^(٢)، وتتمثل إلهة الهيولية المائية بالآلهة (نمو) السومرية، والإله (ابسو) والآلهة (تيامة) عند البابليين.

أما الآلهة المعروفة عند الإنسان العراقي القديم والتي يمكن تسميتها بالآلهة النشيطة أو الحية تمييزاً لها عن آلهة العماء الأولى^(٣)، فقد بدأت بالظهور أو التشكل مع ظهور أو تشكل الكون. لأنها وفقاً للفكر العراقي القديم، تشكل جزءاً من الكون، فهي مثله خاضعة للتشكل أو الخلق^(٤). لهذا نجد أنه من الأمور التي يمتاز بها الدين العراقي القديم انتفاء الأزلية عن صفات الآلهة؛ فلم يكن العراقيون القدماء ليتصوروا كائناً أزلياً ليست له بداية، فالآلهة، تبعاً لذلك، وأن أتصفت بالخلود إلا أنها لا تتصف بصفة الأزل^(٥). بل نجدها، في الأساطير العراقية القديمة، قد ظهرت بشتى السبل من الخلق إلى التوالد، وبمختلف مراكزها.

(١) جان بيار فرنان، أصول الفكر اليوناني، ترجمة: سليم حداد، مجد المؤسسة الجامعية، (بيروت، ١٩٨٧)، ص ١٠٢.

(٢) "المعتقدات الدينية" ...، ص ١٤٩.

(٣) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ص ٣٨-٣٩.

(٤) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ...، ص ٢٦٨.

(٥) طه باقر، "ديانة البابليين والآشوريين"، مجلة سومر، (١٩٤٦)، مج ٢، ج ١-٢، ص ٥.

٢- صور خلق الآلهة

أ- التوالد

كان أسلوب ولادة الآلهة الطريقة الأكثر استعمالاً في الفكر العراقي القديم لتفسير أصل الآلهة العراقية وطريقة ظهورها. وربما كان لخاصية تشبيه الآلهة بالبشر التي امتازت بها تلك الآلهة دوراً في ذلك، فعكس الإنسان طريقة تكاثره بالولادة عليها. فالآلهة في العراق القديم كانت تتزوج، وأسوة بالبشر، تتوالد، ولدينا عدد كبير من الأساطير التي تتضمن أحداثها زيجات إلهية تسفر عن ولادة آلهة أخرى. ومع أننا لا نملك أساطير عن ولادة عدد كبير من الآلهة، إلا أننا نعرف من النصوص المسمارية الأخرى نسبهم إلى آلهة معينة.

اعتمدت العقيدة الدينية السومرية فكرة تكاثر الآلهة عن طريق الاتصال الجنسي، إلا أنها اتخذت من فكرة التوالد الذاتي منطلقاً لعملية التكاثر هذه^(١). ففي أسطورة آنكي وننماخ يظهر لنا أن الآلهة خرجوا جميعهم من الأم الأولية الشاملة التي تحمل هنا اسم (نمو)، واستقروا في العالم، كل في منطقته. وهذا ما يوضحه النص الآتي من تلك الأسطورة بقوله:

" نمو الأم البدئية

مولدة الآلهة جميعاً،"^(٢).

كذلك كانت الولادة هي الطريقة التي طرحها الفكر البابلي لتفسير نشوء أو خلق الآلهة، فوفقاً لأسطورة الخليقة البابلية كانت أولى الآلهة قد ولدت من الإله آبسو (المياه العذبة) والإلهة تيامة (المياه المالحة) اللذان يجسدان المياه الأزلية^(٣). وهذا ما يوضحه النص الآتي من تلك الأسطورة بقوله:

" كان آبسو البدائي، واضع بذرتهم

ومصدر الحياة تيامة التي ولدتهم جميعاً"^(٤)

(١) عبد الباسط سيديا، من الوعي الأسطوري ... ، ص ١٦٦.

(٢) قاسم الشواف، ديوان الأساطير، الكتاب الأول، ص ص ٦٤-٦٥.

(٣) Ring , C. George , Gods of the Gentiles , (Milwaukee 1938) , P. 132

(٤) نائل حنون، أسطورة الخليقة ... ، ص ٦٨.

وهنا لابد من طرح التساؤل التالي، لماذا أخذ العراقي القديم من طريقة التوالد أسلوباً لتفسير أصل الآلهة؟ وهل يمكن عدّ هذا الأسلوب إحدى طرق الخلق؟ وما كان تأثير البيئة في كل ذلك؟

للإجابة عن تلك التساؤلات يجب علينا حلّ الرموز الأسطورية والنفوذ إلى معرفة علم الدين واللاهوت العراقي القديم ونظرتهم إلى الآلهة، وذلك يدفعنا إلى عدم التوقف عند حدود مفهوم التشبيه فقط، فصحیح أن المعبود انْثُخِبَ ليكون صورة للإنسان، لكن تلك الصورة قد تكون مقنعة بالنسبة للعامة من الناس. إما المفكرين العراقيين القدماء الذين أثبتوا كفاءتهم في ميادين الفلك والرياضيات وغيرها من العلوم، فلم يكن من المعقول أن يكون هؤلاء مقتنعين بالمفاهيم التي حددت بالنسبة إلى ما هو سماوي ومعبود بواسطة التشبيه. إن العكس صحيح فهؤلاء المفكرين كانوا يتحسسون حقيقة ذات مستوى أعمق من ذلك وبدون أن يسجنوا أفكارهم في المدار الذي صورته تقليدهم العام بشكل تلقائي^(١).

إن الفكر، بصورة عامة، يتأثر قبل كل شيء بعاملين أساسيين هما: طبيعة الإنسان، والثاني تأثير الطبيعة^(٢). إذ كان لأيمان الإنسان بأن الأنجاب والتكاثر يضمنان استمرار جنسه وتفوقه على قوى التدمير المميتة من أوبئة وأمراض وكوارث طبيعية^(٣). أثره المبكر في تبلور تصورات الإنسان عن فلسفة الخلق. وكما يقول العلامة براندون (G.F Brandon) في مؤلفه (أساطير التكوين). " إن ظاهرة الولادة لعبت دوراً رئيسياً في إمداد العقل البشري بالمفاهيم الأولى عن بداية الخلق"^(٤). ولكن ومن جانب آخر فقد شكل الواقع المادي (أثر البيئة) القاعدة التي انطلقت منها تأملات الإنسان بقصد استيعاب القوى الكونية (الآلهة) التي خلقت الكون ونظمتها^(٥).

لقد ترتب على اعتقاد الإنسان العراقي القديم بحبوية الطبيعة، بأن على هذا الإنسان إذا أراد فهم الطبيعة ، أي فهم ظواهرها المتعددة والمتباينة كان يجد من اللازم فهم الشخصيات (الآلهة) الكامنة في هذه الظواهر، وأن يعرف طبائعها ، واتجاه إرادتها ، ومدى قواها^(٦). وفي إطار الفكر الأسطوري هذا، لم يكن باستطاعة العراقي القديم أن يتصور نطاقاً، عن خلق وتنظيم المكان والزمان، مستقلاً عن الطبيعة أو

(١) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين، ص ص ٨٨-٨٩.

(٢) حسين سيد نور، أثر الحتمية ... ، ص ٢٧٥.

(٣) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٧٦.

(٤) نقلاً عن: جان بوتيرو، الديانة عند البابليين ... ، ص ٥.

(٥) عبد الباسط سيديا، من الوعي الاسطوري ... ، ص ١٦١.

(٦) عبد الرضا الطعان ، الفكر السياسي ... ، ص ٧٦.

قانوناً للتنظيم متأصلاً في الكون^(١). بل كان من الطبيعي جداً، بالنسبة للمفكر العراقي القديم، وهو ينظر إلى الكون باعتباره حشداً من الآلهة الممثلة للطبيعة بكل أجزائها، أن يكون لكل واحد من تلك الآلهة إرادة خاصة يتمتع بها ، والتي يتم التعبير عنها من قبل كل جزء من أجزاء الطبيعة عبر الترابط الذي يقيمه مع الأجزاء الأخرى. لهذا فقد بدت له بأن عمليات الخلق ليست فعلاً صادراً عن الآلهة، منفصلاً عنها، بمقدار ما كانت تدياً لحركتها الطبيعية، بوصفها تمثل أجزاء الكون ومظاهره المختلفة، وتفاعلها مع بعضها، بوصفها كائنات (إلهة) كامنة في تلك الظواهر. فكان توالد الآلهة نتيجة تلك الحركة المادية الطبيعية والفعالية الحياتية للآلهة (العمل الجنسي) إحدى طرق الخلق في الفكر العراقي القديم.

على الرغم من جهد التحديد الإدراكي الذي يظهر في فكر العراقي القديم، فإنه يبقى أسير إطاره الأسطوري. فقد توصل العراقي القديم إلى وصف طريقة تكوّن الكون بكونها عملية تولد بواسطة العناصر الأساسية الأربعة (السماء ، الهواء، الأرض ، الماء)؛ لكنه وبفعل النزعة الأسطورية يراها في الوقت نفسه آلهة تتحرك وتتوحد على غرار الناس^(٢). بعبارة أخرى إن الكون واقعة طبيعية في العالم المنظور وولادة إلهية في زمان أولي. فمثلاً جعل العراقي القديم يعلل تقلبات النمو والانحلال والكثرة والاضمحلال في الطبيعة، بزواج الآلهة وموتها وولادتها من جديد أو بعثها، فإنه قد جعل أيضاً، وقبل ذلك، من الانتباث التدريجي لعالمه المنظم أساطيراً تفسر ولادات الآلهة وظهورها لأول مرة. أي إن صور ولادات الآلهة التي تعرضها الأساطير العراقية القديمة ما هي في الواقع إلا محاولة الإنسان العراقي القديم لبيان كيفية تشكل كل ما يحيط به من ظواهر ومظاهر الكون المختلفة.

إن اعتماد الإنسان العراقي القديم صور تشكل بيئته الطبيعية (خلق الكون) مصدراً لتفسير ظهور الآلهة إلى الوجود، جعل من صور خلق تلك الآلهة يظهر بشكل سلسلة تدرجية من أجيال الآلهة، ابتداءً من آلهة بدائية غير مكتملة الصنع وصولاً إلى أجيال الآلهة التامة الخلق ، وهذا بالطبع يناظر مراحل تشكل الكون في الفكر العراقي القديم.

إن ما يؤكد كلامنا هذا هو مفهوم التطور الذي كان يأخذ به العراقي القديم للتعبير عن ظهور أجيال متعاقبة من الآلهة تتفاوت من حيث تمام صور خلقها بالارتباط مع المرحلة التي تمثلها من مراحل

(١) جان بيار فرنان، أصول الفكر اليوناني ، ص ١٠٠.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٦.

تشكل الكون^(١). فقد كانت أولى الآلهة التي ظهرت أو بالأحرى ولدت من الهيولية المائية عبارة عن آلهة بدائية غير مكتملة الصنع أو ممتزجة مع بعضها البعض، لأنها تمثل في الأساس صورة التشكل الكوني الأول. فخرج لدينا الجبل الكوني (ان-كي) الذي يمثل إله السماء وإله الأرض متحدين في الأساطير السومرية، وفي الفكر البابلي، ظهر الإلهان لخمو ولخامو اللذان يمثلان الطمي والغرين المتراكم في مجاري الأنهار، واللذان وبدورهما أنجبا الإلهان انشار وكيشار الاققان التوأمان للسماء والأرض^(٢).

تستمر أساطير نشوء الآلهة في جعل كل جيل جديد من الآلهة أفضل واقدر من سابقه مجسدة بذلك حركة التجدد أو التشكل في القوى الطبيعية التي كانت تهيء العالم للحياة^(٣). فظهر لدينا إله إنليل (الهواء) بعدما قام بفصل أبويه المتحدين بهيئة جبل كوني، فظهر الإله آنو (السماء) والإلهة كي (الأرض)، ثم ولد الإله إنليل من زوجته ننليل الإله سين، ومن هذا الأخير ولد الإله شمش (الشمس)، لتستمر سلسلة ظهور الآلهة الرئيسية في العقيدة الدينية السومرية مرتكزة على فكرة تكاثر الآلهة عن طريق الاتصال الجنسي، إلا أنها اتخذت، كما ذكرنا سابقاً، من فكرة التوالد الذاتي منطلقاً لعملية التكاثر هذه^(٤). وفي الفكر البابلي كان طريقة الولادة هي ذاتها المتبعة لتفسير ظهور الآلهة الرئيسية، فمن انشار وُلِدَ الإله آن-آنو إله السماء، الذي بدوره أنجب الإله انكي-آيا، وهذا الأخير أنجب من زوجته صربانيتم الإله مردوخ.

نلاحظ مما سبق، أن سلسلة تزواج وتوالد الآلهة، ولاسيما الرئيسية منها، تتوافق مع تصورات العراقي القديم عن تسلسل ظهور الأجزاء الكونية المجسدة لها، كما أنها من حيث تفاعلها جنسياً والنتيجة المتولدة عن هذا التفاعل، تتوافق مع خبرات وملاحظات العراقي القديم عن تأثير ودور العناصر الطبيعية الممثلة لتلك الإلهة.

فتنائية (كي) مع (آن) بوصفها فكرة بدائية فسر من خلالها العراقي القديم نشأة الحياة على الأرض أو ما يمكن وصفه سفرًا بدئياً للتكوين، نجدها صادقة صدق بدائيتها، ومطابقة لراسب خبرات الإنسان وملاحظاته، عن دور مطر السماء أو مَنّي (آن) وفعله في الأم الأرض لتنتج الحياة^(٥). كذلك

(١) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ...، ص ٦٢٦.

(٢) هاري ساكز، عظمة بابل ...، ص ٣٥٣.

(٣) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ٣٩.

(٤) عبد الباسط سيدي، من الوعي الاسطوري ...، ص ١٦٦.

(٥) سيد القمني، قصة الخلق - منابع سفر التكوين من حضارات الشرق الأدنى القديم، دار سيناء، (القاهرة، ١٩٩٨)، ص ٢٠.

كانت الرياح أو الهواء ، متمثلة بالإله إنليل بالنسبة للفكر السومري، والإله مردوخ بالنسبة للفكر البابلي، هي النتيجة المتولدة من التفاعل الجنسي بين السماء والأرض. لأن العراقي القديم لاحظ أن أكثر خصائص هذا العنصر هي الحركة والامتداد، فضلاً عن قوة البعث والإيجاد، وهذا كله استفاد من واقع بيئته الطبيعية^(١)، وخاصة أثره في نشر أو تجفيف الطين بالحقول، وهذا ما نجده في الرواية السومرية وفي قائمة (آن-انوم) البابلية، وأثره في الفيضانات ، وهذا ما نجده كذلك في القسم الثاني من قصة الخليقة البابلية متجسداً بالصراع بين مردوخ وتيامة^(٢).

يمكننا القول أن العراقي القديم أتخذ من أسلوب التوالد كطريقة يفسر من خلالها ظهور الآلهة الرئيسية في الفكر العراقي القديم، لأن تلك الآلهة كانت تمثل العوامل الطبيعية الأكثر تأثيراً في حياة الإنسان ، والتي تحسس تأثيرها في حياته منذ القدم فلم يستطع تخيل خلقها من العدم، كما لم يستطع تفريد أحداها ويجعله خالقاً أوحداً يقوم بخلقها جميعاً. أي أن العراقي القديم أدرك بأنه ليس بمقدور أي عنصر طبيعي (إله) أن يقوم بخلق الكون فعلياً في لحظة معينة لوحده .

فمع اختلاف الأساطير وإرجاعها خلق بعض الآلهة إلى آن/ أنو مرة وإلى إنكي/ أيا مرة أخرى، ناهيك عن إرجاع ذلك إلى مردوخ في أساطير معينة، إلا أن ذلك لم يغير من نظرة العراقي القديم إلى طريقة ظهور الآلهة الرئيسية، كما أن ذلك لم يغير من مراكز الآلهة نفسها^(٣). فالآلهة التي خلقت من قبل آنو أو أيا ليست سوى آلهة ثانوية، وحتى عندما رُفِعَ مردوخ ، بفعل عوامل سياسية، ليكون خالق العالم الأوحد ، فإنه في أسطورة إينوما إيليش لا يعمل أكثر من إثارة الحركة للكون. وهذا تكوين نسبي بالنسبة إلى تكوين العالم وخلق كلياً على يديه – أي مردوخ^(٤).

ب- الخلق

من خلال دراستنا لأساطير نشوء الآلهة، وجدنا بأن أغلب الآلهة التي نشأت عن طريق الخلق تتمثل في آلهة ثانوية، ذات اختصاصات حياتية متنوعة، تم خلقها من قبل الآلهة الخالقة العظام، لتُؤكل إليها مهمة إكمال عمليات صنع الكون الذي تم خلق أجزائه الأساسية من قبل تلك الآلهة الخالقة.

(١) محمد حسين النجم ، فلسفة الوجود ... ، ص ص ٥٢-٥٣.

(٢) ينظر المبحث الأول.

(٣) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٦٩.

(٤) جان بوتيرو ، الديانة عند البابليين ... ، ص ١٠٣.

فالهدف الواضح من خلق الآلهة في أسطورة (حينما خلق آنو السماوات) كان لبيان كيفية تكوين وخلق المواد الضرورية لبناء مظاهر مكملية للكون وكذلك إيجاد التقنيات المناسبة لذلك^(١). إذ نجد الإله آيا في تلك الأسطورة يقوم بخلق ما لا يقل عن خمسة عشر إلهاً، وكل واحد منها مسؤولاً عن أحد المهن أو الأشياء التي تخدم في أعداد القرابين وتقديمها للمعبود^(٢). وهذا ما يوضحه النص الآتي من تلك الأسطورة:

" حين خلق ((آنو)) السماوات،

وبنى ((ندمود)) الـ ((أبسو))، مسكنه،

قرص ((آيا)) طينة في الأبسو،

خلق ((كُلا)) لتجديد المعابد،

خلق هور القصب، والغابة، من أجل عمل تشييدها،

خلق ((ننلُود)) و ((ننسيمغ)) و ((إرازو)) لإكمال عمل تشييدها،

خلق الجبال والبحار لكل ما (...) ،

خلق ((غوشكينبانا)) و ((نيناغال)) و ((نينزاديم)) و ((ننكرا)) لأعمالها،

ونتاجهم الوفير للتقدمات (...)

خلق ((أشنان)) و ((الغار)) و ((سيرس)) و ((ننغزيدا)) و ((نينيزين)) (...)

ليقدموا التقدمات المنتظمة الوفيرة

خلق ((امنماتكمو)) و ((امنمناك)) ليهبوا تقدماتهم، " ^(٣).

وتلك الآلهة التي خلقها آيا هي على التوالي (الإله صانع الطابوق) (الإله الخاص بالقصب) (الإله النجار) (الإله الحداد) (الإله الصائغ) و (الإله قاطع الحجر) لبناء المعابد^(٤). وخلق إله الحبوب،

(١) رينيه لابات، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين، ترجمة: الأب ألبير أبونا ووليد الجادر ، (بغداد، ١٩٨٨)، ص ٧٩-٨٠.

(٢) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٤٣.

(٣) الكسندر هايدل، قصة الخليقة ...، ص ص ٩٧-٩٨.

(٤) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية ... ، ص ٦٨.

والله القطعان، وآلهة الخمر والهان للنباتات، وطباخ مردوخ وساقيه^(١). ويتضح أن طريقة خلق هذه الآلهة قد تمت عن طريق الصنع، فقد استعمل الإله آيا لخلقها طيناً أستخرجه من الآبسو.

كذلك كان ذلك الهدف هو ذاته في أسطورة الماشية والغلة، والتي تدور حول عملية خلق إله الماشية (لاخار Lahar) وإلهة الغلة (أشنان Ašnan)، إذ نرى أن الغاية من ذلك الخلق هو لتوفير الماشية أو الحيوانات البرية أو غلة أو نبات، ذلك أن الآلهة المسؤولة آنذاك لم تكن قد خُلقت بعد. وهكذا كان لابد للآلهة: لآخار (إله الماشية)، سموقان (إله الحيوانات البرية)، أشنان (إلهة الغلة) وأتو (إله الخضرة) أن يخلقوا حتى يضمنوا للآلهة قوتهم^(٢). وهذا ما وضحه النص بقوله:

" في تلك الأيام، في صالة الخلق الخاصة بالآلهة،

في بيتهم المسمى ((دوكو)) خُلقت ((الهار)) و ((أشنان))"^(٣).

توضح لنا أسطورة إنكي وتنظيم الكون بأن وظيفة الآلهة الثانوية كانت تتمثل بتنفيذ مخططات تنظيم الكون التي وضعتها الآلهة الكبار^(٤). حيث نجد الإله إنكي/ آيا في تلك الأسطورة يقوم بوضع مخططات تنظيم الاقتصاد لبلاد الرافدين وينشأ الوظائف المتعلقة بذلك، ثم يعين إلهاً يشرف على عملها المستمر^(٥). إن تلك الآلهة الثانوية لم تكن في الأساس سوى انعكاس لما هو معروف في المجتمع البشري^(٦)، لأن عملها يناظر عمل الإنسان العراقي القديم وجهوده في تنظيم بيئته الطبيعية والسيطرة عليها. وهكذا فإن العراقي القديم كان يرى النظام في الطبيعة فيفسره كأنما الكون مزرعة شاسعة يدبّر أموراً ويحسن تنظيمها مدير قدير (إله).

إن أسلوب الخلق الذي اتبعته الأساطير العراقية القديمة لبيان نشوء الآلهة الثانوية كان يتوافق مع تصورات العراقي القديم لكيفية تشكل الكون، من حيث التدرج في الخلق وضرورة التنظيم لإكمال عملية الخلق والمحافظة عليها. لأن العراقي القديم لم يدرك الكون بطريقة مجردة في حد ذاته ومن أجل ذاته. بل

(١) رينيه لابات، المعتقدات الدينية ...، ص ٨٠.

(٢) نائل حنون، عقائد الخصب ...، ص ٤٥.

(٣) صموئيل نوح كريم، السومريون ...، ص ٣١٥-٣١٦.

(٤) للاطلاع على نص الاسطورة ينظر: صموئيل نوح كريم، الأساطير السومرية ...، ص ١٠١-١٠٤.

(٥) ثوركليد جاكسون، ارض الرافدين ...، ص ١٨٩.

(٦) صموئيل نوح كريم، السومريون ...، ص ١٥٦.

كان الكون في نظره بحاجة لأن يقوم لكي يوجد، وأن يحافظ عليه لكي يستمر، وهو يفترض دوماً عنصراً منظماً، وقدرة خالقة قادرة على ترقيته. ففي إطار هذا الفكر الأسطوري لا يمكننا أن نتصور نطاقاً مستقلاً عن الطبيعة أو قانوناً للتنظيم متأصلاً في الكون.

لقد توالدت الآلهة الرئيسة فيما بينها بشكل أجيال متعاقبة لأنها ، وكما ذكرنا سابقاً، تمثل أجزاء الكون ومظاهره وظواهره المختلفة، التي تشكلت أو ظهرت تدريجياً في بيئة العراق الطبيعية، في نظر الإنسان العراقي القديم، كما أن هذا الأخير لم يستطع تصورها تُخْلَقُ من العدم، لعظم تأثيرها على حياته ومختلف نشاطاته الاقتصادية^(١). أما الآلهة الثانوية فهي من حيث وظيفتها المتمثلة بالأشراف على تنفيذ خطط تنظيم الكون، والتي تطابق جهود الإنسان وكل مهنة وحرفة ومبتكراته للسيطرة على الطبيعة وتنظيمها لصالحه من أجل بناء الحضارة^(٢)، فهي مثل الإنسان تُخْلَقُ سواء بالصنع أو بالأمر الإلهي.

لهذا كان الجواب المعطى في أساطير الأصل في تساءلها عن أصل الكائنات في الكون : من آلهة أو نبات أو بشر. يكون عادة الميلاد أو قد يكون في أحيان نادرة الخلق أو الصنع. أما أساطير التنظيم التي تتساءل عن كيفية نشوء أنظمة الدنيا أو تبلور بعض تقاطيعها أو كيف حصل هذا الإله أو ذاك على منصبه، أو كيف انتظمت الزراعة ، أو كيف ظهرت بعض غرائب البشر وأعطيت مكانها في المجتمع. كان الجواب أن كل ذلك حدث عن طريق الخلق بـ(قرار إلهي)^(٣).

وفقاً لذلك الفكر كانت الأساطير العراقية القديمة تُرجع عملية خلق أسس الحضارة والمنجزات الحضارية إلى الآلهة، ويمكن استخلاص أثر البيئة في اختيار الإله المسؤول عن كل جزء من تلك المقومات الحضارية وفقاً لأثره الطبيعي فيها. فقد كان الإله (نوسكو-Nusku) إله النار المتحولة إلى بخور، يعد المؤسس للمدن نظراً لدخول النار في صنع الطابوق وسبك المعادن^(٤)، كذلك أرتبط إله الصيف والحرارة وحصاد الزرع (ايميش-Emeš) بالبناء وتشديد المدن والمعابد إذ نقرأ في أسطورة أنه: " جعل المدن ومواطن السكنى تشاد وتبنى البيوت في البلاد وترتفع المعابد في الجبال"^(٥)، ولا ريب أن

(١) فوزي رشيد ، " المعتقدات الدينية " في حضارة العراق ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(٢) سامي سعيد الاحمد، السومريون ، دار الشؤون الثقافية ، (بغداد، ١٩٩٠)، ص ٢١.

(٣) ثوركليد جاكبسون، أرض الرافدين ... ، ص ص ١٧٧-١٧٨.

(٤) سامي سعيد الاحمد، السومريون ... ، ص ٢١.

(٥) صموئيل نوح كريم، من الواح سومر ... ، ص ١٧٧.

حرارة الصيف وشدة الإشعاع الشمسي هما العاملان الأساسيان في ارتباط الإله ايميش بالبناء فعن طريق الشمس يتم صنع اللبن الذي يستخدم في البناء.

ثالثاً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الإنسان

تتفق الأساطير العراقية القديمة، بصورة عامة، التي تناولت موضوع خلق الإنسان في الغاية من وراء ذلك الخلق، فتلك الأساطير رغم الاختلاف في تفاصيلها، إلا أنها لا تذكر سوى أن الإنسان خُلِقَ لخدمة الآلهة وتوفير الطعام لهم^(١). وهي الغاية التي أشار إليها بصورة صريحة أكثر من نص واحد، وحتى النصوص التي لم تذكرها صراحة نجدها لا تشير إلى غاية أخرى. ولقد جاء خلق الإنسان بعد ظهور الآلهة وتنظيم الكون، ولم تأت أسطورة أو نص أدبي بما يختلف عن هذا^(٢). لكن تلك الأساطير من جانب آخر تختلف وتتنوع بشكل كبير في الصور التي قدمتها لخلق الإنسان، من حيث المادة المستخدمة في الخلق والطريقة التي تم بها، فضلاً عن الإله أو مجموعة الآلهة التي قامت بالخلق أو أمرت به. وهذا الاختلاف مثلما يدل على موضوعية العراقيين القدماء في هذا الخصوص. فهو يثبت كذلك بأن الآراء التي قدموها لم تتبع من الخيال وإنما هي نتائج طبيعية لذلك الصراع المستمر بين الإنسان وبيئته. وسنحاول تبيان أثر البيئة في تشكل صور خلق الإنسان واختلافها في الفكر العراقي القديم.

١ - الإنبات

إن أقدم النصوص العراقية القديمة الخاصة بخلق الإنسان، والتي وردت في أسطورة (المعول)، تجعل من ظهور البشر كأنه عملية أنبات من الأرض تماماً كما تظهر النباتات منها. كذلك تجعل من الإله أنليل هو المسؤول الوحيد عن عملية الخلق هذه^(٣)، وقد لا يكون المقصود بالخلق في هذه الأسطورة هو عامة الجنس البشري، بل جنس بشري معين هم (ذوي الرؤوس السوداء) أي الشعب السومري الذي عرف بتلك التسمية^(٤)، وهذا ما أشار إليه النص بقوله:

" السيد الإله أنليل قد جعل كل ما هو نافع يبدو ناصعاً

(١) هاري ساكز، عظمة بابل ...، ص ٣٨٠.

(٢) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ٦٩.

(٣) هنري فرانكفورت، فجر الحضارة ...، ص ص ٧٧-٧٨.

(٤) محمد فهد، قصة الخليقة ...، ص ١١١.

[....]

وبعد ذلك عمل على أن يظهر الإنسان الأول،

فحفر شقاً في الأرض في منطقة دور انكي،

[....]

مجد الإله أنليل المعول الذي قام بخلقه،

وجلب المعول إلى ((اوزو-آبا)).

ووضع بدايات البشرية في الشق،

وعندما بدأ البشر يظهر مثل الحشيش من الأرض،

كان الإله أنليل ينظر مرتاحاً إلى شعبه السومري،^(١).

لقد ربط العراقي القديم صور خلقه مع ظهور إنتاج الغذاء وبداية العمل الإنساني، الذي يشكل بداية مرحلة رئيسة هي مرحلة الحضارة. فخلال مرحلة (جمع الغذاء) لم يكن للإنتاج من وجود، وبالتالي فإن مفهوم العمل لم يكن، هو الآخر، له وجود؛ فالإنسان كان يعتمد في غذائه على ما تدر به الطبيعة، وقد عبر الإنسان العراقي القديم عن ذلك بوضوح في صور خلق الإنسان^(٢). فصورة الخلق التي تظهرها هذه الأسطورة لابد أن تكون انعكاساً لمفهوم زراعي صرف، فهي الأسطورة الوحيدة في الفكر العراقي القديم التي تؤكد أن الإنسان قد ظهر مثلما يظهر الحشيش من باطن الأرض، ولاشك في أن هذا التفكير الزراعي هو الذي كان سائداً في مرحلة القرى الزراعية في الأقسام الشمالية من البلاد، ولاسيما خلال الحقبة المعتمدة على الزراعة الديمية، لا سيما أنها تجعل من الإله أنليل (الهواء) المسؤول عن عملية الخلق^(٣).

ولتوضيح ذلك لابد من توضيح أثر البيئة على المعتقدات الدينية، لأن فلسفة الخلق تتأثر بتلك المعتقدات. إن المعتقدات السومرية التي تمثلت بتقديس العوامل الطبيعية التي سادت في الألف الرابع ق.م قد ظهرت بدايتها الأولى في الأقسام الشمالية ولاسيما في المناطق ذات الأمطار المتذبذبة. وهذا

(١) فوزي رشيد، المعتقدات الدينية ... ، ص ١٦٦.

(٢) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ... ، ص ص ٥٩٢-٥٩٣.

(٣) فوزي رشيد، المعتقدات الدينية ... ، ص ١٦٥؛ مريم عمران موسى، الفكر الديني عند السومريين ... ، ص ١١٣.

يعني أن الأشخاص الذين فلسفوا هذه الديانة الجديدة لأول مرة كانوا يعيشون في منطقة لا تشبه في طبيعتها طبيعة القسم الجنوبي من العراق. ولذلك لم نجد في أقدم الآراء الخاصة بهذه المعتقدات الجديدة سوى تأثيرات المنطقة التي ظهرت فيها تلك المعتقدات وطبيعة المنطقة التي ظهرت فيها المعتقدات الجديدة لأول مرة كان لا يعوزها سوى سقوط المطر بالكميات الكافية لنمو الزرع وما دام الهواء كان العامل الفعال في جلب المطر أو ابعاده، لذلك صار لإله الهواء دور كبير في الموضوع، واعتبر الإله انليل إله الهواء ضمن المعتقدات الجديدة على أنه خالق الكون وخالق الإنسان.

٢- التطور

تسجل لنا بعض الأساطير العراقية القديمة مراحل التقدم المختلفة التي أحرزها الإنسان في مضمار الحضارة، حيث تصور تلك الأساطير أن كل مرحلة حضارية اجتازتها البشرية قد تمت أثر قيام إله معين بمنح الإنسان معرفة استعمال آلة معينة ولاسيما الآلات الخاصة بالزراعة. وهذه الفكرة التي تسجلها تلك الأساطير تتميز بتعليل معقول لتقدم الإنسان وتطوره ما دامت المخترعات على اختلافها تعد من الأسباب الرئيسة في سير الإنسان على طريق التقدم^(١). وفي إطار ذلك التصور فقد اعتقد العراقي القديم بأن مفهوم التطور الطبيعي هو إحدى طرق ظهور الإنسان النموذجي، وهذا ما يُستدل عليه من أسطورة خلق (إله الشعير وإلهة النعجة)، والتي تحتوي على ما يمكن تسميته بخلاصة لتاريخ تطور الإنسان الطبيعي^(٢).

فتلك الأسطورة علاوة على أنها تعطينا صورة عن البدايات الأولى للزراعة ولعملية تدجين الحيوانات، حيث أن الحديث عن ظهور النعجة والشعير لا يدل إلا على بداية الإنسان في ممارسة الزراعة وتدجينه للحيوان. فهي كذلك تعطينا صورة عن طبيعة البشر الأوائل الذين عاشوا خلال الفترة السابقة لظهور الزراعة^(٣)، حياة متوحشة هي أقرب إلى حياة الحيوان منها إلى حياة البشر. حيث أشارت إلى أنهم كانوا:

" البشر الأوائل لم يعرفوا أكل الخبز بعد،

(١) ادوارد كيبيرا، كتبوا على الطين، ترجمة وتعليق: محمود حسين الامين، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، (بغداد، ١٩٦٢)، ص ١٦٥.

(٢) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ...، ص ٦٢٥.

(٣) مريم عمران موسى، الفكر الديني عند السومريين ...، ص ١١٤.

ولم يعرفوا ارتداء الملابس بعد.

وكانوا يسيرون على ايديهم وارجلهم.

وكانوا كالخراف يعلفون الحشيش،

ومن القنوات يشربون الماء.^(١)

وفقاً للنص فإن البشرية في البداية كانت في طور البدائية فكان الإنسان يأكل حشائش الحقول والمراعي ويشرب ماء البرك الراكدة كما يفعل الحيوان وكان يعيش عارياً لا يرتدي الملابس ويمشي على ما يبدو على أربع. وقد حركت هذه الحياة الواطئة عواطف الآلهة فعطفت على الإنسان البدائي وأعطته هبتين عظيمتين فخلقت إلهة الماشية (لخار - Lahar) وأختها (أشنان - Ašnan) إلهة الغلة. وقد تبدلت بالزراعة وتدجين الحيوان حالة الإنسان التعسة الأولى بسرعة فتوفر عنده القدر الكافي من الغذاء فبدأ يمشي منتصب القائمة قدماً في مضمار المدينة^(٢).

إن صور خلق الإنسان في الفكر العراقي القديم لم تكن سوى حلقة في سلسلة طويلة من الإجراءات التي استهدفت تنظيم الكون وضبط مسار ظواهره، ويبدو أن مغزى هذا التصور يتجلى من خلال سعي المفكر العراقي القديم من أجل التعرف على أصول الظواهر الطبيعية وعناصر الحضارة، ومن ثم رغبته في استيعاب العلاقات فيما بينها ضمن الحدود التي كانت تسمح بها معطياته ومعتقداته الدينية. فعلاوة على إيمان سكان العراق القديم بأن الإنسان لم يكتسب الحضارة منذ بداية خلقه بل تدرج في التطور من الإنسان البدائي إلى الإنسان النموذجي، وهذا ما نجده في اسطورة المناظرة بين الماشية والغلة أعلاه. كذلك آمن العراقي القديم بأن الحضارة أو التطور الحضاري يعمل على تطور الإنسان النموذجي نفسه من مرحلة الهمجية أو الحياة البرية إلى مرحلة التمدن. وتعتبر قصة خلق انكيديو عن ذلك خير تعبير.

فانكيديو يمثل مخلوقاً من الطين على غرار البشر جميعاً، لكنه عاش مراحل التطور الضرورية للبشرية، الحياة البرية، حياة الرعي، الحضارة، إذن انكيديو ليس إنساناً فقط وإنما هو إنسان نموذجي؛ أنه

(١) فوزي رشيد، المعتقدات الدينية ...، ص ١٦٨.

(٢) ادوارد كويرا، كتبوا على الطين ...، ص ص ١٦٤-١٦٥.

بالأحرى إنسان نموذجي يرمز للشعوب وهي تخضع للتطور^(١). فعندما تأملت (ارورو) مخلوقها الذي ستعطيه الحياة، رمت بكتلة من الطين على الأرض، وشكلتها وأعطتها الحياة. وهكذا جاء انكيديو المتوحش إلى الحياة وهو يجهل الحضارة جهلاً تاماً، يعيش في البرية يكسو جسمه الشعر الكث، وشعر رأسه مثل شعر المرأة، كان يأكل العشب كالغزال ويطفئ ظمأه من الثقوب التي فيها ماء. لقد كان حقاً حيواناً من جميع الوجوه^(٢). وهكذا نستطيع أن نتلمس، بكل سهولة عبر هذا الوصف، المرحلة الأولى من حياة انكيديو وصفاً للمرحلة الأولى التي مرت بها الشعوب عبر تطورها عندما كانت لا تزال في المرحلة الحيوانية. وتعقب هذه المرحلة مرحلة ثانية هي مرحلة التحضر وتبدأ هذه المرحلة عندما تنتهي لـ(انكيديو) فرصة الاتصال بالبغي التي كانت ترمز للحضارة.

٣- الصنع

إن الطريقة الأكثر شيوعاً لخلق الإنسان في الفكر العراقي القديم تبدو كأنها طريقة اصطناعية، لأن النصوص التي تناولت تلك الطريقة تصور لنا عملية خلق الإنسان قد تمت بواسطة بعض الآلهة عن طريق الصنع، وتختلف عملية الصنع هذه من حيث الطريقة وطبيعة المادة المستخدمة فيها، وماهية الآلهة المسؤولة عن عملية الخلق بتلك الصورة وعددها^(٣).

كانت عملية خلق الإنسان تتم إما بواسطة الآلهة الخالقة الرئيسة الأربع (آن/أنو، إنليل، إنكي/آيا، وننخرساك)، لاسيما إنكي/آيا وننخرساك، أو بمساعدتهم وإرشادهم. وقد حدث ذلك حتى في قصة الخليفة البابلية إذ لم يكن بمقدرة مردوخ بمفرده أن يخلق الإنسان بالرغم من التعظيم الذي قصد له من تأليف تلك الأسطورة. ولم يحدث خلاف ذلك في أي نص، وإن كانت بعض النصوص تُغفل فقط ذكر اسم الإله الخالق إلا أن ذلك لم يخل بقاعدة مسؤولية الآلهة الخالقة عن ذلك^(٤). أما المادة التي استخدمتها الآلهة في خلق (صناعة) الإنسان، فكانت: أما من الطين لوحدة، أو من دماء الآلهة الصغيرة لوحدها، أو من كليهما معاً^(٥). ولم تُذكر أي مادة أخرى في جميع النصوص التي تناولت الموضوع^(٦).

(١) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في وادي الرافدين ووادي النيل ...، ص ١٤٨.

(٢) جورج كونتينو، الحياة اليومية ...، ص ٣٣٧.

(٣) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين ...، ص ١١٤-١١٥.

(٤) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ٦٩.

(٥) جورج رو، العراق القديم ...، ص ١٥٣.

(٦) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ٦٩.

تتوضح عملية خلق الإنسان بطريقة الصنع في الأسطورة السومرية أنكي وننماخ، فعندما تُؤكل الإلهة نمو مشروع خلق الإنسان إلى ابنها الإله أنكي، نجد هذا الأخير يتعامل مع تلك المهمة كأنه مهندس أو صانع بارع يتحضر لاختراع آلة تنتج شيئاً جديداً . فنجد الإله أنكي بعد مدة تأمل يقوم بصنع قالبٍ لكي يتم بواسطته صنع المخلوق الجديد (الإنسان)، ثم يقوم بعد ذلك بتعليم الإلهة نمو كيف تستخدمه بمساعدة الإلهة ننماخ وسبع الآهات أخرى^(١)، وهذا ما يوضحه النص المسماري بقوله:

"صانع كل شيء، (قام) بإعداد قالب

وضعه بالقرب منه ودرسه بإمعان

وعندما توصل أنكي الصانع بشكل طبيعي،

توصل إلى إنجاز مشروعه بدقة (؟)

توجّه عند ذلك إلى أمه نمو:

أماه، المخلوق الذي فكرت به

هو ذا جاهز للقيام بالعمل من أجل الآلهة!

عندما تعمدن إلى عرك كتلة

من الصلصال تستخرجينها من ضفاف الآيسو

سوف نعطي شكلاً (؟) لصلصال ذلك القالب (؟)

وعندما ترغبين أنت بنفسك

أن تصنعي له ((طبيعته)) (؟)

سوف تساعدك نينماخ"^(٢).

وفقاً للنص فإن المادة التي استعملت في خلق الإنسان لم تكن سوى الطين الذي أمر بعجنه الإله أنكي، لكن هذه المادة لم تكن تمتلك الفاعلية الذاتية التي امتلكتها المادة الأزلية الأولى مصدر الكون

(١) جان بوتير، بلاد الرافدين ... ، ص ٢٩٥.

(٢) قاسم الشواف، ديوان الأساطير ، الكتاب الأول، ص ص ٦٥-٦٦.

بأسره ، لذلك كان لابد من تدخل قوى أخرى في مقدورها تحديد خصائص المخلوق الجديد وتقدير مصيره، وقد تمثلت تلك القوى في الإلهة نمو نفسها والإلهة الأم وآلهة الولادة ننماخ Ninmah^(١).

أن البيئة الطبيعية للقسم الجنوبي من بلاد الرافدين قد ابرزت أهمية الطين في حياة السكان لأنه المادة الوحيدة المتوفرة بكثرة والتي يسهل الحصول عليها ويمكن صياغتها بسهولة إلى أي شكل يريده الإنسان. فمنه بنيت المعابد والبيوت ومنه صنعت الأواني والدمى وعليه كتبوا عقودهم وآدابهم وعلومهم، وفيه نبتت محصولاتهم، لذلك صار الطين عماد الحياة بالنسبة لسكان العراق القديم. إذ كان يكفي للإنسان العراقي القديم أن يلاحظ الطين وما ينشأ فيه من حياة (فطر ، نبات ، ديدان ... الخ) حتى تنشأ لديه قناعة أن هذا هو مصدر ومنشأ الحياة عموماً ، ولما لم يكن لديه شاهد عيان على خروج إنسان من الطين فجأة دفعة واحدة، كالزراع أو الدود، فقد اعتقد أن ذلك قد حدث بنوع من التشكيل الفخاري لأجداده الأوائل.

لهذا فإن اعتماد طريقة الصنع في خلق الإنسان كان بسبب اختيار مادة الطين بوصفه العنصر الأساسي في الخلق. وهذا ما أكده الأستاذ بوتيرو بقوله : " إن هذا التمثيل والصنع من الطين لأجسام البشر الأوائل ، يعتبر صورة طبيعية جداً، في بلد يلعب فيه الفخار دوراً كبيراً، حيث نجد صنع التماثيل من الطين الفخاري بشكل إنسان، عملاً منتشرًا بصورة واسعة" ^(٢). ويضيف الأستاذ فوزي رشيد سبباً آخر لاختيار العراقي القديم الطين مادة أساسية في خلق الإنسان بقوله: " لون هذه المادة (الطين) الذي يشبه إلى حد كبير لون بشرة سكان القسم الجنوبي من بلاد الرافدين" ^(٣).

بالعودة إلى أسطورة أنكي وننماخ نجد أن الطين الذي استخدمته الآلهة في صنع الإنسان لم يكن طيناً عادياً، وإنما " لب الطين الموجود فوق مياه العمق (آبسو)" ^(٤). أي ما تحت الأرض ولكنه فوق اليمّ الواقع تحت الأرض ، والذي تتمثل فيه على الأغلب نمو نفسها. وكان على هذا الطين أن يُفصل عن نمو كما يفصل الوليد عن أمه؛ وكان على ننماخ ، الأرض، أن تقف فوقها- والأرض بالطبع هي فوق المياه الجوفية- وتساعد على الولادة، وتعينها في ذلك أيضاً ثمانى إلهات أخريات . فلنا أن نفترض بأن

(١) عبد الباسط سيداء، من الوعي الاسطوري ... ، ص ١٧٥.

(٢) ، الديانة عند البابليين ...، ص ١١٥.

(٣) ، المعتقدات الدينية ، حضارة العراق، ج١، ص ١٧١.

(٤) عبد الباسط سيداء، من الوعي الأسطوري ... ، ص ص ١٧٨-١٧٩.

الطين الذي فوق (آبسو) ولد على هذا الغرار، ومنه صُنِعَ الإنسان^(١). وربما كان تعيّن مكان الطين المستخدم في صناعة الإنسان من نموّ نفسها، تلميحاً إلى العنصر المقدس الذي دخل في تكوين الإنسان، فمنحه مكانة خاصة بين سائر المخلوقات الأخرى، كما أن اشتراك آلهة عدة في عملية الخلق (أنكي - نمو-نمناخ-إلهة الولادة)، والجو الاحتفالي الذي أحاط بحادثة خلق الإنسان. إن كل هذه الإشارات توحى بأهمية الإنسان وخطورة الدور الذي أسند إليه.

تنتقل القصيدة في القسم الثاني منها من خلق الإنسان ككل إلى خلق نماذج بشرية معينة مشوهة وذلك في محاولة واضحة لتفسير وجود هذه المخلوقات الشاذة^(٢). فقد استخدمت نمناخ (القالب) الذي صممه أنكي لكي تخرج منه أناساً منتقصين، وتحدث الإله أنكي في أن يتداركهم فيجد لهم شغلاً مناسباً، أي مصيراً حسناً، كما كانوا يقولون. فقبل أنكي هذا التحدي، وكسب الرهان ست مرات^(٣). حيث تأخذ نمناخ شيئاً من التراب الذي فوق آبسو، وتصنع منه إنساناً غريب الشكل، وآخر فيه عيب جسدي، ورجلاً لا يستطيع وقف بوله، وامرأة عاقراً، وكائناً لا أعضاء تناسلية له. أنها تخلق ستة كائنات من هذا النوع. لا ريب أن هذه المخلوقات الغريبة الستة التي صنعتها نمناخ، تمثل أصنافاً معينة من الناس في المجتمع السومري كانت لاختلافها الجسماني عن سوية البشر تعدّ من مشكلات الحياة^(٤).

تتبنى العقيدة البابلية أيضاً طريقة الصنع بوصفها صورة خلق الإنسان في الأساطير البابلية، ففي ملحمة اتر-حاسيس قام الإله آيا في عملية خلق الإنسان بصحب الإلهة الخالقة نينتو(مامي) إلى (بيت الأقدار) حيث ساعدتهما آلهة من آلهات الولادة، وسحق الإله آيا الطين بقدميه ثم قسمت الآلهات الطين إلى أربع عشر قطعة؛ وصنعن من كل منها سبع صور إناث وسبع صور ذكور، وفصل ما بين المجموعتين بآجر اللبن. ويبدو من البقية القليلة السالمة من النص أن ((الرحم الخالق انفتح فجاء الإنسان))^(٥). وهذا الأمر يتوضح أكثر في النص المسماري الآتي:

" الأمير آيا والحكيمة مامي،

حينما جمعت الوالدات

(١) ثوركليد جاكبسون، أرض الرافدين ... ، ص ص ١٩٠-١٩١.

(٢) صموئيل نوح كريم، السومريون ... ، ص ٢٠٠.

(٣) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ... ، ص ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٤) ثوركليد جاكبسون، أرض الرافدين ... ، ص ص ١٩١-١٩٢.

(٥) طه باقر، مقدمة في أدب ... ، ص ٢٢٠.

فوطنن الطين واصبحن في المخاض،

لم تكن مامي لتكفَّ عن اطلاق التعويذة

التي كان آيا الجالس امامها يسردها لها.

بعد أن انتهت تعويذتها،

اقتطعت اربع عشرة قطعة من الطين،

وضعت سبع قطع عن اليمين

والسبع الأخرى عن الشمال،

ووضعت بينهما طابوقة...^(١).

إن ازالة الطابع الأسطوري عن النص السابق يجعلنا ندرك أن ما ورد فيها من صورة لكيفية صنع الإنسان لا تختلف عن الطريقة المعروفة في العراق القديم في صناعة آجر اللبن .

ما يميز العقيدة البابلية هو أنها أضافت إلى طريقة خلق الإنسان بالصنع تصوراً آخر مفاده أن الإنسان يدخل في تركيبه عنصران هما الطين ودم إله مذبح^(٢). فوفقاً لملممة اتر-حاسيس لم تستطع الآلهة الخالقة من إتمام عملية خلق الإنسان المكلفة بها إلا بمساعدة انكي-آيا، والذي أشار بقتل أحد الآلهة ومزج لحمه ودمه مع الطين لإتمام عملية خلق الإنسان^(٣). إذ نقرأ في هذه الملممة ما نصه:

" أنت الرحم البدائي أنت خالقت البشرية

نرجوك أن تخلق لنا لوللو ودعيه يحمل المسؤولية

وهكذا فتحت نينتو (وهو لقب آخر للآلهة خالقة البشر) فمها

وقالت للآلهة العظام

بالنسبة إلي أنني مستعدة أن أفعل كل شيء مناسب

وهكذا فقد قررت أن يأتي لوللو إلى هذه الحياة

(١) رينيه لابات، المعتقدات الدينية ...، ص ٢٤.

(٢) عبد الباسط سيديا، من الوعي الأسطوري ...، ص ص ٢٠٩-٢١١.

(٣) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ٥٥.

ولسوف يصنع جسمه من الصلصال

وسوف يدهن بالدم

ولكن أنكي فتح فمه وقال للآلهة العظام

ينبغي أن يذبحوا أحد الآلهة

ومن لحمه ومن دمه تستطيع نهورساك أن تمزج الصلصال"^(١).

لا تختلف صورة خلق الإنسان في قصة الخليقة البابلية عن ما ورد في أسطورة اترا-حاسيس. فبعدما أتم الآلهة بناء مدينة بابل إلى سيدهم الجديد مردوخ، فكر الأخير في وسيلة لتخفيف عبء العمل عنهم ، فقرر أن يخلق الإنسان. وتمت الدعوة إلى عقد اجتماع وجرى اتهام كنغو بأنه المحرض على التمرد وذبح، ومن جسده شكّل إنكي/آيا الإنسان^(٢).

وفي العقيدة الآشورية نجد صورة خلق الإنسان تستخدم نفس الطريقة أي قتل إله واستعمال دمه في عملية الخلق، وهو ما توضحه أسطورة خلق الإنسانين الأولين الآشورية. التي تتحدث عن خلق أبوي الإنسان الأوليين^(٣)، إذ يرد في تلك الأسطورة:

" لنذبح (اثنين) من آلهة لامكا

ولنخلق البشر من دمهما

فتكون خدمة الآلهة من نصيبهم

[... ...]

في المقام السامي للآلهة واللائق لأن يكون مزاراً معظماً اوليكارا وزلكارا

ستدعوها"^(٤).

(١) هاري ساكز، عظمة بابل ... ، ص ٤٤٢.

(٢) ثوركليد جكبسون ، أديان ما بين النهرين ... ، ص ٢٤١.

(٣) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية ... ، ص ٦٩.

(٤) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ص ٦١-٦٢.

يتضح من النص أعلاه بأن عملية الخلق تمت بإشراف الآلهة العظام (أنو، أنليل، شمش وأيا)، لكن الجديد في صورة الخلق لهذه الأسطورة هو عدم دخول عنصر الطين في تكوين الإنسان.

إن هذه الفروق بين صور خلق الإنسان في الفكر العراقي القديم والمتمثلة بالاختلاف في النظرة إلى الإنسان وفي نوعية المادة التي صُنِعَ منها الإنسان أو كيفية الصنع، لا تشير إلى حدوث تغيير جوهري في طبيعة المعتقدات الدينية (السومرية والبابلية والآشورية)، ولكنها تشير إلى تغير في نوعية بيئة المنطقة التي سكنتها تلك الشعوب. فقد كان لتنوع البيئة الطبيعية في أرض العراق القديم أثره المباشر والواضح في اختلاف تشكل صور الخلق لدى الإنسان العراقي القديم (السومري والبابلي والآشوري) وبالتالي اختلاف الصياغات أو الصورة العامة للخلق في نتاجاتهم الفكرية.

لهذا نجد صورة الخلق لدى السومري والمتأثرة ببيئته الطينية المتمثلة بالأهوار والمستنقعات تختلف عن تشكل صورة الخلق لدى البابلي في بيئته الترابية وكذلك تختلف عن صورة الخلق المتشكلة في ذهنية الآشوري المتأثرة بالمرتفعات في بيئته الجبلية^(١).

إن عملية خلق الإنسان في الفكر العراقي القديم كانت تبدو صناعية من حيث التنفيذ فقط، أما من حيث تشكل الفكرة والتخطيط لتنفيذها فكانت تتم بطريقة روحية في مخيلة الآلهة الخالقة. إذ كان خلق الإنسان يتم على صورة الإله^(٢)، فكان الإله الخالق يشكل في قلبه (صورة إله معين) ثم يأخذ طينا يشكله على هذه الصورة. فنجد الإلهة ارورو عندما خلقت كلكامش والمسح انكيو قد تصورت في نفسها صورت الإله أنو، كذلك فعل الإله آيا عندما خلق أسوشونامير و آدابا بنفس الطريقة^(٣). وعندما قررت الإلهة نننو الأم الأولى صنع كائناً بشرياً ذكراً في مدينة كيش نجدها تتصوره على هيئة الإله ننورتا، بينما عندما صنعت كائناً آخر مؤنثاً هذه المرة، كان على هيئتها نفسها أي شكلها^(٤).

على الرغم من أن البيئة الطبيعية كان لها الدور الأكبر في تشكل صور خلق الإنسان في مخيلة المفكر العراقي القديم. إلا أن هذا الأخير وتحت تأثير الطبيعة الإنسانية قد أظهر لنا أن طرق خلق الإنسان تلك قد تمت بصيغة إنسانية من خلال محاولته إبراز دور الشريك الذكري والأنثوي من النسل،

(١) حسين سيد نور، اثر الحتمية البيولوجية ... ، ص ٢٧٩.

(٢) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات ... ، ص ٧٢.

(٣) ديلا بورت ، بلاد ما بين النهرين ...، ص ١٦٠.

(٤) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين، ص ١١٤-١١٥.

والذي أجب عنه بطرق متنوعة في أوقات مختلفة؛ فالقسم الأول من "إنكي ونماخ" يثق بالنساء كل الثقة. فقد تم استحداث الإنسان من الطين، وتشكل وأنجب- كما ينص بصورة خاصة- من دون أن يستلزم ذلك وجود الذكر. ويشبه هذا إلى حد ما حكاية أتراحاسيس التي جعلت الإنسان يُخلق من الطين والدم الإلهي الذي شكلته وولده الإلهة نينتور، أي نماخ، وكان إسهام إنكي في كلتا الحالتين هو فكرة صنع الإنسان على الأكثر. ولكن الأمر في القسم الثاني من أسطورة إنكي ونماخ يتبدل، فيجري تأكيد قدرة إنكي على خلق جنين على الرغم من عدم قدرته على إنضاجه وولادته؛ فإسهام الرجل في استحداث الطفل ليس بحد ذاته كافياً؛ والمطلوب هو إسهام المرأة أيضاً. وأخيراً، في قصة خلق الإنسان في "إينوما إيلش" عند بداية الألف الأول ق.م نجد أن إلهة الولادة قد اختفت وقام الإله إنكي وحده بدور خلق الإنسان^(١). كما أن الأصل في خلق الإنسان يذكر غالباً بأنه حصل من قبل آلهة مؤنثة وذلك احتراماً وإجلالاً لدور المرأة الرئيس في تكوين جسد كل فرد وهذا ما نجده بالنسبة للإلهة ننخورساك، كذلك بالنسبة للإلهة مامي في أسطورة أتراحاسيس، والإلهة ننتو، ونفس الشيء بالنسبة للإلهة آرورو في ملحمة كلكامش^(٢).

٤- صور أخرى لخلق الإنسان

إن التحول في طريقة تفكير الإنسان قاداته إلى تفكير أكثر نضجاً فيما يخص الخلق^(٣). فقد وردت إشارات في بعض النصوص العراقية القديمة حول موضوع خلق الإنسان، يتضح من خلالها أن عملية الخلق قد تمت بطرق أقرب إلى الصورة الروحية، إذ تختلف عن الصورة المادية الواضحة في الطرق السابقة. ففي أسطورة الماشية والغلة على الرغم من عدم ذكر الطريقة التي خلق فيها الإنسان ولا الإله المسؤول عن الخلق، إلا أنه ربما تشير العبارة (أعطي نفس الحياة) إلى طريقة روحية في الخلق - غير مادية. إذ يرد في النص:

" من أجل الأشياء الخيرة المفيدة ، في زرائبهم الطاهرة

اعطي الإنسان نفس الحياة" (٤).

(١) ثوركليد جكبسون ، أديان ما بين النهرين ... ، ص ٢٣٧.

(٢) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين ... ، ص ١١٤.

(٣) فاضل عبد الواحد علي، المعتقدات الدينية في العراق القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٨٦)، ص ص

٥٨-٥٩

(٤) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٤٧.

وفي أسطورة خلق العالم من قبل مردوخ، حيث يقوم الأخير بخلق البشر بمساعدة الآلهة آرورو، نجد أن الطريقة تبدو واقعية جداً: وهي مرحلة ما قبل الخلق وهي صافية ونقية وبسيطة، إذ يرد فيها:

"آرورو أنتجت بمعية مردوخ بذرة البشرية"^(١).

كما ورد في نصوص أخرى إشارات إلى موضوع خلق الإنسان، بصورة عرضية، أن الإنسان خلق بالأمر الإلهي المباشر، دون التطرق إلى الطريقة التي بها ذلك الخلق. ومنها ما ورد في مقدمة أسطورة الطوفان السومرية، حيث ترد الإشارة فيها إلى أن الآلهة الخالقة الأربعة : (آن/أنو، أنليل، إنكي/آيا وننخرسك) خلقوا البشر^(٢). وفي أسطورة (حينما خلق آنو السموات)، نجد الإله آيا هو الذي خلق البشر، وهذا ما يوضحه النص الآتي من تلك الأسطورة بقوله:

" خلق البشر للقيام بخدمة الآلهة"^(٣).

سواء أكان الخلق قد تم بطريقة مادية أو روحية أو بالأمر الإلهي المباشر. فإن جميع النصوص التي تناولت موضوع خلق الإنسان تتفق في الغاية التي من أجلها تم ذلك الخلق. وتلك الغاية كانت قد تشكلت ونضجت في أذهان المفكرين العراقيين القدماء تحت تأثير بيئتهم.

إن المفكرين العراقيين القدماء وضعوا مذهباً مدروساً لمفهوم ومعنى الحياة البشرية مفاده : أن الإنسان صُنِعَ لخدمة ما هو إلهي وكذلك لإكمال وإتمام الطبيعة، أي أن الهدف من خلق الإنسان هو مرة ديني صرف فرضته العقيدة الدينية على الإنسان، إذ يتوجب عليه بموجبه خدمة الإلهة عن طريق توفير كل احتياجاتها من معابد وقربان فضلاً عن عبادتها. ومرة ثانية يكون الهدف لا ديني، مادي يؤكد على ضرورة العمل الإنساني، وهذا ما يوضحه النص المسماري بقوله:

" ما صنع من كمية صغيرة جداً، فليوسع حتى الكمال: وليكن الإنسان مسؤولاً عن تكاثر المخلوقات".^(٤)

(١) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين ... ، ص ص ١١٤-١١٥.

(٢) محمد فهد، قصة الخليقة ...، ص ١٠٩.

(٣) الكسندر هايدل، قصة الخليقة ...، ص ٩٩.

(٤) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين ... ، ص ص ١١٦-١١٧.

إن المراد قوله هنا أن الإنسان صنع ليكمل ما خلقته الآلهة وللوصول بها إلى الكمال والتمام وذلك بتحريك العناصر التي اقتصرت عليها الخليفة أولاً. أي أن العمل الإنساني هو الجوهر الفعلي للإنسان، وهو سبب وجوده .

اننا لو بحثنا عن الأساس المادي الذي دفع بالمفكر العراقي القديم إلى تحديد تلك الغاية التي خلق من أجلها الإنسان، لوجدنا أن ذلك يكمن في طبيعة البيئة العراقية وظروفها المناخية والطوبوغرافية في القسم الجنوبي من البلاد حيث بزغت فيها الحضارة العراقية القديمة^(١). فقد فرضت الظروف البيئية والمناخية الصعبة في تلك المنطقة، والمتمثلة بكثرة فيضانات الأنهار وانتشار الأهوار والمستنقعات فيها، فضلاً عن أن الزراعة فيها تعتمد اعتماداً كلياً على الري الاصطناعي، وما يتطلبه هذا النوع من الزراعة من مشاريع ري واستصلاح كبيرة^(٢). تلك الظروف البيئية مجتمعة قد فرضت تحدياً مادياً وفكرياً على الإنسان العراقي القديم، كانت استجابته المادية لها تتمثل في أنها خلقت لديه شعوراً متزايداً بأهمية التماسك الاجتماعي والتعاون. الذي وجد فيهما الوسيلة الناجعة للوصول إلى الطمأنينة والائتمان على حاضره ومستقبله^(٣). فقد أدرك الإنسان العراقي القديم بأنه فقط من خلال توحيد جهوده والعمل بروح الجماعة وفي جو يسوده الانسجام، سوف يتمكن من إخضاع تلك البيئة الصعبة والعنيفة لصالحه، ويشيد عليها حضارته الراقية^(٤).

إن تلك الاستجابة المادية لم تكن لتحقيق مبتغاها ويكتب لها النجاح في ظل تلك الظروف البيئية الصعبة، لولا وجود استجابة فكرية تسندها، فالحاجة المادية لم تكن دائماً ضماناً للإخلاص الفردي الاجتماعي، إذ لا بد من أن يكون للمجتمع وجود ميتافيزيقي يشد حنين الفرد وتطلعاته إليه. وتكون فيه أخلاقية طبيعية تسهر على التعاون وتدفع للإسهام في البناء الاجتماعي أقوى من دافع الحاجة والوجود المادي. وتكون بمثابة أيديولوجية فكرية تغرس في ذهنية الإنسان العراقي القديم ضرورة العمل لصالح الوجود الميتافيزيقي. فالمذهب الفكري (الأيديولوجيا) إنما يكتب له البقاء فقط إذا ما سهل عمل النظام

(١) بديعة امين ، "فكرة الصراع في الأدب السومري"، ق ١، مجلة آفاق عربية، (بغداد، ١٩٧٨)، العدد الأول، ص ٦١.

(٢) Wittfogel, Karl .A., Oriental Despotism A comparative Study of Total Power, Yale University Press, (New Haven and London, 1957).pp. 18-19.

(٣) محمد حسين النجم، فلسفة الوجود، ص ٣٠.

(٤) Oppenheim, A. L., " A Bird's-Eye View of Mesopotamian Economic History", in, Trade and Market in the Early Empires: Economies in History and Theory, Ed. Karl Polanyi and Others, (Chicago, 1971).p.29.

الاقتصادي بكفاية وبدون عراقيل، لهذا فقد كانت الآلهة، وفقاً للفكر العراقي القديم، تمتلك الكون وما فيه، فهي خالقه، وقد خَلَقَت الإنسان لسبب وغاية محددة وهي تعمير الأرض وإدامتها من خلال العمل، وتقديم فروض الطاعة والعبادة لها، لهذا كان الإنسان العراقي القديم يواجه نوائب عالمه المضطرب والذي لا يمكن التكهّن به، بنوع من التوكل التام على إلهته. لاقتناعه بأن ضرورة العمل بروح الجماعة وفي جو يسوده الانسجام يؤدي إلى تحقيق أرادة تلك الآلهة. وفي الواقع اتخذت خدمة الآلهة في المجتمع العراقي القديم شكل جهد تعاوني منظم إلى أبعد دقائق التنظيم. فكانت النتيجة مجتمعاً منظماً.

مما تقدم يمكننا القول، أن فلسفة الخلق التي توصل إليها الإنسان العراقي القديم، وطرحها في فكر ميثولوجي يتعاطى مع الرمز وسرد القصص، جاءت في شموليتها وفي مدلولاتها النفسية لتعبّر عن وجدان ولا شعور ذلك الإنسان المنفعل والمتأثر بما يراه في بيئته الطبيعية. فمن خلال تحليل صور الخلق التي احتوتها تلك الفلسفة يمكن الوقوف على الحوافز الداخلية العميقة للإنسان العراقي القديم الذي ابتدعها. فتلك الفلسفة لم تكتف بعرض ردود فعله أمام ما يحيط به من عناصر كونية ولكنها في الوقت نفسه أقامت عبر هذا الإنسان نظاماً فكرياً وتبنت قيماً مكنته من رسم الطريق المؤدي لمعنى حياته كما رسمها لنفسه، إذ حين تساءل الإنسان عن معنى حياته، رسم لنفسه من ضمن إجابته اتجاهاً لها، اشتمل على القيم الموجهة له، يتبعها ويفرضها على نفسه لكي تحافظ حياته على المعنى الذي قصده لها. أو كما اعتادت أن تقول النصوص، على المعنى الذي أرادته له الآلهة.

المبحث الثاني

أثر البيئة في تشكل صور الخلق في الفكر المصري القديم

أولاً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الكون

منذ القدم كان الإنسان المصري القديم يبحث عن حقيقة ما حوله وأسرار الكون وكيفية خلق الإنسان والأرض وبدء الحياة عليها^(١)، لهذا فقد شكل موضوع الخلق بصورة عامة وخلق الكون بصورة خاصة محوراً رئيسياً في الفكر المصري القديم، وهذا ما تؤكده النظريات المختلفة والمتعددة لدى المصريون القدماء عن هذا الموضوع^(٢). والتي وصلتنا منها جملة أساطير تمثل مدارس فكرية متنوعة لتتوزع المدن والعواصم المصرية القديمة التي أنتجت^(٣). في مقدمتها أربعة مراكز حضارية رئيسية ظهرت كل واحدة منها بعد الأخرى، وهي على التوالي: مدينة (أونو-Ionu)(هليوبوليس - Heliopolis) عين شمس أو لاهوت التاسوع المقدس، مدينة (خمنو - Khmnu)(هرموبوليس - Hermopolis) الاشمونين أو لاهوت الثامون المقدس، مدينة (منف - Memphis) أو لاهوت الخلق عن طريق قلب ولسان الإله بتاح أي بفكره وكلمته ، ولاهوت مدينة(واست - Waset) (طيبة - Thebes)، التي تبنت فكرة التاسوع المقدس ولكنها زادت وشكلته بطريقة تختلف اختلافاً يسيراً عن أونو^(٤). وكان هناك مذاهب ونظريات دينية أخرى، مثل المذهب الذي عثر على نصوصه في الفقرتين ٤٠٧-٤٠٨ من متون التوابيت (التي عثر عليها في لبرشا ومير وأسيوط) والتي تعبر عن فكرة الخلق طبقاً لسبع مراحل أو سبع كلمات من محت ورت (الموج العظيم أو المد العظيم)^(٥).

لقد أدت كثرة المدارس الفكرية واللاهوتية في مصر القديمة إلى ظهور الاختلاف الواضح في رؤى المصريين القدماء الفلسفية لأصل العالم والوجود^(٦)، فمفاهيم خلق العالم في الفكر المصري القديم معقدة ومقدمة بأساليب متنوعة كثيرة؛ لدرجة تختلط فيها الأفكار والصور القائمة بذاتها، وهذا الأمر جعل

(١) محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار المعرفة، (القاهرة، ١٩٨٤)، ج٥، ص ٤٠٧.

(٢) دون ناردو، الأساطير المصرية، ترجمة: احمد السرساوي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، (القاهرة، ٢٠١١)، ص ٢٣.

(٣) سامي سعيد الاحمد وجمال رشيد احمد، تاريخ الشرق القديم، منشورات جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٨٨)، ص ٩٦-٩٧.

(٤) احمد محمد البربري، السماء في الفكر المصري القديم، الحضري للطباعة، (القاهرة، ٢٠٠٤)، ص ٦١.

(٥) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة، مطابع المجلس الأعلى للآثار، (القاهرة، ٢٠٠٤)، ج١، ص ٢٠٨.

(٦) مصطفى النشار، الفكر الفلسفي في مصر القديمة، الدار المصرية للطباعة والنشر، (القاهرة، ٢٠٠٤)، ص ٢٤.

من دراسة موضوع نشأة الكون في الفكر المصري القديم أمراً مريباً ومعقداً، نظراً لتعدد صور الخلق واختلافها باختلاف المراكز الدينية^(١). ومنبع هذا التعقيد هو الإضافات الكثيرة والمعقدة التي أضافها الكهنة، بمرور الزمن وتحت تأثير عوامل مختلفة، إلى الصور الأولى أو الأفكار الأولى للمجتمع المصري القديم. ومع أنهم حاولوا تنظيم ذلك الخليط العجيب من التعاليم الدينية، إلا أن ذلك أدى إلى مزيد من التعقيد، لاسيما أنهم لم يلغوا القديم منها واكتفوا بإضافة الجديد إليها^(٢).

إن محاولة تقديم فكرة المصري القديم عن العالم في صورة واحدة يبدو أمراً مستعصياً إن لم يكن مستحيلاً، فأولاً، يشمل هذا الفكر ما يقارب الثلاثة آلاف سنة من التاريخ المسجل، ترى فيها آثار من تطور ما قبل التاريخ؛ وفي هذه الحقبة الطويلة تغير مستمر وكثير. وثانياً، لم يخلف لنا المصري القديم تشكيلاً واحداً لأفكاره نستطيع الاستفادة منه نواةً للمبحث^(٣)، فلا يوجد نص ديني موحد يتعلق بخلق العالم، بل العكس هناك مجموعة متنوعة من التفسيرات التي قد تبدو، لأول وهلة، غريبة الواحدة عن الأخرى، ولكن إذا قمنا بقراءة أكثر عمقا، لاكتشفنا وجود عناصر متكررة بشكل دائم في كل أساطير خلق الكون وهي الدعائم التي تمكننا من تتبع مراحلها المختلفة، وسوف نقوم بتحليل تلك العناصر لكي نستخرج منها السمات الرئيسية التي تستند عليها كل أساطير خلق الكون المصرية. إذ أنه بالرغم من تنوع النصوص وهو ليس بسيط أبداً، لوجدنا أن تلك الأساطير المختلفة، تتبع نفس التكوين، كما إيطاراتها، وإن لم يكن من الممكن أن تتوافق دائماً، لها نفس الطبيعة. وفي هذا أبلغ دليل على أنه بعيد عن الاختلافات المحلية أو الزمنية، فإن نفس طريقة الاقتراب من الظاهرة الدينية قد وجدت بصورة دائمة كامنة منذ النشأة الأولى^(٤). والتي كانت لدى المصري القديم، منذ القدم وفي أغلب فترات تاريخه الحضاري، نابعة ومتأثرة بالواقع المادي (البيئة) بما فيه من أشياء مرئية وملموسة ومحسوسة^(٥).

(١) إريك هورنونج، فكرة في صورة مقالات في الفكر المصري القديم، ترجمة: حسن حسين شكري، مراجعة: محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة ٢٠٠٢)، ص ٣٥.

(٢) أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة، ترجمة: عبد المنعم ابو بكر ومحمد انور شكري، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٥)، ص ١١٣-١١٤.

(٣) جون. ا. ولسن، "مصر"، في، ما قبل الفلسفة ...، ص ٥٩.

(٤) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر من ٣٠٠٠ قبل الميلاد إلى ٣٩٥ ميلادياً، ترجمة: فريد بوري، مراجعة: زكية طبو زادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، (القاهرة، ١٩٩٢)، ص ٥٧-٥٨.

(٥) نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصرية- العصر الفرعوني، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة)، مج ١، ص ٢٠٩.

لقد أثرت أسرار وغموض الطبيعة مباشرة في الحياة اليومية للإنسان المصري القديم، كما أنها أثرت في القصص والأساطير التي وضعها محاولة منه لفهم أصل كل الأشياء^(١). فقد كانت الطبيعة المصدر الذي أخذ منه المصريون القدماء صور تصوراتهم عن تشكل هذا الكون. ومنذ قدماء المصريين من الرعاة والزراع الذين يرجع تاريخهم إلى ما قبل حكم الأسر كانت لديهم تخيلات وتصورات وصور مختلفة عن هذا الخلق أو التشكل، وكلاً منهم تأثر بالمنطقة أو الإقليم الذي كان يعيش فيه، ولما اتحدت تلك الأقاليم واختلط الناس بعضهم ببعض تبادلوا تلك الآراء والتصورات البسيطة^(٢). ومع تطور الفكر الديني حاول بعض الكهنة وأهل التفسير من رجال الدين تفسير حقيقة الآلهة والكون والوجود والخلقية بطريقة أكثر تعقيداً. فنشأت فكرة المذاهب الدينية المختلفة^(٣). نتيجة لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية مرة أو نتيجة للتنافس بين مدتهم مرة أخرى ونتيجة لدرجة النضج العقلي التي كانت تحكم هذه الرؤى مرة ثالثة^(٤)، لهذا فقد تنوعت نظريات نشأت الكون في الفكر المصري القديم بقدر ما تواجدت مقاصير رئيسية في البلاد، إلا أن المبدأ الذي يحركها واحد، يكشف عن وحدة تفكير عميقة^(٥). لذلك كانت مجموعها مقبولة عند المصري القديم^(٦).

إن الأفكار المختلفة التي جاء بها المصريون القدماء عبرت عن موضوع الخلق في سلسلة صور تندمج أحداها في الأخرى^(٧). ويكمل بعضها بعضاً بوصفها حصيلة للفكر المصري القديم^(٨). فمثلاً يمكن القول أن لاهوت الأشمونين يكمل من نواح عدة لاهوت هليوبوليس، فهذه الأخيرة على الرغم من أنها قدمت تفسيراً يبدو متكامل عن خلق الكون، إلا أنها، مع ذلك، نراها أهملت جوانب مهمة في تلك النظرية،

(١) روبرت ارموار، آلهة مصر القديمة وأساطيرها، ترجمة: مروة الفقى، مراجعة: محمد بكر، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، ٢٠٠٥)، ص ١١.

(٢) جيمس هنري برستد، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة: حسن كمال، مراجعة: محمد حسنين الغمراوي، ط ٢، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٦)، ص ٣٥.

(٣) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة ... ، ج ٢، ص ١٩٢.

(٤) مصطفى النشار، الفكر الفلسفي ...، ص ٢٤.

(٥) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة (نفثات رع إله الشمس)، ترجمة: حليم طوسون، مراجعة: محمود ماهر طه، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، ٢٠٠٥)، ص ٩١.

(٦) دون ناردو، الأساطير المصرية ...، ص ص ٢٤-٢٥.

(٧) رندل كلارك، الرمز والأسطورة في مصر القديمة، ترجمة: احمد صليحه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٨٨)، ص ٤٩.

(٨) Allen, James P., "Genesis in Egypt" The Philosophy of Ancient Egyptian Creation Accounts, Yale University, 1988 ,p.257.

في مقدمتها مادة الكون وطبيعتها قبل الخلق، كذلك فإنها أغفلت الإشارة إلى التل الأزلي المكان الذي باشر آتوم عليه عملية الخلق. وهذه العناصر وجدناها موضحة في لاهوت الاشمونين^(١). وهذا الأمر ينطبق على بقية نظريات الخلق الأخرى^(٢).

ويتعين أن نتذكر دائماً أنه لا توجد ديانات مصرية متفرقة، بل وحدة فكرية عميقة تتجلى مفاهيمها بشكل متعدد، وقد تمثل هذا الانسجام الذهني على مدى ثلاثة آلاف سنة، في تفكير لاهوتي ظل متواصلاً دائماً، واستمر إلهامه من مصادره ذاتها. وعلاوة على أن المصريين كانوا يعتقدون أن الحقيقة الواحدة يمكن أن تجسدها آلهة مختلفة، وأن الكيان الواحد يمكن أن يضطلع بعدة مهام أسطورية، فقد تصوروا عناصر العالم في هيئات متنوعة وفقاً لما يودون التعبير عنه، فالوصف المبسط للغاية كان يتفق مع مفهوم طبيعي للعالم ولحقيقته المادية، ولكن وصف الدور الذي يجب أن تضطلع به تلك العناصر وسط الآلية الكونية الكبرى كان يتطلب اللجوء إلى صور أكثر تعقيداً^(٣).

لهذا، فنحن وإذ نحاول إعطاء نظام متسق عن صور الخلق في الفكر المصري القديم معتمدين على ما ورد بخصوصها في المدن والأقاليم والعواصم المتعددة في مصر القديمة، لن نعتمد الطريقة المتبعة في أغلب الدراسات التي تناولت الموضوع، والمتمثلة بدراسة وتقديم لاهوت كل مدينة ونظريتها حول الخلق كلاً على حدة، بل سنستخلص ما ورد فيها مجتمعة من صور الخلق بوصفها جميعاً تشكل الفكر المصري القديم.

١- صورة الكون قبل التشكل

قد تشترك النظريات العديدة لنشأت الكون في الفكر المصري القديم في بعض جوانب تصوراتها لتفسير خلق الكون، ولكنها تتفق جميعها في الصورة التي تقدمها لحالة الكون قبل تشكله أو خلقه^(٤). حيث تفترض جميع أساطير الخلق أن الكون كان عبارة عن هيولية مائية تمتد إلى ما لانهاية في جميع الاتجاهات تدعى المياه الأزلية أو المحيط الأزلي^(٥). أطلق عليها المصري القديم تسمية (نون-Nun) أو

(١) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، " مصر منذ قيام الملكية حتى قيام الدولة الحديثة" دار المعرفة الجامعية، (الاسكندرية، ١٩٩٣)، ج ٢، ص ص ٣١٣-٣١٤.

(٢) BAINES, J., "Egyptian Myth and Discourse", JNES, 50, 1991, pp. 81-82.

(٣) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة...، ص ٣٣.

(٤) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر...، ص ٥٩.

(٥) راندل كلارك، الرمز والأسطورة...، ص ٣١.

(نوو - Nu). وتدل الجذور والأشكال الخطية التي استخدمت للإشارة إلى كلمة نون في الكتابة الهيروغليفية بأنها تشير إلى الوسط السابق على الوجود وبين الماء^(١).

لم يجمع المصريون القدماء رأيهم على وصف واحد للحالة الأولى، فيما لو كانت حالة واحدة أم حالات عدة تصفها عبارات المحيط الأصلي والمياه الأزلية واللجة. فوفقاً إلى لاهوت هليوبوليس كانت المياه أمراً واحداً هو نون، وهو الاعتقاد العام في مصر القديمة. ولكن كان لمدينة هرموبوليس في مصر الوسطى عقيدة تقول أن أفضل وسيلة للتعبير عن فكرة اللجة هي وصفها بما لم يكن: وذلك بسرد قائمة من الصفات السلبية. وفي نصوص شو من عصر الاضطراب الأول، التي تأثرت بأفكار وعقيدة مدينة هرموبوليس، نجد عبارة: "في اللانهائية والعدم واللامكان والظلام"، التي تتكرر كلازمة حتى تؤكد أن ثمة شيء ما قد حدث في المياه الأزلية قبل مجيء المخلوقات الايجابية المرئية في إوانها^(٢).

ويُصور نون أحياناً موقعاً للظلمات، بيد أنه لا يمكن أن يكون موضعاً طالما لم تتحقق الخليقة بعد، حيث أنه سيكون بداية ظهور الزمان والمكان. ولا يمكن تعريف النون إلا من خلال عدم قيامه، نظراً لعدم وجوده طالما لم يخلق بعد المجال الملموس. وانطلاقاً من اللحظة التي تواجد فيها هذا المجال، يمكن أن يُفهم النون على أنه كل ما ليس جزءاً من العالم الملموس، وأن يوصف بأنه الكون عندما كان لا يوجد به زمان أو مكان^(٣). وهذه الصورة السلبية هي أفضل وصف قدمه لنا المصريون القدماء عن النون بقولهم: "قبل أن توجد السماء، قبل أن توجد الأرض، قبل أن يوجد البشر، قبل أن يوجد الموت"^(٤).

إن اعتقاد المصريين القدماء بأن الكون قبل الخلق كان في حالة فوضى من المياه الأزلية يبدو أمراً طبيعياً^(٥). إذ أن هذه الصورة كانت بالنسبة لهم حقيقة يختص بها عالم الطبيعة أكثر من عالم الإيمان. فهذا التصور المصري لم ينشأ من مجرد تأويلات فكرية صرفة، ولكن نتيجة ملاحظة ظواهر طبيعية؛ جغرافية وكونية، ثم نقلت على مستوى الميثافيزيقيا والأساطير^(٦). بعبارة أخرى لقد أوحى البيئة

(١) عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود ...، ص ٣٣.

(٢) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ٥١.

(٣) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٩٣.

(٤) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر ...، ص ٥٩-٦٠.

(٥) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية الوجدانية والتعددية، ترجمة: محمود ماهر طه ومصطفى أبو الخير، مكتبة مديولي، (القاهرة، ١٩٩٥)، ص ١٨١.

(٦) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر ...، ص ٦٠-٦١.

المصرية للإنسان المصري القديم وهو يتفكر في كيفية نشأة الكون عن طريق ملاحظاته لظواهر ومظاهر تلك البيئة وتأثيرها على مجريات تفاصيل حياته^(١). فصورة الكون وهو عبارة عن مسطحات مائية شاسعة لا تبدو غريبة بالنسبة لفكر المقيمين القدامى عند ضفاف النيل؛ فالأرض في بلاد وادي النيل تختفي كل عام تحت مياه الفيضان السنوي لنهر النيل^(٢). وتلك الصورة للبلاد وهي غارقة بالمياه حيث تختفي كل الموجودات، عكسها المصري القديم على تصوره لصورة الكون قبل تشكله مطلقا عليها اسم نون^(٣).

تلعب المياه الأزلية (نون) دوراً أساسياً في كل أساطير الخليفة في الفكر المصري القديم^(٤). فالمياه في نظر المصري القديم لا تمثل الصورة السابقة لتشكل الكون فحسب، بل هي في نظره كذلك منبع كل حياة، والمادة الأصلية التي خرج منها كل عنصر منظم^(٥)، بكلمة أخرى أن المفكر المصري القديم أعتقد أن كل عناصر الوجود كانت في حالة كمون داخل المياه، وخرجت هذه العناصر من الماء وانتقلت من حالة الجمود إلى حالة الحياة المتحركة بفضل الإله الخالق الذي جسده عبر السنين في صور متعددة. وهذا بالضبط ما يذكره أحد نصوص بردية نيس على لسان الإله الخالق :

" كنت وحيداً، ولم توجد كائنات أخرى تعمل معي في هذا المكان، صنعت كل الأشكال التي ظهرت بها بواسطة (أو خارج من) الروح الإله التي بعثتها من داخل نون من حالة السكون(أو من الكتلة الساكنة)"^(٦).

ففي هذا النص نجد أن كل الموجودات، فضلاً عن روح الإله الخالق، كانت موجودة في حالة سكون في التجمع المائي الخامد نون، وبهذا فإن الكون عند المصريين القدماء لم ينشأ من عدم، بل ظهر من وسط مائي يتضمن في ذاته الطاقة الكامنة للخلق .

يعطينا لاهوت الاشمونين فكرة عن مادة الخلق (الهيولية) تلك، إذ جسدها مفكرها بأربعة أزواج إلهية. تتكون من أربعة آلهة ذكور وأربعة آلهة أناث، والذكور يصورون ولهم رؤوس ضفدع (الرؤوس فقط بدون شكل آخر مكمل للجسم) أما الاناث فيصوّرُن برؤوس ثعابين. وهذه الآلهة في أشكالهم هذه ملائمون

(١) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني: حضارة مصر القديمة ، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ٢٠١٤)، ص ٢٠.

(٢) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٩٢.

(٣) عريان لبيب حنا، الشخصية المصرية في مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ٢٠٠٣)، ص ٣٢.

(٤) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ٩٣.

(٥) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٦٩.

(٦) والاس بدج، آلهة المصريين ، ترجمة: محمد حسين يونس، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٨)، ص ٣٤٤.

لسكنى الوحل البدائي وأنهم لم يكونوا جزءا من الكون المخلوق، ولكنهم كانوا من الهبولي نفسه وفق ما تظهر اسمائهم. الزوج الأول نون و (ناونت - Naunt) ويمثل نون مصدر الماء ، المحيط الكوني قبل بدء الخليقة، المادة التي أنت منها جميع الأشياء إلى الوجود، وكذلك باقي أعضاء الثامون، ولذلك يسمى "الإله القديم، الذي نشأ أولاً"^(١). أما زوجته فهي التي تصنع الماء، فهذا الزوج يمثل مصدر الماء الأزلي وهو مادة الهبولي نفسه، إذن فهو أقدم أزواج الثامون نشأة. أما الزوج الثاني هو (ح-Heh) و (حت- Hauhet)، ويبدو من الصور أن العمل الأول لهذا الزوج هو رفع الابن الوليد للشمس من العالم السفلي الذي يوجد في نون- إلى العالم العلوي. ويمثل هذا الزوج إحدى صفات الماء الأزلي نون وهي القدرة على توسع وجريان الماء في كل مكان ليشق له طريقاً، على اعتبار أن الماء حينما يمتد أو يسيل في الفيضان فذلك يعني انه يبحث عن طريقه^(٢). والزوج الثالث هو (كوك- Kek) و(كوكت- Kauket)، ومن خلال الصلة بالليل التي تشير إليها علامتهما الهيروغليفية فأن هذا الزوج يمثل الليل أو الظلام الذي كان فيه الهبولي قبل الخلق. أما الزوج الرابع هو (آمون- Amun) و(آموننت- Amaunet) ويعني الخفي أو الغير المرئي^(٣). وقد تكون صفة للطبيعة الغامضة لهذا الهبولي الكوني قبل ان يأتي العالم إلى الوجود.

إن تلك الكيانات حتى وأن شخصت بكونها آلهة لكنها ليست سوى صفات للماء " المياه التي صنعت الضوء" هكذا تُلَقَّب^(٤)، وحتى وأن اشارت بعض النصوص إلى أن هذه الآلهة قد نشأت من التل البدائي لهرموبوليس، أي أنها نشأت بعد ارتفاع التل البدائي من الهبولي^(٥)، فانه نظراً لأن التل البدائي منبثق من الهبولي، فيمكن القول بأن هذه الآلهة الثمانية نشأت من الهبولي الذي هو مادة الكون قبل الخلق، وأن التل البدائي كان المكان الذي يلزم أن تعيش عليه إذ أنها كائنات برية.

لقد أخذ المصري القديم هذه الصورة عن الحالة السابقة لتشكل أو خلق الكون وهي عبارة عن فوضى مائية مكونة من المياه الأزلية الموحلة بما علق عليها من طمي وسكنتها الأفاعي والضفادع من الصورة البرمائية حين تغرق أرض مصر بفيضان النيل ثم يسيطر عليها سكون الماء والظمي ورؤوس الحيوانات الساكنة التي تبرز منه.

(١) محمد عبد اللطيف محمد علي، فكرة الخلق في مصر القديمة حتى الأف الثاني ق. م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٨، ص ص ١٣٢-١٣٣.

(٢) Sethe, Kurt, Amun and Die Acht Urgotter Von Hermopolis, (Berlin,1929), pp. 74-75.

(٣) Ibid. p.76.

(٤) Frankfort, Henry, Kingship and god..., p.151.

(٥) Ibid. P.155.

أثرت البيئة المصرية وخصوصاً نهر النيل وفيضانه السنوي على حياة المصري القديم وعلى بناء شخصيته وتشكل معتقداته الدينية والفكرية ومنها تصوراتها عن تشكل الكون. فقد أستقر المصري القديم في وادي النيل بعد أن تغلب على جنوحه وقت الفيضان وأمكنه الاستفادة من مائه بعد أن شق القنوات وبنى الجسور التي تحميه من غمر الأرض بالماء الغزير وأصبح النيل مصدر الخير الذي يروي الأرض وقام الفلاح العظيم بزراعة الأرض بانتظام. وبذلك فرض النيل على سكان الوادي البيئة الزراعية بكل ما تتركه هذه البيئة على السكان، فالماء يعني الحياة، ويعني الري، ويعني الاستقرار من أجل الزراعة، ويعني تشكيل صورة المجتمع المترابط غير المتنقل، الذي يعمل أفراداً سوياً من أجل تأمين احتياجاتهم المادية^(١).

وبعبارة أخرى لقد كان تطور مصر البطيء عبر آلاف السنين في عصور ما قبل التاريخ والظاهرة السنوية للفيضان وانحساره مياه النيل هي الصور التي أسهمت في مفهوم "العالم السابق" وهو النون. فالصورة التي رآها المصري القديم في النيل أيام الفيضان أي وجود ماء كثير ثم ينحسر وتظهر الأرض هي نفس الصورة التي تخيلها للخلقة، فلجة الماء هي التي يظهر منها الإله الخالق الذي خلق نفسه من ذاته ثم قام بخلق الآلهة الأخرى والإنسان والحيوان وكل شيء.

أمتلك نون أو المياه الأزلية الطاقة الكامنة للخلق لأنه يمثل مياه فيضان النيل التي تحمل الغرين المخصب للأرض، والتي تسميها بعض النصوص النادرة في إدفو ومعبد خونسو في طيبة بالبنبت (benenet)، المادة الأصلية، لكن هذا لا يعطيه أيضاً أي دور فعال كباعث لخلق العالم. أنه على العكس من ذلك يظهر كمبدأ جامد يحتوي في نفسه على كل الاحتمالات وكل افتراضات الكائن، وسوف تنشط بعضها لكن بمساعدة قوى أخرى هو الإله الخالق^(٢). و"المرّة الأولى" التي ترد في نصوص الخلق هي عبارة عن انبثاق من سائل يحتوي على العناصر التي ستتحقق ازدهار الحياة^(٣). بعد أن أنهى الخالق عمله أنحسر نون وطُرد إلى أطراف الكون محيطاً به من كل الجهات، وليصبح (الدائرة العظمى) حيث قوى الفوضى الغامضة والخطرة، والتي ينبغي حماية البشرية منها^(٤). ويبدو عمل الخالق هذا مشابه لعمل المصري القديم وهو يحاول ضبط مياه فيضان النيل عندما كانت تغمر الأرض بالكامل كل عام.

(١) عريان لبیب حنا، الشخصية المصرية ...، ص ٣٠-٣١.

(٢) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر...، ص ٦٠.

(٣) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٩٢.

(٤) كلير لالويت، الأدب المصري القديم، ترجمة: ماهر جويجاتي، دار الفكر، (القاهرة، ١٩٩٢)، ص ٧٤-٧٥.

٢- صورة التشكل الكوني الأول

أ- ظهور التل الأزلي

تسمى لحظة بدء الخليقة في الفكر المصري القديم بـ(المرّة الأولى). ونظراً لأن مصر القديمة لم تعرف أسطورة رسمية أجمع عليها رجال الكهنوت لتفسير بدء الخليقة، فقد اختلفت أساطير الخلق المصرية القديمة في وصفها لـ(المرّة الأولى)، حيث أعطت تلك الأساطير مجموعات مركبة من الصور والرموز المتعددة المفسرة لهذه البداية، ولكن وبالرغم من كل ذلك الاختلاف فإن كل أساطير الخلق تعتمد إلى شرح الطريقة التي خرج بها الموطن الفعلي للضياء وصورة الوجود الأولى في قلب الخواء المائي اللامتناهي لليل السرمدي^(١). فلحظة بدء الخلق في الفكر المصري القديم اشتملت على صورتين، الصورة الأولى: كانت روحية تمثلت بظهور الإله الخالق، والصورة الثانية: كانت مادية تمثلت بظهور التل أو الرابية الأولى، سيتبعها فيما بعد ظهور كل عناصر الوجود الأخرى^(٢). ولما كان السياق الذي نحن بصددده هو تسلسل الظهور المادي للكون وليس الروحي للآلهة. كان لازماً أن نجعل من ظهور التل الأزلي يسبق ظهور الإله الخالق، كون ظهور الجزء المادي الذي يمثله هذا الإله وهو الشمس كان لاحقاً لظهور التشكل الكوني الأول. وهو ما عبرت عنه النصوص المصرية. والتي تشير إلى أن الإله الخالق كان لا يزال داخل المياه الأزلية (نون) عائماً أو سابحاً دون أن يكون له موطئ قدم مثلما يقول الإله (آتوم-Atum) في فقرة من نصوص التوابيت: " كنت وحيداً في النون وبدون حركة. لم أجد مكاناً، حيث يمكن أن أتمخض، ولم أجد مكاناً حيث يمكن أن أجلس..."^(٣).

أُطلقَ على التشكل الكوني في الفكر المصري القديم اسم التل الأزلي أو تل الخليقة^(٤). وهو عبارة عن رابية أو تل يمثل موقعاً جافاً في منأى عن أمواج اللاشكالية، تنتظم الخليقة انطلاقاً منه بفضل الإله الخالق وتتجدد فيه بانتظام "المرّة الأولى"^(٥). "الجزيرة البارزة في نون التي نشأت أولاً بينما كانت كل الأماكن الأخرى في الظلام"^(٦). وهو مكان يتعارض فيه الجاف مع الرطب، تجمعت فيه مادة الخلق التي

(١) راندل كلارك ، الرمز والأسطورة، ص ص ٣٢-٣٣.

(٢) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ٣٧.

(٣) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر...، ص ٦٤.

(٤) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ترجمة: احمد قدري، دار الشروق، (القاهرة، ١٩٩٦)، ص ٥٢.

(٥) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٩٤.

(٦) Sethe, Kurt, Amun and Die Acht..., p.118.

كانت منتشرة في نون المياه الأزلية، ليتم تنشيطها وتشكيلها على يد الخالق حينما يباشر في تنفيذ خطته للخلق^(١).

لقد كان هناك الكثير من هذه التلال الأزلية في التاريخ الديني لمصر القديمة. ففي عين شمس كان هذا التل يمثل في العصور التاريخية بتل رملي يعلوه حجر مخروطي الشكل البن بن "benben" هو الأصل الذي تطورت منه المسلات بعد ذلك. وتقدر الآشموين بـ(تلها المرتفع) أو أيضاً بالجزيرة المتأججة حيث ظهرت زهرة اللوتس وولد منها الطفل الشمسي، والتي ستكون طبقاً لعقيدة أخرى من نفس المكان "جزيرة البيضة". وفي منف كان موقع المدينة بأسره يجسده الإله (تاتنن Tatenen) الذي يعني (الأرض المرتفعة) أي التي تظهر فوق سطح المياه الأزلية. وعندما أصبحت مدينة طيبة عاصمة مركزية في عصر المملكة الحديثة، كان لديها أيضاً تلالها الأزلي، الذي يحدد موقعه عادة في البقعة التي شيد عليها معبد مدينة هابو على الضفة الغربية للنيل. لقد أنتهى الأمر إلى أن كل هيكل فيه مرتفع لإله قد يعتبر ذلك المرتفع مكان الخليفة^(٢).

تتطوي أساطير الخلق المصرية على مجموعات مركبة من الصور والرموز لتفسير بدء الخليفة، وربما يرجع ذلك إلى أحساس المصري بأن نشأة العالم أمر يحفه الغموض والتعقيد حتى يتعذر تفسيره دائماً باستخدام نفس الصور^(٣). فالرابية الأولى لم تصور دائماً كبقعة أو جزيرة صغيرة من الأرض، بل صورت في فترة متأخرة نسبياً بزهرة اللوتس التي تنبت من الأعماق الطينية، وينبثق الوجود من برعها الذي يأخذ شكل الشمس مرة ثانية، وفي صورة أخرى تكون تلك الرابية هي عبارة عن بقرة جبارة بارزة من المياه، تعرف باسم محت ورت أو السباحة العظيمة، وفيما بعد سميت أحت أو احت، وهذه البقرة تحمل الشمس بين قرنيها. وتوفر صور التل البدائي، وزهرة اللوتس، والبقرة مثلاً تقريباً مرئياً على سبيل التوضيح لأساس مكمل للمفهوم المصري لخلق العالم^(٤). فلا يزعج المصري القديم تناقض واختلاف صورة التشكل الكوني أو اختلاف مكان ظهوره، لأن المهم لديه هو فكرة رابية الخليفة^(٥).

(١) كلير لالويت، الأدب المصري القديم ، ص ص ٧٤-٧٥.

(٢) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة ... ، ص ٥٣.

(٣) راندل كلارك ، الرمز والأسطورة ، ص ٣٣.

(٤) إريك هورنونج، فكرة في صورة ، ص ص ٣٢-٣٣.

(٥) جون ا. ولسن، مصر ، ص ٦٦.

دأب المصري القديم على تأمل الطبيعة وملاحظتها في دقة متناهية، وكان يحلو له أن ينقل الأفعال البسيطة العادية إلى عالم الخيال^(١). فقد مر بنا سابقاً كيف أن البيئة الطبيعية قد أوحى للمصري القديم بعكس صورة البلاد وهي مغمورة بمياه فيضان النيل السنوي بوصفها صورة تصور لها للحالة السابقة الكون الحالي. ليستمر تأثير البيئة في دفع تداعي أفكار المصريين القدماء حول صورة التشكل الكوني الأول من خلال مقارنتها مع حالة البلد الذي يتخلص من وطأة المياه المكتسحة .

لقد كان من الطبيعي ملاحظة حتى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي أن وادي النيل كله يتحول إلى بحيرة واسعة نتيجة لفيضان النيل، وكذلك ملاحظة أن أول شيء يظهر في البلاد مع بداية انحسار تلك المياه هي قمم الأراضي المرتفعة والتي تبدو مثل جزر صغيرة انبثقت من مياه الفيضان^(٢). ولابد أن هذه الصورة الطبيعية المتكررة في بيئة مصر منذ القدم قد أثرت في مخيلة المصري القديم الباحث عن تفسير لكيفية تشكل الكون^(٣). ليتخذ من صورة تلك الجزر أو التلال الصغيرة وهي تبرز من مياه الفيضان المنحسرة، تصوره عن أول موضع في أرض العالم يخرج من أعماق المياه الأزلية، ليطلق عليها تسمية التل الأزلي أو تل الخليفة، ومستقر الإله الأعلى بوصفه النور^(٤). وفي صور أخرى، اتخذت رابية الخليفة شكل نبات عائم انبثق أصلاً من المياه أو شكل بقرة تعوم فوق سطح الوسط التحولي^(٥). ولا يعد تعدد هذه الصور تناقض لمبدأ بداية الخليفة في الفكر المصري القديم، فكلها صور مرئية اتخذها المصري القديم من بينته الطبيعية لتفسير ظهور الشمس (الإله الخالق) القوة الخالقة . فمن الطبيعي ملاحظة شعاع الشمس عند الشروق وهي تتعكس على أول الأشياء التي تظهر على سطح مياه الفيضان والتي قد تكون زهرة نبات يطفو على المياه أو بقرة سابحة عليها.

رغم تنوع التفسيرات التي تصف "المرحلة الأولى" تلك اللحظة المتميزة لانبثاق الخالق وصنيعه، هناك عناصر مشتركة في كل النظريات المصرية المفسرة لنشأة الكون، إذ يجب أن يبرز من المحيط الأزلي موقعاً جافاً يمكن الإله الخالق من بناء العالم. إذ لا يشكل التل الأزلي في الفكر المصري القديم المكان الأول في الكون فحسب، بل هو كذلك الموقع الذي سيباشر عليه الإله الخالق (الشمس) تشكيل

(١) كليبر لالويت، الفن والحياة ...، ص ٣٥٨.

(٢) سير ألن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة: نجيب ميخائيل إبراهيم، مراجعة: عبد المنعم ابو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٧٣)، ص ٤٤.

(٣) Allen, James P., "Genesis in Egypt"..., p.68.

(٤) راندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ص ٣٤-٣٥.

(٥) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٩٤.

مختلف مكونات ذلك الكون^(١). وهي فكرة بسيطة استمدتها المصري القديم من بيئته الطبيعية. فتلك الجزر أو التلال الطينية قد برزت من مياه الفيضان بعدما انتعشت بطني خصب جديد جلبته تلك المياه، ومع لحظة بروز تلك الأراضي الوحلة لتتلقى لظى أشعة الشمس تنشط وتظهر فيها حياة جديدة مع بداية الموسم الزراعي الجديد. وسرعان ما تكسوها الأعشاب وتعج بالحشرات والحيوانات، وكأنما ولدت الأرض حشوداً من المخلوقات الجديدة. وتضخمت هذه الفكرة لتتطبق على الكون ولتصبح فكرة أئوم الإله الكامن الذي يشع كل شيء.

ب- ظهور الشمس

شكل موضوع نشأة الكون جانب مهم من الفكر المصري القديم، وبدأ الاهتمام به منذ أقدم العصور، وبالرغم من ذلك نجد أن الأجوبة التي يعطيها المفكر المصري قد تكون في كثير من الأحيان متناقضة. لاسيما في تسلسل ظهور أجزاء الكون. فالمرة الأولى التي تمثل بدء الخليفة في هذا الفكر أوضحت أن التشكل الكوني يتمثل بظهور التل الأزلي، لكنها من جانب آخر اشارت إلى أن ظهور الإله الخالق قد سبق ذلك الظهور المادي بل كان المتسبب فيه^(٢). لهذا هناك سؤال يحتاج إلى توضيح، هل يمكن ترتيب أراء المفكر المصري القديم بطريقة تتوافق فيها الصورة الأسطورية مع المسببات الطبيعية؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن في توضيح أهمية الشمس لكونها قد مثلت الإله الخالق باختلاف التسميات التي ورد فيها في الفكر المصري القديم، فقد كانت الشمس أهم مظاهر الطبيعة عند المصريين ولذلك كانت مركز عبادتهم وجوهرها^(٣). إذ إن اتساع تأثير الشمس على حياة المصري القديم جعل من الإله الممثل لها يتغل بشكل كبير في مختلف مفاصل الدين المصري القديم^(٤)، ومن ضمنها أساطير الخلق، والتي أبرز فيها المفكر المصري القديم الأهمية العظمى لضوء الشمس والدفء الذي تشعه بالنسبة لبدء الحياة وتشكيل الكون عبر خروج العناصر الحيوية من المحيط المائي بفضل هذه الطاقة. جاعلاً منها القوة الخالقة في الفكر المصري القديم. والعنصر الكوني الأول في سلسلة تشكل الوجود.

(١) راندل كلارك ، الرمز والأسطورة، ص ٣٤.

(٢) Allen, James P., "Genesis in Egypt"..., p.177.

(٣) خزعل الماجدي، الدين المصري القديم، ص ١٧٤.

(٤) جيمس هنري بريستد، فجر الضمير، ترجمة: سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ب. ت)، ص ٢٩١.

لكن هذا الظهور للإله الخالق أو الشمس الذي يسبق ظهور النل الأزلي كان روحياً بوصفها الإله الخالق الأزلي وليس مادياً بوصفها كوكب الشمس، والاعتقاد بأن الإله الخالق كان يسبح في جوف المياه الأزلية نون وبأنه وُلِدَ منها أو خلق ذاته بنفسه^(١). وهذا ما يوضحه أحد نصوص التوابيت بقوله:

" لقد احضرت جسدي إلى الوجود بفضل قوتي ،أنا الذي خلقت نفسي، وصورتها كما أريد، حسب رغبتني"،^(٢)

ووفقاً لذلك فإن الخالق كان موجوداً بشكل قوى روحية قبل تشكلها في هيئة جسد مادي. من جهة قد تكون هذه الإرادة أو حالة الوجود المسبق لآتوم ليست سوى إضافات أدبية ذات طابع سحري قام بها الكهنة من أجل إعادة خلق المتوفى ككائن إلهي، وهي في هذا السياق لا تشير إلى طاقة ملازمة للخلق، ولكنها صفة للمتوفى الذي يتماهى مع أحد المخلوقات الفريدة. ومن جهة أخرى يمكن تفسيرها إذا ما نظرنا للأمر من وجهة النظر العملية لواقع البلاد وهي في حالة فيضان النيل الشاسع الذي يغطي كل شيء في البلاد، فقد كان من الطبيعي أن يرى المصري قرص الشمس وهو منعكس داخل تلك المياه. مع عدم وجود أي تشكل مادي (أرض، نبات، حيوان) في هذا البحر المائي الواسع يتلقى أشعة الشمس ويعكسها.

لهذا فإن ظهور الشمس في صورة الإله آتوم وصورة الإله خبر يمثل ظهوراً أو وجوداً روحياً للشمس يسبق تشكلها في صورة مادية (كوكب الشمس) التي يمثلها ظهور الإله (رع-Ra)^(٣)، فظاهرة الضوء المصحوبة بالحرارة التي يبيتها الإله الخالق تتضمن تواجد الشمس التي لم تخلق بعد في حد ذاتها، فالإشعاع الضوئي يظهر قبل أن يعين الإله الذي يكون "باعثه"، ولن يكون هذا الأخير فعالاً بشكل واضح، في شكل الشمس إلا بعد أن تستقر نهائياً عناصر الكون. ويصف النص الآتي من الفصل السابع عشر من كتاب الموتى بوضوح توزيع المهام بين الكائنات الأولين بقوله:

"أنا آتوم بينما كنت وحدي عندما أتيت من نون، وأنا رع في تجليه المضىء عندما بدأ في حكم ما خلق. من هو؟ إنه رع عندما راح يحكم ما خلق، عندما بدأ يظهر كملك لما خلق، بينما لم تتواجد (بعد) إعلاءات شو"^(٤).

(١) جون ا. ولسن، مصر ...، ص ٦٥.

(٢) Allen, James P., "Genesis in Egypt"..., p.91.

(٣) Ibid, ..., p.90.

(٤) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ١٢٣.

إن تشكل الشمس بشكل مادي وردت في الفكر المصري القديم بصور أسطورية عدة ^(١). وترينا إحداها بأن الشمس خرجت من بيضة وضعت فوق التل الأزلي ، وصورة أخرى تقول: بأن زهرة لوتس نبتت من المياه الأزلية وكان يجلس فيها طفل الشمس، ثم تضيف أسطورة ثالثة على ذلك فتقول : إن بقرة كانت تسبح في الماء وجلس فوق ظهرها إله الشمس الطفل. وهذه كلها صور استمدها المصري القديم من بيئته البلاد أثناء الفيضان ^(٢). وحتى الإله آمون الخفي فانه جاء إلى الوجود بشكل مادي تمثل بالنل الأزلي، إذ يقال عن آمون في إحدى فقرات انشودة آمون في ليدن : " **لقد صنعت كيفية وجودك كـ "نن"** ... **في زمنك الأول القديم**" ^(٣). وفضل صورة تعبر عن الإله الخالق في تصور المصريين القدماء هي ما نقرأه في الفقرة التالية من انشودة آمون:

" اسمه خفي كآمون، رع ينتمي إليه كوجهه(?) وبتاح يكون جسده" ^(٤).

لأنها تعطي صورة كاملة لظهور كوكب الشمس تمثل في البدء بالخفي وهو ما يزال عبارة عن ضياء ونور فقط، ثم كقرص الشمس في قلب السماء، وأخيراً تكونها المادي مثل النل الأزلي.

٣- صور تنظيم الكون

أ- صور تشكل أجزاء الكون الأساسية

إن التعرف على كيفية تشكل أجزاء الكون بالطريقة التي أدركها المصريون القدماء وتصوروها، يستوجب منا التعرف والتعامل مع العناصر الإلهية بصفاتها المادية والكشف عن مختلف دعائياتها الرمزية ودلالاتها الثرية. فكل جزء من الطبيعة المصرية كانت تعد للمفكر المصري القديم مكاناً مرتبطاً بالواقع ومسرحاً لأحداث يدخل تفسيرها في نطاق المجال الخيالي لعالم الآلهة، وبالتالي، فإن كل صور تشكل أجزاء الكون في الفكر المصري القديم تستند إلى ذلك الانتماء المزدوج ^(٥)، ولمعرفة كيفية تشكل تلك الأجزاء لابد من متابعة تسلسل ظهور الآلهة في الفكر المصري، لكونها في الواقع تعبر عن كيفية تكون أو تشكل مظاهر وظواهر الكون المختلفة ^(٦).

(١) Allen, James P., "Genesis in Egypt"..., p.90.

(٢) أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ص ص ٧٢-٧٣.

(٣) Sethe, Kurt, Amun and Die Acht..., p.82.

(٤) Frankfort, Henry, Kingship and gods, p.151.

(٥) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٣٩.

(٦) عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود ...، ص ٣٥.

قام الإله الخالق بتشكيل الكائنات الإلهية من عناصره الذاتية^(١)، وهذا التشكيل أو الخلق عبر عنه الفكر المصري القديم في صورة إنسانية، بجعل الإله الخالق "أب الآباء" و "أم الأمهات". لكل المخلوقات الإلهية، أي أن عناصر الكون كانت في الفكر المصري القديم تعد أبناء الإله الخالق^(٢). وبكلمة أوضح أن المصري القديم تصور عملية تشكل أجزاء الكون على أنها ولادة قوى كونية ضرورية لاستكمال تشكل الكون وبدأ الحياة فيه وضمان استمراريتها.

بعدما صعد الإله الخالق (آتوم) فوق التل الأزلي، ظل هكذا حيناً من الدهر منفرداً بوحدايته، حتى ذرا من نفسه-بامتزاجه بظله أو باستمنائه- عنصرين، الأول ذكر تكفل بالفضاء والهواء والنور، وغدا يعرف باسم (شو-shu)، والثاني أنثى تكفلت بالرطوبة والندى، وغدت تعرف باسم (تفنوت-Tefnut)^(٣).

لم يكن المفكر المصري القديم بدائياً سطحياً في تصوراتهِ، وإنما كان مبدعاً ينطلق من واقعه الملموس ببصيرة مفسرة وليست ببصر رائي فقط، لهذا كانت تصوراتهِ تعتمد على ما يتكون بمخيلته الإدراكية^(٤). فقد أدرك أن الهواء والرطوبة هي أولى العناصر التي تكونت بفضل حرارة الشمس فوق الرابية الأولى^(٥). فهذه الأخيرة التي تعدّها أغلب نصوص الفكر المصري مكان ظهور الحياة^(٦)، هي عبارة عن كتلة من الطين تشكلت بالتدرّج في وسط مائي^(٧). وهو مكان يتعارض به الجاف مع الرطب، حيث أن الأرض اليابسة لم توجد بعد^(٨). وفي مكان مثل ذلك كان من الطبيعي تكون الهواء والرطوبة من تبخر المياه المتبقية عليه نتيجة قوة أشعاع الشمس^(٩). وهذا الاستنتاج للمفكر المصري يتوافق كذلك مع الصورة الأخرى لولادة شو وتفنوت، والتي تذهب إلى أنهما انفصلا عن آتوم وهو ما يزال في نون^(١٠).

(١) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...,p.72.

(٢) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر...، ص ٦٢.

(٣) كلير لالويت، الأدب المصري القديم، ص ص ٧٤-٧٥.

(٤) عبد الحميد زايد، الرمز والأسطورة الفرعونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٧٣)، ص ٥٥.

(٥) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني...، ص ٢٨.

(٦) جون. أ. ولسن، مصر...، ص ٦٦.

(٧) إريك هورنونج، فكرة في صورة...، ص ٣٢.

(٨) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر...، ص ٦٦.

(٩) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني...، ص ٢٨.

(١٠) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٢، ص ٣٠٨.

لقد كان من الطبيعي وأمرًا مطابقًا للعلم أن يوجد الهواء أو نفس الحياة قبل حياة المخلوقات، فالنفس غير مرئي وهو بلا كيان ملموس فيزيقيا ولكنه محسوس وبعد وجوده ضرورة من ضروريات الحياة على نفس درجة أهمية الضوء والحرارة^(١). لقد أدرك المصري القديم أهمية عنصر الهواء لبدء الحياة واستمراريتها، فهو يجلب الحياة لجميع المخلوقات بالنفس الحيوي وبالقوة الخلاقية. وتشو يبقى على قيد الحياة كل ما هو موجود على الأرض، هو يمثل مع الماء والضوء والحرارة العناصر الحيوية في الكون^(٢). وتعد الرياح أحد العناصر الأساسية الأربعة للكون، والتي يمكن أن تأتي مباشرة من العالم البدائي، "الرياح الأربع ستأتي من جسد نونت"^(٣).

تستند عملية خلق الكون في الفكر المصري القديم على فكرة أساسية مفادها أن هناك خالقًا أول لهذا الكون^(٤). حيث تؤكد أغلب النصوص المصرية أن عملية الخلق تمت بفضل قوة الإله الخالق الأوحد، وهو في الغالب إله الشمس أو إله آخر اكتسب صفات الإله الشمسي، لكن سياق وطريقة توالد الآلهة وما تمثله من مراحل نشأة الكون، يوضح أن مسألة الخلق كانت نتاجاً لعملية مشتركة بين عدة قوى طبيعية كانت الشمس أكثرها قوة وفاعلية^(٥). أي أن فلسفة الخلق التي توصل إليها المفكر المصري القديم كانت فلسفة مادية في جوهرها وصورها. توصل إليها المصري القديم نتيجة لملاحظاته الفذة عن التفاعلات المادية بين ظواهر الطبيعة المختلفة في بيئته المحلية.

حتمت تلك الفلسفة المادية للخلق على المفكر المصري القديم الإيمان بمبدأين أساسيين ينطلق منهما في تصوراتهما لعملية الخلق، تمثل المبدأ الأول: بإيمان المصري القديم أن الخلق لا ينشأ من العدم. بل هو عبارة عن تحول في طبيعة المادة الأولية غير المتشكلة إلى وجود مادي متشكل وملموس يؤدي بالنتيجة إلى تشكل الكون. والمبدأ الثاني هو نتيجة حتمية للمبدأ الأول: حيث أعتمد الفكر المصري القديم في طرحه لكيفية تشكل أجزاء الكون الأساسية على مبدأ أساسي يتمثل بفكرة الفصل والتمايز بين عناصر المادة الأولية المتشكلة خارج المحيط الأزلي الأولي. فلما كانت مادة الخلق تلك، وفقا لما ورد في الفكر المصري، دائما موجودة وليست من صنع قدرة إلهية، فإن عمل الإله الخالق يقتصر على تنظيم الفوضى التي كانت عليها تلك المادة من أجل تشكيل العالم وما فيه من كائنات ونباتات.

(١) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ٥٥.

(٢) المصدر نفسه ، ص ص ٢٩-٣٠.

(٣) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.115.

(٤) عريان لبيب حنا، الشخصية المصرية ...، ص ٩٩.

(٥) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.114.

في ظل تلك الفلسفة يمكننا اعتبار أن الكون في أساسه هو المرئيات في نظر المصري القديم، وبالتالي يمكن أن نصف نشأة الكون بما أسماه المصريون ((الظهور))، أي أول تجل مادي للإله الخالق^(١)، فهذا الأخير وفقاً للفكر المصري القديم هو الكائن الذي أوجد كيانه على الصعيد المادي، منبثقاً من ظلام المياه الأزلية (نون) حيث كانت ترقد كامنة كل أعضائه، في شكل مادي عبارة عن قطعة من الأرض برزت من عمق المياه سميت بالبن بن أو التل الأزلي^(٢)، وهذا ما نجده في أحد نصوص الأهرامات: "أي آتوم عندما جئت إلى الوجود خرجت في صورة تل عال واشرقت في هيئة حجر البن بن في معبد العنقاء في هليوبوليس". إذن الإله الخالق آتوم ليس الا التل الأزلي ذاته وهي حقيقة ستنتضح أكثر في النص الآتي: "سبحان آتوم ، سبحانك أيها (الكائن)، يامن خرج إلى الوجود من ذاته، صعدت باسمك ((التل العالي))، وجئت إلى الوجود باسمك ((الكائن))"^(٣). فالإله الخالق، بغض النظر عن صور ولاداته الأخرى، هو من الناحية المادية التشكل الكوني الأول، لأنه كان يحوي كل العناصر الكونية التي نراها فيما بعد تنشق من كيانه المتحرك، بعد أن كان أحادي التكوين انشطرت منه ملايين المخلوقات. أي أن توحيد المصري القديم بين نشأت الكون من خلال تفاعل أولى العناصر الطبيعية على التل الأزلي وبين ظهور الآلهة وتكاثرها في المنطقة ذاتها، قاده إلى التوحيد كذلك بين الإله الخالق ومادة الخلق.

لهذا فإن طريقة الإله الخالق في تشكيل ابنائه من الآلهة كانت بتنويع نفسه (تمييزها) إلى جمع متعدد من الآلهة فيقال "الواحد الذي جعل نفسه ملايين"^(٤)، أي أن الإله الخالق المصري يقوم بتشكيل اجزاء الكون الرئيسية شيئاً فشيئاً مع تكوينه للعناصر التي يستخلصها في أغلب الأحوال من جوهره^(٥). وعملية إكثار الخالق لنفسه أو مضاعفتها في صورة ابنائه هي عملية طويلة لتمييز الطاقة الإبداعية، وهي عملية دائمة لن تتوقف إلا مع نهاية العالم. هي عملية تطوير جوهر المبدع بشكل متكرر. "أنا الواحد الذي أصبح اثنين، أنا الاثنين الذي أصبح أربعة، أنا الأربعة الذي أصبح ثمانية..."^(٦). لقد صنعت ملايين التشكيلات من نفسك الواحدة، مدن وقرى، وحقول، وطريق، ونهر"^(٧).

(١) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ص ٧٠-٧١.

(٢) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ص ١٦٧-١٦٨.

(٣) راندل كلارك ، الرمز والأسطورة، ص ٣٤.

(٤) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ص ١٧٩-١٨٠.

(٥) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٩٤.

(٦) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.116.

(٧) Wilson, A. John, "Egyptian Hymns and Prayers", in, ANET - Second Edition, Princeton, U. S. A. 1969, pp. 370 – 371.

نشأة الكون في الفكر المصري القديم ليست عملية تلقائية يقوم الإله الخالق المصري فيها بتشكيل الكون من مرة واحدة فقط، ولكنها عبارة عن سلسلة من المراحل التطورية على شكل ظهور أزواج من الإلهة، تجسد أجزاء الكون الكبرى^(١). فقد أنجب شو وتنفوت كلاً من الإله (جب-Geb) والإلهة (نوت-Nut) "بشكل طبيعي"، وهما يمثلان العناصر المادية للكون: الأرض والسماء^(٢). اللتان كانتا متحدتين، توافقاً مع ما ذكرناه سابقاً من أن العناصر المكونة للكون كانت متحدة في الأصل. أثمر زواج إله الهواء والفضاء والنور (شو) من إلهة الرطوبة والندى (تنفوت) عن ولادة الأرض ممثلة بالإله (جب) والسماء ممثلة بالإلهة تنفوت، لكنهما كانا متصلين، ثم أمر الإله الخالق (أتوم) ابنه إله الهواء شو أن يفصل بين السماء والأرض، وأن يملأ الفراغ الذي بينهما بالهواء والنولا^(٣).

يمثل ظهور السماء والأرض متحدتين نواة الكون المنظم الذي خرج من الفوضى المائية، لكنه موقع مغلق ساكن لا يمكن أن يتحقق فيه أي تطور للحياة. وعليه، يتعين فصل هذا الزوج الإلهي المنتمي إلى الجيل الثاني^(٤)، "عندما فُصِلَت السماء عن الأرض، وصعد الآلهة إلى السماء"، وكان الإله شو هو من قام بعملية الفصل هذه تنفيذاً لأوامر الإله الخالق^(٥). "ليقف ابني شو تحت ابنتي نوت، ليحرس لي دعائم السماء الكائنة في الغسق. ارفعها على رأسك وأجعلها هناك"^(٦). بمعنى أن الهواء تمكن من تكوين حيزاً في الكتلة المتكونة من السماء والأرض ليباعد بينهما. ثم ملأ الفراغ بينهما بما كان يحيط به ويصدر عنه من هواء وضياء. فكانت هيئة الوجود بهذا الشكل مهيئة لوجود الكائنات الحية والإنسان.

لقد كان الاعتقاد بوحدة الأرض والسماء في الأصل -ثم انفصالهما فيما بعد- واحداً من أهم صور خلق الكون في الحضارات القديمة، ومن بينها حضارة مصر. لكن الباحث في علم نشأة الكون في الفكر المصري القديم، يلاحظ على الفور أن هذا الموضوع ليس له نفس الأهمية في الفكر المصري كما في غيرها من الحضارات القديمة، فلا توجد أسطورة أو نص كامل يوضحها، ونادراً ما يتم وصف هذه

(١) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.117.

(٢) أحمد محمد البربري، السماء في الفكر المصري...، ص ٨١

(٣) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٢، ص ٣٠٤.

(٤) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة...، ص ١٣٣.

(٥) جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة: زكي سوس، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، (القاهرة، ١٩٦١)، ص ٣٨.

(٦) رندل كلارك، الرمز والأسطورة...، ص ص ١٨٠-١٨٢.

الظاهرة، ما عدا بعض الإشارات التي تقريباً تكون عابرة في النصوص المصرية القديمة^(١). وكذلك في الصور الممثلة على التوابيت من نهاية الدولة الحديثة، حيث كانت أحد الموضوعات المفضلة^(٢).

أن اسم الكتلة التي تضم السماء والأرض متحدتين لم يتم وصفها بالتحديد في النصوص المصرية القليلة التي تناولت مسألة الفصل بينهما، لكن تلك النصوص تشير أغلبها إلى أن الكتلة المادية التي نتج عن فصلها تكوين السماء عن الأرض هي الوجود الأولي الذي خرج من المياه الأزلية، بمعنى أن تلك الكتلة المادية ما هي إلا التل الأزلي نفسه.

جاء خلق كل عنصر من عناصر الكون ليثير خيال المصريين ومشاعرهم، اللذان تأثرا بصورة واضحة وجلية بالبيئة الطبيعية للبلاد^(٣). فليس من شك أنه حاول الإجابة عن ذلك متأثراً بما كان يلاحظه من مظاهر الطبيعة التي تتغير وتختلف طوال العام. فلما كانت أرض مصر وحقولها تختفي مرة كل عام في لجة من المياه، مياه فيضان النيل السنوي، التي لا تلبث أن تتحسر عنها رويداً رويداً، نجد المصري القديم يعتقد أن الأرض قد برزت من هذه الفوضى المائية، وتصوروا أن مكاناً عالياً من الأرض كان أول ما ظهر على سطح ذلك الخضم القديم الذي سموه (نون) وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم، فهو التل الموغل بالقدم أو كما قالوا: " التل المزدهر الذي ظهر في أول العصور"، وحددوا مكانه في مواقع مختلفة من مصر^(٤).

فقد تصور المصري القديم أن التل الأزلي الذي برز من المياه الأزلية هو أصل العالم المخلوق بوصفه أول جزء من اليابسة. لكن هذا الكون المصغر لا يزال مضطرباً^(٥). حيث يرد في النصوص "لم تكن الأرض والسماء قد جاءتا للوجود"، ثم تضيف عبارات متأخرة مختلفة عن العالم السفلي بأنه هو الآخر لم يظهر للوجود " لم توجد بعد مملكة الموتى ". وطبقاً لنص آخر متأخر نسبياً " لم يكن الإله الخالق قد وجد مكانا يستطيع أن يقف فيه"^(٦)، وذلك إنكار جامع ومحكم بشكل مدهش لوجود المكان.

(١) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.178.

(٢) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ٤٥.

(٣) كلير لالويت، الأدب المصري القديم، ص ص ٧٦-٧٧.

(٤) أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ص ٧٢.

(٥) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.182.

(٦) أريك هورنوج، ديانة مصر الفرعونية، ص ١٧٨.

لقد كان العالم الذي برز من الماء الأزلي لا يزال مضطرباً، إذ لم تكن السماء قد انفصلت عن الأرض وكانت إلهة السماء نوت مستلقية فوق زوجها إله الأرض جب، ولكن أباهما شو إله الهواء زج بنفسه بينهما ورفع السماء إلى أعلى ورفع معها كل حي خلق، أي كل إله "ومعه سفينته" فاستحوذت عليها نوت وقامت بتعدادها وجعلت منها نجوم السماء، ولم تستثن منها الشمس وأصبح جميعاً يجبن بسفنهن جسم نوت^(١).

وهناك نص من مدينة طيبة يتحدث عن كيفية تكوين الأرض متخذاً من تكوين أرض مدينة طيبة نموذجاً لكل أراضي البلاد، ويصف لنا تلك العملية بقوله:

" طيبة تستخدم كنموذج لكل المدن. المياه والأرض في داخلها منذ البداية. جاءت الرمال، لتحدد الحدود للمساحات الصالحة وتجلب أرضيتها الصلبة، على التل. وهكذا أصبحت الأرض، ثم ظهر البشر فوقها ليجلبوا أرض كل المدن"^(٢).

فكلما انحسرت مياه فيضان النيل عن أرض مصر كانت التلال الصغيرة التي ظهرت أولاً تتسع تدريجياً، وتتفصل الأرض الصلبة عن الكتلة المائية بفضل حرارة الشمس. ولا شك في أن منظر تلك الروابي الوحيدة في الوسط المائي والتي يبدو أن كل حياة قد انطلقت منها وتركزت فيها، قد أوجدت في نظر المصري القديم بأن ما كان من قبل لا يمكن أن يكون سوى كتلة سائلة لا شكل لها وخطيرة، وغلاف من الطين لابد وان ينبثق منه أي مخلوقات بجهد جهيد، ومع ذلك فقد لاحظوا أنه لولا ذلك الفيضان المخيف ما كان يمكن أن تظل الحياة قائمة على ضفاف النيل.

إن المصري القديم مثلما كان يستند في تصوراتهِ عن كيفية تشكل الكون على الواقع المادي بما فيه من أشياء مرئية وملموسة ومحسوسة، نجده كذلك يستند على الخيال بما فيه من أشياء غير مرئية وغير ملموسة او محسوسة^(٣)، فكلا المصدرين كان يمثل جزءاً هاماً من نسيج خيال فكره الديني وترجمة لمظاهر حياته الدينية. فالخيال الديني هو إثراء للفكر الديني المنطلق والمتأثر بالواقع المادي^(٤).

(١) أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ص ص ٧٣-٧٤.

(٢) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة، ج ٢، ص ٢٠٩.

(٣) نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصرية، مج ١، ص ٢٠٩.

(٤) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة، ج ٢، ص ١٨٤.

لهذا، وكما ذكرنا سابقاً، نجد أن المصري القديم عندما أراد أن يفكر في طبيعة الأشياء المحيطة به والتي لا يدركها ولا يستطيع فهم عناصرها، نراه لا يستعين في تفكيره ذلك بالمنطق، بل كان يعتمد على صور مستمدة من واقع بيئته الطبيعية وأن اكتسبت تلك الصور طابع الخيال. لكن المصريون القدماء أدركوا في المقابل بانه لا يمكنهم تكوين تصوّر عن أجزاء الكون اللامحسوسة مثل السماء بتلك الطريقة، أي بصورة مباشرة بالتجربة الحسية أو العقلية المجردة، لذلك نراهم استخدموا الرمز والخيال لجعل ذلك التصور ممكناً للفهم في نطاق حدود الفكر الإنساني في تلك العصور. ولكنه لم يكن خيال بدون قيود، بل كان يستند على أسس مادية واضحة. فقد استخدموا المصريين القدماء لوصف أجزاء الكون اللامحسوسة صور مأخوذة من عالم الواقع، على غرار الصور المعطاة للسماء .

كان المصريون القدماء يعتقدون أن السماء، من وجوه عديدة، هي صورة طبق الأصل من الأرض، كما افترضوا أن بها نيلاً سماوياً ومدناً مقدسة هي مثيلة لتلك التي على الأرض^(١). فالسماء وفقاً للفكر المصري القديم هي أرض سكن الآلهة، وهي وفقاً لذلك الفكر عبارة عن بلاطة حديدية شكلها مستطيل وترتكز على أربع دعائم^(٢). أما الكون الحالي فليس إلا فراغا واسعا أشبه بالفقاعة الهوائية وسط امتداد لا نهائي، لذا أستمّر الماء موجودا عن أطراف (المعلوم) أسفل الأرض وفوق السماء وعند أطراف المعمورة. ولم تكن البحار والأنهار والأمطار والآبار والفيضانات إلا أجزاء من المحيط السرمدي ، إذ أن المصريين آمنوا بأن السماء (أرض يابسة تفصل المياه عن المياه)^(٣).

أهتم المصريون القدماء بكونك القمر، وبالأخص دورته الشهرية المكونة من ثمانية وعشرين يوماً التي يتجلى خلالها ويختفي. فكانوا يرون في انزواء القمر التدريجي أمراً مقلقاً، لأنها علامة مناقضة لحرصهم على ضمان كمال الكون واستقراره؛ وعليه، كان يتعين دائماً تعويض الطور السلبي لدورة القمر بآمال تجده واكماله^(٤). وعلى الرغم من ذلك الاهتمام فمن الغريب أن القمر أو الإله الممثل له لم يكن له شأن كبير في الميثولوجيا المصرية. ولئن نجد ما يشير إلى قيام مراكز مهمة لعبادة القمر في العصور

(١) والاس بدج، آلهة المصريين ...، ص ١١٩.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٤.

(٣) راندل كلارك ، الرمز والأسطورة، ص ٣١.

(٤) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٥٤.

المبكرة، فإن هذه العبادة تحولت في اتجاهات أقل كونية من قبل في العصور التاريخية. ولهذا كان الإله الذي يمثل القمر أعلى شأنًا كإله للحكمة وقاضٍ إلهي منه كشيء ذي مهمة سماوية^(١).

نجد في القسم الثاني من أسطورة البقرة السماوية ما يشير إلى كيفية خلق القمر، إذ بعدما غادرت العين الأولى لرع قام الإله نون بخلق عينا جديدة له، وبعدت عودت العين الأولى وما بدا عليها من غضب كان على الإله رع الحفاظ على عينيه الأثنين وذلك بتقسم الواجبات بينهما، فعين أصبحت مسئولة عن ساعات النهار وتعد الأقوى والأعظم وهي الشمس والثانية وافقت على تولي مسئولية ساعات الليل ولها العظمة أيضا ولكن بقوة أقل وهي القمر^(٢). وفي نصوص أخرى خلق القمر بأمر من رع الذي استدعى لهذا الغرض الإله تحوت وقال له " خذ مكاني في السماء بينما أشرق على الأبرار في المناطق السفلية.. " ^(٣).

حاول المصري القديم منذ البداية التعرف على أسرار الكون المحيط به وعلى كيفية خلق أجزاءه المختلفة، ومنها ما كان يتحرك في السماء من كواكب وأجرام، وكذلك النباتات والحيوانات التي انتشرت من حوله في أرض مصر^(٤). ولكن يلاحظ على المفكرين المصريين القدماء بأنهم بقدر ما كانوا بارعين في وضع تصورات عن أصل المكونات الرئيسية للكون، حيث كان اهتمامهم يتركز في المقام الأول بهذه العناصر، فأنهم في المقابل لم يضعوا تفسيرات أو تصورات واضحة عن كيفية خلق باقي أجزاء الكون^(٥).

عدت النجوم في الفكر المصري القديم أطفالاً للإلهة السماء نوت، فهي تلدهم في المساء وتبتلعهم في الصباح، وتنقسم تلك النجوم إلى النجوم الخالدة التي لا تستريح وهي تصاحب قارب الشمس، وهناك النجوم الكسولة التي تسقط إلى الأرض^(٦). فبعدما فصل شو بين الأرض جب والسماء نوت، قامت الأخيرة برفع الآلهة معها إلى المناطق العلوية وحولتها إلى نجوم ترصع ليلا جسدها الذي تقوس وانحنى في الأعلى حتى لامس الأرض بأطرافه^(٧). وتحت هذا الشكل المقوس للسماء الذي يشبه القدر المقلوب

(١) جون. ا. ولسن، "مصر"، ص ص ٦١-٦٢.

(٢) روبرت ارموار، آلهة مصر لقديمة، ص ٢٥.

(٣) كليز لالويت، الأدب المصري القديم ، ص ص ٧٦-٧٧.

(٤) نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم- مصر من فجر التاريخ إلى قيام الدولة الحديثة، ط٤، دار المعارف بمصر، (الاسكندرية، ١٩٦٣)، ج ١، ص ٨١.

(٥) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.207.

(٦) نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم ... ، ج ١، ص ٨١.

(٧) كليز لالويت، الأدب المصري القديم ، ص ص ٧٦-٧٧.

كانت النجوم تتدلى منه، وعندما مثلت السماء في صورة بقرة كانت تلك النجوم تلتصق على بطنها^(١). وقد صورت النجوم الخالدة أو التي لا تقنى بأنها أرواح الفراعنة، والذين هم آلهة، التي تم رفعها إلى السماء. " نفر كارع هو نجم ممجد في السماء بين الآلهة"^(٢).

أما بالنسبة لخلق العناصر الطبيعية فإن معلومات النصوص المصرية قليلة عنها، ولا تقدم سوى إشارات عنها، وتقدم انشودة (خنوم-Khnum) في إسنا أكثر الرؤى تفصيلاً لهذا العالم: " جعل الحشائش تنمو في قلب الريف، كما لون ضفاف الأنهار بالزهور، جعل أشجار الفاكهة تنتج ثمارها، لكي يقتات منها البشر والآلهة، فتح في النهاية المغارات في جوف الجبال وأجبر المحاجر على اخراج أحجارها". أما المادة التي استخدمها إله الخلق لخلق العناصر الطبيعية فلم تتطرق إليه النصوص^(٣). ومثل العديد من المكونات الأخرى للكون، النجوم والنباتات وما إلى ذلك، لم يتم تطوير فكرة محددة عن أصل الحيوانات، على الرغم من أنه يتم مخاطبة تلك الأشياء من قبل الآلهة بنفس طريقة مخاطبة البشر ويتم وهبهم نسمة الحياة^(٤).

ب- صور تنظيم الكون المخلوق

وفقاً للنصوص المصرية القديمة التي تناولت مسألة الخلق، فإن عملية الخلق مرت بمراحل عدة، مرحلة الوجود المسبق، ثم مرحلة الانتقال نحو الوجود مع خلق الإله الأوحد لذاته بصورة مادية (ظهور التل الأزلي)، ومرحلة خلق المكونات الرئيسية للكون من خلال وسائل مختلفة، ومرحلة الحفاظ على عمل الخالق وتنظيمه^(٥). لذا كان على الأساطير المصرية القديمة أن تخدم قبل كل شيء، إعطاء تصور واضح للخطوات التي تم تنظيم الكون بها والتي انتهت بالانتصار النهائي لحورس وقيام الملكية الفرعونية^(٦). فالنظام الذي يأمر به الإله أو الملك هو أداة منظمة، للكون وكل ما فيه من حيوانات وبشر وكيونات، فالخلق لا ينتهي بأحداث هذا الفعل، بل بتنظيمه والحرص على استمراره، على الرغم من أن الأمر يصدر من خالق واحد، إلا أن هناك العديد من القوى الإبداعية التي تحافظ على هذا الخلق

(١) جون . ا . ولسن، مصر، ص ص ٦١-٦٢.

(٢) محمد عبد اللطيف محمد علي، فكرة الخلق في مصر القديمة ...، ص ٨٥.

(٣) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر، ص ٧٧.

(٤) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.205.

(٥) Ibid. pp.205-206.

(٦) راندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ٣٠.

وتنظمه" كما أمر آتوم"، فالبشرية خلقت وفقاً للترتيب الإلهي. فكان التنظيم الإلهي مهماً في نظر المصري القدم للوجود^(١).

إن الباحث في الحضارة المصرية لابد أن يلاحظ أن المصريين كافحوا بجدية وراء النظام، وأنهم لم يباشروا تفكيرهم بلامبالاة بكل تأكيد، كما يستطيع أن يحس أيضاً بأن نظام تفكيرهم له منطقته الخاص به والذي يمكن أن يُرضي عواطفهم دائماً، وحتى وإن لم يتيسر تحليله دون تناقض حسب المعايير الحديثة، أو تحديده في تعبيرات منهجية^(٢). لقد وجه المفكرون المصريون القدماء قدرات عناصر الطبيعة وتطور هذه العناصر لتصبح طاقات مقدسة ذات قدرة إلهية بلورها في أفكار ومفاهيم مادية ومعنوية معاً، فقد حرص المصري على تطوير مفاهيم حياته كي تصبح هذه الحياة آمنة وناجحة، فهو يؤمن أن هدف الوجود هو تحقيق التوازن إذ أن الإنسان وريث للقدرة الإلهية، لذا كان لزاماً عليه تحقيق التوازن النفسي والكياني للذات، وتحقيق تجانس بين البشر والحياة نفسها من خلال التعايش مع مظاهر الطبيعة المتغيرة التي لاحظها ملاحظة مستمرة، كما حرص على تجانس الأفراد معاً في المجتمع، ففكر بتعمق ثم طبق هذا الفكر على الحياة العملية.

كعادة الفكر المصري القديم في تعبيره عن مراحل تشكل الكون الأساسية في صور ظهور أجيال الآلهة كما مر بنا سابقاً، فإن ذلك الفكر عبر كذلك عن مرحلة تنظيم الكون والحفاظ على الخلق في صورة أجيال أخرى من الآلهة المصرية. حيث كان كل جيل من تلك الأجيال يُكلف بدور محدد يكون ادائه الصحيح ضماناً لبقاء الكون.

فعلاوة على آلهة التاسوع التسعة، يشارك مجمع الآلهة بأسره في تعدد تلك المهام^(٣). فبينما يمثل الزوجان الأولان من الآلهة أو من أبناء آتوم: (الإله شو والإلهة تفتوت، الإله جب والإلهة نوت) عناصر أساسية في الكون هي على التوالي: (الهواء والرطوبة، السماء والأرض)، كان الزوجان الأخريان من الآلهة الأبناء (أوزيرس-Osiris وأيزيس-Isis، ست-Seth ونفتيس-Nephthys)، يجسدون ظواهر أرضية تمثل العلاقة بين الطبيعة والإنسان^(٤).

(١) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.110.

(٢) أريك هورنوج، ديانة مصر الفرعونية ... ، ص ٢٥٠.

(٣) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ١٢٢.

(٤) مايסה أحمد على الفار، أثر الأسطورة والبيئة المصرية في ترميز الآلهة في الفن المصري القديم كمدخل لإثراء التنوع الفني، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة المنصورة، ٢٠٠٦، ص ٢٩.

لقد تم خلق الكيانات الإلهية (أوزير وأيزيس، ست ونفتيس) من قبل الإله الخالق لوظيفة أساسية هي استمرارية العالم. فهم يتمتعون بقدرات إبداعية ورثوها من الأب الخالق وظيفتها ضمان تطوير الخلق وتوفير جميع الاحتياجات التي ينطوي عليها الحفاظ على الكون ثابتاً. فأوزيريس يمثل النيل الذي يسبب خصوبة الأرض وإنتاجها للمحاصيل، وتمثل إيزيس الأرض السوداء التي تنتج المحاصيل بعد ارتوائها من مياه النيل، بينما يمثل ست أرض الصحراء القاحلة الحمراء، وتمثل نفتيس تلك الأرض البور التي كانت مهيئة للإنتاج إذا ما وصلت مياه النيل، ومع ذلك فعل أصحاب هذا الفكر إنما أرادوا من وجود هذين الزوجين تمثيل الكائنات التي تعيش في هذا الكون، بشراً أو إلهة، بعد خلق عناصره، على أن هناك من يذهب إلى أن هذين الزوجين إنما يمثلون جسراً بين الطبيعة والإنسان، وليسوا عناصر كونية إبداءاً^(١).

إن العالم الخيالي الذي يعمل الآلهة من خلاله للحفاظ على الكون بالتصدي بلا انقطاع لقوى الفوضى يعد تطوراً ناجحاً للعالم الحقيقي لحياة المصري القديم وكفاحه لبناء حضارته، والتي ما كان يمكن تخيلها إلا في صورة مخلوقات أسطورية، حيث تصف الأساطير تحرك هذه الآلهة الذي يتعين بالضرورة أن يكون تحركاً إيجابياً، فالعالم الحقيقي للمصري القديم معرض هو أيضاً باستمرار لتأثيرات سلبية تسعى إلى تدميره، وعلى عكس ما يتحقق في العالم الخيالي، فإن عوامل التدمير، وعلى رأسها تدهور الطاقة، يمكن إدراكها مادياً ومباشرة، وتصرفات هذه العوامل مهددة في أية لحظة^(٢).

لقد وُصِفَت أرض مصر دائماً بأنها أرض الوفرة، لكن ذلك الأمر لم يكن كذلك في الأزمنة الأولى لتاريخها، فإذا كان وضع الإنسان يتوقف على نوع الطبيعة، فإن نوعية ما يقوم بإنتاجه يتوقف بقدر أكبر على ما يبذله هذا الإنسان من مجهود^(٣)، فعندما ترك الإنسان الهضاب الصحراوية وأقام على ضفاف النيل لم تكن الظروف مثالية أبداً؛ إذ كانت عبارة عن مستنقعات مترامية الأطراف تحتاج إلى أعداد وتطهير لكي تصبح صالحة لإقامة حياة منظمة، وكان لابد من كسب تلك الأرض وتخليصها من أحوالها والسيطرة عليها واخضاعها. ويتجلى سخاء الأرض وخصبها بالغرين المترسب على جانبي مجرى النيل، وتنتظر الأراضي الجديدة المنتجة بقدر من القلق حسن نوايا هذا النهر الذي قد يتحول من سنة إلى أخرى إلى مورد شحيح أو على العكس إلى قوة جامحة ومكتسحة تخلف وراءها الدمار^(٤). وقد كشف المصري

(١) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.113.

(٢) Philips, Jacke, Ancient Egypt, The Aegean, And The Near East, USA,1997, pp.137-138.

(٣) وسناء حسون يونس، "النشاط الزراعي في مصر القديمة"، مجلة التربية للعلوم الإنسانية، مج ١، ع ٢، ٢٠٢١، ص ٣١١ - ٣١٢.

(٤) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة...، ص ٢٤.

القديم مبكراً على قدرته على التنظيم لكي يحاول مواجهة تقلبات النيل، ومما لا شك فيه أن العبقورية الإدارية التي تتميز بها الحضارة المصرية نشأت من الحاجة إلى التحكم في مياه الفيضان والاحتفاظ باحتياطي لمواجهة سنوات القحط. كما أن الحقول المزروعة والمحاصيل المنتظمة كانت مصدر أغراء شديد للبدو الرحل القاطنين في الصحاري المتاخمة للأراضي المصرية، فضلاً عن خطر الرمال الزاحفة من تلك المناطق والتي تهدد الأراضي المجاورة لها.

ونقرأ تفاصيل تنظيم الكون في أسطورة أهلاك البشر من عصر الدولة الحديثة: " قال جلالة رع انني أعيش، ولكن قلبي أصبح متعباً للغاية بالوجود معهم (أي البشر)، ... وقال جلالة نون ايها الابن شو، لتكن المعين لأبيك وانتقم (؟) له، وانت ايتها الإلهة نوت، ضعيه، وقالت الإلهة نوت كيف يمكن ان يكون هذا، يا ابي نون؟ التحية، قالت نوت ... للإلهة نون، واصبحت الإلهة على الفور [بقرة]، واقامت جلالة رع فوق ظهر[ها] وعندما عملت هذه الأشياء، رأى الرجال والنساء الإله رع فوق ظهر [البقرة]. ... وبعد ذلك ارتعدت الإلهة نوت بسبب الارتفاع، وقال جلالة رع أنني أمر بأن تكون دعامات لتحمل [الإلهة إلى أعلى]، بذلك أتت دعامات السماء إلى الوجود. وقال جلالة رع أي ابني شو، انني ارجوك ان تضع نفسك تحت ابنتي[ي] نوت، واحرس من اجلي الدعامات للملايين التي هناك، والتي تعيش في ظلام. خذ الإلهة فوق رأسك وأعمل كمرب لها"⁽¹⁾.

ويتضح من النص أن عناصر الكون الرئيسية (الماء، الهواء، الأرض والسماء) كانت موجودة لكنها لم تكن قد نظمت في شكلها الحالي، وهو الأمر الذي تم بعد أن سئم رع من الإقامة مع البشر لبحودهم وثوراتهم ضده بعد أن أصبح طاعناً بالسن، أما تفاصيل هذا التنظيم فكان بصعود إله الشمس على ظهر نوت السماء التي اتخذت صورة البقرة لتأخذه إلى مكان الحالي في الاعالي، ووقع على الهواء مهمة أسنادها في هذا المكان المرتفع.

٤ - الصورة النهائية للكون

كان المصري القديم شديد الوعي بنفسه وبعالمه المحيط به في أرض مصر، فجاءت تصوراتته عن شكل الكون تتفق وملاحظته وتجربته الذاتيتين مع مظاهر وظواهر البيئة الطبيعية للبلاد.

(1) Wilson, A. John, "Egyptian Myths, Tales, and Mortuary Texts", in, ANET, - Second Edition, Princeton, U. S. A. 1969, p. 11.

لقد قسم المصري القديم الكون إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي: السماء، الأرض، والعالم السفلي^(١). واعتقد قدماء المصريين أن الأرض منبسطة وتقع مصر في وسطها^(٢)، ويحيط بهذه الأرض من جهاتها أو أركانها الأربعة سلسلة من جبال شاهقة تستقر فوقها السماء^(٣). أي أن الأرض في تصور المصري القديم كانت في شكل طبق مسطح له حافة موجة. كما اعتقدوا بأن الأرض أو هذا الطبق طاف على الماء، فالمياه تحيط بالدنيا مشكلة الأوقيانوس الذي هو الحد الأقصى للكون، والذي يدعى كذلك " (الحلقة الكبرى) أو (الاخضر الأعظم)^(٤).

وفوق هذه الأرض توجد السماء التي تخليها المصري القديم مصنوعة من مادة صلبة، ربما الحديد^(٥). لهذا اعتقد المصري القديم أن السماء لا يمكن أن تستقر أو تظهر هكذا بدون ارتكاز على شيء، وتولد عن ذلك ما عرف بـ(مساند السماء)، وهي أربعة قوائم توجد في الجهات الأربع، وفي بعض الأحيان تعرف بأبناء حور الأربعة. وهناك اعتقاد آخر بأن السماء مرفوعة على أربع قمم جبلية تقع في الجهات الأربع أيضاً^(٦). واعتقد المصري القديم أن السماء كانت على شكل قُدر مقلوب فوق الأرض، وهي الحد الخارجي لأقصى الكون^(٧).

لقد اعتقد المصري القديم أن أرضه (الأرض السوداء) هي مركز الكون، لأنها أول أرض خرجت من المياه الأزلية. وبمعرفة أن أرضه تلك عبارة عن سهل غريني مسطح، لذلك تصور شكل الأرض، وبكلمة أدق وسط الأرض، أرضاً مستوية مسطحة. وبسبب احاطة مصر بسلاسل جبلية وتلال عند حدودها مع البلاد المجاورة، فقد جعل المصري القديم من حافة الأرض مناطق مرتفعة أطلق عليها اسم (مرتفعات جب). أي أن تصورات المصري القديم عن شكل الكون كانت منطلقة ومتأثرة بما كان يلاحظه في بيئته الطبيعية، فضلاً عما اكتسبه من معرفة حول جغرافية بلاده والبلاد المجاورة.

(١) احمد محمد البربري، السماء في الفكر المصري...، ص ٦٠.

(٢) عريان لبيب حنا، الشخصية المصرية في مصر القديمة، ص ١٢.

(٣) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ٦٢-٦٣.

(٤) جون. ا. ولسن، مصر...، ص ٦٠.

(٥) عريان لبيب حنا، الشخصية المصرية في مصر القديمة، ص ١٢.

(٦) احمد محمد البربري، السماء في الفكر المصري...، ص ٦٨.

(٧) جون. ا. ولسن، مصر...، ص ٦٠.

وامتداداً لفكرة أن الكون خرج من المياه الأزلية أو الإله نون، فقد كانت تلك المياه موجودة دائماً بالنسبة للمصريين القدماء فهي مع (الأخضر العظيم) ،أي البحار، كانت تحيط بالأرض التي تطفو على سطحها في شكل قرص مسطح. ويمتد نون تحت الأرض حيث نجده دوماً إذا ما حفرتنا تحت سطحها، وما النيل وفيضانه الذي يغمر مصر كل عام إلا الإله نون نفسه. وطبقاً لاعتقاد راسخ في اللاهوت المصري كانت مياه النيل تتدفق من مصدرين يقعان في منطقة الشلال الأول قرب مدينة (الفنتين)^(١).

إن تشابه مناظر الطبيعة في البيئة المصرية كان لها أثر في تولد ظاهرة التناظر في النفسية المصرية. فالنيل يشق البلاد إلى شطرين متناظرين متشابهين تقريبا، ففي كلتا الضفتين تمتد الحقول اليناعة، بحيث تناظر الضفة الغربية اختها الشرقية، ثم تأتي الصحراء وهي تصعد إلى حافتين جبليتين على طول الوادي. وهنا أيضا تناظر الصحراء الجبلية الغربية اختها الشرقية. وكل من يعمل في التربة السوداء يرسل النظر حوله في جو صاف فلا يرى إلا المشهد نفسه تقريبا في كل مكان^(٢). وقد غدت هذه الازدواجية مفهوما أساسيا في إيديولوجيا الثقافة المصرية القديمة^(٣). فقد دعت ضرورة التناظر الذي وجده المصري القديم في بيئته وأصبح يعشقه، إلى وجود تناظر في الكون كذلك، فمثلا كان هناك السماء والأرض الظاهرتان اعتقد المصري القديم بوجود سماء وأرض تناظراهما^(٤). واللذين يكونان القسم الثالث من الكون، وهو عالم ما تحت الأرض (العالم الآخر) أو (العالم السفلي)، وهي الأرض السفلى حيث يقوم المصري بدفن موتاه فيه اعتقادا منه بوجود حياة أخرى في أرض أخرى تشبه أرضه التي يعيش عليها، وبها كل مقومات الحياة التي لا تنتهي^(٥). كما تخيل المصري القديم أن لهذا العالم السفلي سماء تختص بالموتى فقط تناظر سماء الأحياء في الأعلى، وفي هذه السماء السفلى تغيب الشمس في المساء وتعبه طول الليل لتشرق من جديد في صباح اليوم التالي، ولهذا تصور المصري القديم في الدنيا السفلى سماء أخرى تساوي سماء الأرض ولو أنها مظلمة^(٦).

(١) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ٦٢.

(٢) جون. ا. ولسن، مصر، ص ص ٥٢-٥٣.

(٣) كاشا شباكوفسكا، الحياة اليومية في مصر القديمة، ترجمة وتقديم: مصطفى قاسم، المركز القومي للترجمة ، (القاهرة، ٢٠١٣)، ص ص ٢٩-٣٠.

(٤) جون. ا. ولسن، مصر، ص ٦٠.

(٥) احمد محمد البربري، السماء في الفكر المصري....، ص ٦٠.

(٦) Bickel, Susanne, La cosmogonie égyptienne: avant le Nouvel Empire, University of Zurich, 1994, pp, 245-246.

مثلما يسرت العزلة الجغرافية التي تمتعت بها الحضارة المصرية القديمة حماية لكي تطور ثقافتها الفردية العالية بعزلة شبه تامة عن التأثيرات الخارجية، فأنها كذلك أثرت في أفكارهم حول شكل الكون ونظرتهم إزاء الشعوب المجاورة لهم^(١). إن العزلة الجغرافية التي تمتع بها المصري القديم أنتجت لديه شعوراً بالانفصال عن الغير متمركزاً في الذات. فقد نما شعور لدى المصريين القدماء بأن أرضهم هي الأرض الوحيدة التي لها في الدنيا أي شأن، لمعرفتهم أن الاقطار الأخرى التي كان لهم بها تماس مباشر لم تبلغ من نمو الحضارة ما بلغوه. فضلاً عن أرضهم كانت عبارة عن جبال وصحاري بائسه^(٢). أطلق عليها المصريون القدماء أسم(الأرض الحمراء) أي الأرض الجذباء لتمييزها عن أرض مصر (الأرض السوداء) أي الأرض الخصبة والتي وهبها إله النيل الفياض " الذي يجلب الخير للناس"، أما شعوب الأراضي والبلدان المجاورة فهم برابرة متوحشون يعيشون على الأمطار^(٣). لأن البلد المليء بالجبال والأمطار والشجر يكون في نظر المصري القديم مكاناً بائساً كئيباً، فقد كان المصري يعاني الضيق من الأماكن المحاطة بالمرتفعات الطبيعية التي لا يستطيع فيها أن يرسل النظر كما يفعل عبر المترامي من السهول، أو يرى الشمس في كل مجراها^(٤).

ثانياً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الآلهة

١ - أزلية المادة الإلهية

لقد كان العالم الإلهي الخارق للطبيعة حقيقة موجودة دائماً وابدأ في الحياة الأرضية للمصريين القدماء^(٥). حيث أرجع أهل الديانة في مصر القديمة كل ظاهرة طبيعية تأثروا بها في حياتهم اليومية إلى قدرة أو قوة خفية تحركها وتتحكم فيها، وتسيطر عليها وتؤثر فيها وهي السبب في وجودها، فغروب وشروق الشمس وجريان النيل وهبوب الرياح والعواصف ونزول الأمطار وتجدد خصوبة الأرض وغيرها كلها ظواهر طبيعية يرجع السبب في حدوثها إلى القوى العليا الخفية التي فاقت قدراتها قدرات البشر، أطلقوا عليها اسم (نثرو) أو (نبو) أي معبود و إله^(٦). وتنقسم الآلهة المصرية القديمة بصورة عامة إلى

(١) ألن جاردنر، مصر الفراعنة ...، ص ٥٤.

(٢) جون ا. ولسن، مصر ...، ص ص ٤٦-٤٧.

(٣) أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ص ١٧.

(٤) جون ا. ولسن، مصر ...، ص ص ٥١-٥٢.

(٥) كاشا شباكوفسكا، الحياة اليومية في مصر ...، ص ٢٦٧.

(٦) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة، ج ٢، ص ١٥٩.

إلهة كونية كانت تمثل عناصر الكون الرئيسية وفي مقدمتها الشمس والسماء والأرض وغيرها، وهناك الآلهة المحلية للمدن والمقاطعات والتي عرفت بالآلهة الرسمية للدولة ومنها حورس وأمون ومونتو وغيرهم، وهناك صنف ثالث ضم الآلهة الثانوية مثل الإله بس وغيرها، وهي إلهة كانت أدوارها أو مهامها ثانوية في الفكر الديني المصري القديم^(١). ورغم أن أساس الديانة المصرية القديمة كانت المعبودات المحلية، إلا أن الآلهة العالمية التي تمثل قوى الكون الرئيسية قامت بالدور الأهم في معتقدات القوم وتفسيراتهم حول أصل العالم وتكوينه^(٢).

أعتقد المصريون القدماء أن الكون كان ملكاً للآلهة^(٣)، فالأخيرة وفقاً للفكر المصري القديم هي التي خلقت هذا الكون وكل ما فيه^(٤). ولكن بالرغم من ذلك فهناك تناقض واختلاف في الأساطير المصرية حول الآلهة هل هي مخلوقة أم أزلية، وهذا الأمر يشمل حتى الآلهة الخالقة العظمى^(٥).

إن الآلهة بالنسبة للمصريين القدماء كانت تعد شخصيات أو قوى عظمى خارقة للطبيعة تتحكم بالكون وتسيره وفق أرائدها^(٦). لكن بالرغم من ذلك فلم تكن الآلهة والكون الذي تشغله وتتحكم به، في نظر المصري القديم، تعد أزلية الوجود، حيث آمن بوجود سابق لها لا نهائي لم تكن فيه ثمة سماء أو أرض أو آلهة أو بشر أو أثير أو نيل جار، بل لم يكن هناك ثمة أسماء للأشياء^(٧). "قبل أن تأتي الأرض، والسماء، لم يكن أي إله قد أتى بعد للوجود ولم يطلق أي أسم بعد على أي شيء"^(٨). فالمنطق المصري تطلب وجود لحظة أزلية ما، خلقت فيها العناصر الكونية والآلهة المختلفة للمرة الأولى، أطلق عليها "بدء الخليقة" أو "الوجود الأول"^(٩).

(١) عباس علي عباس الحسيني، مجتمع الآلهة في الديانة المصرية القديمة (دراسة مقارنة)، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، (عمان، ٢٠١٢)، ص ١٤.

(٢) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٢، ص ٣٢٨.

(٣) بيبير مونتيه، الحياة اليومية في مصر في عهد الرعامسة من القرن الثالث عشر إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ترجمة: عزيز مرقس، مراجعة: عبد الحميد الدواخلي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (القاهرة، ١٩٦٥)، ص ٣٧١.

(٤) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٥) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ١٧٨.

(٦) بيبير مونتيه، الحياة اليومية في مصر ...، ص ٣٧١.

(٧) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ٤٨-٤٩.

(٨) أريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ١٥٠.

(٩) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ٤٨-٤٩.

لقد أشارت النصوص المصرية أكثر من مرة إلى أن الوجود من كون وآلهة وبشر وغيرها قد خلقت بفضل إله خالق أوجد^(١). وبغض النظر عن اسم هذا الإله فقد اعتبرته النصوص المصرية " المولى الذي خلق كل شيء موجد"^(٢). كما أنها أشارت إليه مراراً وتكراراً بأنه " هو الذي خلق الآلهة"^(٣). ولكن حتى الإله الخالق الأول لم يكن أزلي الوجود لأننا نجد في الفكر المصري القديم أصل ونشأ له^(٤). فهناك أسطورتان عن خلق الإله الأزلي أو الشمس الأولى تعزو الأسطورة الأولى خلقها لنون المياه الأزلية، والثانية تزعم أنها خلقت على يد أرباب هرموبوليس الثمانية^(٥).

إن صفة الأزلية التي أنيطت بالإله الخالق، أيا كان اسمه، في الفكر المصري القديم متأية من التأثيرات السياسية في البلاد، إذ مع صعود كل مدينة وحكمها للبلاد كان على كهنة معبود تلك المدينة العمل على رفعة شأنه بما يتناسب مع الوضع السياسي الجديد، فكان على الكهنة أن يضعوا التعاليم الدينية التي تجعل من هذا الإله أعظم الآلهة المصرية قاطبة، وخالق الكون بما فيه من آلهة وكائنات، وهذا الأمر لا يتم إلا إذا ادعي أنه أقدم الآلهة والإله الأزلي، حتى يصبح من حقه أن يكون سلفاً للآلهة وبالتالي منجباً وخالقاً لهم^(٦). لهذا كان يجب على الإله الخالق أيا كان اسمه التأكيد على صفة الأزلية لديه وأنه أقدم أزلية من أي إله آخر. وهذا ما نقرأه في النص التالي من كتاب قهر عيب: " ... كنت أكثر أزلية(?) من الأفراد الأزليين الذين صنعتهم، لقد كنت أكثر أزلية (?) للأفراد الأزليين، وكان اسمي أكثر أزلية(?) من اسمائهم(?) لأنني صنعت الزمن الأزلي والأفراد الأزليين"^(٧).

يتأكد انتفاء صفة الأزلية عن الإله الخالق حتى مع النصوص التي ترى بأنه روح أزلية خلقت نفسها بذاتها. إذ أن وجود بداية لظهور الإله تنفي صفة الأزلية عنه حتى وأن جاء بدون مساعدة قوة أخرى. كذلك فإن الروح الإلهية لم تكن أزلية الوجود. فقد ظهرت عندما أدركت أنها مختلفة عن الرواسب الأولى، ولم ينفصل الإله الخالق بإرادته الذاتية عن الوسط الذي ظل فيه "خاملاً" إلا عندما أدرك ذلك

(١) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة ، ج٢، ص ٢٤٤.

(٢) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية ...، ص ١٥٢.

(٣) المصدر نفسه ، ص ص ١٥٠-١٥١.

(٤) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة ، ج٢، ص ٢١٠.

(٥) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ١٧٨.

(٦) محمد عبد اللطيف محمد علي، فكرة الخلق في مصر ...، ص ١٨٢.

(٧) Faulkner, R. O., " The Bremner- Rhind Papyrus", (in) , JEA, Vol. XXIV, London, 1938, pp. 41-42.

التباين. وتم ذلك الانفصال أساساً بالكلمة، فأتوم يناجي نفسه في أول الأمر في سكون الأغوار، ثم يشرع في التحاور مع نون ويؤكد تمايزه عن الخليط اللا شكلي بأن يذكر اسم ذلك الخليط. ومنذ تلك اللحظة أصبح هناك من جهة أتوم: "الذي جاء إلى الوجود من تلقاء نفسه"، ومن جهة أخرى الخواء الأولي ويجسده نون الذي أصبح مخاطب الإله الخالق بمجرد أن أصبح متميزاً عنه^(١).

مما تقدم يمكننا القول أن الآلهة المصرية لم تكن أزلية الوجود، بل كان لها بداية عن طريق الخلق أو الولادة في المرة الأولى. وهذا ما نقرأه في بردية نخسنسو كاهنة آمون رع حيث يقال عنه بأنه: "أول موجود أزلي خلقته الآلهة القدامى، ومن وجد منه كل إله آخر"^(٢).

وبداية الألوهة هذه تزامنت مع بداية تشكل الكون المادي . كذلك يمكن القول أن صفة الأزلية تقتصر على المادة الإلهية والتي تمثلها الإلهة العتيقة نون أو وإلهة الاشمونيين الثمانية، لأنها تمثل المياه الأزلية مصدر الحياة للكون والإلهة . بكلمة أخيرة ان ظهور الألوهية بشكل كيانات منتظمة وذات جوهر معروف ووظيفة محددة ترافق مع ظهور الكون المخلوق أو المنظم. لكن جذور تلك الألوهية تمتد في الأبدية اللانهائية قبل الخلق.

تتأثر أساطير الآلهة لدى الشعوب المختلفة بطبيعة البلاد التي تنشأ فيها^(٣). وهو الحال الذي كانت عليه طبيعة الآلهة في مصر القديمة المصرية، والتي كانت تعكس بشدة الخصائص المادية لمصر ولثقافتها الفريدة^(٤). فكون تلك الآلهة عبارة عن ظواهر مادية تنتمي إلى طبيعة الكون وترتبط به تماماً. جعل من الآلهة العتيقة نون تكتسب صفة الأزلية كونها تمثل المياه الأزلية، كما تم عدها خالقت الآلهة الجديدة أو الممثلة للعالم المنظم. وكون هذه الآلهة الجديدة لها بداية وجود حالها حال الكون المادي المتشكل نفى عنها صفة الأزلية. فلما كان المفكر المصري القديم يستند على الخلق المادي في الفلسفة التي تبناها والتي تنفي الخلق من عدم وتوجب وجود مادة أولية لبدء عملية الخلق، نراه يسقط هذه القاعدة الفكرية على تصورات حول العالم الإلهي جاعلاً من المياه الأولية هي المادة الإلهية الأزلية التي تخلقت أو تولدت منها الآلهة المصرية.

(١) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ١٢٤.

(٢) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج٨، ص ٧٧٣.

(٣) أحمد محمد البربري، الأدب المصري القديم، ص ١٠.

(٤) دون ناريدو، الأساطير المصرية، ص ١٣.

٢- صور خلق الآلهة

إن كل إله بالنسبة لقدماء المصريين، هو شخصية بارزة مستقلة واضحة المعالم ذات خصائص مميزة لا يشاركه فيها أي إله آخر. في المقابل كان للآلهة المصرية أيضاً خصائص تشترك فيها بمجموعها، ومنها أن جميعها لها بداية ونهاية زمنية، فهي تُولد أو تُخلق، وتتغير مع الزمن، وتكبر في السن وتموت، ويأتي يوم تختفي فيه نهائياً^(١). ولقد أثار الأسلوب الذي تم به خلق الآلهة ، المصريين تماماً، فانقسمت الآراء حول ذلك الخلق وقدم اللاهوتيون منهم العديد من النظريات والتي احتوت صوراً متنوعة ومختلفة^(٢).

أ- التوالد

كانت طريقة توالد الآلهة الطريقة الأكثر شيوعاً في الفكر المصري القديم لتفسير كيفية ظهور الآلهة وتكاثرها. لأنها فكرة تتفق تماماً مع مفاهيمنا الإنسانية، لذلك عدّ التوالد أحد أهم أساليب الخلق في أساطير جميع الشعوب، ومنها المجتمع المصري القديم، التي تحكي عن الأصول الطبيعية أو الخارقة للطبيعة الإلهية^(٣).

ذكرنا فيما سبق أن الأساطير المصرية في العموم تحاول تفسير كيفية ظهور الإله الخالق، وأحدى تلك التفسيرات ترى بأن الآلهة العتيقة (نون، إلهة الاشمونين الثمانية) قامت بولادة هذا الإله. فنقرأ في بردية التاجر قنا من كتاب الموتى، أن إله الشمس يُخاطب بالقول: " أبوك هو نو وأمك هي نوت إياها المتوج كرع حر اختي"^(٤). وهذا الأمر جاء التأكيد عليه على لسان الإله رع عندما يخاطب الإله نون في قصة هلاك البشر: " أي أقدم الآلهة الذي فيه أتيت إلى الوجود"^(٥). وكذلك عندما يخاطب الإله نون الإله رع بصفة البنوه "ابني رع، الإله الأعظم ممن صنعه والاقوى ممن خلقوه"^(٦). كذلك كان عمل آلهة الاشمونين الثمانية هو ولادة الإله الخالق إله النور والضوء إله الشمس، لذلك كانت تحمل القاب مثل: " الآباء والأمهات الذين صنعوا النور"، "المياه التي صنعت الضوء"، " الأرواح التي صنعت الشمس"،

(١) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ١٤٥.

(٢) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ص ٤٨-٤٩.

(٣) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ١٤٥.

(٤) Budge, E. A. W., "Book of Dead", 3 Vols. (published in a series of "Books of Egypt and Chaldea" Vols. VI. VII. VIII.), London, 1909. Vol. 1. P.8.

(٥) محمد عبد اللطيف محمد علي، فكرة الخلق في مصر القديمة، ص ١١.

(٦) Wilson, A. John, "Egyptian Myths ...", p. 11.

"الآلهة القدامى الذين صنعوا ساكن الأفق (أي رع)"^(١). ووفقاً للنصوص تعاليم طيبة من العصر البطلمي، فإن الآلهة الثمانية بعد أنجزت عملها المتمثل بخلق الإله الخالق النور، تدفن في مدينة حابو على الضفة الغربية لطيبة^(٢).

هناك الكثير من النصوص المصرية التي تشير إلى ولادة الإله الخالق. ففي كتاب الموتى يوصف الإله الخالق: " انك تأتي من الماء، لقد انبثقت من الإله نو"^(٣). وفي نص آخر: " أيها الصانع لنفسه لا أحد يعرف الأشكال، كامل الهيئة الذي ظهر في تجلي رفيع الذي شكل الصور، وولد من نفسه، قوة كاملة الذي يجعل قلبه مكتملاً، الذي يربط بذرته وجسده لكي يعطي الكينونة لبيضته ..."^(٤). ونقرأ في بردية نخت من عصر الدولة الحديثة في أنشودة لرع عندما يشرق: " أي رع، أنت من تكون حر اختي، الطفل الإلهي، وارث الأبدية، المنجب لنفسه، ... أنت أيها المادة الأولية للأرض"^(٥). ونقرأ في أنشودة لبتاح تنن من عصر الدولة الحديثة: " لقد بنيت أعضاء نفسك وصنعت جسمك عندما لم تكن السموات والأرض قد صنعت وعندما لم تكن المياه قد انبثقت، ... أنك ليس لك أب لينجبك، وليس لك أم لتلدك، لقد صنعت نفسك بنفسك بدون مساعدة أي كائن آخر وخرجت تماماً كاملاً"^(٦).

تلك النصوص المصرية حاولت تفسير ظهور الإله الخالق بطرق وأساليب فسيولوجية شبيهة بولادة البشر والكائنات الحية الأخرى. لكنها من جانب آخر تظهر لنا، ومن خلال احتوائها على مصطلحات مرتبطة بالتكوين والتشكل أو الانبثاق. والتي كان الإله الخالق يحاول من خلالها أن يبين ماهيته، فإنه كذلك كان يبين كيفية كينونته وصيرورته من الهيولي إلى التشكيل. وهذا كله يجعلنا ندرك أن تلك الولادة كانت عبارة عن تشكل أو انبثاق مادي للإله الخالق من الطبيعة أخذت الطابع الفسيولوجي بفعل مبدأ التشبيه.

أكثر النصوص التي تبين لنا كيفية تشكل الإله الخالق هي النصوص الخاصة بالإله آمون رع الذي استحوذ على شخصية الخالقين آتوم ورع الشمسيين، فنقرأ في إحدى فقرات أنشودة آمون في ليدن: " لقد كانت الآلهة الثمانية شكلك الأول حتى أكملت هذا (أي خلق العالم) أنت وحدك. لقد كان جسمك

(١) Frankfort, Henry, Kingship and gods ..., p.151.

(٢) ادولف ارمان، ديانة مصر القديمة ... ، ص ص ١٠٨-١٠٩.

(٣) Budge, E. A. W., Book of Dead ..., Vol. 1. P.16.

(٤) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة ، ج٢، ص ٢١٠.

(٥) Budge, E. A. W., Book of Dead, Vol. 1. P.17.

(٦) Budge, E. A. W., From fetish to good in Ancient Egypt, London 1934, p. 259.

غامضاً بين العظماء وقد أخفيت نفسك كآمون على رأس الآلهة". وفي فقرة أخرى من هذه الأنشودة يقال لآمون: "آمون الذي أتى قدما من نون شكله الأول كان الثامون. منجب الآلهة الأزلية، الذي شكل رع، وأكمل نفسه كآتوم". وفي نص من معبد (موت) بالكرنك من الأسرة العشرين يقال لآمون: " لقد كانت الآلهة الثمانية القدامى [صورته الأولى] حتى أكتمل وأصبح واحداً من الآلهة الثمانية من خلال أثبات ذاته وعند عودته للظهور في بداية القدم كالشمس"^(١).

نجد في الفكر المصري القديم صور أخرى لولادة الإله الخالق. ففي إحدى المراكز الدينية قيل ان الإله بتاح صاغ بيضة خرج منها إله الشمس، ولاهوت أخر يرى أن زهرة لوتس نمت من الماء وفي داخلها كان يستخفي إله الشمس الفتى. فيما أعتقد كهنة هليوبوليس بأن إله الشمس ظهر فوق حجر-بن- في بهو طائر الفينوكس في هليوبوليس العتيق هرمي الشكل كطائر الفينوكس^(٢). وهذه التفسيرات تجعل من إله الشمس مولوداً برز من الطبيعة الأم عبر ولادة إلهية شبيهة بولادة البشر والحيوان البيولوجية. لكنها بمجموعها صور طبيعية لشعاع الشمس وضياءها المنعكس استقاها المفكر الطبيعي من واقع البيئة الطبيعية في مصر. فالإنسان المصري القديم لم يكن بإمكانه تفسير العالم الإلهي بالعقل أو بالإدراك الحسي، لكن في المقابل كان بإمكان ذلك الإنسان تفسير وإدراك ظواهر ومظاهر الكون مثل السماء والشمس باعتبارهم تجسيد مادي لقوى العالم الإلهي. لهذا فقد فسر المفكر المصري القديم، مع بدايات فكره، مجيء الإله الخالق، وهو في الغالب إله الشمس، في صور كانت تتطابق وتتزامن في الوقت ذاته مع تصوراته لكيفية ظهور أولى التشكلات المادية من المياه الأزلية في هذا الكون.

كانت طريقة توالد الآلهة هي الأسلوب الذي فسر بواسطته المفكر المصري القديم ظهور الأزواج أو الأجيال الإلهية المتعاقبة. وتتضح سلسلة الولادات الإلهية تلك في بردية من العصر البطلمي يطلق عليها اسم كتاب قهر عيب (ابو فيس)، نورد منها النص الآتي:

" شو وتفنوت أنجبا جب ونوت، وجب ونوت أنجبا اوزيريس وحورس مختنيرتي (حورس الأعمى) وست وأيزيس ونفتيس من الرحم، الواحد بعد الآخر، وهؤلاء أنجبوا جموعهم في هذه الأرض"^(٣).

^(١) Erman, Adolf, Literature of Ancient Egyptians, translated in to English: by Blackman, A. M., Methuen and Co. Ltd, London, 1927, pp. 298-300.

^(٢) جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين، ص ٣٩.

^(٣) Faulkner, R. O. , " The Bremner- Rhind Papyrus" ..., p. 172.

ب- التمايز (الانقسام)

تشير النصوص المصرية القديمة إلى الإله الخالق بكونه " خالق الآلهة جميعاً" ^(١). لكن عملية الخلق تلك تمت بالتوالد الطبيعي مثل باقي الكائنات من ذكر وأنثى ^(٢). ولما كان الإله الخالق وحيداً في المرة الأولى عندما باشر الخلق، كان لابد أن يكون كائناً خنثوياً يجمع بين الذكورة والأنوثة، لهذا تطلق عليه النصوص المصرية لقب " العظيم هو-هي" ^(٣). حتى يتخلص من عزلته وينجب أو يخلق الكائنات الإلهية الجديدة، أي يكون "أبا الآباء وأم الأمهات" لكل الإلهة ^(٤). ونسبوا إليه القيام بعملية استمناء أصلية لأنجاب أول زوجين إلهيين (شو وتفنوت) ^(٥). " شرع آتوم في الخلق حينما بدأ في الاستمناء في هليوبوليس، فقبض على عضوه بيده حتى تتسنى له لذة الفذف، ومنه ولد أخ وأخت، هما شو وتفنوت" ^(٦).

أن سيطرة الشكل الإنساني على آلهة مصر القديمة دفع الكهنة إلى تصور أن الإله الخالق يستخدم أساليب خلق تبدو فسيولوجية لإنجاب الكائنات الإلهية الجديدة ^(٧). لكن آلية خلق تلك الآلهة الجديدة كانت تتم بالتمايز والانقسام من جسد الإله الخالق ^(٨). وهو ما يوضحه النص التالي من نصوص الأهرام: " لقد بصقت فكان شو، وتفلت فكانت تفنوت" ^(٩). وهذا الأمر يتضح لنا من أسماء تلك الآلهة الجديدة. حيث أن أسماء الآلهة المصرية تلمح كثير إلى صفات خاصة لحاملها تساعدنا على فهم واضح لطبيعتها ووظيفتها، وعن كيفية تشكلها الطبيعي ^(١٠). فاسم شو يشبه كلمة (اسبش) أي يبصق، بينما يشبه اسم تفنوت كلمة (تف) ولها نفس معنى (اسبش). ومن المدلول اللفظي للاسمين شو وتفنوت، ما يدل على طريقة خلقهما، فالتقريب بين كلمة شو وبين الصوت الذي يصدر عن الفم إذا نفخ، والأنف إذا عطس، ومن التقريب بين كلمة تفنوت وبين الصوت الذي يصدر عن الفم إذا تفل، ينتهي الاستدلال إلى

(١) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ١٥٢.

(٢) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ٣٨.

(٣) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج٢، ص ٣٠٨.

(٤) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ٣٨.

(٥) فرانسو ديماس وكريستيان زفي كوش، آلهة مصر، ص ص ٣٣-٣٤.

(٦) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ٣٩.

(٧) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر، ص ٧٠.

(٨) Allen, James P., "Genesis in Egypt"... ,p. 120.

(٩) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ٤٠.

(١٠) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ٦٥.

خلاصة مفادها أن الخلق تم بتميز أو انقسام مادة الإله الخالق. فأتوم نفخ ذات مرة أو عطس عن قصد، فصدر عنه شو روح الهواء، وتقل مرة أخرى فصدرت عنه تقنوت روح الرطوبة والندى^(١). ولما كان في إطلاق البصاق أو التقل من الفم إخراج للهواء من الفم لحظة هذا الإطلاق، وماء هو مادة البصاق أو التقل، فقد تمثل عنصرا الهواء والماء في الزوج الإلهي الأول الذي أنجبه آتوم، فكان شو إله الهواء، وكانت تقنوت إلهة الرطوبة أو الندى^(٢). وهذا الأمر ينطبق على النصوص التي ترى أن الإله الخالق خلق الآلهة من عرقه، وهذا ما يوضحه أحد النصوص من أواخر عصر الدولة الوسطى، إذ يقول الإله الخالق في هذا النص: "لقد أحضرت إلى الوجود الآلهة الأربعة من عرقي"^(٣).

عندما كان الإله الخالق وحيداً في الكون لم يكن يمثل إلهاً فحسب بل كان يمثل كل المخلوقات التي سيقدر لها الوجود^(٤). فنجد اسم الإله آتوم، بوصفه أقدم إله خالق في الفكر المصري القديم، يعني احتواء الكل، أي أن الإله آتوم هو أصل كل الموجودات^(٥). لهذا يشار إليه بالنصوص المصرية بأنه الإله الذي " في البدء كان كل شيء"^(٦). أي أن المصري القديم قد جعل من الإله الخالق كائن أولي وحيد يحمل كل عناصر الوجود (الروحية والمادية) مجتمعة وغير متميزة، وبالتالي فإن قيام الإله الخالق بولادة ابنائه من الكائنات الإلهية، والذين يمثلون في نفس الوقت العناصر الكونية، لم يتصور المصري القديم إمكانية حدوثها إلا بطريقة مادية بحته تتمثل بنمايز هؤلاء الأبناء عن جسد الإله الخالق ومن ثم انشطارهم أو انقسامهم عنه. وهذا ما تعبر عنه الفقرة التالية من أنشودة مديح رع عندما يرق في الأفق ويغرب في أرض الحياة وهي من بردية اني: " أنت إبيها المادة الإلهية، الذي منه أتت كل أشكال الحياة إلى الوجود، ... أنت صانع كل الأشياء التي تكون، لقد شكلت لسان جماعة الآلهة، لقد أنتجت كل ما يأتي قدما من المياه"^(٧). وكذلك الفقرة التالية من أنشودة آمون في ليدن: " لقد صنعت كيفية وجودك كتاتن من أجل أن تشكل (؟) الآلهة في أصلك الأول"^(٨). فالإله الخالق وفقاً لتلك النصوص أوجد نفسه مادياً بهيئة النل الأزلي، ثم باشر بتشكيل ابنائه الآلهة بالتميز والانقسام من كتلته المادية تلك.

(١) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج٢، ص ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) محمد عبد اللطيف محمد علي، فكرة الخلق في مصر ... ، ص ١٠٤.

(٣) Wilson, A. John, "Egyptian Hymns and Prayers" ..., p.366.

(٤) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ٣٨.

(٥) جون. ا. ولسن، مصر ...، ص ص ٦٨-٦٩.

(٦) أريك هورنوتج، ديانة مصر الفرعونية ...، ص ص ٦٥-٦٦.

(٧) Budge, E. A. W., Book of Dead, Vol. I, p.65.

(٨) Erman, A., Literature of Ancient Egyptians, p.298.

ج. الصنع

يرد في بعض النصوص المصرية القديمة ما يشير إلى أن خلق بعض الآلهة كان يتم عن طريق التشكيل أو الصناعة اليدوية من قبل الإله الخالق. وهذا ما نجده في النص التالي بلسان أحد أبناء حورس الذي عرف بالصقر المقدس: " أنا واحد ممن خلقهم آتوم ممن جاءوا للوجود من قلب عينه ممن صورهم آتوم وأفاض عليهم من مجده ممن شكلهم وميز وجوههم كي يكونوا معه... " (١).

تكاد تكون تلك الطريقة مقتصرة على خلق الآلهة الخاصة أو الثانوية. فتلک الآلهة لم تكن تعد في الفكر المصري القديم آلهة بالمعنى الكامل للكلمة أو أنها يمكن اعتبارها إلهة مستقلة، إذ أن طبيعة الوظائف التي تقوم بها لا تلائم طبيعة المعبودات المصرية، بل أن وظائفها اقرب إلى الوظائف التي يجسدها الأشخاص مثل (المقيد بالحبال) الذي يسلسل المحكوم عليهم في جهنم، و(المهلك) الذي يفنيهم، و (مفترس الموتى) وما شابه ذلك من كائنات من المردة (٢). فالآلهة المصرية القديمة مثلما كانت تعكس بشدة الخصائص المادية لمصر ولثقافتها الفريدة، فأنها كانت كذلك تعكس الشخصيات الأخرى للموروث المحلي للبلاد (٣). لهذا كانت طريقة خلقهم تتطابق مع طريقة خلق البشر وباقي الكائنات الحية. وهذا ما نجده في النشيد الموجه للإله خنوم أعلى جدران معبد أسنا: " لقد شكل على عجلته الآلهة والبشر ووضع هيئة القطيع من الخراف والماعز وهيئة الطيور والأسماك والرجال ذوي الخصوبة وأوجد الإناث في العالم " (٤).

كذلك، ووفقاً لمذهب منفس، كان خلق الآلهة يتم بخلق الجزء الروحي أولاً ثم بعد ذلك يتم خلق الجزء المادي -أي أجساد تلك الأرواح الإلهية - وذلك بصناعتها من الطين أو المعدن أو الخشب أو كل ما ينمو على سطح الأرض (٥). من قبل الإله الخالق بتاح بوصفه إله الصانع والفنانين وبالشكل الذي يرغب به الجزء الروحي لتلك الآلهة (٦).

(١) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ٤٤.

(٢) أريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية ...، ص ٦٨.

(٣) دون ناريدو، الأساطير المصرية، ص ١٣.

(٤) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ٦٩.

(٥) عباس علي عباس الحسيني، مجتمع الآلهة ...، ص ١١٠.

(٦) خزعل الماجدي، الدين المصري القديم، ص ٩٠.

ثالثاً: أثر البيئة في تشكل صور خلق الإنسان

حَظِيَ موضوع خلق الإنسان بأهمية كبيرة في أفكار ومعتقدات الشعوب القديمة، ولكن المصادر والنصوص المصرية لا ترينا ذلك الاهتمام بهذا الموضوع من قبل المصريين القدماء^(١)، إذ يلاحظ أن أصحاب المدارس اللاهوتية في مصر القديمة لم يتصوروا خطة محددة لخلق الإنسان^(٢)، فلا توجد في الفكر المصري القديم قصة خاصة بخلق البشرية، فيما عدا الإشارات المتناثرة هنا وهناك في النصوص المصرية^(٣). ومع قلة هذه الإشارات وكونها لا تقدم لنا سرداً كاملاً ومنسقاً عن موضوع خلق الإنسان في الفكر المصري القديم^(٤)، لكنها بالرغم من ذلك احتوت صور متنوعة ومتفرقة عن تصورات المدارس اللاهوتية في مصر القديمة حول خلق الإنسان^(٥). وسنحاول عرض هذه الصور فيما يأتي:

١ - الإنسان خلق من مادة الإله وصورة عنه

وفقاً للفكر المصري القديم فإن البشر قد خلقتهم الآلهة شأنهم في ذلك شأن أي شيء آخر في الكون^(٦). ورغم اختلاف اسم الإله الخالق للبشرية في النصوص المصرية^(٧)، إلا أن أغلب تلك النصوص تشترك في عدة أمور أهمها: إن البشر قطعان الإله، وأن الإله قد خلق كل شيء في هذا الكون من أجلهم، وقد خلقتهم على شاكلته أي على صورته، من مادة إلهية انبثقت من جسد الإله الخالق نفسه^(٨). وتعتبر كلمات الملك (مري كارع) أحد ملوك الأسرة العاشرة الالهناسية عن فكرة خلق الإنسان بهذه الطريقة: "أنهم على هيئته منبثقين من كيانه، لقد أوجد الهواء كي يمنح الحياة لأنوفهم"^(٩). ورغم أن النصوص المصرية لم تتطرق للطريقة التي خلق بها الإنسان إلا أنها أشارت إلى طبيعة المادة الإلهية التي شُكِّلَ منها، وهي كالآتي:

(١) عباس علي عباس الحسيني، مجتمع الآلهة، ص ص ١٢٠-١٢١.

(٢) Lois, V. , Egyptian Mythology, Italy, 1968 ,pp. 37-38.

(٣) جون. ا. ولسن، مصر، ص ص ٧٠-٧١.

(٤) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ٦٠.

(٥) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة، ج ٢، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٦) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ٦٠.

(٧) Lois, V., Egyptian Mythology, pp.37-38.

(٨) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ص ٦٦-٦٧.

(٩) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ٧٣.

أ- دموع الإله

تذكر نصوص مصرية عدة أن البشر قد خلقوا من دموع الإله. ففي أسطورة نجاة البشر، يرد في النص " هل رأيت الناس الذين خرجوا من عيني". وفي فصول كتاب الموتى يرد: "رع خلق جسد الإنسان بدموع عينيه"^(١). وفي بردية نيس نجد الإنسان قد خلق أيضاً من دموع الإله خيبرا ولكن بطريقتين: الأولى من سقوط دموع الإله على أعضاءه التناسلية والتي لامست ذكوره فتحولت إلى بشر : "والآن بعد هذه الأشياء - وحدثت أعضائي وبكيت عليها والرجال والنساء جاءوا إلى الوجود من الدموع التي زفرت من عيني". وفي الطريقة الثانية نجد أن النساء والرجال الذين جاءوا للوجود كانوا نتاجاً مباشراً لدموعه^(٢).

وفي أحد نصوص الدولة الوسطى نقرأ: " الناس يكونون من دموع عيني"^(٣). وفي أنشودة آمون رع نقرأ: " البشر خرجوا من عينيه"^(٤). وكذلك في أسطورة أهلاك البشر: "أيها الآلهة الأجداد، أنظروا البشر الذين أتوا إلى الوجود من عيني، لقد دبروا أشياء ضدي"^(٥). ونقرأ في أنشودة للشمس عُثر عليها بمقبرة رع مسيس الرابع من الدولة الحديثة: " لا يوجد من يعيش بدونه، وكلنا نشأنا من عينه"^(٦). ونقرأ أيضاً في بردية نسخسو من أواخر الدولة الحديثة عن آمون رع: "الذي من عينيه الإلهيتين يأتي الرجال والنساء قدماً"^(٧). لقد عكس المصري القديم ما يراه في بيئته الطبيعية من فواعل الأمطار المنهمرة من السماء بالأرض الزراعية منتجة أشكال الحياة المتنوعة على تصوراته حول كيفية خلق الإنسان، فدموع الإله الخالق التي أدت إلى خلق الإنسان تشبه صورة سقوط الأمطار على الأرض وإنتاجها للحياة.

وتذكر إحدى القصص أن عين رع لم تعد بعد إرسالها من قبل رع في مهمة، فأحزن هذا الأمر الإله رع ومن دموعه كانت البشرية، وفي النص الذي يشير إلى ذلك كان هناك تلاعب بالألفاظ بين كلمة (رميت) بمعنى دموع وكلمة (رميت) بمعنى البشر^(٨). لهذا يفسر عادة خلق الإنسان بوساطة دموع الإله على أنه تلاعباً بالألفاظ، نظراً لأن كلمتي دموع وبشري متماثلتان في اللغة المصرية. لكن التفسير له شأن أكبر من أن يكون مجرد تلاعباً بالألفاظ، وهو يعكس -أيضاً- الأصول المتذبذبة للجنس البشري

(١) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة ، ج ٢، ص ٢٠٩.

(٢) والاس بدج، آلهة المصريين ...، ص ٣٤٦.

(٣) Wilson, A. John, "Egyptian Myths ... , p. 8.

(٤) Wilson, A. John, "Egyptian Hymns and Prayers ..., p.366.

(٥) Wilson, A. John, "Egyptian Myths ..., p.11.

(٦) Erman, A., Literature of Ancient Egyptians, p.304.

(٧) Budge, E. A. W., Book of Dead, p 653.

(٨) أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ص ص ٧٧-٧٨.

في غيم مؤقت لرؤية الإله. وفي نصوص التوابيت، يؤكد الخالق أن " البشر الذين ينتمون إلى العماء يقفون ورائي"^(١). فالعمى هو استعارة لمحدودية العقل البشري وعدم تمكنه من إدراك التفسير الكامل لمغزى الوجود البشري في هذا الكون من جهة، وأن هذا الإدراك الوجودي لا يتم إلا باتباع الآلهة والالتزام بتعاليمها لأنها صاحبة الرؤية الواضحة التي لا تشوبها شائبة من جهة ثانية. ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن فكرة الإنسان قد جاء من صرخات حزينة للخالق لم تؤدي إلى اقتناع المصري بضعف الحالة الإنسانية أو إلى الشعور بالخطيئة، بل العكس كان لديهم وعي ميزته الحضارة المصرية بالشعور بالإيجابية تجاه الحياة.

ب- جسد الإله

تشير بعض النصوص المصرية إلى أن الإله عندما خلق الإنسان على صورته قد خلقه من ذات بدنه^(٢). فنقرأ في أحد النصوص " إن البشر قطعان الإله: لقد صنع السماء ليدخل البهجة على قلوبهم وقاوم جشع المياه، وخلق نفس الحياة من أجل انوفهم، وأنهم على شاكلته، وهم نتاج لحمه، يشرق في السماء ليحقق رغبتهم القلبية، ومن أجلهم خلق النباتات والحيوانات والطيور والأسماك، كل هذا ليضفي عليهم البهجة"^(٣). إن هذا النص، الذي يعلق على موضوع خلق الإنسان بصورة عرضية حاله في ذلك حال أغلب النصوص المصرية التي أشارت إلى هذا موضوع، ذو أهمية بالغة، فهو يجعل غاية الخلق هي مصلحة الإنسان^(٤). كما أنه يجعل خلق الإنسان يسبق كثير من الموجودات ومنها السماء والأرض، مما يجعل خلق الإنسان ضرورة لأنها تعطي البعد الكوني للآلهة لكي تكتمل ربوبيتها.

كما أن بعض النصوص من العصر البطلمي وخاصة ما ورد في كتاب قتل عيب (ابو فيس) تجعل من البشر نسل للآلهة التي تكاثرت على الأرض: " شو وتفنوت أنجبا جب ونوت [وجب ونوت أنجبا] اوزيريس، وحورس مختنيرتي، وست، وايزيس، ونفتيس، وهم أنجبوا وخلقوا كائنات كثيرة في هذه الأرض، أي أشكال الابناء وأشكال ابنائهم"^(٥)، وهذا الأمر يجعل من اوزيريس واخوته سلالة البشر الأوائل.

(١) إريك هورنونج، فكرة في صورة، ص ٣٧.

(٢) Lois, V., Egyptian Mythology, pp. 37-38.

(٣) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ص ٦٦-٦٧.

(٤) جون. ا. ولسن، مصر، ص ٧١.

(٥) Faulkner, R. O., " The Bremner- Rhind Papyrus ..., pp. 41-42.

٢- الخلق بالتمييز أو بالنوع

بالرغم من العرقية المتميزة لكل الفكر المصري القديم كونه يعد أهل وادي النيل فقط هم البشر الحقيقيون، ولكن إله الخلق هو أب للجنس البشري كله في جميع اختلافاته، ولكي يدعم الفرق بين البشر منذ البداية^(١)، فقد جعل المفكر المصري القديم الخلق بالتمييز أو بالنوع أحد طرق خلق البشر التي اعتمدها الإله الخالق: "آتوم خالق البشر وقد ميزت شكلهم، صنعت حياتهم وميزتهم عن بعضهم البعض عن طريق لون جلدهم"^(٢). كذلك نقرأ في أنشودة إلى الإله رع في متون الأهرامات: "يا ((آتوم)) الذي خلق الناس، والذي حدد صورهم، والذي ميز كل جنس عن الآخر"^(٣). أي أن الإله خلق مختلف الأنواع أو الأجناس البشرية ويميز فيما بينها عن طريق لون أجسامها.

كما أن الإله منح البشر لغات مختلفة، ويتضح هذا الأمر في نشيد آتون في تل العمارنة: "إن بلاد سوريا، السودان وأرض مصر قد وضعت كل منها في مكانها ، كم قدمت احتياجاتها، إن كل طعامه ، كما أن مدة حياته محسوبة. وقسمت اللغات إلى لهجات وأيضاً بالنسبة للبشر: أن (ألوان) أجسامهم متنوعة، لأنك ميزت بين الشعوب"^(٤). أي أن المصريون القدماء قد قسموا البشر إلى أربعة أجناس هم المصريون و(العامو) أي بدو قبائل الصحراء الشرقية الساميون، و(الزميهو) أي الليبيون، و(النهيسو) أي الزنوج أو هؤلاء الذين يعيشون بعد الشلال السادس^(٥).

٣- الخلق بالصنع

إن الصورة الأكثر وضوحاً حول خلق الإنسان في الفكر المصري القديم، تتمثل في الاعتقاد بأن الإنسان كائن خلقته الآلهة من الطين، وهذا ما يوضحه نص يعود للحكيم امينيموبي، يذكر: "إن المرء في الحقيقة من طين معجون بالقش والإله خالقه فهو من عمل يديه الربانية"^(٦). وخلق الإنسان بهذه الصورة كانت مهمة أضطلع بها الإله خنوم، إله مدينة الفنتين، بمساعدة معبودتان هما ساتيس وعنقت^(٧).

(١) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر...، ص ص ٧٦-٧٧

(٢) عبد العزيز صالح، "الوحدانية في مصر القديمة"، مجلة المجلة، العدد ٣١، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٣.

(٣) عريان لببيب حنا، الشخصية المصرية...، ص ١٧٠.

(٤) فرانسواز دونان، الآلهة والناس في مصر...، ص ص ٧٦-٧٧.

(٥) والاس بدج، آلهة المصريين...، ص ٣٤٦.

(٦) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني...، ص ٦٠.

(٧) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة، ج ٢، ص ١٦٤.

لهذا اطلقت النصوص على الإله خنوم " ذلك الذي يقوم بخلق البشر"^(١). وتصفه الأناشيد بخالق أو صانع وحتى والد البشر^(٢). وفي أنشودة آمون رع الكبرى من عصر امحتب الثاني ترد عبارة صنع البشر أكثر من مرة: " الذي صنع البشر وأنتج الحيوانات"، " صانع كل البشر، وخالق كل ما يكون"^(٣).

ونقرأ في بردية من عصر الاضمحلال الأول: " خنوم لم يعد يشكل الناس بسبب حالة البلاد"^(٤). وفي نص سحتب ايب رع من عصر الدولة الوسطى، ما يقال عن امنحات الثالث: " أنه الواحد الذي يخلق ما يكون، لأنه خنوم لكل الأجسام، المنجب الذي يخلق الناس"^(٥). وفي قصة الاخويين من عصر الدولة الحديثة نقرأ: " وقال رع حر اختي لخنوم: شكل زوجة من أجل باتا حتى لا يقيم وحيداً. وصنع له خنوم رفيقة كانت لها أعضاء أملح مما لأي امرأة في الأرض كلها"^(٦). ونجد في بردية من عصر الرعامسة: " السلام لك! انت الإله [العظيم؟]، الذي خلق النبلاء، أنت خنوم الذي شيد العوام". وفي نص المجاعة: " أنا خنوم الذي صنعك. ذراعي (أو يداي) خلفك ليقويا جسمك وليعطيا الصحة لأعضائك. ... لأنني السيد الذي يخلق"^(٧). ونرى في نص مولد الملكة حتشبسوت في معبد الدير البحري الطريقة التي يقوم بها خنوم بخلق البشر إذ تصوره تلك النصوص وهو جالس أمام عجلة الفخار التي يشكل عليها أجساد البشر^(٨). نخلص من تلك النصوص إلى أن خلق الإنسان في الفكر المصري القديم عملية أختص بها الإله خنوم، وأن أشارت بعض النصوص المتفرقة إلى إله آخر.

إن الطريقة التي يقوم بها الإله خنوم بخلق الإنسان هي طريقة مادية بحتة، إذ تصوره النصوص المصرية القديمة ينفذ تلك العملية عن طريق صناعة أو تشكيل الأجساد البشرية من مادة الطين، على دولا ب الخزاف الإلهي (عجلة الفخار): " إلى خنوم رع، سيد اسنا، الذي يصنع على الدولا ب البشر، ويلد المعبودات ويخلق الحيوانات"^(٩).

(١) عباس علي عباس الحسيني، مجتمع الآلهة ...، ص ص ١٢٤-١٢٥.

(٢) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة، ج٢، ص ٢٢٤.

(٣) Loprieno, Antonio, Ancient Egyptian Literature –History and Forms, New York, 1996, pp. 245-246.

(٤) Erman, A., Literature of Ancient Egyptians, p.95.

(٥) Wilson, A. John, "Observions on Life and the World Order", in, ANET - Second Edition, Princeton, U. S. A. 1969. Wilson, p. 431).

(٦) Erman, A., Literature of Ancient Egyptians, p.155.

(٧) Budge, E. A. W., From fetish to good, p484.

(٨) عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، مجلة المجلة، العدد ٢٦، القاهرة، ١٩٥٩. ص ٤٦.

(٩) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة، ج٢، ص ٢٢٤.

ذكرت النصوص المصرية عملية صناعة الإله خنوم لجميع العناصر والتفاصيل المعروفة في الجسم البشري اليوم. إذ يبدأ بتصميم العظام من صلصال خاص. وأحاط هذا الهيكل الداخلي بالجلد، والعروق الحاملة للدم، والأعضاء المتعددة بما في ذلك أعضاء الجهاز الهضمي والتنفسي والتناسلي^(١). "جعل خصلات الشعر تنمو، جعل الشعر ينمو، وجعل الجلد يكسو الأعضاء، خلق الجمجمة، وشكل الوجه، لكي يعطي سمة مميزة للأوجه(؛) جعل العين تتفتح، وفتح الأذان، جعل الجسم يتصل اتصالا وثيقا بالهواء، خلق الفم لتناول الطعام، وخلق الأسنان لمضغه، فصل اللسان أيضا ليعبر"^(٢). وهذا النص يوضح علم المصريون القدماء بأعضاء الجسم البشري والفسولوجيا، حيث يوصف خلق الإله خنوم للإنسان عضو بعد عضو وطرف بعد طرف وكل العناصر المكونة للجسم البشري^(٣).

لقد نما فكر الإنسان المصري القديم من الطبيعة المحيطة وقدم تفسيراته انطلاقا من ملاحظاته لهذه الطبيعية. ومنها اعتقاده بان الإنسان خلق من الطين وتمت صناعته على دولاب الفخار كما يقوم الفخاري بتشكيل الفخار عليها، لقد فسر المصري القديم مفهومها عملاقا بشكل عملي بحث مبسط لعملية تشكيل البشر ونفخ الروح فيه.

إن الطين الذي يُصنَع منه الإنسان ليس طيناً عادياً، بل هو الصلصال المأخوذ من غرين النيل، الذي يستخلصه عادة عامل الخزاف في عمله، وهذا الصلصال يطابق غرين النون أي المادة الأصلية التي يستخدمها الإله في الخلق^(٤). لهذا فقد كان الطمي (الطين) يمثل مادة سحرية فعالة في الفكر المصري القديم، إذ ينعكس الأبداع المتضمن في عملية تشكيل الطمي على المستوى الأسطوري، فالإله خنوم يستخدم الطمي لخلق (كا) أو القرين لكل شخص. ويمكن للطمي أيضا أن يكون سلاحا قويا في أيدي الآلهة، فالإلهة أيزيس لكي تخدع الإله رع ليكشف لها عن اسمه الخفي، تخطط بصاق الإله العجوز بالأرض، وتستخدم الطين الناتج لتصنع (حية مهيبة) تلدغ بها إله الشمس وتسممه. ويتأكد المغزى الإلهي للطين في طقس (كرات الطمي الأربع) المتأخرة كثيرا، التي يقال أنها "كرات جاءت إلى الوجود من أجل رع، وذرية جب وذرية اوزيريس، وأنت أيها الصلب على الأرض، وأنت أيها الحي في نون"^(٥).

(١) دون ناردو، الأساطير المصرية ، ص ٣١.

(٢) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر...، ص ٧٦.

(٣) عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص ٤٦.

(٤) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر...، ص ٧٧.

(٥) كاشا شباكوفسكا، الحياة اليومية في مصر، ص ٢٨٥.

يذكر أحد مقاطع أسطورة أو نشيد خنوم: "إن طمي النيل بتأثير سخونة أشعة الشمس الحادة يختمر ويبرز بلا بذور سلالات الإنسان والحيوان...". وهنا تشبيه للعملية الزراعية لتقريب المفهوم فلا يحتاج خنوم لبذور لانتبات الشكل المراد له الحياة ولكن حرارة الشمس كافية، مما يجعل من حياة البشر حدث متواصل مع الطبيعة التي تجسد له مصادر متعددة للطاقة الحيوية المتسببة في الوجود من حرارة، وضوء، وهواء، وماء، وعناصر التربة^(١).

لا تجعل الأساطير المصرية من عملية الخلق تسلسلاً هرمياً لعناصر الوجود، يكون خلق الإنسان هو ذروتها^(٢)، بل أن بعض تلك الأساطير توحى لنا بأن عملية خلق البشر من قبل الآلهة مجرد صدفة، فالبشرية مجرد دموع سقطت من عين الإله الخالق بدون إرادة تقريباً^(٣). فضلاً عن أن الإنسان لا يشكل، بصورة عامة، في الفكر المصري القديم مكاناً مركزياً في نشأة الكون وفي أدارته^(٤). وهذا كله يتوافق مع أيمان المصري القديم بأن علة الوجود هي الآلهة، وبالانساق مع هذا الأيمان كان من الطبيعي أن تكون الآلهة على رأس الهرم الوجودي في الكون، بوصفهم القوى الفاعلة والمهيمنة عليه وقبل كل ذلك خالقيه. أما الإنسان، وتحديداً في هذا السياق الإنسان المصري القديم، فهو كائن خلقته تلك الآلهة لغاية وسبب ووجودي محدد هو الخدمة والعبادة وتنفيذ أوامر وقرارات الآلهة بطاعة مطلقة.

بالرغم من أن الغاية السابقة لخلق الإنسان من قبل الآلهة تقضي إلى علاقة التابع والمتبوع أو العبد بسيده بين الإنسان المصري القديم وآلهته، لكن ذلك الإنسان لم يكن يشعر بأنها علاقة مقيته وسبب وجودي تعيس يجعلان حياته مليئة بالبؤس والشقاء، وهذا الشعور متأني من تأثير البيئة الطبيعية للبلاد. فهذه البيئة بما امتازت به من استقرار واعتدال وانتظام في دوراتها الطبيعية مع حياة الإنسان المصري القديم، أعطت لهذا الأخير شعوراً بأن الطبيعة، سواء أكانت عناصر مادية تلبي احتياجاته الفيزيائية أو كانت قوى روحية آلهة تلبي احتياجاته الميتافيزيقية، مسخرة له ولاحتياجاته المختلفة وتؤمن له حياة سعيدة ومستقرة .

وفقاً للفكر المصري القديم فإن الخالق هو كل الطبيعة، مما يستوجب على الإنسان المصري القديم ارتباطه المعنوي والروحاني بهذا الخالق المسير لوجوده، فهو يستقي من خياراته غذائه ويقدم له هذا

(١) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ٧٢.

(٢) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.199.

(٣) والاس بدج، آلهة المصريين، ص ص ٣٤٦-٣٤٧.

(٤) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.199.

الغذاء في صورة قرابين، وهذا نوع من التواصل يتم عبر علاقة تبادلية يأخذ خلالها الإنسان احتياجاته من الطبيعة ويقدم بعضها منها لخالق الوجود، لقد خلق المفكر تفاعلاً تبادلياً بين البشر والخالق وهو تفاعل إيجابي نسبي. لقد تفهم المصري القديم حقيقة وجود كل عناصر الطبيعة مسخرة له ولاحتياجاته، لكن هذه العناصر الطبيعية في حاجة لتطويع مما يتحتم معه العمل على تهيئة سبل الحياة المقدمة من الخالق للبشر كي تيسر حياتهم على الأرض، لقد منح الخالق العناصر الرئيسية الضرورية للحياة وعلى البشر العمل على استخدام هذه العناصر لصالح استمرارية وجوده مع الحفاظ على التوازن الكوني. وبهذا فقد أسهمت البيئة الطبيعية المستقرة في مصر في اقتناع الإنسان المصري القديم بالغاية التي خلقتها من أجلها الآلهة وبأهمية مركزه في هذا الوجود وطبيعة علاقته بتلك الآلهة.

المبحث الثالث

أوجه الشبه والاختلاف لصور الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين وأثر البيئة في ذلك

أولاً: مقارنة حول أثر البيئة في تشكل صور خلق الكون في الفكرين العراقي والمصري القديمين

أ- أوجه الشبه

يجد الفاحص لأساطير الخليقة في الحضارتين العراقية والمصرية القديمتين، أن الفكر الميثوبي كان هو القاعدة الأساسية التي تشكل عليها الفكر في كلا الحضارتين. وأن الأسس المادية كانت الركيزة المشتركة بينهما في عملية الخلق . فالظواهر الطبيعية نفسها غالباً ما تشخص في كلا القطرين، والصور الشعرية نفسها غالباً ما تُستخدم في وصفها^(١). ويمكن إجمال أوجه تشابه فلسفة الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين بما يأتي:

١- عملية الخلق لم تكن من العدم بل من مادة أزلية سابقة لتشكل الكون .

٢- الكون وما فيه من أجرام سماوية وأشكال الحياة المختلفة قد خرجت من الماء (مياه الهولي).

٣- إن أول تشكل مادي أو أول جزء من هذا الكون كان على هيئة جزيرة صغيرة (تل بدائي)، والذي يمثل الأرض والسماء متحدتين، خرج من المياه الأزلية.

٤- إن كل أجزاء الكون قد تشكلت بطريقة أو أخرى من مادة هذا التل البدائي بعد انفصاله إلى جزأين رئيسيين هما الأرض والسماء.

٥- إن الخلق تم بشكل تدريجي، إذ لم يظهر الكون دفعة واحدة بل مرت العملية بمراحل عدة وصولاً إلى مرحلة اكتمال الكون.

مثلاً تشابهت التصورات التي توصل إليها المفكر العراقي والمصري القديمين، فقد تشابهت، إلى حد بعيد، العوامل التي أدت إليها. فالإنسان القديم في العراق ومصر في تلك الأزمان المبكرة جداً من التاريخ البشري كان يفقد إلى القدرة على التجريد في إدراكه للأشياء، فكان ينطلق من الأشياء المحسوسة والملموسة من حوله في سبيل إدراك الأشياء الغيبية غير المرئية؛ فالصورة الذهنية للمكان لدى الإنسان

(١) هـ . و هـ.ا. فرانكفورت، اعتناق الفكر من الأسطورة ... ، ص ٢٦٥.

القديم هي صور المظاهر المحسوسة^(١). وفضلا عن نمط التفكير هذا فقد كان للنمط الاقتصادي في البلدين دوراً كذلك، إذ أن اعتماد الإنسان فيهما على نمط الاقتصاد الزراعي جعله ملتصقاً بالأرض يعتمد في معيشته على ما تقدمه له من موارد^(٢). بفعل هذه العوامل توصل المفكر العراقي والمصري القديمين إلى نتيجة مفادها أن الخلق لم يكن من العدم بل كان من مادة سابقة للوجود هي المياه والتي كانت في حالة من الفوضى.

إن فكرة الخلق ما هي إلا عملية استخلاص الكون المنظم من حالة الفوضى المائية السابقة له، كانت بصورة عامة إحدى الأفكار الأساسية لدى حضارات الشرق الأدنى القديم^(٣)، وفي مقدمتها حضارتي العراق ومصر. ففي هاتين الحضارتين الزراعيتين كان للماء مغزى عميق، إذ رأوا فيه مصدر الحياة ومغذيتها، فكلاهما تعتمد في زراعتها على الري، الذي كان مصدره مياه نهري دجلة والفرات في العراق ومياه نهر النيل في مصر، لذلك تمثل تلك الأنهر أهم صفة طبوغرافية في البلدين. كذلك فقد اعتبرت الحالة التي تسببها فيضانات تلك الأنهر هي حالة الفوضى المائية الأزلية السابقة لحالة الخلق المنظم.

كانت فكرة الجبل الكوني شائعة في العالم القديم. وقد مثلت هذه الفكرة صورة التشكل الكوني الأول في الفكرين العراقي والمصري القديمين مع وجود بعض التعديلات^(٤). إذ لاحظ الإنسان القديم في كلا البلدين أن أولى أجزاء اليابسة التي تظهر بعد انحسار مياه الفيضانات كانت عبارة عن تلال صغيرة من الأرض تبدو وهي محاطة بالمياه من جميع الجهات كجزر صغيرة أو تلال من اليابسة تكونت لأول مرة في وسط فوضى المياه الأزلية أو مياه الفيضانات.

امتازت الآلهة، لاسيما الآلهة الخالقة الكبار، في الفكرين العراقي والمصري القديمين بالقوة والمقدرة على فعل كل شيء ومنها قدرة الخلق. لكننا بالرغم من ذلك لا نراها في كلا الفكرين تقوم بخلق الكون دفعة واحدة وبدون مساعدة من الآلهة الآخرين. فكما ذكرنا سابقاً أن الصورة الأسطورية التي أعطاها لنا المفكر العراقي والمصري القديم لعملية الخلق، تشكل الكون تحديداً في هذا السياق، هي في الأساس صورة تشكلت في مخيلته من ملاحظته المتكررة لكيفية تشكل بيئته المحيطة به وتكرار دوراتها

(١) حسام الألوسي، الزمان في الفكر الديني والفلسفي ...، ص ٥٤.

(٢) عبد الباسط سيداً، من الوعي الأسطوري ...، ص ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٣) ينظر: سبتينو موسكاني، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب بكر، مراجعة: محمد القصاص، دار الرقي، بيروت، ١٩٨٦، ص ٨٥.

(٤) هاري ساكز، عظمة بابل ...، ص ٤٦.

الطبيعية، ليقوم بعكسها بأسلوب وفكر أسطوري تضمنته أساطير الخلق في كلا البلدين. تبعاً لذلك كان من الطبيعي أن تتطابق الصورة الأسطورية مع الأصل الطبيعي المأخوذة منه. ولما كانت الصورة الطبيعية لتشكل الكون هي عملية تأثير متبادل بين عوامل طبيعية عدة، مع الأخذ بعين الاعتبار تفاوت هذا التأثير بين عامل وآخر في البيئة نفسها أو مع بيئة البلد الآخر، تمخضت عبر مراحل طويلة ومتسلسلة إلى تشكل طبيعي لبيئة كل بلد. لهذا فقد كانت الصورة الأسطورية لتشكل الكون قد تمت بشكل تدريجي وبمساهمة عدد من الآلهة مع تفرد أحدها كونه يجسد الظاهرة الطبيعية الأكثر تأثيراً في تلك البيئة. فالترايط والعلاقات ما بين الآلهة وما ينتج عنها هي في الأساس والجوهر الترايطات والتأثيرات المتبادلة ما بين أجزاء الطبيعة.

ب- أوجه الاختلاف

بالرغم من اشتراك الفكرين العراقي والمصري القديمين بطريقة التفكير الميثولوجية والأسس المادية في فلسفة الخلق، إلا أن أساطير الخلق في الحضارتين تظهر تباين واضح في صور الخلق ومغزاها وكذلك الجو العام في تلك الأساطير من حيث العنف أو الهدوء^(١). والمتأتي من اختلاف وتباين البيئة الطبيعية في البلدين والذي انعكس على فلسفة الخلق في الحضارتين^(٢).

لاحظنا فيما سبق أن فكر كلا البلدين يؤمن بان الكون المنظم قد استخلص أو خلق من فوضى المياه الأزلية والتي هي بالأساس فيضانات الأنهر فيهما. لكن طبيعة هذه الفوضى المائية، مصدر الخلق، جرى وصفها في صورة تختلف أشد الاختلاف بين الفكرين . ففي مصر كان يمّ الزمان الأول هذا ذكراً- الإله نون. أي أنه كان يعتبر وسيلة الإخصاب ، ولذا فهو عامل دائم في دنيا الخليقة يروونه في المياه الجوفية وفيضان النيل السنوي. أما في أرض الرافدين فكانت قوة الإخصاب المائية تتمثل في الإله انكي -أيأ. غير أنه لا صلة له البتة ببحر الزمان الأول . فهذا البحر في نظر البابليين، أنثى تدعى تيامة، وهي الأم التي ولدت الآلهة والتنانين بخصب زاهر أدى إلى تعريض بقاء الكون إلى الخطر. وقد قتلها مردوخ في إحدى المعارك، وصنع الدنيا من جسمها. وهكذا كان للماء مغزى عميق للمصريين والعراقيين معاً، إذ رأوا فيه مصدر الحياة ومغذيها. ولكن كلا هذين القومين عبر عن هذه الفكر في شكل يخالف فيه الآخر.

(١) هـ . و . ١. فرانكفورت، اعتناق الفكر من الأسطورة ... ، ص ٢٦٥.

(٢) طه باقر، مقدمة في تاريخ ... ، ج ١، ص ٤٩.

إن ما جاد به نهرا دجلة والفرات على أرض العراق من الخصب والرخاء لم يكن أقل مما أسبغته نهر النيل على أرض مصر من هذا القليل. ولكن هذين النهرين ليس لهما ما للنيل من النظام والقوة، لأن فيضانهما لا يأتي بطريقة دورية ثابتة، ولأن قوة جريانها ليست متساوية. فبينما يندفع نهر دجلة في مجراه اندفاعاً شديداً يعوق الملاحة، نرى نهر الفرات ينحدر انحداراً غير محسوس، ثم فيفيض فينشر من حوله بطاحاً ومستنقعات فسيحة تضر بالصحة وتجعل المنطقة التي تعمها غير صالحة للسكن. لذلك كانت أرض العراق القديم في أشد حاجة إلى سواعد الرجال وعملهم المتواصل - بخلاف أرض مصر القديمة- لتنظيم جريان المياه. فلم تستطع الحضارة هناك أن تصل إلى ما وصلت إليه من الازدهار والعظمة إلا بعد أن أفرغ هؤلاء الرجال جهدهم في تقويم وتنظيم هذين النهرين^(١). لهذا كانت رواية الطوفان من الأحداث التي شغلت مكاناً بارزاً في أدب حضارة العراق القديم ومآثرها التاريخية. وبالمقابلة مع هذه الحقيقة لم يصل إلينا من حضارة وادي النيل أية رواية عن الطوفان^(٢).

أوضحت لنا نصوص الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين عن وجود اختلاف في اسم الإله الخالق والآلهة الذين ساعدوه في إتمام عملية الخلق في كلا الفكرين. ففي الفكر العراقي القديم نجد أن عملية الخلق تنسب مرة إلى الإله أنو، ومرة إلى أنو وإنليل وآيا معاً، ومرة ثالثة إلى الإله مردوخ، وحسب نظرية خلق العالم بالنسبة للآشوريين نجد أن الإله آشور يقوم بهذا الدور^(٣). وهذا ما نجده كذلك في الفكر المصري القديم، فالإله الخالق نجده مرة الإله آتوم، ومرة الإله رع، ومرة ثالثة الإله بتاح، وحسب نظرية الخلق الخاصة بمدينة طيبة كان الإله آمون هو المسؤول عن تلك العملية^(٤).

قد تقف العوامل السياسية في الحضارتين العراقية والمصرية وراء تبدل اسم الإله الخالق وتنوع أساطير الخلق. لكن صورة خلق الكون بشكل تدريجي في كلا الفكرين وتسلسل ظهور أجزاء وطبيعة الدور الذي أسند لكل إله في تلك العملية كان لبيئة القطرين الطبيعية الأثر الأكبر فيها. ففي ضوء اشتراك الفكرين بقاعدة تأثر الصورة الأسطورية بالصورة المادية لبيئة البلدين، كان من الطبيعي أن يأخذ تشكل الكون شكلاً تدريجياً وصولاً لمرحلة الاكتمال في الفكرين العراقي والمصري القديم، كذلك فإن وجود اختلاف بينهما من حيث تسلسل ظهور أجزاء الكون ومدى تأثير كل ظاهره في عملية الخلق كان طبيعياً

(١) غوستاف لوبون، حضارة بابل وآشور ... ، ص ٩.

(٢) طه باقر، مقدمة في أدب ... ، ص ٢١٥.

(٣) جان بوتير، الديانة عند البابليين ... ، ص ١٠٣.

(٤) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ... ، ص ٩٤.

هو الآخر ما دامت تلك القاعدة الفكرية تتأثر بالبيئة الطبيعية، لاختلاف هذه الاخيرة بين البلدين. فبعد التشكل الكوني الأول والذي يمثل السماء والأرض في كلا الفكرين، يأتي عنصر الهواء (أنليل ، مردوخ) ليلعب الدور الأكبر في عملية الخلق في الفكر العراقي القديم، كونه العنصر الأكثر فاعلية في بيئة العراق وتأثيراً على شعبه . أما في الفكر المصري القديم فأن الإله الخالق الأولي الذي تعزو إليه المصادر المصرية الدور الأعظم في عملية الخلق، فإنه، بالعموم وعلى اختلاف أشكاله وتسمياته، كان يمثل الشمس مصدر الضوء والحرارة . فقد كانت الشمس أهم مظاهر الطبيعة المصرية وأكثرها تأثيراً على حياة الإنسان فيها.

أن عملية الخلق الكون بحد ذاتها كفكرة وغاية وتخطيط تتباين بشكل كبير بين فكري الحضارتين. فالمفكر المصري القديم قدم لنا تلك العملية كفعل رائع فذ قام به خالق قادر على كل شيء مسخراً لمشيئته عناصر الطبيعة. والمجتمع يكون جزءاً لا يتغير من النظام الأبدي الذي خلقه. بينما في المقابل قدم لنا المفكر العراقي القديم عملية الخلق تلك كفعل اضطراري قام به الخالق في أرض الرافدين، حيث أن هذا الإله الخالق اختاره مجمع الآلهة مضطراً إزاء قوى الفوضى التي تهدد الوجود . وحالما ينتصر بطلهم هذا (انليل أو مردوخ) على هؤلاء الأخصام، ينتقل إلى خلق الكون. فكأن الخلق قد جرى كفكرة طارئة ، وصنع الإنسان خصيصاً ليكون خادماً للآلهة. وليس في المحيط البشري أي دوام أبدي ، فالآلهة تجتمع يوم رأس السنة (لتشرع بمقادير) للبشر وفقاً لهواها.

إن هذه الفروق التي عدناها لا تمثل مجرد تنويع لا معنى له في الصور أنها تفصح عن تباين عميق بين نظرة كل من الإنسان العراقي والمصري القديمين إلى طبيعة الكون الذي يعيشان فيه. ففي النصوص العراقية كلها نسمع رنة قلق يخيّل إلينا أنها تعبر عن خوف دفين من أن القوى الهوجاء التي لا تتبع إلا أهواءها قد تنزل الكوارث بالمجتمع الإنساني. إذ كان الإنسان العراقي القديم يعيش في حالة من القلق المستمر من طبيعته العنيفة ، فعلى الرغم من أن الآلهة قد أقامت وخلقت الكون، ودفعت عجلة الحضارة ، بعد أن قضت على قوى العماء البدئية، فأحلت النظام والترتيب محل الفوضى القديمة، وبدأ العالم عهداً جديداً، واضح المعنى والهدف والغاية، إلا أن قوى العماء تلك لم تعلن استسلامها الكامل. وها هي قوى جديدة تنتسب لها، تتدفع بين الوقت والآخر، للهدم والخراب والقضاء على منجزات الإنسانية. فالطبيعة في العراق القديم مستمرة بالعنف والتهديد، كالفيضانات المدمرة بالربيع والحرارة الشديدة صيفاً والرياح الرملية وملوحة التربة وتوحد طرقه نتيجة المطر شتاءً . هذا الشعور بعدم الطمأنينة والقلق الإنساني اللتين نتلمس آثارهما في الفكر العراقي القديم ليس لهما من أثر في الفكر المصري القديم،

فالمصريين القدماء كانوا يذهبون إلى أن نظاماً كونياً قد حكم هذا الكون وحكمه إلى الابد وذلك منذ ميلاده. إن هذا النظام قد يتعرض للاضطراب ، ذلك لأن قوى الفوضى كانت قد ألجمت ولكنها لم تُعدم نهائياً، وبكل الأحوال فإن الثورة ضد النظام القائم سوف لن تمثل أكثر من تشنج سطحي عابر. لن يؤثر مهما كانت قوته على الكون المصري. هذا الشعور القوي بالطمأنينة والرضا لدى الإنسان المصري القديم أمدت به بيئته الطبيعية ذات القوى والدورات الطبيعية المنتظمة مثل الدورة اليومية للشمس والدورة السنوية لفيضان النيل وموعد هبوب رياح الخماسين والمتسقة في مجموعها مع حياة المصري القديم .

ثانياً: مقارنة حول أثر البيئة في تشكل صور خلق الآلهة في الفكرين العراقي والمصري القديمين

أ- أوجه الشبه

كان اللاهوت في الفكرين العراقي والمصري القديمين حلولي، أي أن الآلهة حالة في الطبيعة، إذ لم يفهمها الإنسان القديم إلا على هذا النحو^(١). وقد ترتب على هذا الاعتقاد التشابه في بعض الأفكار الأساسية حول أصل الآلهة وكيفية ظهورها في كلا الفكرين :

١- الإيمان بوجود مادة إلهية أزلية سابقة لوجود الآلهة.

٢- إن الآلهة خُلِقَتْ أو ظهرت إلى الوجود من تلك المادة الأزلية بطرق عدة.

٣- إن الآلهة ككيانات متميزة لم تكن أزلية الوجود.

٤- الآلهة الكبار ومن ضمنها الآلهة الخالقة ظهرت بطريقة التوالد أما الخلق بالإمر الإلهي فقد اقتصر على خلق الآلهة الصغار.

٤- سيطرة الشكل الإنساني بفعل مبدأ التشبيه جعل من طرق خلق الآلهة تبدو فسيولوجية شبيهة بطرق توالد الكائنات الحية.

٥- خلق الآلهة كان بشكل متسلسل وليس لمرة واحدة حيث ظهرت أجيال متعاقبة من الآلهة.

(١) هـ. و هـ.ا. فرانكفورت، اعتناق الفكر من الأسطورة ... ، ص ٢٦٣.

لقد استندت فلسفة الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين على قاعدة أساسية مفادها: أن الآلهة هي مصدر الخلق. لكن هذه الفلسفة كانت جزءاً من فلسفة وجود مادية عينية أتبعها الإنسان في كلا البلدين لفهم طبيعة الوجود وما فيه. فذلك الإنسان كان ينطلق من المعلوم لديه، أي ما كان يلاحظه من حوله في بيئته الطبيعية ، لفهم وإدراك طبيعة المجهول لديه، أي ما تعذر ملاحظته عينياً. وهي ذات القاعدة التي أتبعها في محاولته لتصور عالم الآلهة وكيفية ظهورها. ومن هذا وبقدر ما كانت الآلهة تمثل تجسيد لأجزاء الكون فأنها هي الأخرى في نظر الإنسان العراقي والمصري القديمين خُلِقَتْ أو ظهرت إلى الوجود في الوقت الذي تشكلت فيه أجزاء الكون المجسدة لها. وهذا الأمر ينطبق حتى على الآلهة الخالقة ذاتها.

فرضت تلك الفلسفة على المفكر العراقي والمصري القديم أن يعتمد فهمه لعملية خلق الكون قاعدة لفهم عملية خلق الآلهة، فلما كان خلق الكون في كلا الفكرين ليس سوى عملية استخلاص للكون المنظم من حالة الفوضى السابقة للوجود، كان خلق الآلهة بالتالي ليس سوى عملية استخلاص لكيانات إلهية متميزة ومنظمة من فوضى مادة إلهية سابقة للوجود. أي أن الآلهة ذات الكيانات والشخصيات المعروفة في عالم الآلهة والمسؤولة عن وظائف محددة في هذا الكون المنظم لم تكن أزلية الوجود، بل خُلِقَتْ أو ظهرت من كيانات إلهية بدائية لم تكن ذات شخصيات متميزة أو وظائف محددة في عالم الآلهة المنظم أو الكون المخلوق، فهي أقرب ما تكون إلى مادة إلهية أولية منها إلى أن تكون كيانات محددة. حالها حال الكون الذي كان متلاشياً في فوضى المياه الأزلية قبل يخرج منها بشكل منظم واضح المعالم.

تبعاً لذلك كانت صور خلق الآلهة في الفكرين العراقي والمصري القديمين مشابه أو قد تكون مطابقة لصور خلق أجزاء الكون ومراحل تشكله فيهما. كما أدت إلى التشابه بين الفكرين في بعض الأفكار حول أصل الآلهة وصور خلقها نتيجة، كما أشرنا فيما سبق، للتشابه بينهما في الأفكار الأولى لخلق الكون.

انطلاقاً من أيمان المفكر العراقي والمصري القديم بمادية الخلق وبأنها عملية لا تتم من العدم. أعتقد وهو يطبق هذه القاعدة الفكرية على تأملاته حول أصل الآلهة وكيفية خلقها بأن المياه الأزلية، والتي هي في الأساس تمثل مياه فيضانات الأنهر في العراق ومصر، بأنها مادة وإلهاً في الوقت ذاته. فهي تمثل مرحلة الكون قبل تشكله وتعرف الإنسان عليه، وبالتالي فإن الآلهة التي تجسد أجزاء ذلك الكون لم تكن هي الأخرى متميزة، فلم يكن لأي منها وجود خاص أو فعل خاص بها .

إن تأثير البيئة على الإنسان العراقي والمصري القديم قد طغى حتى على التجربة الدينية لديه. فرغم الأجلال والقدسية التي أفضاها على الألوهة والقوة المطلقة التي أعطاها لها، إلا أن الفكر المادي في كلا البلدين قد جعل من مسألة أزلية الآلهة مثار شك. فالفكر فيهما يزخر بوصف الآلهة، لاسيما الآلهة الخالقة الكبار، بالأزلية. لكننا، وكما مر بنا في السابق، نجد أن تلك الآلهة لم تكن شخصيات وكيانات أزلية الوجود، بل أنها كانت خاضعة لعملية التشكل أو الخلق حالها حال أجزاء الكون المادية التي تمثلها. ففكرة القوة المبدعة المنفصلة عن الكون المادي والفاعلة فيه عن بعد، لم تكن موجودة في ذهنية الشرقي القديم، ومن ضمنهم المفكر العراقي والمصري القديم. فالإله لم ينسلخ عن الجزء المادي الذي يجسده في الكون. وحتى في الطرق الروحية التي تضمنها الفكرين العراقي والمصري القديم للخلق نجد الأثر المادي مستمراً.

كان من الطبيعي أن يطغى الطابع الفسيولوجي على صور خلق الآلهة في الفكرين العراقي والمصريين القديمين، فكلا الفكرين أعطى الشكل الإنساني للآلهة وفقاً لمبدأ التشبيه. لكن هذا الطابع البشري لصور خلق الآلهة نجده مرتكزاً على استنتاجات مادية توصل إليها المفكر في كلا البلدين. فطريقة توالد الآلهة تعكس التفاعلات والتأثيرات المتبادلة بين الظواهر الطبيعية التي تجسدها تلك الآلهة وما ينتج عنها.

لهذا فإن صور الولادات الإلهية في الفكرين العراقي والمصري القديمين، لم تكن في الأساس سوى ملاحظات وتأملات الإنسان العراقي والمصري القديمين حول كيفية تشكل الظواهر والمظاهر التي تجسدها تلك الآلهة في بيئتي بلديهما. فولادة الآلهة الجديدة من الآلهة الأولية القديمة، المتمثلة بالآلهة الأم (نمو) وفقاً للمنظور السومري أو الإله (ابسو) والآلهة (تيامة) وفقاً للمنظور البابلي في الفكر العراقي القديم والإله نون في الفكر المصري القديم، كان أمراً يتطابق مع تأملات الإنسان العراقي والمصري القديم لبيئته المحيطة بالرغم من أسلوبه الأسطوري. فعند استنكارنا بأن الآلهة الجديدة لم تكن سوى أجزاء الكون المنظم في نظر ذلك الإنسان، كان من الطبيعي وفقاً لتفكيره هذا بأن هذه الآلهة الجديدة تولد من رحم الآلهة القديمة كونها تمثل بالأساس فوضى المياه الأزلية التي خرج منها الكون المنظم، ولما كان تشكل هذا الكون قد مرّ بمراحل متسلسلة وصولاً لمرحلة الاكتمال، فأن الآلهة الجديدة هي الأخرى قد ظهرت أو خلقت على شكل أجيال متعاقبة من الآلهة، بحيث يمثل كل جيل إلهي مرحلة تشكل كوني. فظهور النل الأزلي من المياه الأزلية بوصفه أول تشكل كوني يمثل الأرض والسماء متحدين يمثل في سلسلة الولادات الإلهية ولادة إلهي الأرض والسماء في كلا الفكرين. ومن هذين الزوجين الإلهيين تتوالد أجيال إلهية

متعاقبة تمثل أجزاء الكون الأساسية لحين اكتمال تشكل الكون المنظم بالتزامن من اكتمال عالم الآلهة الجديدة ذات الوظائف المحددة والفعالة في ذلك الكون.

يُطْلَقُ على توالد الآلهة في الفكرين العراقي والمصري القديمين بأنه عملية خلق الآلهة، لكن عملية خلق الآلهة فعلياً وليس مجازياً نجدها قد اقتصرت في كلا الفكرين على الآلهة الثانوية بوسائل عدة وبأمر صادر عن الآلهة الخالقة الكبرى. وتفسيرنا لذلك أن الآلهة الصغرى لم تكن تمثل، بصورة عامة، أجزاء رئيسية من الكون ولا حتى مظاهر وظواهر طبيعية لها تأثير كبير على حياة الإنسان العراقي والمصري القديم، بل نجدها تتكفل بوظائف تنظيمية وإدارية ثانوية في عالم الآلهة شبيه بتلك الوظائف التي يقوم بها الإنسان في العالم البشري. وبالتالي فإن الآلهة الكبرى خلقتها للعمل مثلما فعلت مع الإنسان.

الأمر الآخر الذي يشترك فيه الفكرين في موضوع خلق الآلهة أن عملية تزواج الآلهة والولادات الناتجة عنها تتناسب مع العلاقات للظواهر الطبيعية التي تمثلها تلك الآلهة وما ينتج عن التفاعل أو التأثير المتبادل بينها في البيئة الطبيعية لكل من العراق ومصر. مثل ثنائية (آن) مع (كي) والتي تمثل ملاحظات العراقي القديم عن دور مطر السماء أو مني (آن) وفعله في الأم الأرض (كي) لتنتج الحياة^(١). أو ثنائية (شو) مع (تقنوت) والتي تمثل ملاحظات المصري القديم لتأثير الهواء (شو) المحمل بأشعة الشمس وحرارتها على أرض مصر المشبعة بالرطوبة (تقنوت)^(٢).

ب- أوجه الاختلاف

إن التشابه الذي لاحظناه في الأفكار الأساسية حول أصل الآلهة وطريقة ظهورها للوجود في الفكرين العراقي والمصري القديمين، سرعان ما يتباين عند الدخول في تفاصيل صور خلق الآلهة بينهما. ويبدأ الاختلاف بين الفكرين في المصير المقرر لآلهة المياه الأزلية القديمة بعد ولادتها للآلهة الجديدة، فبالرغم من اتفاق الفكرين على حتمية أبعاد هذه الآلهة عن العالم المنظم الذي أستخلص منها، كونها تمثل الفوضى المائية التي سبقت تكوينه. إلا أنهما يختلفان في طريقة الإبعاد واستمرارية تلك الآلهة في الوجود من عدمه. فأساطير الخلق في الفكر العراقي القديم عندما تبدأ بظهور الآلهة الممثلة لأجزاء الكون نجدها تخلو من ذكر المياه الأزلية أو الآلهة الممثلة لها. وهو الأمر الذي يفسر بوجود اتفاق بين نصوص

(١) سيد القمني، قصة الخلق ... ، ص ٢٠.

(٢) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ص ١٢٤-١٢٥.

وأساطير الخلق العراقية القديمة، السومرية خاصة، على أن تلك الآلهة أو المياه الأزلية قد استفذت في أول مراحل التكوين^(١). أي بعد ولادتها للآلهة الجديدة. بل أن الرواية البابلية للخلق تجعل من عملية قتل الآلهة القديمة ضرورة حتمية لتشكيل الكون وبقاء الآلهة الجديدة على قيد الحياة.

لقد ذكرنا فيما سبق أن المفكر العراقي القديم عدّ المادة الإلهية الأولية والآلهة القديمة التي تمثلها أزلية الوجود، لكنه من جانب آخر أقرّ بأن تلك المادة وآلهتها ليسا أزليا بقاء. إذ نراه قد ربط عملية خلق الآلهة الجديدة وتشكيل الكون المنظم الذي تمثله بضرورة فناء الآلهة القديمة والفوضى الكونية التي تمثلها سواء باستنفاد مادتها أو بالقضاء عليها. أن هذا التناقض الوجودي هو تأثير فكري فرضته البيئة الطبيعية على المفكر العراقي القديم، فتلك المادة الإلهية الأولية والآلهة القديمة التي تمثلها لم يكونا في نظر العراقي القديم سوى تجسيد لفوضى أزلية من المياه التي وجدها عند مقدمه إلى القسم الجنوبي من العراق، أي أنها مثلت مرحلة فوضى البيئة الطبيعية التي يجب أن تنتهي بفضل جهود الإنسان العراقي القديم الرامية إلى صنع الحضارة المنظمة في ربوع البلد. فضلاً عن أنها تمثل مياه الفيضانات المدمرة والتي يجب عليه التصدي لها ولو فكرياً من أجل المحافظة على حضارته تلك.

أما في الفكر المصري القديم نجد خلاف تلك الصورة، إذ بالرغم من الاتفاق العام في أساطير ونصوص الخلق المصرية على أبعاد فوضى المادة الإلهية القديمة أزلية الوجود عن الكون المنظم وآلهته الجديدة، إلا أن تلك الأساطير والنصوص تستمر بالإشارة إلى أسم الإله القديم الذي يمثلها وهو الإله نون. وهذا يعني أن المفكر المصري القديم أعطى لنون صفة استمرارية الوجود في مجتمع الآلهة الجديدة والكون المخلوق بالرغم من طبيعته الفوضوية. ومرة أخرى يقف التأثير البيئي وراء هذا التناقض التنظيمي للمفكر المصري القديم. فالإله نون أمتلك القدرة على ولادة الجيل الجديد من الآلهة وكان المصدر الذي تشكل منه الكون لأنه يمثل المادة الإلهية القديمة والأزلية، وهذه المادة أعطيت هذه الطاقة الكامنة للخلق لأنها تمثل مياه الفيضان السنوي للنيل التي تحمل الغرين المخصب لأرض مصر. تلك المياه التي لولا استمرار مقدمها في الفيضان السنوي المنتظم للنيل لتحولت مصر إلى أراضي صحراوية وانعدمت كل أشكال الحياة عليها. لهذا نجد نون بعد أن انحسر أو طرد إلى أطراف الكون المنظم أصبح يمثل المحيط العظيم الذي يحيط بالعالم، إذ كان من الضروري استمرار وجود نون في الكون المنظم بالرغم من طبيعته الفوضوية، لأن تلك الفوضى ببساطة المصدر الذي لا ينضب لتجدد الحياة في الفكر المصري القديم.

(١) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٦٨.

ذكرنا سابقاً أن عملية خلق الآلهة عبر سلسلة التزاوج والتوالد فيما بينها كان يتوافق مع ظهور الأجزاء الكونية المجسدة لها في الفكرين العراقي والمصري القديمين. لكن الأجيال الإلهية المتولدة عن تلك الزيجات والأجزاء الكونية التي تمثلها لم تكن بتراتبية واحدة بين الفكرين، لا بل أنها قد اختلفت في كل فكر على حدة.

كانت فكرة توالد الآلهة من المادة الإلهية الأزلية هي القاعدة الأساس التي أعتمدها الفكر العراقي القديم في تفسيره لظهور أجيال الآلهة المتعاقبة. لكن الرؤية السومرية والبابلية تختلفان في تفاصيل تلك القاعدة. فالعقيدة السومرية اتخذت من فكرة التوالد الذاتي منطلقاً لعملية تكاثر الآلهة، حيث خرجت الآلهة جميعاً من رحم الإلهة نمو الأم الأولية^(١). بينما تذهب العقيدة البابلية إلى اعتماد فكرة التوالد الجنسي الطبيعي كتفسير لتكاثر الآلهة، حيث توالدت الأزواج الإلهية المتعاقبة من رحم زوجين إلهيين أوليين هما آبسو المياه العذبة وتيامة المياه المالحة^(٢). كذلك اختلفت العقيدتان في تسلسل ظهور الأزواج الإلهية والأجزاء الكونية التي تمثلها. فبينما كان أول الأزواج الإلهية في الرؤية السومرية هو (آن-كي) الذي يمثل إله السماء وإله الأرض متحدين وبوصفه أول تشكل كوني ظهر من المياه الأزلية، نجد في المقابل أن الرؤية البابلية أشارت إلى ظهور سلسلة أزواج إلهية بدائية سبقت ظهور الزوج الإلهي الذي يمثل السماء والأرض. حيث ظهر أولاً الزوج الإلهي لخمو ولخامو اللذان يمثلان الطمي والغرين ثم الزوج الإلهي انشار وكيشار اللذان يمثلان الأفقان التوأمين للسماء والأرض^(٣). ومن هذين الأخيرين ولد آنو إله السماء الذي ولد إله الأرض، أو كما أوردتها قائمة (آن-انوم) البابلية في صورته أكثر تكاملاً فقد ولد إله السماء وإله الأرض معاً.

أن الاختلاف بين الرؤيتين السومرية والبابلية يقف خلفها اختلاف الصورة الطبيعية التي عكسها المفكر السومري والبابلي في أساطيره. فبينما أتخذ السومري من بيئة الأهوار والمستنقعات التي وجدها في جنوب العراق وكيف عمل على تجفيفها بغية بناء حضارته في تلك البقعة صورة ذهنية عكسها في معتقداته وآراءه حول كيفية تشكل أولى أجزاء الكون والآلهة التي تجسدها، أتخذ المفكر البابلي من جانيه صورة فيضانات الأنهر والطيني والغرين الذي يأتي معها مغطياً سطح الأرض، صورة ذهنية أسقطها على بدء الزمان عندما تشكل الكون أول مرة ومؤمناً بأنها ذات الصورة لكيفية خلق الآلهة.

(١) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ... ، ص ٢٩٤.

(٢) Ring , George C. , Gods of the Gentiles , (Milwaukee , 1938) , P. 132

(٣) هاري ساكرز، عظمة بابل ... ، ص ٣٥٣.

ذلك الاختلاف والتباين في الفكر العراقي القديم نجده كذلك في الفكر المصري القديم. إذ على الرغم من أن أساطير خلق الآلهة في هذا الأخير نجدها في العموم تحاول إعطاء تفسير لكيفية ولادة إله الشمس الخالق، الذي تنسب إليه مسؤولية خلق الكون والآلهة وكل شيء، من وسط الهبولية المائية^(١)، إلا أن هذه البداية الإلهية لم تكن وفق تسلسل واحد ولا في صورة خلق واحدة^(٢).

تعطينا المدارس اللاهوتية المختلفة في مصر القديمة صور عدة لظهور إله الشمس الخالق. فوفقاً لتعاليم مدينة منف فإن الإله بتاح صاغ بيضة خرج منها إله الشمس الخالق، فيما أعتقد كهنة هليوبوليس بأن إله الشمس ظهر فوق حجر بن- في بهو طائر الفينوكس في هليوبوليس العتيق هرمي الشكل، ولاهوت آخر يرى أن زهرة لوتس نمت من الماء وفي داخلها كان إله الشمس الفتى^(٣). بينما تعاليم مدينة هرموبوليس تخبرنا بأن أربعة أزواج من الآلهة البدائية تعاونوا على خلق إله الشمس^(٤).

إن الاختلاف والتنوع في صور ظهور الإله الخالق لا تؤدي إلى وجود تناقض في الفكر المصري القديم، لأنها تعبر عن تنوع الصور الواقعية مما كان يلاحظه المصري القديم في بيئته الطبيعية والتي عكسها في صورة أسطورية في معتقداته وآراءه حول نشأت الكون والآلهة الممثلة له. فالشمس هي المظهر الطبيعي الأبرز الذي كان ينعكس على سطح مياه الفيضان التي غطت كل شيء، وهو يرى أشعة الشمس وهي تنعكس على زهرة طافيه أو عش طائر أو على أول أجزاء اليابسة التي تظهر في وسط تلك الهبولية المائية، أو على أولى الكائنات الحية من ضفادع وأفاعي وهي تظهر في الوحل البدائي بعد انحسار المياه.

مثلاً وقفت البيئة الطبيعية وراء اختلاف صور خلق الإلهة في كل من الفكر العراقي والمصري القديم فأنها كذلك كانت السبب وراء الاختلاف بتسلسل ظهور الأجيال الإلهية.

(١) راندل كلارك ، الرمز والأسطورة ...، ص ص ٣٢-٣٣.

(٢) أريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية ...، ص ١٥٢.

(٣) جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين ...، ص ٣٩.

(٤) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ١٧٨.

ثالثاً: مقارنة حول أثر البيئة في تشكل صور خلق الإنسان في الفكرين العراقي والمصري القديمين

أ- أوجه الشبه

مشكلة الوجود كانت ولا زالت معضلة فكرية عاصرت الإنسان بإلحاح منذ أقدم العصور، ولم تبطل حيويتها في مطالبة الفكر الإنساني بجواب شافٍ عن كيفية خلق الإنسان والغاية من ورائها^(١). ومع أن الفكر الوجودي يمتاز بكونه يبدأ من الإنسان لا من الطبيعة، لأنه فكر مختص بالأساس بالذات الإنسانية أكثر منه بالموضوع، إلا أن الأفكار الوجودية، لاسيما تلك التي تعود لشعوب الحضارات القديمة نجدها قد ارتبطت بواقع وطبيعة البيئة التي عاش فيها الإنسان. وهذا ما تبينه الأساطير التي تبحث أصل الإنسان^(٢). تحت وطأة هذا الارتباط فقد نشأت في حضارتي العراق ومصر القديمتين فلسفة طبيعية (كونية) وصفت بأنها فلسفة الوجود لشعوبها^(٣). ورغم الفروق في الفلسفة الوجودية بين الحضارتين، إلا أن تلك الفلسفة اتفقت في المعطيات الأساسية من أن الفرد جزء من المجتمع، وأن المجتمع مغروس في الطبيعة، وأن الطبيعة هي تجلي الألوهة^(٤)، خالقة كل شيء ومن بينها الإنسان. هذا التشابه في أساسيات الفلسفة الوجودية نتج عنه بعض التشابه بين الفكرين في موضوع خلق الإنسان:

١- الإنسان جزء من الكون الذي خلقته الآلهة.

٢- إن صورة الخلق المادي الذي استخدمته الآلهة في خلقها لأجزاء الكون كان ذات الأسلوب الذي أستخدم في خلق الإنسان.

٣- يتوجب على الإنسان العمل على إرضاء تلك الآلهة والابتعاد عن كل ما يغضبها. لأنها الغاية التي خلُق من أجلها.

كان الاعتقاد الجازم بأن الألوهة حائلة في الطبيعة، وأن الطبيعة مرتبطة بالمجتمع ارتباطاً صميماً، الحافز الأول لأفعال ومشاعر الإنسان العراقي والمصري القديم وأفكاره الوجودية^(٥). فقد كانت المخيلة الأسطورية التي طبقها المفكر العراقي والمصري القديم لإدراك عالم الآلهة الفائق للطبيعة، هي

(١) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين ... ، ص ٥.

(٢) حسين سيد نور، الفكر الوجودي ... ، ص ٣٠٨.

(٣) ثوركليد جاكيسون، أرض الرافدين ... ، ص ١٧٧.

(٤) هـ. و. هـ. ا. فرانكفورت، اعتناق الفكر من الأسطورة ... ، ص ٢٦٧.

(٥) المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٣-٢٦٤.

ذات الطريقة التي استخدموها في بحثهم الدؤوب عن معنى الحياة البشرية أو سبب وجود العالم ووجودهم ، وخلاصة الفلسفة الوجودية التي توصل إليها هؤلاء المفكرين: إن الآلهة علة الوجود ، فهم خالقي الكون وأسياده، يعرفونه ويفهمون سيره، وأن لديهم وحدهم التصميم الذي يهيمن عليه، وأنهم وحدهم يستطيعون الإجابة على الأسئلة العديدة والمستعصية التي يطرحها علينا الفكر، وأن تلك الآلهة هي التي تمنح الإنسان مساعدتها أو تعاديه وفقاً لتصرفاته واستحقاقه.

كذلك كان الترابط بين الإنسان العراقي والمصري القديم والطبيعة المؤلهة وراء الصور المادية التي أعتقد بأن الآلهة خلقتها بواسطتها. إذ من المعروف عن إنسان تلك العصور أنه كان شديد التأثر، بحكم أسوب حياته البدائية، بالظروف الطبيعية خاصة تلك التي كان لها مساس مباشر بحياته اليومية^(١). فصورة خلق الإنسان من الطين المشتركة بين الفكرين يمكن تفسيرها إذا علمنا أهمية تلك المادة لحياة الشعبين وصورتها في الطبيعة. فهي المادة التي تكسو أرض البلدين بعد تعرضها للفيضانات، ومما لاحظته الإنسان العراقي والمصري القديم ما ينشأ فيها من حياة (نبات، وحيوانات بدائية) ترسخت لديه قناعة بأنها مصدر ومنشأ الحياة عموماً بما فيها البشرية. لاسيما إذا ما علمنا أن الطين الذي استخدم في خلق البشر لم يكن طيناً عادياً، بل هو الصلصال المأخوذ من غرين أنهار البلدين لما يمتاز به من خصوبة عالية تُعيد الحياة إلى أرض البلدين.

ب- أوجه الاختلاف

يبدأ الاختلاف بين الفكرين العراقي والمصري القديم حول موضوع صور خلق الإنسان والغاية من ورائها من ذات القاعدة الأساسية التي ارتكزت عليها فلسفة الوجود في كلا الفكرين والمتمثلة بتأليه الطبيعة^(٢). فمع أن الظواهر الطبيعية نفسها غالباً قد شُخصت وعدت آلهة في كلا القطرين، كما أن الصور المادية في الخلق كانت هي ذاتها التي استخدمت في الخلق، فضلاً عن الغاية التي قدمها الفكرين لخلق الإنسان كانت واحدة والمتمثلة بعمل الإنسان لصالح الآلهة^(٣). إلا أننا حالما نقارن بين أساطير خلق الإنسان في كلا الحضارتين نجد ضمن نطاق تلك الأفكار المشتركة تباين واختلاف واضح، بسبب تباين طبيعة العلاقة بين الإنسان والطبيعة المؤلهة في كلا البلدين، فضلاً عن تباين اقتناع الإنسان بالمصير الوجودي الذي أقرته عليه تلك الآلهة .

(١) فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز ... ، ص ص ١٣١-١٣٢

(٢) عبد الرضا الطعان ، الفكر السياسي في وادي الرافدين ووادي النيل ... ، ص ص ٣١٧-٣١٨.

(٣) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.199.

لقد أسقط الإنسان العراقي القديم تجربته المباشرة مع بيئته الطبيعية الصعبة والعنيفة على علاقته مع مجتمع الآلهة التي تمثل مظاهر وظواهر تلك البيئة^(١). فمثلما لم يجد العراقي القديم أي سبب يحمله على الثقة ببيئته الطبيعية التي تمتاز بعدم الثبات والتغيرات العنيفة المستديمة والفجائية أحياناً، من فيضانات مدمرة وخطيرة والحرارة الشديدة والرياح العاصفة الرملية إلى جانب مشكلة ملوحة التربة (الشورة). وكان عليه العمل المستمر والشاق تحت زعامة المعبد والقصر لمواجهة تلك الظروف، فإنه كذلك لم يضع ثقته في الآلهة التي جسدت تلك الظواهر الطبيعية وهو يراها تتمتع بجوهر عنيف ومتقلب وتدير الكون وفق أهوائها المتقلبة وقد قررت أن غاية خلق الإنسان هو العمل لصالحها لا غير. في المقابل وعلى الرغم من أن الفكر المصري القديم يشترك مع الفكر العراقي القديم في الغاية من خلق الإنسان وهي العمل والعبادة لصالح الآلهة خالقة الكون، لكن الإنسان المصري القديم الذي أمدته بيئته الطبيعية بشعور قوي بالطمأنينة والرضى وعلمته النظام وأشعرته بالسعادة، فمع جهود المصري القديم لتسخير بيئته إلا أنه كان يعرف بالضبط مقدرات طبيعته فيعلم متى يفيض النيل ومتى تهب ريح الخماسين القوية فاننظمت لذلك أوقات حصاده وزرعه^(٢). جعلته يعتقد أن الآلهة قد سخرت كل عناصر الطبيعة له ولاحتياجاته، وأن عمل الخلق هو تهيئة سبل الحياة للبشر كي تُيسر حياتهم على الأرض. لقد منح الخالق العناصر الضرورية للحياة وضمن استمراريتها وانتظامها وعلى البشر العمل على استخدام تلك العناصر لصالح استمرارية الوجود^(٣).

إن العراقي القديم ومن خلال النظرة الفلسفية الخاصة به والتي كان ينظر عبّرها إلى الوجود والكون وموقعه منهما وعلاقته بكل ما فيهما من مظاهر ومن كائنات عضوية بما في ذلك الآلهة، كان ينظر إلى نفسه على أنه جزء من ديكور الطبيعة الضخم الذي صنعه الآلهة. ولم يكن يتصور أنه جزء متميز، والمكانة التي كان الإنسان يحتلها في الكون المليء بالأسرار لم تكن تتميز بشيء عن المكانة التي تحتلها الظواهر الطبيعية الأخرى من حيوان ونبات وصخور ورياح وأمطار الخ... فمثلما كان هو يمثل حقيقة حياة قائمة كذلك كانت تلك وغيرها تمثل حقائق أوجدتها الآلهة^(٤). لهذا نجد الأساطير العراقية التي تناولت موضوع خلق الإنسان على كثرتها وتنوعها تتفق على أن الغاية من خلق الإنسان هي خدمة

(١) سعدون عبد الهادي برغش الأمير، ملامح الفكر الاجتماعي في أدب العراق القديم، مجلة واسط للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ١٧، ع ٤٧، جامعة واسط، ٢٠٢١، ص ٣٧٢.

(٢) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية ... ، ص ١١٩.

(٣) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ٨٥.

(٤) بديعة امين، في المعنى والرؤيا ... ، ص ١٧٤.

الإلهة والعمل الدؤوب والمستمر على تنظيم ممتلكاتها الأرضية^(١). في المقابل فأن المصري القديم أعتقد أن آلهته خلقت هذا الكون وسخرت كل موارده من أجله، فقد أعطت الفلسفة الوجودية للإنسان المصري القديم مكانة مهمة في الكون، حتى أن المفكر المصري القديم، في بعض النصوص، لم يفصل السلالة البشرية عن السلالة الإلهية جاعلاً من الأولى سليفة ووارثة للثانية في الأرض^(٢). حيث تشير بعض النصوص إلى أن السلالة الأخيرة من الآلهة (اوزيريس، ايزيس، ست، نفتيس) قد أنجبوا السلالات البشرية أو أنهم انفسهم كانوا يمثلون السلالة البشرية الأولى^(٣). وربما كان هذا السبب وراء ندرة الأساطير والنصوص المصرية التي تناولت موضوع خلق الإنسان.

أن الاختلاف والتمايز فيما بين الحضارات من حيث الطابع المميز لفكر كل حضارة يُفسر عادة على أنه نابع من الاختلاف في الاستجابات والتكيفات لمجتمعات تلك الحضارات إلى بيئات مختلفة. فكيفية التفاعل وأسلوب التحدي وطرق تسخير الطبيعة لخدمة الإنسان هي التي تكسب الحضارة طابعها الخاص. وتأتي فلسفة الخلق الخاصة بكل شعب من الشعوب في المكانة الأولى من حيث الأهمية والدلالة لتعكس الطابع المميز لفكر تلك الشعوب وحضارتها.

كانت استجابة المجتمع العراقي القديم للتحدي الذي فرضته عليه بيئته الصعبة والفوضى الكبيرة والمتكررة الذي تسببه لمدينته وحضارته الناشئة، مع التذكير بأنه في هذه المرحلة المبكرة من التطور الإنساني لم تكن الأفكار الخاصة بالطبيعة والقوانين قد ظهرت، الأيمان بمفاهيم دراماتيكية مفادها أن في كل مكان صراعاً ما بين الآلهة والشياطين، ما بين الكون والفوضى، وقبل ذلك كله ما بين الإنسان وبيئته. إذ لم يكن بإمكان المجتمع الإنساني أن ينشأ بنفسه عن هذا الصراع أو أن يبقى سلبياً إزاءه، طالما أنه كان يمس المسيرة العامة لحياته الخاصة، أنه على العكس من ذلك كان يساهم، بشكل ما أو آخر في هذا الصراع، سواء على المستوى الروحي الميتافيزيقي وذلك عبر الأعياد الدينية، إذ أن معنى هذه الأعياد يتجاوز إلى حد بعيد، بالنسبة للعراقيين القدماء، ما نتصوره نحن الآن. فمع القيام بمتطلبات هذه الأعياد كان المجتمع الإنساني بكليته يساهم في هذا التغيير الذي يطرأ على الكون. وكذلك على المستوى العملي الواقعي بالحركة والعمل المستمر وبذل أقصى الجهود للسيطرة على فوضى البيئة الطبيعية.

(١) هاري ساكرز، عظمة بابل ... ، ص ٣٨٠.

(٢) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ٨٦.

(٣) محمد عبد اللطيف، فكرة الخلق ... ، ص ص ١١٠-١١١.

لذلك أمتاز العراقي القديم بنظرة ديناميكية إلى الكون. فالعراقي القديم كان يعيش الحركة والصراع والتغيير الذي يقترن بهما كجزء من حياته الخاصة^(١). لهذا فإن الخلق والبت في المصائر وفقاً للفكر العراقي القديم لم يكن مسألة نهائية ثابتة تجري مرة واحدة لتستمر أبداً، بل كان الاعتقاد السائد هو أنها عرضة للنظر والمراجعة السنوية المشروطة تأسيساً على مبدأ تجدد الصراع الكوني كل عام واستحالة التكهن بنتائج ذلك الصراع^(٢).

لم يكن بناء الإنسان المصري القديم لحضارته سهلاً دون بذل الجهود والعمل الشاق أسوة بأخيه العراقي القديم^(٣). لكن قلة التحدي الذي فرضته عليه بيئته المنتظمة، بالقياس مع البيئة العراقية، جعلت من استجابته الفكرية أشبه بالمثالية^(٤). فالمصريين القدماء كانوا يتصورون عالمهم عالماً ثابتاً وغير متطور، لقد خرج تماماً من بين يدي الخالق، والأحداث التاريخية ليست، بالتالي، أكثر من اضطرابات سطحية للنظام المقرر، أو أحداث متكررة لمغزى لا يتغير. والماضي والمستقبل - وهما أبعد ما يكونان موضوع قلق أو اهتمام - كانا موجودين ضمناً، بصورة تامة، في الحاضر. والوقائع المنفردة كألوهية الحيوانات والملوك والأهرام والتحنيط - والملاحم الكثيرة الأخرى التي تبدو غير مترابطة في الحضارة المصرية - الأقوال والأمثال الحكيمة والأشكال الأدبية الخاصة التي تبدو في الشعر والنثر - يمكن فهمها جميعاً على أنها نتيجة اقتناع أساسي بأن الذي لا يتغير هو وحدة ذو قيمة^(٥).

فنبات دورات الظواهر الطبيعية المنتظمة باتساق مع حياة المصري القديم جعله يؤمن بأهمية وقيمة النبات، بخلاف التغير الذي يؤدي بالضرورة إلى نتائج عكسية وفوضى في حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وأهم دورتين طبيعيتين أوحى بتلك الأفكار للمصري القديم هما الدورة السنوية لفيضان النيل والدورة اليومية للشمس. ففيضان النيل كان يتجدد كل عام في وقت محدد فيخصب الأرض وينبت البذرة، والشمس في دورتها اليومية، كانت تشرق لنفعمهم في الصباح ثم تستمر في دورتها حتى تتجه إلى الأفق الغربي عند الغروب وتختفي في الليل لتضيء عالم الموتى.

(١) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ... ، ص ص ٥٧٧-٥٧٨.

(٢) جورج رو ، العراق القديم ... ، ص ٥٣١.

(٣) جورج كونتينو، الحياة اليومية ... ، ص ٥٠١.

(٤) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ... ، ص ص ٥٨٠-٥٨١.

(٥) هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة ... ، ص ٢١.

لم يقف تأثير البيئة الطبيعية على الإنسان العراقي والمصري القديمين على تصوراتهم وأفكارهم حول مسألة الخلق، بل أنعكس هذا التأثير على المزاج النفسي والفكري العام لكليهما. إذ يمكن القول أن البيئة العنيفة والغير مستقرة في العراق قد أسهمت في تكوين مزاج للإنسان العراقي القديم يتصف بالحدس والتوجس والتساؤل المستمر عن المصير، وهو ما يمكن استقراءه من محاولته البحث عن إجابة لموضوعات مثل: مشكلة الموت والمصير، علاقة الإنسان بالآلهة، الخوف من غضب القوى الإلهية، البحث عن معنى الحياة، محاولة تفسير الشر والكوارث، والصراع بين النظام والفوضى. لذلك اتسع وتنوع النتاج الأدبي والفكري في العراق القديم الذي كانت أغلب موضوعاته تندرج تحت تلك التساؤلات.

في المقابل فقد جعلت البيئة الطبيعية المعتدلة والمستقرة الإنسان المصري القديم يتصف بمزاج عام يميل إلى الاستقرار والانسجام والنظام والتوازن، ولهذا نجد أن الفكر المصري القديم أولى أهمية كبيرة لموضوعات: النظام في الكون والمجتمع، التوازن والانسجام، دورة الحياة والموت والبعث، استمرار النظام الكوني، العلاقة بين الإنسان والطبيعة والآلهة، والمحافظة على النظام القائم ومقاومة الفوضى. وهذا الأمر ساهم في تولد شعور لدى المصري القديم بضرورة المحافظة على الموروثات القديمة والاستمرارية في المعتقدات والرموز والمفاهيم المصرية وتراكم المعرفة عبر الأجيال والعصور الطويلة.

إن إيضاحنا لتأثير البيئة الطبيعية على الإنسان العراقي والمصري القديمين وفكرهما والمزاج النفسي العام لكليهما، لا يعني تبنيها، كما أشرنا في موضع سابق^(١)، إلى الحتمية البيئية، بل أننا نذهب إلى القول بأن البيئة كان لها التأثير الأكبر من بين عوامل أخرى عدة في توجيه فعاليات الإنسان المختلفة وأهمها نتاجاته الفكرية، لاسيما في تلك العصور البعيدة عندما كان الإنسان القديم يواجه الطبيعة بالعاطفة أكثر من العقل، وعندما كان يلتجأ إليها في كل احتياجاته المادية والفكرية. لهذا كان تأثير البيئة ينتقل بين الحتمية والإمكانية والتوافقية مع كل مرحلة من مراحل تطور الإنسان ذهنياً وحضارياً، مع التأكيد على عدم الوصول للإنسان إلى مرحلة الفكاك من تأثير البيئة حتى في الوقت الحاضر.

(١) ينظر الفصل الأول ص ص ٣١-٣٢.

الفصل الثالث

(أثر البيئة في تشكل جوهر الخلق في الفكرين العراقي
والمصري القديمين)

المبحث الأول : أثر البيئة في تشكل جوهر الخلق في الفكر العراقي
القديم

المبحث الثاني: أثر البيئة في تشكل جوهر الخلق في الفكر
المصري القديم

المبحث الثالث: أوجه الشبه والاختلاف لجوهر الخلق في الفكرين
العراقي والمصري القديمين وأثر البيئة في ذلك

المبحث الأول

أثر البيئة في تشكل جوهر الخلق في الفكر العراقي القديم

أولاً: أثر البيئة في تحديد الآلهة الخالقة في الفكر العراقي القديم

تستند فلسفة الخلق والوجود في الفكر العراقي القديم على قاعدة أساسية مفادها: إن الآلهة هي مصدر الخلق، فمنها وبها وعنهما خلقت سائر الموجودات في هذا الكون^(١). لكن الآلهة بقدر ما كانت تمثل تجسيد لقوى الطبيعة بكل أجزائها فأنها كانت تبدو متعددة إلى حد كبير، فكان من المنطقي جداً بالنسبة للعراقي القديم أن يفترض بأن هذه الآلهة التي تؤلف المجتمع الإلهي لم تكن كلها بنفس الأهمية أو في منزلة متساوية^(٢). كما لم يكن من المنطقي أيضاً أن تكون جميع تلك الآلهة مصدراً للخلق، لأن قدرات الخلق في الفكر العراقي القديم، كانت حكرًا على مجموعة صغيرة من الآلهة تقود مجمع الآلهة وتدير شؤون الكون وحياة البشر تدعى الآلهة الخالقة الرئيسة^(٣). وسنحاول في هذا المحور تبيان أثر البيئة الطبيعية في تحديد الآلهة الخالقة في الفكر العراقي القديم، وذلك من خلال إيضاح أثر العوامل والظواهر الطبيعية، الممثلة لتلك الآلهة، على حياة الإنسان العراقي القديم مما دفعه إلى عدّها مصدراً للخلق.

تتصف الديانة في العراق القديم بأنها ديانة عملية وهو ما نجده في حالة التمازج بين العقيدة ومختلف أوجه النشاط الحياتي في المجتمع العراقي القديم، كما أن طبيعة الآلهة التي كانت العقيدة الدينية في العراق القديم تتمحور حولها، تعكس مدى رغبة هذه الأخيرة في مواكبة اهتمامات مجتمعاتها^(٤)، وبالأخص اهتماماتها الاقتصادية. فقد كان أول الهموم التي اضطلعت بها المجتمعات العراقية القديمة همًا اقتصادياً مرتبطاً بالدين بصورة وثيقة^(٥). إذ أن اقتصاد المجتمع يؤثر على مذهبه الفكري كما أنه يتأثر به، فالمذهب الفكري (الأيديولوجيا) إنما يكتب له البقاء فقط إذا ما سهل عمل النظام الاقتصادي بكفاية وبدون عراقيل^(٦). لهذا كان الفكر الديني في العراق القديم، ينطلق من الواقع الدنيوي للحياة الاقتصادية في

(١) ولاء مهدي محمد، الجوانب الفلسفية في فكر وادي الرافدين ...، ص ١١.

(٢) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في وادي الرافدين ووادي النيل ...، ص ص ٧٩-٨٠.

(٣) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ٨٠.

(٤) عبد الباسط سيداً، من الوعي الاسطوري ...، ص ١٦٢.

(٥) حسين سيد نور، جذور الفكر ...، ص ٢١٩.

(٦) جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ ...، ص ١٢.

البلاد، ولم ينفصل عنها في كل مراحل الحضارية^(١). فالقوى الإلهية التي ركن العراقي القديم إلى عبادتها وتقديسها، منذ الألف الرابع ق. م، كانت نفسها القوى الطبيعية المؤثرة بالاقتصاديات الأولية التي تعتمد عليها الحياة كالصيد والرعي والزراعة^(٢).

لهذا يرى الباحثون أن أول معبود تصورته المجتمعات الفلاحية لقرى العصر الحجري في شمال العراق، كان ذا صلة بقوى الأرض المنتجة المؤدّة وخصبها، لأنها القوى المؤثرة في نظامه الاقتصادي المعتمد بالدرجة الرئيسة على أرضه الزراعية وما تدره عليه من غلال وعلى حيواناته المدجّنة^(٣). فلما كانت البيئة الطبيعية في تلك المناطق تسقط فيها أمطار كافية لنمو محاصيلهم الزراعية فإن الإنتاج الوفير لا يتحقق إلا من خلال توفر الخصوبة في الأرض^(٤). وذلك المعبود تصوره الإنسان على هيئة إلهة في شكل تمثال امرأة، تعبيراً لما تمتع به تلك الإلهة من قدرة الخلق الجديد^(٥). أطلق على تلك الإلهة تسمية (الإلهة - الأم). وقد استمرت عبادة تلك الإلهة، تحت صيغ وتسميات مختلفة، في العقيدة الدينية للعراق القديم وخلال مختلف مراحل الحضارية، لأن القوى التي تعبر عنها، والمتمثلة بالأرض وخصبها، عدت إحدى القوى الخالقة في الفكر العراقي القديم، على الرغم من التغيير والتبديل في الأهمية والمركز الذي أصاب تلك الإلهة والقوى التي تمثلها نتيجة للتطور الحضاري والتنوع البيئي^(٦).

وبعد انتشار القرى الزراعية، منذ بداية الألف السادس قبل الميلاد، في المناطق الجنوبية من العراق، فرضت الظروف الطبيعية لبيئة تلك المنطقة على مجتمعات تلك القرى أحداث تغييرات في نظامها الاقتصادي وعقائدها الدينية المرتبطة بها. فتذبذب كمية الأمطار في بيئة المنطقة الجنوبية دفع الإنسان العراقي القديم إلى أن يتجه بإنظاره إلى العوامل الجوية المؤثرة على المطر والزرع والحصاد أكثر من اهتمامه بالخصوبة وكل ما يولد الوفرة في الإنتاج لأن الخصوبة بدت لا قيمة لها بلا مطر ذي كمية

(١) جورج رو ، العراق القديم ... ، ص ٥٣٤.

(٢) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية ... ، ص ص ١١-١٢.

(٣) جون بوتيرو وآخرون، الشرق الأدنى الحضارات المبكرة ، ترجمة: عامر سليمان، دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٨٦)، ص ٣٣٤.

(٤) اكرم محمد عبد كسار، "قراءة فينتاجات الإنسان الفنية الأولى"، سومر، مج ٣٩، (بغداد، ١٩٨٣)، ص ٢٤.

(٥) رشيد الناضوري، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٩٠)، ج ٣، ص ٣٣.

(٦) تقي الدباغ، الفكر الديني القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٩٢)، ص ص ١٥-١٦.

كافية لنمو الزرع^(١). وتحت تأثير هذه الظروف البيئية تولّد لدى العراقي القديم فكرة دينية جديدة تعتمد في طقوسها على قدسية العوامل الطبيعية المؤثر في نمط اقتصاده الجديد^(٢). حيث أنتخب القوم أهم الظواهر الطبيعية التي كان لها أثر قوي في حياتهم وجسّدوها بعدد، أي شخصوها على هيئة آلهة^(٣).

ولما كان نمطهم الاقتصادي الجديد يتمثل بالزراعة المروية التي كانت تعتمد على الري الاصطناعي من مياه الأنهار والجداول^(٤)، فكان من الطبيعي أن تعد الآلهة المجسدة للظواهر ومظاهر البيئة مثل الأرض والماء ومستلزمات الري الاصطناعي فضلاً عن العوامل المناخية التي تعد بمجموعها العوامل الأكثر تأثيراً في ذلك النشاط الاقتصادي، هي الآلهة الأكثر تأثيراً في حياة الإنسان العراقي القديم^(٥).

لهذا نجد أن آلهة العراق القديم العديدة عندما أدرجت في مجمع إلهي مركزي (Pantheon) تعترف به البلاد كلها ومنذ وقت مبكر، في الأقل منذ منتصف الألف الثالث ق.م^(٦). كانت السلطة داخل ذلك المجتمع الإلهي تمارس من قبل الآلهة التي ترتبط بالقوى الطبيعية الأكثر أهمية في حياة العراقيين القدامى^(٧). عرفت بـ(الآلهة العظام) (الانوناكي Anuunaki)، ويدعون بـ(الآلهة العظام التي تقرر المصائر) وهم: (آن/أنو) (An, Anu) إله السماء، و(إنليل) (Enlil) إله الهواء، و(انكي/آيا) (Enki, Ea) إله المياه والحكمة، و(ننخرساك) (Ninhursag) الإلهة المولدة أو السيدة العظيمة، والإله (نانا/سين) والإله (أوتو/شمش) والإلهة (إينانا/عشتار)، وهذه الآلهة السبعة التي تقرر المصائر هي في الحقيقة قوى كان سكان بلاد الرافدين يحسون بوجودها في ظواهر الطبيعة العديدة، والذي يميزها عن الآلهة العظام الخمسين هو أنها تمثل قوى ترتبط بتلك الظواهر الطبيعية (الاعظمها خطراً وأبرزها شانا)^(٨).

(١) فوزي رشيد، المعتقدات الدينية ...، ص ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) Bevan, A., Stone Vessels and Values in the Bronze Age Mediterranean, Cambridge University Press, (London, 2007), p.13.

(٣) تقي الدباغ، الفكر الديني القديم ...، ص ١٦.

(٤) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات ...، ج ١، ص ٢٣٠.

(٥) عبد الباسط سيدا، من الوعي الاسطوري ...، ص ٢٧٦.

(٦) Bottero, Jean, Religion in Ancient Mesopotamia, Translated by Tresa Lavender Fagan, (Chicago, 1992), p.45.

(٧) Bertman, Stephen, Handbook to Life in Ancient Mesopotamia, (new York, 2003), pp. 116-117.

(٨) komoroczy, G., work and strike of Gods (New light on the divine society in the Sumero-Akkadian mythology), OIKUMENE, Vol. 1, (1976), p.23.

كان الفكر لدى العراقيين القدماء يتطور تبعاً لتطور حياتهم ونظامهم الاقتصادي واسلوب تفكيرهم وتفاعله مع بيئتهم الطبيعية. فخلال بحثهم الدؤوب عن أصل الحياة ومصدر خلقها تدرجت بهم جهودهم المضنية التي بذلوها في سبيل ذلك، من الخصوبة إلى العوامل الطبيعية المؤثرة في الماء وصولاً إلى تقديس العوامل الحيوية المؤثرة في المطر والنبات^(١). ولكن أهم ما توصل إليه المفكرين العراقيين القدماء هو ذلك التقسيم الذي يميز بين الآلهة الخالقة وغير الخالقة، وهو تصور توصلوا إليه نتيجة لآرائهم في أصل الكون. فبموجب هذه الآراء كانت العناصر الأساسية التي تكوّن الكون، هي السماء والأرض والماء والهواء، وكل ظاهرة كونية أخرى لا توجد إلا ضمن هذه العوالم. وعلى هذا كان من المعقول أن يستنتجوا أن الآلهة التي تسيطر على السماء والأرض والبحر والجو كانت هي الآلهة الخالقة، وأن كل ظاهرة كونية أخرى خلقت من قبل أحد الآلهة الأربعة وفقاً لخطط وضعت بالأصل من قبلهم^(٢).

ومن خلال استعراضنا، في الفصل السابق، لصور الخلق المختلفة في الفكر العراقي القديم، يمكن القول أن من أسهموا بالفعل في عملية الخلق سواء من جهة الإيذان بها ووضع الخطط لها، أو من جهة التعامل معها بصورة مباشرة، ومتابعة تفصيلاتها هم كل من: ((آن-آنو)) إله السماء، و((أنليل)) إله الهواء، و((نخرساك)) الإلهة الأم، و((أنكي-أيا)) إله المياه العذبة.

صحيح أن مجمع الآلهة العراقية القديمة هو عبارة عن انعكاس لمجتمع البشر وتطوره السياسي، على أفضل نوع، لكن نشأت هذا المجمع الطويلة والمجهولة، وطريقة تصور عناصره أي الآلهة^(٣)، تبدو وكأنها ترتكز على فلسفة طبيعية (كونية) نشأت على مر العصور وصفت بأنها فلسفة الوجود لشعب بكامله، وأساس لحضارته وكانت معظمها أشبه بالبديهة بل هي حقائق أولية^(٤)، لأن المخلّلة المحسوبة التي طبقها سكان العراق القديم لكي يخلقوا شعباً فائق الطبيعة برمته - عالم الآلهة-، مصدر ذلك الوجود لكي يثبتوا بذلك إدراكهم لما هو مقدس^(٥)، كانت تنطلق من مقياس رئيسي أعتمده العراقي القديم في عملية عملية التصنيف اللاهوتي لتحديد مكانة ومركز كل إله في ذلك العالم الإلهي هو استشعاره أو تمييزه لمدى تأثير المظهر الطبيعي الذي يمثل ذلك الإله في حياة الإنسان. لهذا فقد رُتِبَت الآلهة في الفكر العراقي القديم ترتيباً تصاعدياً وفقاً لأهميتها وقدرتها، التي هي في الأساس أهمية وقدرة القوة الكامنة في الظواهر

(١) تقي الدباغ، الفكر الديني القديم ... ، ص ص ٢٥-٢٦.

(٢) صموئيل نوح كريم. السومريون ... ، ص ص ١٥١-١٥٢.

(٣) Frankfort, H., kingship and the Gods ,p. 215 .

(٤) Bertman, Stephen, Handbook to Life in Ancient...pp.133-134.

(٥) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ... ، ص ص ٢٦٥-٢٦٦.

الطبيعية المرتبطة بكل إله، بكلمة أخرى أن العلاقة بين الإنسان والطبيعة هي المقياس التي تحدد أهمية ومكانة كل إله.

فعلى الرغم من مجمل التطورات وعمليات التبدل والتحويل التي خضعت لها التصورات الأسطورية العراقية القديمة، نجد أن مجمع الآلهة قلما أصابه التغيير، حيث أحتفظ الآلهة العظام بمواقعهم فيه حتى نهاية العصور الحضارية المتأخرة. فقد بدأ زعماء الكهانة، وبصورة تدريجية إتمام تكوين المفهوم الذي ينال احترام المتعبدين، وذلك عن طريق إضفاء العديد من المؤهلات المحترمة إلى الآلهة القدامى ولكن لم يكن هناك تبدل أساسي عما كان مطبقاً في الحقبة التاريخية البعيدة والتي نضجت فيها الأفكار الأصلية^(١).

إن تفريد أو تمييز الآلهة الخالقة الرئيسة، وذلك تمييزاً لها عن سائر الآلهة الأخرى في أي ديانة، يرجع إلى الدور الذي لعبته تلك الآلهة في عملية الخلق والتكوين وتسيير شؤون الحياة المختلفة؛ فهي الآلهة التي تكون مجموعة صغيرة تقود مجمع الآلهة وتدير شؤون الكون وحياة البشر. وهذه المجموعة الصغيرة من الآلهة الخالقة تبقى على مكانتها السامية بالنسبة للآلهة الآخرين وللمجتمع البشري مهما حدث للمجتمع الإلهي ومهما حدث للمجتمع الإنساني.

فقد تقود ظروف الدولة والأحوال السياسية إلى بروز إله من الآلهة وتعظيمه على حساب الآلهة الأخرى ونسبة الكثير من الأعمال الخارقة إليه، وهو ما كان يحدث مراراً في العراق القديم^(٢)، وهذا ما نجده في استبدال الإله أنليل بالإله مردوخ في قصة الخلق البابلية من قبل البابليين ومن بعدها الإله آشور من قبل الآشوريين^(٣). لكن ذلك التعظيم لم يكن يتجاوز، بأي حال من الأحوال، الحدود التي تبدأ منها مسؤوليات مجموعة الآلهة الخالقة^(٤). لأن تصور طابع الآلهة ودورهم في الحياة (جوهرهم) كان يرتبط لدى العراقي القديم بظواهر ومظاهر الطبيعة التي تمثل تلك الآلهة. وهذا التصور هو أعمق وأسبق من التصورات والعوامل الأخرى لعالم الآلهة كممارسة السلطة من قبل الآلهة أو العامل السياسي^(٥).

(١) جورج كونتينو، الحياة اليومية ...، ص ٤٤٢.

(٢) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ٨٠.

(٣) عبد الباسط سيداً، من الوعي الاسطوري ...، ص ٢٠٩.

(٤) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ٨٠.

(٥) جان بوتير، بلاد الرافدين ...، ص ص ٢٦١-٢٦٢.

إن أكثر ما يعبر عن نظرت العراقيين القدماء عن جوهر الخلق واقتناعهم بالآلهة الخالقة هو ما ورد في أسطورة الخلق البابلية عن موضوع خلق الإنسان ودور الإله إنكي/ آيا في ذلك. فعلى الرغم من كون مردوخ بطل قصة الخليفة ، وخاصة بعد تخلي إنكي/ آيا عن مواصلة الصراع ضد تيامة، إلا أن عملية خلق الإنسان كانت تتطلب مشاركة الآلهة الخالقة الرئيسة أو أحدهم، ولما لم يكن مردوخ من ضمن الآلهة الخالقة الرئيسة في عقائد الحضارة العراقية القديمة، لذلك فقد كان على الإله إنكي/آيا أن يبرز ثانية في قصة الخليفة ويقف، بقوة الخلق التي يمتلكها بوصفه أحد الآلهة الخالقة، إلى جانب ابنه مردوخ في تحقيق المغزى النهائي للأسطورة موضوع البحث. وفي ذلك تنحو الأسطورة ، بالرغم من سعة فلكها وتحليقها في عالم الخيال والتأليف الأدبي، إلى التوافق مع جوهر العقيدة الدينية التي تميز ما بين قدرات لآلهة الخالقة الرئيسة وبين أفعال مردوخ البطولية والمغزى السياسي لعبادته^(١).

وتتكرر هذه الملاحظة في أسطورة خلق العالم من قبل مردوخ، فهذا الأخير قام بخلق الكائنات الحية من حيوان ونبات، وخلق نهري دجلة والفرات والأهوار وأسس المدن، الا أنه لم يستطع خلق البشر لوحدة من دون مساعدة الإلهة الأم أرورو (ننخرساك) التي قامت بخلق بذور البشرية له. وفي هذا إيماءة بأن خلق الأشياء كان يمكن أن ينسب إلى أي إله يراد تعظيمه عدا خلق البشر، إذ انه يدخل ضمن مقدرة الآلهة الخالقة الأربعة الرئيسة في ديانة العراق القديم^(٢).

إن الميتافيزيقيا التي تقوم على نظرية الجوهر تتطوي على إدراك للمعرفة يتضمن الأشياء الثابتة غير المعرضة إلى التبديل. وما يحدث له من تغير لا يشكل حدثاً تاريخياً لأن هذا يقدم الحوادث الزائفة ومن أن التفكير في معالجة الحوادث التاريخية يختلف عن التفكير في الجوهر^(٣). فإذا كانت الآلهة الخالقة الرئيسة قد شخصت فيما بعد كإلهة مجسمة وأسبغت بالصورة البشرية، فضلا عن التغييرات التي طرأت عليها بفعل عوامل سياسية ودينية وحضارية وعملت على تغيير مراكز الآلهة في الفكر العراقي القديم. فإن اعتقاد الإنسان العراقي القديم بجوهر الآلهة الخالقة لم يتغير بالرغم من كل ذلك، لأن جوهرها مستمد من كونها قوى أو عناصر طبيعية الأكثر تأثيراً في حياة ذلك الإنسان، وهذا ما تبينه أساطير الخلق المتنوعة.

(١) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ص ٥٣-٥٤.

(٢) يوسف الحوراني، البنية الذهنية ...، ص ٢٠٥.

(٣) سامي سعيد الاحمد، العراق القديم، ج ١، ص ص ٣٩-٤٠.

ثانياً: أثر البيئة في تشكل جوهر الآلهة الخالقة في الفكر العراقي القديم

نشأت أغلب الآلهة في حضارة العراق القديم في الأصل من القوى الطبيعية التي أثرت في حياة الإنسان العراقي القديم، فحُصص لشؤون حياته المختلفة والمهمة آلهة تتحكم فيها وتسيرها^(١). لكن تعابير (الإله مسيطر على) أو (الإله مسؤول عن) هي مسميات غير دقيقة تماماً، لأن العراقيون القدماء كانوا يؤمنون بأن كل عنصر أو كل مجموعة من الأشياء تمتلك كينونة ديناميكية ولها مجموعة من المقومات النشيطة، ((جوهاً)) خاصاً بها وأن الآلهة تتجسم في هذه القوى المتأصلة في الطبيعة^(٢).

لقد تعامل الإنسان العراقي القديم مع كل ظاهرة على أنها قوة حية تكشف للإنسان في لحظة مواجهته لها عن فرديتها وصفاتها وإرادتها^(٣). إذ كانت أكثر خصائص الديانة في العراق القديم بروزاً هو نزوعها إلى الحلول، حيث يجري اختبار القدسي بوصفه كنه ظاهرة أو هيئة طبيعية، وبوصفه كذلك إرادتها، وقوتها التي تهينوها لشكلها وسلوكها الخاص^(٤)، وهذه النظرة التي كان ينظر بها العراقي القديم إلى مظاهر وظواهر الطبيعة على أنها ذات حياة وإرادة، لم تكن مجزأة بتجزؤ المواد والظواهر، بل كانت تلك للجوهر كله، فلم يكن ينظر للحجر قطعة قطعة ولا للملح ذرة ذرة، ولا للقمح حبة حبة، بل كانت نظرتة شاملة لجوهر كل شيء بجزئياته، وما يكون للجوهر من خصائص يكون لجزئياته. فاعتقاد العراقي القديم أن للحجر جوهراً ولللمح جوهراً وللقمح جوهراً وهكذا، وما يتصف به هذا الجوهر تتصف به جزئياته. فالعراقي القديم لم يكن يعطي الحياة والإرادة لكل جزيئة على أنها مستقلة عن جوهرها بل كان يعطيها للجوهر ذاته، وما دام هذا الجوهر يملك تلك الحياة ولتلك الإرادة فهما لجزئياته على التبعية، وكانت ثمة صفات جامعة لكل جوهر تميزه عن غيره، وكانت من تلك الصفات المميزة الجامعة لحجر الصوان مثلاً: سمرته وثقله وصلابته وقابليته للكسر^(٥).

في ضوء مفهوم الألوهية السابق يمكننا ملاحظة القابلية المرنة التي تجعل الإله قادراً على الشروع في الموجودات الطبيعية ما دامت تلك الموجودات تمتلك الفعل المؤثر على حياة الإنسان وحيث التعامل مع الإله ليس سوى التعامل مع الشيء المؤله ذاته. لذلك كان من الطبيعي للعراقي القديم أن تبدو له

(١) حسين سيد نور، اثر الحتمية ... ، ص ٢٨٠.

(٢) جورج رو ، العراق القديم ... ، ص ١٣٠.

(٣) فاضل عبد الواحد علي ، سومر اسطورة ... ، ص ٨٧.

(٤) ثوركليد جكبسون ، أديان ما بين النهرين ... ، ص ٢٢١.

(٥) ثروت عكاشة، الفن العراقي القديم: سومر بابل وآشور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ب.ت)، ص ٥٧.

أجزاء الطبيعة وقد احتوت الآلهة في وجودها وفي ترابطها، وقد تمتعت بإراداتها الخاصة بها التي هي ، في الجوهر، إرادات الآلهة. فمن الطبيعي أيضاً أن يكون جوهر الآلهة الخالقة الرئيسة في الفكر العراقي القديم متطابقاً مع جوهر الظواهر الطبيعية الممثلة لها.

١- جوهر السماء

الإله (آن AN بالسومرية-آنو anu بالاكديّة) هو إله السماء^(١)، ويقع ترتيبه من حيث الأهمية في قمة الآلهة العراقية القديمة الرئيسة. ويكتب اسمه بالعلامة المسمارية التي كانت في الأصل صورة تشبه صورة النجمة ذات الثمانية رؤوس، وبواسطة هذه العلامة كتبت كلمة سماء وكلمة إله أيضاً، ولذلك استخدمت علامة النجمة ذات الثمانية رؤوس كعلامة دالة تسبق أسماء جميع الآلهة العراقية القديمة^(٢).

إن اندماج فكرة الألوهة المطلقة بالسماء والعلو في ذهنية الإنسان العراقي القديم، يعطينا دلالة هامة على العلاقة المرفهة التي تربط الإنسان بالسماء ذلك الوجود الكوني البعيد^(٣). ففؤة العراقي القديم للسماء بفسحتها واتساعها، وتعدد الألوان والأحداث والظواهر فيها مع ضخامة هذه الظواهر، وجسامة هذه الأحداث، ومطرها الذي يشكل للأرض مني الحياة ، ثم إحاطة السماء للأرض في الأفق، وتغطيتها من جميع الجهات وتعدد الإمكانيات فيها، مقابل ضيق المساحات المرئية أمامه بشكل مباشر على الأرض، التي مهما بلغت مظاهرها هولاً وغبابة، فأنها لم ترقّ أبداً إلى درجة ظواهر السماء، مع أخذنا بعين الحسبان عدم التماس المباشر بينه وبين السماء، مما جعلها مجهولاً دائماً يقع في نفسه الرعب والرهبّة، والرغبة في تقديس جلالها الطاغي فوق كل الموجودات^(٤). فحينما أراد العراقي القديم أن يسقط مشاعره إزاء السماء في تصويره لمشاعر آدابا عبر عن ذلك بقوله: "وما أن أجال ((آدابا)) نظره من أفق السماء إلى قبة السماء، حتى رأى رعبها".^(٥)

لقد أطلق العراقيون القدماء على الجلال والسلطة المطلقة للذين توحى بهما السماء، أسم آن/آنو. فآن/آنو هو شخصية السماء الطاغية الحالّ فيها والمحسوس عن طريقها، فقوته من شدتها لا تحتاج إلى

(١) Leick, G., A Dictionary of Ancient Near Eastern Mythology, (DANEM), (London, New York, 1992), P.5.

(٢) فوزي رشيد، المعتقدات الدينية ...، ص ١٤٩.

(٣) يوسف الحوراني، البنية الذهنية ...، ص ١٥٧.

(٤) سيد القمني ، قصة الخلق ... ، ص ص ١٩-٢٠.

(٥) فيصل الوائلي، من أدب العراق القديم ، دار الوراق للنشر، (بغداد، ٢٠٠٧)، ص ٢٥.

فرض إرادتها عن وعي وقصد، بل هي تكسب ولاء الإنسان بمجرد وجودها، ويطيعها المتطلع إليها تلقائياً، عن طريق الأمر القاطع الصاعد من أعماق روحه. لهذا فأينما وجد العراقي القديم جلالاً وسلطاناً، أدرك أنهما قوة السماء أي آنو^(١). لهذا كان آنو في الفكر العراقي القديم أعلى قوة في الكون^(٢). إذ يتصدر أسمه جميع قوائم الآلهة^(٣). وبقي الإله آنو على رأس مجمع الآلهة العراقية القديمة طوال ثلاثة آلاف عام^(٤).

إن جوهر آن/آنو يتمثل في كونه "مصدر كل سلطة ومبدؤها الفعال، في كلا المجتمعين البشري والكوني. إنه الطاقة التي تتقذ المجتمع من الفوضى وتجعل منه كُلاً منظم التركيب. وهو الطاقة التي تضمن طاعة الناس التقائية للأوامر والقوانين والعادات في المجتمع، وطاعتهم السنن في العالم المادي- أي النظام الدنيوي-. فكما يقوم المبنى على أسسه، ويؤدي في تركيبه تقاطيع هذه الأسس، هكذا يقوم الكون العراقي القديم على ارادة إلهية، ويعكس في تركيبه هذه الارادة. فكلمة آن/آنو هي "أساس السماء والأرض" ^(٥).

إن التنظيم، كما أشرنا سابقاً، كان ضرورياً في نظر العراقي القديم، بسبب الموقف الخاص الذي أتخذه إزاء الفوضى، هذا الموقف الذي يرجع بالدرجة الأساسية إلى صورة الفوضى التي وجد عليها بيئته، وعنفها المستمر الذي يهدد بإرجاع الكون إلى حالة الفوضى تلك. لهذا فإن تمسك العراقي القديم بالتنظيم كضرورة لا غنى عنها بالنسبة لحياته، هو الذي قاده إلى التمسك بسلطة آن/آنو. فقد وجد في تلك السلطة الهادفة إلى التنظيم قوة يعبر من خلالها عن جوهر آن/آنو ودوره في الخلق.

فلما كان مفهوم الخلق في الفكر العراقي القديم ليس إلا تنظيم ما هو في حالة فوضى^(٦). وأن الخلق هو الفعل الأساسي الذي يشف عن عظمة الألوهة وجوهرها، فقد كان على الدوام مهمة يضطلع بها أعظم الآلهة شأناً فينتشل الكون من لجة العماء، ويصنع النظام من رحم الهولي الفوضوية، ليصنع عالماً معقولاً ينم كل جزء من أجزائه عن عظمة القدرة التي صاغته. ولما كانت السماء هي أسمى ما في هذا الكون وأكثره تعبيراً عن العظمة، فقد اسندت تلك المهمة إلى الإله الممثل لها .

(١) ثوركليد جاكبسون، أرض الرافدين ... ، ص ١٦١ ..

(٢) جورج رو ، العراق القديم ... ، ص ١٣٣ .

(٣) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ...، ص ٢٦٥-٢٦٦ .

(٤) هاري ساكر ، عظمة بابل ... ، ص ٣٥١ .

(٥) ثوركليد جاكبسون، أرض الرافدين ... ، ص ١٦٢ ..

(٦) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين ... ، ص ١٠٢ .

لهذا نجد الإله أن/آنو في نص عراقي قديم يمثل " القوة التي نهضت بالكون وجعلته بعيداً عن الفوضى لتجعله منظماً غاية التنظيم"^(١). فتحت زعامة أن/آنو ملك الأرباب خلق الكون بعد العماء^(٢). إذ بدأ النظام في الكون بولادة الإله أن/آنو الذي قاد ابنائه من الآلهة الجديدة في حرب ضد الآلهة القديمة من أجل أن يحل النظام في الكون بدلاً من العماء والفوضى، وأن تستبد الآلهة الجديدة تحت زعامته بشؤون الكون دونها^(٣).

إن السماء بعلوها ورفعتها وبعدها عن تأثير فوضى الطبيعة منزّهة عن كل دنس، تمثل قوة دائمة^(٤)، تضمن بقوتها تلك استمرار التنظيم، باستمرار تأثيرها المباشر والدائم على حياة الإنسان. ففوة الإله أن/آنو لا متناهية كقوة السماء وسموه وعلوه كسمو وعلو السماء وعطاءه الغير منقطع كعطاء السماء، فمطر السماء اللقاح الذكري للأب الذي يخلق كل شيء نتيجة تلقيح الإلهة الأم (الأرض)، والذي يجدد الحياة على الأرض ويبعث فيها الحياة من جديد^(٥). وقد رأته التصورات الشعرية – الميثولوجية في شكل ثور جبار يُسمع خواره في الرعد. وكان المطر يُرى على أنه منية الذي يلقيح الأرض (كي Ki) ويسبب نمو النباتات. وحين كانت السماوات الغائمة تغيب في الربيع ، كان يُظن أن " غُلْغَانًا " Gulgalanna " ثور السماء العظيم قد قُتل وذهب إلى العالم السفلي. وهناك موروث آخر يرى أن أن (أنوم Anum) ، السماء في مظهرها الذكوري وقد تزوج من (آنتوم Antum) وهي السماء في مظهرها الأنثوي. وكانت كزوجها، قد أُعطي لها شكلاً بقرياً، والغيوم التي تُحدث المطر هي ضروعها^(٦).

إن الإله أن/آنو لم يقم بخلق الوجود دفعه واحدة فيكون قد فعل فعلاً شاملاً وأنتهى الأمر، إنما كان إبداعه زواجاً دائماً من الإلهة الأرض الأم عن طريق مطره ورعايته من عليا سماءه باستمرار لمخلوقاته من الكائنات الأرضية المتمثلة بالإنسان والنبات والحيوان والجماد، وبذلك كان فعله مستمراً وعليه فهو لم يفعل مرة واحدة وإنما يفعل ذلك باستمرار. وبهذا يكون وجود كل الأشياء قد ارتبط بديمومة وجود السماء وجوهرها الأبدي المتمثل عند العراقيين القدماء بالإله الخالق آنو بوصفه إله دائم الفعل

(١) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ...، ص ص ٣٦٢-٣٦٣.

(٢) سامي سعيد الاحمد، "المظاهر الدينية في العراق القديم"، في، كتاب حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج ١، ص ١٣٦.

(٣) طه باقر، ديانة البابليين ...، ص ١٣.

(٤) تقي الدباغ، الفكر الديني القديم ...، ص ١٧.

(٥) نعيم الرضوي الحصونة، ملامح التوحيد في الديانة العراقية القديمة، دار الفيحاء، (بيروت، ٢٠١٩)، ص ١٠١.

(٦) ثوركليد جاكسون، أديان ما بين النهرين ...، ص ص ٢٢٩-٢٣٠.

والوجود يؤثر في جميع الحركات الكونية بل هو المحرك الأول يُحرك ولا يتحرك يغير ولا يتغير مستمر الفعل . فالإله أن/أنو هو مبدأ المبادئ والإله المطلق الذي يرسم سمات الأشياء ويعين أقدارها في الفكر العراقي القديم. وهذا ما توضحه النصوص المسمارية بقولها:

" يا أنو! كلمتك هي العليا،

من يستطيع أن يقول لها كلا،

يا أبا الآلهة، إن أمرت

فأمرك اساس السماء والأرض"^(١).

لقد كان من الطبيعي جداً، بالنسبة للعراقي القديم، وهو ينظر إلى الكون بوصفه حشداً من الآلهة الممثلة للطبيعة بكل أجزائها، أن يفكر بالتنظيم الذي ينبغي أن يخضع له المجتمع الإلهي الذي يضم هذا الحشد من الآلهة، لاسيما وأن كل واحد منها كان يتمتع بإرادته (جوهره) الخاصة التي يتم التعبير عنها من قبل كل جزء من أجزاء الطبيعة عبر الترابط الذي يقيمه مع الأجزاء الأخرى. لهذا كان الكون في نظر العراقي القديم يبدي أثر الجوهر الخاص بأن/أنو، حيث كان أعضاؤه، الآلهة والبشر وكل الموجودات الأخرى، ينصاعون طائعين إلى الأوامر التي تجعلهم يفعلون ما يفعلون، هذه الأوامر التي ندعوها نحن قوانين الطبيعة، ويدعوها العراقي القديم سلطة أنو وجوهره.

أحتل الإله أنو منزلة رفيعة بوصفه (ملك الآلهة)، وهذه الميزة جعلته في منأى بعيد عن الآلهة وعن القضايا الحاسمة في مجلسها فاصبح بمرور الزمن مجرد رئيس رمزي^(٢). إذ بالرغم من الأهمية الكبيرة لسلطة أنو وجوهرها التنظيمي للكون في نظر العراقي القديم، إلا أن الإله أنو بقي منعزلاً في السماء كرمز مهيب فقط دون أن يمارس، على الأقل في الميثولوجيا السومرية ، دوراً فاعلاً في قضايا ذلك الكون المصيرية. ففي موضوع الخلق لم يلعب الإله أنو دوراً مهماً، ما عدا إشارات عرضية في بعض الأساطير، ففي أسطورة (الآخار وانتشار) نسب إليه دور الخالق للآلهة. وفي قصة الطوفان السومرية إشارة غير مباشرة إلى قيامه بمساعدة إلهة أخرى انليل وانكي ونخرساك بخلق الإنسان^(٣).

(١) ثوركليد جاكيسون، أرض الرافدين ...، ص ١٦٣.

(٢) فاضل عبد الواحد علي، الطوفان في المراجع المسمارية، (بغداد، ١٩٧٥)، ص ٣١.

(٣) مريم موسى عمران، الفكر الديني عند السومريين ...، ص ص ٦٥-٦٦.

إن تفسير هذا الأمر يرتبط بالذهنية العقيدية للعراقي القديم، والتي كانت ذهنية ثقافة زراعية، ونمط التدين لمثل هذه الثقافة يميل إلى الارتباط بإله محسوس قريب غير متواري مثل الإله آن/أنو، فالفردي في مثل هذا المجتمع يرتبط أكثر بالعوامل الطبيعية الأكثر تأثيراً في حياته اليومية ونشاطه الاقتصادي، ولما كان الاقتصاد الزراعي في القسم الجنوبي من العراق يعتمد على الزراعة المروية وليس الزراعة المطرية، فقد كانت العوامل الطبيعية مثل الهواء -الرياح، والأرض- الخصوبة والمياه هي العوامل الأكثر تأثيراً في حياة العراقي القديم، وبالتالي فقد لعبت الآلهة الممثلة لها الدور الأكبر في عملية الخلق.

٢- جوهر الهواء

عُدَّ إنليل الإله المجسد لعنصر الهواء في الفكر العراقي القديم^(١). ويوحى اسمه الذي يتكون من مقطعين (EN) ويعني السيد و(LIL) ويعني الهواء أو الريح^(٢)، بأنه كان يحكم أو يمثل كل ما بين السماء والأرض^(٣). فهو يختص بكل سلطة فاعلة في الجو والمناخ وما ينتج عنهما من تنظيم للطقس والفصول والحر والأمطار والفيضانات وما يتبعها من سلطة مباشرة على يوميات الإنسان^(٤). لهذا فقد مثل الإله إنليل للعراقي القديم ثاني القوى العظمى في كونه المرئي، ولا يعلوه مرتبة إلا إله السماء آنو^(٥). كما عُدَّ إنليل Enlil الإله الثاني من بين الآلهة الخالقة الأربعة الرئيسة في الفكر العراقي القديم^(٦).

بيد أن الحجم والمكانة وحدهما لم يكونا كافيين للإيحاء بـ(جوهر) كل قوة من قوى الكون الإلهية. فقد كان العراقي القديم يتصور جوهر تلك القوى بمجابهته المباشرة للظواهر الطبيعية الممثلة لها عندما (تكشف) عن نفسها وتؤثر فيه تأثيراً عميقاً^(٧). لهذا فعلى الرغم من علو وعظمة إله السماء آنو/أنو، إلا أنه، وكما ذكرنا سابقاً، لم يكن له الدور الأعظم في عمليات الخلق، بسبب انكماش دور آنو في الممارسات الدينية وابتعاده عن التأثير في الحياة اليومية بمثل بعد مقامه - في أعلى السماء - عن الأرض وناسها^(٨). بينما نجد الإله إنليل يلعب دوراً بارزاً في الأساطير والنصوص الدينية المتعلقة بالخلق

(١) عامر سليمان، اللغة الأكديّة (البابلية-الآشورية)، دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٩١)، ص ١٢٥.

(٢) Leick, G., DANEM, p.45.

(٣) طه باقر، ديانة البابليين والآشوريين ...، ص ١٦.

(٤) يوسف الحوراني، البنية الذهنية ...، ص ١٨٣.

(٥) مريم موسى عمران، الفكر الديني ...، ص ٦٦.

(٦) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ص ٩٢-٩٣.

(٧) ثوركليد جاكسون، أرض الرافدين ...، ص ١٦٠.

(٨) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ص ٩٢-٩٣.

والتي صور من خلالها بأنه صاحب الفضل الأول في الخلق، إلى الحد الذي يجعل من إنليل هو الرئيس الفعلي لمجمع الآلهة العراقية القديمة^(١). وهذا الدور متأني من الأهمية الكبيرة لحركة عنصر الهواء في الطبيعة، من رياح وعواصف والتي تؤثر سلباً أو إيجاباً على الإنسان وممتلكاته الحيوانية والزراعية^(٢).

إن الإله إنليل بوصفه إله العاصفة فإنه كان يكشف عن جوهره بما كان يختبره العراقي القديم في مواجهته للعاصفة في بيئته الطبيعية^(٣)، العاصفة ليس فقط في مظهرها اللين السخي من مطر وفيضان يسبغان على النبات الحياة وإنما كذلك في مظهرها العنيف المدمر من برق وإعصار يحرقان الإنسان ثمار عمله الدؤوب ويوقعان به الفقر والجوع والدمار بقدر ما يعصفان بالحقول ويأتیان على المحاصيل بكل أنواعها^(٤). وإزاء كل هذا التباين في طبيعة العاصفة لم يكن أمام العراقي القديم سوى جعل التباين الصفة المميزة لشخصية الإله أنليل. فضلاً عن جوهر العنف والقوة المدمرة للإله إنليل التي عكستها أغلب الأساطير العراقية القديمة، كان هنالك جوهر العطف والحكمة والسعي الدائم لتوفير الخير إلى الإنسان ومساعدته في معيشته، وكلا الجوهرين نجدهما قد تجلّيا في عمليات الخلق التي قام بها الإله إنليل^(٥).

لقد إدرك العراقي القديم أهمية الرياح في حياته من خلال تأثيرها في معيشتة ونظامه الاقتصادي القائم على الزراعة. لهذا نجد الإله إنليل في أسطورة (إنليل وخلق الفأس) يقوم بخلق وتوجيه أكثر الظواهر الكونية خطورة في الإنتاج الزراعي^(٦)، فأنليل في تلك الأسطورة كان بمثابة الرياح الندية التي تعمل على ترطيب قشرة التراب الصلبة وجعلها قابلة للحراثة. ولذلك فإنه كان إله أقدم أداة للحراثة، وهي الفأس. التي حطّم بها الإله إنليل القشرة الصلبة على التراب، حتى ينبت البشر من الأرض كالنباتات^(٧). وكما خلق البشر فإنه أمر بأن يخلق في (الدوكو-غرفة الخلق) إلهة الماشية (لاخار Lahar) وإلهة الحبوب (أشنان Ašnan)، ليساعد مخلوقاته البشرية في نشر الخصب والرفاه والخير في الأرض^(٨).

(١) صموئيل نوح كريم، السومريون ... ، ص ١٥٨.

(٢) Diakonoff, I. M., The City-States of Sumer, (Early), Chicago, 1991, p.75.

(٣) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ... ، ص ٣٧٨.

(٤) سبتيانو موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة...، ص ٧٥.

(٥) Bottero, Jean, Religion in Ancient... , p.67.

(٦) صموئيل نوح كريم، السومريون ... ، ص ١٥٨.

(٧) ثوركليد جاكسون، أديان ما بين النهرين ... ، ص ٢٣٠.

(٨) صموئيل نوح كريم، السومريون ... ، ص ٣١٧.

يستمر جوهر إنليل كمصدر مهم للخصوبة في إظهاره بشخصية الإله المحب للخير ومساعدة الإنسان. ففي (المناظرة بين الصيف والشتاء) يقرر إنليل أن يؤسس الزراعة في البلاد، فخلق لهذا الغرض الإلهين الأخوين الصيف (إيمش Emesh) والشتاء (إينتن Enten)^(١). ويرد في تلك المناظرة:

" جعل نونامير نفسه في حالة تخوله خلق الزمن الملائم وفي ما يتعلق بالعالم الذي سيكونه، أعد (إنليل) برنامجاً، سوف تستفيد منه جموع البشر. ثم مثل ثور شامخ، وضع على الأرض رجله إذ قرر سيد الكون أن يخلق اليوم - الملائم - الفائق الخصوبة والليل - الملائم - الجزيل الوفرة. ولكي يجعل الكتان ينمو كثيفاً وينشر الشعير في كل مكان، لكي يضمن حدوث الفيض على جميع الضفاف، وينشر الخصب [...]، بحيث يحبس الصيف الأمطار وبحيث يزود الشتاء الضفاف بالماء المخصب، لذلك عمد (إنليل) إلى غرس قضيبه في المنطقة الجبلية الرحبة، [...] حبلت قمةً الجبل بالصيف والشتاء ثروة البلاد. "^(٢)

يبدو من خلال النص أن العراقي القديم أدرك قدرة الهواء على إحلال الخصوبة في الأرض من خلال تحكمه بجلب الرياح المحملة بالرطوبة والأمطار في فصل الشتاء. كذلك قدرته على جعل رياح الصيف عديمة الأمطار حاره جافة لتكون قادرة على أنضاج المحاصيل. أما طريقة الخلق فتمت بتلقيح إنليل للجبل عن طريق الرياح الرطبة أو الممطرة، ليلد الجبل التوأمين الصيف الجاف والمنضج والشتاء الرطب المخصب. وبنفس الطريقة، الأخصاب الجنسي، ولد الإله سين (إله القمر) نتيجة الفعل الجنسي بين الإله إنليل وزوجته الآلهة ننليل^(٣). إن هذا الجوهر قد جعل من الإله إنليل هو المسؤول عن كل مظاهر الحياة والخصوبة والوفرة والرخاء^(٤). وهذا ما يعبر عنه النص الآتي:

" لولا إنليل، الجبل العظيم

الانهار ، ما جلبت مياه فيضاناتها الفيض

لما وضع سمك بيضه في ادغال القصب

(١) طه باقر، مقدمة في ادب ...، ص ٢٠٥.

(٢) قاسم الشواف، ديوان الاساطير، الكتاب الثالث ، ص ٣٢٠.

(٣) فراس السواح، مغامرة العقل الأولى ... ، ص ٣٨.

(٤) مريم عمران موسى، الفكر الديني ...، ص ٦٩.

ولما بلغت طيور اعشاشها على الأرض الفسيحة

وفي السماء ، لما جاءت الغيوم السائرة بمائها

ولولاه لما نمت النباتات والاعشاب مفخرة السهل

ولما ازدهر القمح الوفير في الحقل والمرعى^(١).

يبدو أن جوهر إنليل كمحسن معمم للخيرات هو صورة قديمة لهذا الإله في مخيلة العراقي القديم^(٢). قد تعود للمعتقدات الدينية الأولى التي ظهرت في المنطقة الشمالية من العراق، حيث كانت القرى الزراعية فيها تعتمد في زراعتها على المطر، ولذلك أصبح لإله الهواء إنليل المؤثر في المطر وفي حركة الغيوم دور بارز في حياة سكان تلك المنطقة، مما جعله يقوم بدور الإله الخالق للكون والإنسان^(٣). ومما يؤكد ذلك لقب الجبل العظيم للإله إنليل، الذي يبدو أن الصلة بينهما تأتي من أن القدماء يعتقدون أن بيت الرياح هو الجبال، وعلى ذلك فمن شأن إنليل ان يكون في الأصل وبصورة خاصة هو الرياح الشرقية "ينكورا" ربح الجبال^(٤).

تتميز الرياح في المنطقة الجنوبية من العراق بحرارتها العالية وبكونها جافة تقريباً^(٥)، وكل من أختبر الزوابع والأعاصير في تلك المنطقة يدرك عنفها وبطشها ورهبتها^(٦). لهذا نجد العراقي القديم قد عدّ العنف والبطش الجوهر الثاني للإله إنليل^(٧)، بل أن تلك الصفات كانت السمة الأبرز لشخصية الإله إنليل في الفكر العراقي القديم^(٨).

وعلى الرغم من الرهبة والخوف التي أعتلت نفس العراقي القديم وهو يواجه جوهر العنف والبطش للإله إنليل نتيجة لتحسسه أثر الرياح اللاهبة الحارة والعواصف المحملة بالتراب وما تسببه من دمار

(١) صموئيل نوح كريم، السومريون ... ، ص ١٦١.

(٢) ثوركليد جاكسون، أديان ما بين النهرين ... ، ص ٢٣١.

(٣) فوزي رشيد، المعتقدات الدينية ... ، ص ١٧٠.

(٤) ثوركليد جاكسون، أديان ما بين النهرين ... ، ص ٢٣١.

(٥) تقي الدباغ ، "الثورة الزراعية والقرى الأولى"، حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج ١، ص ٢٥.

(٦) ثوركليد جاكسون، أرض الرافدين ... ، ص ١٦٠.

(٧) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ... ، ص ٣٧٨.

(٨) Wang, Xianhua, The Metamorphosis of Enlil in Early Mesopotamia, Ugarit Verlag, (Münster, 2011), p.245.

وهلاك لهم ولممتلكاتهم. إلا أنه وجد في ذلك الجوهر من شخصية إنليل قوة تسند الكون وضمانه فاعلة وقوية لاستمرار النظام فيه من خلال أبعادها للفوضى والاضطرابات عنه.

فمثلاً لاحظ العراقي القديم أثر الرياح الرطبة والممطرة في أحلال الخصوبة على الأرض، فقد لاحظ أيضاً أثر عنف الرياح الجافة واللاهية في تجفيف مياه الفيضانات والمستنقعات وأثرها كذلك في نشر الطين وتجفيفه^(١)، ليجعل من قوة الرياح وعنفها جوهرًا للإنليل للتعبير عن قدرته في البعث والإيجاد. عن طريق إخراج العالم من وسط العماء وخلق الشكل المنظم من الهولي، والنظام من لجة الفوضى.

فالإنليل بقدرته على التمدد هو الذي فصل بين السماء والأرض بعدما كانا ملتحمين في صورة الجبل الكوني^(٢)، وكما يوضحه النص الآتي:

" السيد الإله (إنليل) قد جعل كل ما هو نافع يبدو نافعاً،

السيد الذي تقريره للمصير لا يمكن أن يتغير،

قد أسرع لفصل السماء عن الأرض،

قد أسرع لفصل الأرض عن السماء،

عندما فصلت السماء عن الأرض بعدما كانتا متصلتين،

ظهرت الآلهة الأم،

وبعدما وضعت الأرض وثبتت في مكانها،

وبعدما وضعت الآلهة قواعد السماء والأرض،

وبعدما نظمت (الآلهة) الجداول والقنوات وثبتت شواطئ دجلة والفرات،

جلست الآلهة (آن ، إنليل، أوتو، وإنكي) " ^(٣).

(١) يوسف الحوراني، البنية الذهنية ...، ص ١٨٩.

(٢) Wang, Xianhua, The Metamorphosis of Enlil..., p.240.

(٣) فوزي رشيد ، خلق الإنسان في الملاحم ...، ص ١٧.

إن النص أعلاه يوضح لماذا اسند الدور الأكبر في الخلق إلى الإله إنليل. فوفقاً لصورة الخلق في هذا النص كان الإله إنليل هو الذي أوجد العالم النظامي المتكون من سماء وأرض منفصلتين بعدما كانتا متحدتين في شكل بدائي من الوجود الكوني الأول، كما أن إنليل هو الذي أوجد بهذا الانفصال فرصة نشوء الحياة سواء على السماء أو على الأرض، وسواءً كذلك إلى الآلهة أو إلى الكائنات الحية من بشر وحيوانات، وذلك بعدما توفرت لها ظروف الحياة الملائمة.

إن الإله إنليل باستخدامه لقوة البطش والعنف بوصفهما جوهرًا له، كان يخلق النظام إزاء الفوضى، فهو هنا يمارس العنف والبطش كقوة مشروعة تضمن النظام^(١). ففي أثناء فيضانات الربيع كانت المياه تغطي مساحات واسعة من سهول البلاد مهددة بإرجاع الكون إلى حالة فوضى المياه الأولى، لكن إرادة إنليل الهادفة إلى النظام تحول دون ذلك، إذ تقوم الرياح بتجفيف مياه الفيضانات مفسحة المجال لظهور اليابسة من جديد وهذا ما نجده في قصة الخلق البابلية، على اعتبار أنها في أصلها السومري كان بطلها إنليل، إذ لم تتمكن الآلهة من مجابهة تيامة، بوصفها مياه الفيضانات، ودفع خطرهما عن عالم الآلهة، إلا بفضل الزوابع والأعاصير، أي بتلك القوى التي هي جوهر إنليل نفسه.

إن جوهر الآلهة كان يجعل إرادتها تتصرف، في جملة ما تتصرف إليه، إلى ضمان خير الناس عن طريق تأمين المتطلبات اللازمة لذلك^(٢). لهذا كانت الآلهة العراقية القديمة في حالتهم البدائية، قبل أن تضفى عليهم الصبغة السياسية، يوصفون بأنهم عادلين، وغير متميزين، وخيرين، وكارهين للشر الذي كان مكروها أيضاً عند كبار الآلهة^(٣). لكن أصفاء المفكر العراقي القديم على الدين طابعاً سياسياً في نفس الوقت الذي أضفى فيه على السياسة طابعاً دينياً. أدى إلى (تسييس) العنصر المتسامي (الدين أو الإله) الذي كان يمثل القوة الضامنة للنظام الاجتماعي^(٤). الأمر الذي أدى إلى أن بعض الآلهة القديمة قد أنتزعت أو أبعادت من عالم الإنسان وأصبحت أكثر بغضاً للبشر، ومن أمثلة تلك الآلهة الإله إنليل^(٥).

(١) ثوركليد جاكبسون، أرض الرافدين ...، ص ١٩٣.

(٢) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ...، ص ٤٩٦.

(٣) جورج كونتينو، الحياة اليومية ...، ص ٤٤٣.

(٤) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ...، ص ص ٦٠٥-٦٠٦.

(٥) ليو اوبنهايم، بلاد ما بين النهرين ...، ص ص ٢٤٣-٢٤٤.

فعلى الرغم من أن شخصية إنليل كانت تثبت الخوف في نفوس العراقيين القدماء، بسبب فواعل الرياح والأعاصير في البيئة العراقية، وما تسببه من دمار وهلاك لهم وممتلكاتهم^(١)، إلا أن شخص إنليل اتخذ بمرور الزمن ملامح أشد شراسة، فهو بصفته زعيم المجمع الإلهي ومنفذ مراسيمه، قد أصبح القدرة على تدمير المعابد والمدن، والعاصفة التي تحقق كل شيء والتي بها أطاح المجمع بالسلالات وعواصمها، كما شكّل التاريخ. وهذا المظهر المتأخر زمنياً لإنليل بارز في نصوص الرثاء، حيث تصبح إرادة المجمع مندرجة شيئاً فشيئاً في إرادته، ولأجله وحده يلين المجمع ويعيد ما دمره إلى ما كان عليه^(٢).

لقد كان لـ (إنليل) بالضرورة مهمة بغیضة وهي تنفيذ الدمار وإحلال المحن المحزنة التي كانت الآلهة تقررها لسبب أو آخر. وكنتيجة لذلك وصم إنليل بأنه إله عنيف ومخرب. فإليه يعزى، من الناحية النظرية بالطبع، تدمير الإمبراطورية الآكدية انتقاماً لتدنيس أحد ملوكها (نرام-سن) معبد هذا الإله في مدينة (نفر). وإليه يعزى أيضاً أسقاط سلالة أور الثالثة في زمن آخر ملوكها (ابي-سن) عندما أرسل إليها جحافل المارتو (الأموريين) والعيلاميين انتقاماً لتجاوز آخر ملوكها لواجباته المقدسة^(٣).

قادت الصبغة السياسية على جوهر الآلهة إلى رفض العراقي القديم للجوهر الجديد من خلال رفض بعض أعمال الآلهة لأنه تلمس عبرها ما يدل على عدم تناسبها مع الوظيفة الإلهية التي كان قد رسم صورتها المثالية في ذهنه، ومع الأهداف التي يقتزن بها وجودها الفعلي بصورة عامة. لهذا فإن فكرة كون جوهر إنليل ذو موقف عدائي للبشر مثلما جسده بعض الأساطير والذي جر عليهم الطوفان، لم تبقى هذه الفكرة كما هي في العصور المتأخرة، خاصة بعدما فقد الإله إنليل سلطانه السياسي إلى إلهة أخرى، حيث يظهر في التراتيل كإله محب للناس، كما نراه يدخل في الأسماء الشخصية^(٤).

مما تقدم يمكن القول أن التباين في طبيعة الرياح التي كانت تهب على أرض العراق القديم، بين رياح رطبة وممطرة تجلب الخصب والنماء، وبين رياح جافة ومغبرة تجلب الجفاف والدمار في بعض الاوقات، جعلت من إله الرياح إنليل يكشف عن نفسه للعراقي القديم في جوهرين مختلفين. ويظهر في الفكر العراقي القديم بشخصية مركبة ومتناقضة. وبالرغم من كل ذلك فقد أوجد العراقي القديم دوراً في عملية الخلق لجوهري إنليل المتناقضين. لهذا كان إنليل ثقة الإنسان العراقي القديم وخوفه في آن واحد.

(١) ثروت عكاشة، الفن العراقي القديم ...، ص ٦٠.

(٢) ثوركليد جاكبسون، أديان ما بين النهرين ...، ص ٢٣١.

(٣) Boumann, H., The Land of Ur, (Oxford, 1969), pp. 22-23.

(٤) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية ...، ص ٢٦.

٣- جوهر الأرض

إن العنصر الثالث المكون لجوهر الخلق وفقاً للفكر العراقي القديم هو الأرض، وقد توصل العراقيون القدماء إلى فهم قوتها واساليبها ، مثلما فعل في السماء والعاصفة، بتجربتهم المباشرة لها بوصفها تتمتع بإرادة داخلية واتجاه باطني. لقد كشفت الأرض عن جوهرها للعراقي القديم قبل كل شيء في صورة (الأرض الأم)، ذلك المصدر الغامض العظيم الذي لا ينضب، للحياة الجديدة والخصب في كل أنواعه^(١). فالأرض هي الأم الحقيقية للإنسان ولجميع مظاهر الحياة عليها، من بطنها تخرج عشباً وزرعاً وشجراً، حياة للإنسان والحيوان، ومن أعماقها تتفجر ينابيع المياه، وعلى سطحها تسيل مجاري الأنهار. يلتصق بها الإنسان في حياته ويعود إلى جوفها في مماته^(٢).

لم يكن من السهل على الإنسان العراقي القديم إدراكه للأرض وحصرها ضمن نطاق قوة أو فكرة واحدة، نتيجة لقربها منه ، ولأهميتها في حياته من شتى النواحي، لهذا نراه يجسدها في صور إلهة مؤنثة عديدة^(٣). فالإلهة (كاتومدوك) و (نينتو) و (نينخورساك) و (بيليت) و (بيليت- ايلي) و (نينماخ) و (ننليل) و (مامي) بالإضافة إلى التسميات الأخرى، ما هي إلا تسميات متنوعة لنفس الإلهة ، أو بالأحرى للإلهة - الأم. بكلمة أوضح، أن وراء كل هذه التسميات توجد آلهة واحدة تمثل في الجوهر الأخصاب ألا وهي الإلهة الأرض الأم، التي يفترض فيها أن تكون أم الجميع^(٤). أما أسم الإلهة الذي أستخدم لتمثيل جوهر الأرض بشكل رئيس في الفكر العراقي القديم فهي الإلهة (ننخورساك)، والذي يعني باللغة السومرية حرفياً (سيدة الجبل العظيم)^(٥). وربما كان سبب هذا اللقب ما يتمتع به الجبل من صفة الخصوبة وإنتاج للغذاء بسبب ما يكسوه من نباتات وحشائش طبيعية لا تكلف في الحصول عليها ذات العناء الذي تكلفه زراعة الأرض في المناطق الأخرى^(٦). فضلاً عن ارتباط كل ذلك بالجبل الكوني الذي ظهرت منه كل أشكال الحياة في هذا الكون بوصفه التشكل الكوني الأول فيه.

(١) ثوركلد جاكسون ، أرض الرافدين...، ص ص ١٦٩-١٧٠ ..

(٢) فراس السواح ، لغز عشتار ... ، ص ٥٠.

(٣) ثوركلد جاكسون ، أرض الرافدين...، ص ص ١٧١.

(٤) عبد الرضا الطعان ، الفكر السياسي ... ، ص ص ٤٤٣-٤٤٤.

(٥) Jacobsen, T. H., Toward the Image of Tammuz and other Essays on Mesopotamian History and Culture, (TITC), (Cambridge, 1970), P.30.

(٦) نائل حنون، " شخصية الإلهة الأم ودور الإلهة انا عشتار في النصوص السومرية والأكديّة"، سومر، مج ٣٤، ج ١-٢، (بغداد، ١٩٧٨)، ص ٢٧.

ويرجح صموئيل نوح كيرمر أن يكون أسم ننخرسك بالاصل ((كي)) أي الأرض^(١)، وبيوافقه في ذلك ثوركلد ياكبسون الذي يرجع سبب التحول عن هذا الأسم إلى ما توصل إليه سكان بلاد الرافدين القدماء من فهم لقوة الأرض وقدرتها بتجاربهم المباشرة، بحيث لم يعد من السهل على الاسم القديم لهذه الإلهة البقاء^(٢)، إذ جعلت تتنازع أسماء أخرى مبنية على صفات بارزة مهمة^(٣).

تكشف الأرض عن جوهرها بالقوة الفعالة فيها وهي: الخصب، الميلاد، والحياة الجديدة^(٤)، أي أن جوهر الخلق لديها يتحقق بالقدرة على الأبداع ومنح الحياة عن طريق فعاليتها المؤثرة في أدامة حياة الآلهة الأخرى وحيويتهم والتحكم بها، وكذلك في حفظ حياة البشر وسائر المخلوقات بشتى السبل، مثل التأثير في خصب الطبيعة وزيادة القدرة على التكاثر والمساعدة على ولادة الأطفال ونموهم وإرضاعهم. وقد يساعد بعض الآلهة في تنفيذ هذه الفعاليات، ولكن القوة الكامنة وراءها والإرادة التي تديرها تكون من جوهر الإلهة الأم بالدرجة الأولى^(٥)، لهذا فقد عدّ جوهر الأرض المخصبة إحدى القوى أو الآلهة الخالقة في الفكر العراقي القديم^(٦). كذلك كانت أولى المعبودات التي عبدتها مجتمعات القرى الزراعية في العصر العصر الحجري الحديث.

أدرك العراقي القديم من خلال تأملاته وملاحظاته المباشرة، والتي كانت تهدف إلى البحث عن أصل الحياة ومصدر خلقها، أن جوهر الأرض يعبر عن قدرة خلق منفعة لا فاعلة. فخصب الأرض لا يفيض عنها بل يأتي من خارجها، لأن الماء مصدر القوة الفاعلة، والذي ينبع من أعماقها ويخصبها بسقي تربتها، لا ينتمي إلى سلطتها بل إلى سلطة إله آخر، وهذا الإله كان يتغير بتغير البيئة وعواملها الطبيعية المؤثرة في الماء.

أقدم صور الاقتران تلك التي نجدها بين الأرض والسماء هي بين (كي) و (آن)، والتي فسر من خلالها المفكر العراقي القديم نشأة الحياة في هذا الكون، إذ كان إله السماء (آن) يلقي الأرض (كي) بمياه (مطر السماء) لتنتج الحياة، وهي صورة توصل إليها العراقي القديم من تراكم خبراته وملاحظاته بما

(١) ، السومريون ... ، ص ١٦٣.

(٢) ، أرض الرافدين ... ، ص ١٧١.

(٣) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٩٣.

(٤) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات ... ، ص ٥١.

(٥) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ٨١.

(٦) فاضل عبد الواحد، عشتار ومأساة ... ، ص ٢١.

يحدث في الطبيعة^(١). وعلى نفس المنوال أدرك العراقي القديم أثر الرياح وتحكمها بالمطر، لينتج عن ذلك اقتران الإله إنليل مع قوى الخصب المعبرة عن جوهر الأرض، وما نتج عنها من صور الخلق المختلفة^(٢). لكن أكثر صور الاقتران بين ننخرساك (الإلهة الأم) كان مع إله المياه أنكي-آيا، وهو الأمر الذي يبدو واضحاً في أساطير الخلق^(٣).

إن هذا التغير في شخص الإله المقترن مع الأرض لخلق الحياة، لا يشير، كما نوهنا في موضع سابق، إلى حدوث تغير جوهري في المعتقد الديني للإنسان العراقي القديم، بل يشير إلى تغير في نوعية البيئة الطبيعية التي أثرت في فكره^(٤)، فهذا الأخير كان يتطور ويتغير لدى الإنسان العراقي القديم تبعاً لتطور وتغير حياته ونظامه الاقتصادي واسلوب تفكيره وتفاعله مع بيئته الطبيعية. فلما كانت الزراعة في بداية ظهورها في المناطق الشمالية من العراق تعتمد في زراعتها على المطر، لهذا أصبح إله السماء (آن) وإله الرياح (إنليل)، بوصفهما القوى الطبيعية الأكثر تأثيراً في المطر، الدور الأبرز في الاقتران بالأرض أو في إروائها وبالتالي الدور الأبرز في عملية الخلق. لكن بعد انتقال العراقي القديم للسكن في المنطقة الجنوبية من البلاد، وبسبب اعتماد الزراعة في تلك المنطقة على الري بمياه الأنهار دون المطر، أصبح الإله المقترن بالأرض هو إله المياه أنكي-آيا، وبالتالي كان له الدور الأبرز في عملية الخلق^(٥).

إن الاتصال ما بين الإله والإلهة لم يكن في الفكر العراقي القديم عمل عبادة، ولا رمزاً، وإنما حدثاً من أحداث الطبيعة يقترن بنتيجة ثابتة ومباشرة هي عودة الخصب والاختصاص إلى الريف والقطعان والناس. بكلمة أخرى هو عمل يؤدي إلى الخلق. لهذا كان جوهر الأرض وقدرتها على الخلق لا يتم إلا من خلال اقترانها مع الإله الذكر ذو الخصوبة الفاعلة ومصدر الخلق وهي المياه، بوصفه قوة طبيعية تتحكم أو تؤثر في قوة الخلق تلك. فوفقاً لملمحة اترا- حاسيس لم تتمكن الإلهة الأم ممثلة بالإلهة الخالقة (نينتو) من إتمام المهمة المكلفة بها من الآلهة العظام، والمتمثلة بخلق الإنسان، إلا بمساعدة الإله أنكي-آيا. وهذا ما يبينه النص الآتي من تلك الملمحة:

"فتحت ننتو فاهها

(١) سيد القمني، قصة الخلق ... ، ص ٢٠.

(٢) انظر جوهر أنليل.

(٣) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ١٠٣.

(٤) فوزي رشيد، الديانة ... ، ص ١٧٠.

(٥) المصدر نفسه ، ص ص ١٦٥-١٧٠.

وقالت للآلهة العظام:

ليس لي أن أقوم بذلك،

فان المهمة تقع على عاتق انكي

فهو الذي يطهر كل شيء

فليعطني الطين لكي أبدأ بالعمل^(١).

لقد لعبت الإلهة الأم الأرض، بتسمياتها المتعددة، دوراً كبيراً في موضوع الخلق في الفكر العراقي القديم. لأنها تجسد في جوهرها القوى التناسلية في الكون كله، فهي أم الآلهة وهي كذلك أم البشر وخالقتهم، لهذا استحققت منصبها كقوة عليا تجلس إلى جانب أنو وإنليل في مجمع الآلهة^(٢). حيث كان أسمها يتقدم على أسم أنكي حينما تذكر الآلهة الأربعة الخالقة^(٣). ففي موضوع خلق الإنسان نراها تأخذ دور الإله الخالق لهذا الكائن، كما في أسطورة اتراحاسيس التي اقتبسنا النص أعلاه منها، وكذلك في أسطورة انكي ونخرساك، وفي ملحمة كلكامش حيث تقوم آرورو بخلق انكيديو^(٤)، لكنها بالرغم من ذلك لم تكن تستطيع إكمال عملية الخلق لوحدها، بل كان لابد من تواجد الإله الذكر معها لإتمام تلك العملية. والذي يعبر في الحقيقة عن ضمان الخصب في الطبيعة والذي يشكل الركيزة التي يقوم عليها الفكر الديني في العراق القديم.

نتيجة للمكانة الخطيرة التي تميز بها- وبدرجة تكاد تقرب من المشاركة- الإلهان ننخرساك وإنكي/آيا فكان من الطبيعي أن تتحد قواهما التي تكمل بعضها ببعضها^(٥). فقد عكس العراقي القديم ما يحدث في الطبيعة وتحديد العلاقة بين الماء والتربة الخصبة، في صورة الاقتزان بين هذين الإلهين، والذي كان واضحاً في أساطير الخلق. ولاسيما أسطورة إنكي ونخرساك. فوفقاً لتلك الأسطورة كان ثمرة زواج إنكي/آيا (الماء) مع ننخرساك (التربة الخصبة-الأرض الأم)، هو ولادة ابنتهما الإلهة ننسار إي النبات.

(١) رينيه لابات، المعتقدات الدينية ...، ص ٢٢.

(٢) ثوركليد جاكسون، أرض الرافدين ...، ص ص ١٧٠-١٧١.

(٣) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ص ٩٢-٩٣.

(٤) جان بوتيرو، الديانة عند البابليين ...، ص ١١٤.

(٥) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ص ٩٣-٩٤.

ولكي يفسر العراقي القديم حالة الاخضرار التي تكسي أراضيه في فصل الربيع بعدما تتسحب مياه الفيضان السنوي في العراق عائدة إلى مجراها في الأنهر، فقد ربطها بهجرة إنكي لزوجته نخرساک قبل أن تولد إلهة النبات. كذلك فإن العراقي القديم لم يرى في انحسار الخضرة عن الأراضي المفتوحة وتجمعها حول مجاري الأنهار في أواخر الربيع، إلا في صورة مجيء إلهة النبات ننسار إلى ضفة النهر حيث يقيم إنكي/آيا^(١).

٤- جوهر الماء

عَدَّ الإله إنكي- آيا الإله الممثل للمياه العذبة في الفكر العراقي القديم^(٢). ويعني المصطلح السومري (إنكي ENKI) سيد الأرض، بينما يعني المصطلح (آيا EA) السومري الأصل الآكدي الاستعمال، سيد الماء العذب^(٣). فهو سيد للأرض لأنها مصدر الأنهار والينابيع والآبار وهي التي تمثل المياه العذبة مانحة الحياة. لهذا فالإله أنكي-آيا سيد الأرض وسيد المياه الجوفية، وكذلك إله الحكمة والمعرفة عند العراقيين القدماء^(٤).

اعتبرت المياه في منظور الإنسان العراقي القديم مصدر الحياة في هذا الكون^(٥). ومع ذلك فإن المفكر العراقي القديم لم يعط للمياه جوهر خلاق واحد. بل اختلف باختلاف مصادر المياه في البيئة العراقية وتأثيرها على حياة الإنسان فيها. فالمياه الأزلية والآلهة التي تمثلها (نمو، آبسو، وتيامة)، كانت تعد في الفكر العراقي القديم العلة أو المحرك الأول لكل أشكال الحياة^(٦). ومع ذلك فإن ذلك الفكر قد شخّص جوهرها الخلاق بجوهر فوضوي يجب التخلص مع بداية ظهور الكون المنظم أو عند اكتماله. كونها تمثل فوضى الطبيعة من مياه الأهوار والمستنقعات أو فيضانات الأنهار المدمرة، والتي كان على الإنسان العراقي القديم محاولة القضاء عليها سواء بتجفيف مياه الأهوار والمستنقعات أو تنظيم مشاريع الري للتصدي لمياه الفيضانات. إذا ما أراد تسخير الطبيعة لصالحه وبناء حضارته عليها^(٧). وهذا ما عبر عنه المفكر العراقي القديم في المصير الذي وضعه للآلهة التي تمثل تلك المياه. فالإلهة نمو التي تمثل

(١) ثوركليد جاكبسون، ارض الرافدين ... ، ص ١٨٥.

(٢) Jacobsen, T. H., Toward the Image of Tammuz ..., p.32.

(٣) Leick, G., DANEM , p.40.

(٤) طه باقر، ديانة البابليين ...، ص ١٦؛ فوزي رشيد، الديانة ...، ص ١٥٥.

(٥) عبد الباسط سيدا، من الوعي الأسطوري ...، ص ص ١٧٤-١٧٥.

(٦) فراس السواح، لغز عشتار ...، ص ٥٠.

(٧) طه باقر، مقدمة في تاريخ ...، ج١، ص ٤٦.

المياه الأزلية وفقاً للنظرة السومرية لم تعد تُذكر في الأساطير التي تبدأ موضوعها في الكون المخلوق سواء بالتطرق لخلق إله أو بخلق أجزاء الكون، كونها قد استنفذت مادتها في خلق الكون في أول مراحل التكوين^(١). بينما كان مصير الإله آبسو والإلهة تيامة، اللذان يمثلان المياه الأزلية وفقاً للرؤية البابلية، القتل على يد الإله مردوخ ليتمكن من خلق الكون. فتلك الآلهة لا تمثل قوة الخلق المائية الدائمة الوجود في الكون المخلوق، لأن تلك القوة الخلاقة للمياه تتمثل في الإله إنكي-آيا في الفكر العراقي القديم، الذي لا صلة له بالبيئة بالمياه الأزلية^(٢).

إن غياب الإرواء الطبيعي عن الزراعة في العراق القديم، جعل من مياه الأنهار القوة الإنتاجية الرئيسية. وهذه الحقيقة كان لها انعكاسها الفكري عبر الخطوة الخاصة التي تميزت بها المياه في الفكر العراقي القديم. ولم يكن هذا كله سوى إدراك للعلاقة السببية، بين المياه والإنسان، خلال مجتمعات القرى الزراعية المستقرة التي ظهرت جنوب العراق، والتي ظهرت فيها أفكار دينية جديدة تركز في طقوسها على تقديس العوامل الطبيعية الأكثر تأثيراً في النمط الاقتصادي لتلك المجتمعات والمعتمد على الزراعة المروية، لهذا أصبح ينظر إلى عنصر الماء على أنه أساس الحياة ومصدر خلقها.

لهذا يظهر الإله إنكي/آيا-بوصفه إله المياه- في أغلب نتاجات العراقيين القدماء الأدبية في صفة الخالق والمبتكر الوحيد للحياة المتحضرة كلها^(٣). لكن المياه العذبة واهبة الحياة التي كانت تهيم في الأرض - مياه الآبار والينابيع والأنهار - كانت تعد في الأزمنة المبكرة جزءاً من كيان الأرض وأحدى أوجهها الكثيرة. فقد رأى العراقي القديم في هذا القوة الظاهرة من الأرض ذكراً: ((آن-كي))، أو ((سيد الأرض)). وفي العصور التاريخية نجد أن أسم الإله ((إنكي)) والدور الذي يقوم به في بعض الأساطير هما الشيتين الوحيد اللذان يشيران إلى أن إنكي والماء العذب الذي يرمز إليه لم يكونا إلا وجهاً من أوجه الأرض. لكن المياه وما فيها من قوة قد حررت نفسها، وغدت لها شخصيتها المستقلة وجوهرها الخاص^(٤).

(١) نائل حنون، عقائد الحياة والخصب ...، ص ٦٨.

(٢) ه. و. ه. ١. فرانكفورت، اعتناق الفكر من الأسطورة ...، ص ٢٦٥.

(٣) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ...، ص ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٤) ثوركليد جاكسون، أرض الرافدين ...، ص ١٧١.

إن طبيعة الماء وصفاته انعكست بشكل كبير على نمط العراقيين القدماء وتفكيرهم بشأن الأفكار والمعتقدات الدينية وحتى الآلهة المرتبطة به^(١)، فقد إدرك الإنسان العراقي القديم نتيجة أتساع وتنامي الوعي لديه أهمية المياه في حياته وحياة النبات والحيوان، ومع هذا الإدراك كانت تتسع أهمية الإله الخاص بالمياه، وتتفرع وظائفه وتنتشر عبادته، وهذا أدى إلى تحول في جوهر الإله إنكي/آيا من سيداً للأرض إلى سيداً للمياه.

فالعراقي القديم مثلما أدرك، من خلال تجربته الذاتية، أن كلا القوتين قوة الأرض ممثلة بالتربة الخصبة وقوة المياه المتدفقة من تلك الأرض، قوتان خلاتان تتجسد فيهما إرادة إلهية هدفها أنتاج حياة وكائنات وأشياء جديدة، فإنه قد أدرك كذلك أن هنالك فرقاً بين هاتين القوتين، هو الفرق بين السالب والموجب. فقوة الأرض، كي أو ننحرساك أو أي أسم آخر أطلق عليها، قوة ثابتة لا تتحرك ، فخصبها إنتاجيته منفعة أو سالبة. أما قوة الماء فمتحركة تأتي وتذهب، فنحن نرى الماء يجري في الحقول ويرويهها، ثم يتناقض ويغيض. فكأن للماء إرادة وهدف. فهو الإنتاجية الفاعلة، الفكر الواعي، الخلق^(٢). فغداً للإله إنكي-آيا إله المياه جوهرًا مستقلاً حرره من جوهر الأرض. أن جوهر هاتين القوتين أو الإلهين لا يتناقضان أو يتنافسان في تمثيلهما للأرض وقواها الخلاقة وإنما يتكاملان في تجسيدهما . لذلك فهما يمثلان أخطر العناصر في الكون بسبب طاقتيهما المنتجتين حين تتدمجان ببعضهما، وفعلاً فإنهما حين يتزوجان تكون ثمرة هذا الزواج الخلق وإنتاج الحياة .

عدّ الإله إنكي-آيا في الفكر العراقي القديم المهندس والمنفذ لخطط خلق الكون المتحضر^(٣)، لأن وجود كل شيء في ذلك العالم كان يُعزى إلى جهوده الخلاقة، وقدرة الخلق هذه قد عبر عنها العراقي القديم كجواب لمحاولته تقصي أصول الظواهر الطبيعية أو الحضارية الأساسية المحيطة به، إذ كان جوابهم عن مصدر كل شيء بالعبارة "أنكي هو الذي صنعه". وإذا ما ذكروا أسلوب الخلق إجمالاً ، فإن ذلك يتكون من كلمة الإله وأمره ولا أكثر من ذلك^(٤). فقد عدّ الإله إنكي-آيا عموماً أكثر الآلهة العراقية القديمة اسهاماً في عملية الخلق.

(١) حسين سيد نور، جذور الفكر ... ، ص ١٢٥.

(٢) ثوركليد جاكيسون، أرض الرافدين ... ، ص ص ١٧١-١٧٢.

(٣) جان بوتير، بلاد الرافدين ... ، ص ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٤) صموئيل نوح كريم، السومريون ... ، ص ١٦٢.

فعندما دخل إنكي/آيا وننماخ في مباراة بينهما ليثبتا من هو أكثر قدرة على الخلق من الآخر. أستطاع انكي تقرير مصير كل النماذج التي خلقتها ننماخ وأعانتها بالقوت، بينما فشلت ننماخ في عمل ذلك مع الشخص الوحيد الذي خلقه إنكي^(١). وإرادة الخلق التي يتمتع بها إنكي-آيا تبدو ولا شك شديدة الملاءمة لإله مياه النهر في مجتمع يعتمد على زراعة الري. ففي إحدى التراتيل يصف إنكي/آيا نفسه بهذا المظهر قائلاً:

" عندما أدنو من السماء ، ينزل مطر الخير العقيم؛ وعندما أدنو من الأرض ، يحصل فيضان النهر المبكر في أوجه؛ وعندما أدنو من الحقول المصفرة ، تتكوم تحت أمري أكداس الحبوب"^(٢).

إن المنزل الرفيعة التي أحلتها الإله إنكي-آيا في حضارة العراق القديم، لم تكن متأتية من قدرته على الخلق فحسب، فقد خُصَّ بصفات مميزة منها الحكمة والمعرفة وعطفه على البشر والتزام جانب الإنسان في كثير من المحن والشدائد التي أحاقت به كما في كارثة الطوفان، وأنه هو الذي علّم البشر فنون الحضارة ونشر عناصر العمران، وأطلع بنصيب كبير في تدبيره لشؤون الكون وتنظيمه للمجتمع البشري وأنه كان يحوز على النواميس الإلهية التي تسير بموجبها العناصر المختلفة للعمران والحضارة^(٣).

لقد شخص العراقي القديم صفات (الحكمة، الذكاء، المعرفة) التي أتصف بها الإله إنكي-آيا وعدّها جوهرًا له، فضلاً عن جوهر الخلق السابق، من خلال تجربته المباشرة مع المياه. فقد لاحظ أن للماء طرقات في الجريان والانسياب توحى بالمكر، فهو لا يعلو العوائق والمرتفعات بل يتجنبها، ويداور في اتجاهاته حتى يبلغ هدفه. والمزارع الذي يروي حقله بالماء، مسيلاً إياه من قناة إلى أخرى، يدرك مكر المياه وسرعة تسربها من بين يديه وجريانها إلى حيث لا يرغب أحياناً. وحركة الماء هذه وما توحى به جعلت العراقي القديم ينسب صفات الخديعة والمهارة إلى إله المياه إنكي. وتطورت هذه الناحية من كيانه حين جعل الإنسان يتأمل مياه الآبار والبحيرات الساكنة المظلمة التي لا ينفذ فيها البصر، مما أوحى إليه بأن الماء، وبالتالي الإله إنكي-آيا، يتمتع بالعمق الفكري والحكمة والمعرفة^(٤).

(١) نائل حنون ، عقائد الحياة والخصب ... ، ص ص ٦٥-٦٦ ..

(٢) ثوركليد جاكبسون، أديان ما بين النهرين ... ، ص ٢٣٤.

(٣) طه باقر، مقدمة في أدب ... ، ص ١١٢.

(٤) جورج رو، العراق القديم ... ، ص ١٣٤.

لهذا فإن انتصار إنكي/آيا على ننماخ، الذي اشرنا إليه قبل قليل، لا يثبت تفوق الإله آنكي في طاقة التصنيع والتكييف (الخلق)، بل يُثبت كذلك حقيقة التفوق المطلق لإنكي/آيا في صفات العقل والمهارة والتقنية (الحكمة والمعرفة)، إذ استطاع إنكي أن يجد مهمة لجميع النماذج البشرية، حتى الناقصة منها التي لا يمكن استخدامها. فهو اذن في آن واحد ممدّن ومخترع ومحتفظ بجميع القيم الثقافية، ولكنه أيضاً الأذكى والأفطن والتقني الأفضل، وهو وحده قادر على الخروج من جميع المأزق وعلى تكييف كل شيء مع هدفه، وعلى إخضاع المادة لجميع الاستعمالات^(١). وهذه القدرة تماثل قدرة الإنسان العراقي القديم الذي تحدى بيئته الصعبة والعنيفة واستطاع التغلب عليها وترويضها وجعلها صالحة للسكن، وليتمكن من بناء الحضارة العراقية القديمة في ربوعها.

تعكس لنا أسطورة آنكي وتنظيم الكون صفة أخرى من جوهر آنكي ألا وهي التقلب، حيث نجد نخرساک قد تنبّهت لها بعد مغامرات انكي معها ومن ثم مع بناتها توالياً. أن هذه الصفة متأتية بلا شك من طبيعة الماء وخاصة في العراق القديم، حيث نراه يطغى في مواسم الفيضان، ثم يعود لمجاري الأنهار تاركا الخضرة والنباتات التي أوجدها نتيجة لاتحاده مع التربة نخرساک لمصير الجفاف^(٢). لكن ما يسترعي الانتباه في هذه الأسطورة، وأسطورة (انكي ونخرساک)، هو الدور الذي يلعبه الإله إنكي في الفكر العراقي القديم، وهو دور ممدّن ومنظم العالم، وذلك عن طريق تحكمه بالماء العذب، الذي لولاه لما قامت الزراعة الاصطناعية أساس ذلك التمدن. لهذا فعلى الرغم من إنكي لم يتولى حكم العالم، إلا أنه بالرغم من ذلك هو الذي خطط ونظم كل تفاصيله، لكي يكيّفها جميعاً مع غايتها الخاصة، وهي خدمة الإنسان العراقي القديم^(٣).

إن جوهر الإله إنكي-آيا والمكانة التي أحتلها في الفكر العراقي القديم، تعطينا أفضل صورة عن أثر البيئة في تشكل فلسفة الخلق لدى الإنسان العراقي القديم، واتخاذها كطريقة لتسيير شؤون حياته المختلفة. فقد فرضت البيئة الطبيعية الصعبة في جنوب البلاد على الإنسان العراقي القديم بان يتسم بطابع العملية سواء في فكره الديني أو الدنيوي، لكي يتسنى له التوصل إلى وسائل وتقنيات ناجحة يواجه بها تلك البيئة الصعبة ويخضعها له، فيتمكن من العيش وبناء حضارته والحصول على الأمن والازدهار في وسط تلك البيئة.

(١) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ...، ص ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) ثوركليد جاكسون، ارض الرافدين ...، ص ١٨٥.

(٣) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ...، ص ص ٢٨٩-٢٩٠.

إن حضارة العراقيون القدماء وحياتهم مع طريقة عيشهم كلها، كانت مؤسسة ، قبل كل شيء، ومنذ القدم، على العمل المشترك والإنتاج والتطوير المكثف للخبرات النافعة^(١). وفي نظام مثل هذا ، ينقاد كل شيء في نهاية الأمر، لنشاط فكري يبحث ويخترع ويرقي ويحسن إجراءات، ليس لرؤية فضلى، بل لعمل أفضل. فالمعرفة كلها، والعقل كله كانا مستقطين بالإنتاج والعمل، وهذا أمر يتحقق في ((الحكم العملي)) للصانع، أي ما نسميه بـ (المهنة)، كما في مهارة وطاقة التكيف لدى المخطّط، وفي العقل السليم واللباقة على الصعيد الجماعي، كما على صعيد النجاح الفردي. لهذا نجد العراقيون القدماء وتحت تأثير كل ذلك وبفضل صفة العملية التي أتمموا بها لم يضعوا بجانب سيد الكون عندهم إله الحرب أو العدالة، بل إله جوهره الخلق، ولكن هذا الجوهر يتمتع بالحكمة والعمق الفكري والمعرفة^(٢). لهذا كان أنكي إله الحكمة هو المسؤول بالدرجة الأولى عن تنظيم الأرض وفقاً لقرارات الإله أنليل الذي لم يضع سوى الخطط العامة. أما التفاصيل العملية وتنفيذها فقد تركت إلى الإله أنكي الذي يتصف بالدهاء والبراعة والحكمة^(٣). فهو كما يصفه النص الآتي:

" الأخ الأكبر للآلهة وخالق الازدهار،

الذي يوازن ويحسب الكون!

وهو أذن وعقل كل البلدان"^(٤)

إن جوهر الخلق الذي تمتع به الإله إنكي-آيا واستعمال هذه القدرة بذكاء وحكمة^(٥)، جعل منه المنفذ الذي يلجأ إليه الآلهة والإنسان على حدّ سواء، من أجل إيجاد الحلول المناسبة للمشاكل التي تعترض الكون في الأرض والسماء. فإليه يعزى خلق الإنسان كحل للمشكلة التي واجهت الآلهة العظام في بحثها عن عامل يوفر لها الطعام والعناية بمعابدها، ليحل محل آلهة الايكيكي الثائرة، في كل من قصة الخليفة البابلية وقصة الطوفان التي بطلها اتراحاسيس، وفي هذه الأخيرة نجده يستجيب إلى استغاثة البشر فيدلهم أولاً على الطريقة التي يتخلصون بها من القحط والمرض اللذين أنزلهما الإله أنليل^(٦)، وثانية

(١) بديعة امين، فكرة الصراع ...، ص ص ٦٠-٦١.

(٢) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ...، ص ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٣) صموئيل نوح كريم، السومريون ...، ص ١٦٢.

(٤) جورج رو، العراق القديم ...، ص ص ١٣٤-١٣٥.

(٥) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات ...، ص ٥١.

(٦) فاضل عبد الواحد علي، المعتقدات الدينية، موسوعة الموصل، ج ١، ص ٣٠٦.

في إبعازه إلى رجل الطوفان ببناء سفينة يتمكن من خلالها النجاة من خطر الطوفان الذي قررت الآلهة إرساله لإفناء البشر^(١). لذلك عرف الإله انكي في الفكر العراقي القديم بحبه الكبير للبشر ومساعدتهم لحل مشاكل الحياة المختلفة أو الوقوف إلى جانبهم بوجه غضب الآلهة وسخطها عليهم ولاسيما الإله إنليل^(٢).

بفضل جوهر الإله إنكي-آيا المتمثل بقدرة الخلق وتمتعه بالعمق الفكري والحكمة والمعرفة، فقد كان أساس تفاؤل الإنسان العراقي القديم، إنه المبدأ الفعال في بقاء الجنس البشري. فهو سبب الديمومة والضرورة وكل حياة جديدة وكل وفرة وخير ينالها ذلك الإنسان، وأستمر انكي في رعاية الإنسان على الأرض وصيانة حياته واستمراره في الوجود بتكفل الوفرة ووسع تعميم الخير وإبعاد الأذى عن الإنسان، ولقد كان دور إنكي/آيا هذا واضحاً من خلال العديد من النصوص، لعل أشهرها دوره في قصة الطوفان والذي تمثل في إنفاذ البشرية من الهلاك.

ثالثاً: أثر البيئة في تنظيم الآلهة الخالقة في الفكر العراقي القديم

كان العراقيون القدماء مقتنعين بأن العالم حولهم لم يكن له علة وجود في ذاته، بل كان خاضعاً كلياً لقوى عليا قد خلقتهم وهي تحكمه، قبل كل شيء لفائدتها الخاصة. فكل شيء في ذلك العالم، من كائنات وأحداث ، منوط بعملهم وإرادتهم ويدخل ضمن نوع من المخطط العام الذي كان في عقلهم والذي يستحيل على البشر إدراكه كما هو، إنما يكتشفون سيره يوماً فيوماً. فلا شيء مما نجعله عن الماضي والحاضر، وبالطبع عن المستقبل، يفلت عن معرفة الآلهة وعن قرارهم^(٣). والفكر العراقي القديم لم يشأ أو ربما أنه لم يتمكن أن يتناول بعمق مدى إمكانية مواجهة الآلهة ومخالفة أرائها، كما أنه لم يبحث عن أي سند عقلي مجرد لمبدأ العلية، بل رأى أن هذا المبدأ ينطلق من مشيئة الآلهة نفسها، أو بكلمة أخرى من جوهرها^(٤). لكن استقراء النتاج الأدبي العراقي القديم ، من خلال الأساطير والملاحم وغيرها من التأليف الشعرية والنثرية، يبرز لنا بشكل واضح فوارق جوهرية بين شخصيات الآلهة وطبائعهم وحالاتهم النفسية. فهناك من أُتسم بجوهر العنف وآخر بجوهر الحب وفعل الخير، وقد يجمع بعض الآلهة صفات تبدو متناقضة أحياناً.

(١) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية ...، ص ص ٢٧-٢٨.

(٢) فاضل عبد الواحد علي وعامر سليمان، عادات وتقاليد الشعوب ...، ص ١١١.

(٣) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ...، ص ص ١٤٢-١٤٣.

(٤) عبد الباسط سيداً، من الوعي الاسطوري ...، ص ١٩٠.

إن هذا الاختلاف نابعاً من أيمان العراقي القديم من إلهته ليست سوى قوى تكمن في الظواهر والمظاهر الطبيعية، فلما كانت هذه الأخيرة تختلف بطبيعتها عن بعضها البعض بوصفها عناصر طبيعية، فإن جوهر الآلهة المجسدة لها، والذي يكشف عن نفسه للإنسان العراقي القديم في تجربته المباشرة معها، كان يوجب التناقض والاختلاف في قوى وإرادة وشخصية تلك الآلهة تبعاً لذلك. وعدم وجود قوة عليا أو آلية توحد بين تلك الإرادات المختلفة والمتناقضة يؤدي بلا شك إلى فوضى في إدارة الكون. الفوضى التي تثير الرعب والخوف في نفس العراقي القديم.

لقد أولى العراقيون القدماء مسألة تنظيم الكون والأرادات الإلهية قدراً كبيراً من الاهتمام. فأدرجت الآلهة العراقية الكثيرة العدد والمتنوعة الوظائف في مجمع إلهي ضم أهم تلك الآلهة وفي مقدمتها الآلهة الخالقة^(١). كذلك أستطاع المفكر العراقي القديم أن يطور نظاماً مؤلفاً من مجموعة من (النواميس الإلهية)، التي يؤدي الالتزام بها إلى تحقيق مبدأ الانسجام الكوني سميت بـ(المي - ME)، والقول بها يعني القول بنظام كامل منسجم يكمن وراء الظواهر المتغيرة ويحكمها، إي التوحيد بين أرادات وقوى الآلهة^(٢). فهي عبارة عن قواعد ونظم ابتدعتها الآلهة ليسيروا الكون بانتظام وفعالية^(٣).

أعتقد مفكرو العراق القديم أن الآلهة نفسها حينما تفقد هذه النواميس فإنها تفقد كل قوتها-كما في أسطورة الطائر زو- وهذا ربما كان دليلاً آخر يثبت مدى الأهمية التي أعطيت لمسألة التنظيم في المجتمع العراقي القديم، الذي وجد في هذه المسألة ضبطاً لموارده وخاصة المائية منها، وكذلك تحديداً لعلاقاته الاجتماعية ، وترسيخاً في الوقت ذاته لهيمنة المعبد والقصر، من خلال إبراز أهمية دورهما علي صعيد الحياة الدينية والدينيوية^(٤).

لكن بالرغم من ذلك نجد، من خلال الإشارات المتكررة والواضحة في الفكر العراقي القديم، بأن بعض الآلهة العراقية القديمة كانت تتصف بسلوك متقلب ومتفرد في إدارة الكون يخالف النواميس الإلهية، أي القوانين والأنظمة التي وضعتها الآلهة نفسها لتنظيم إدارة الكون^(٥).

(١) Bottero, Jean, Religion in Ancient Mesopotamia....p.45.

(٢) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات ... ، ص ٤٥ .

(٣) صموئيل نوح كريم، السومريون ... ، ص ١٦٧ .

(٤) عبد الباسط سيديا، من الوعي الاسطوري ... ، ص ١٧٨ .

(٥) ف . فون زودن ، مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ترجمة: فاروق اسماعيل، دار المدى للثقافة والنشر، (دمشق، ٢٠٠٣)، ص ٢٠٣ .

وهذا ما نجده في قرار الإله إنليل المتفرد والرامي إلى أهلاك البشر وإفنائهم^(١)، وموقف الإله ذاته في حادثة سقوط آكد^(٢)، وقرار الإله أنو وإنليل الخاص بإسقاط مدينة أور^(٣). حتى أنها في سبيل ذلك لجأت إلى تعطيل النواميس أو القوانين الإلهية (مي)^(٤). وهذا ما يوضحه النص الآتي:

" لتدنيس الحقوق والمراسيم،

لنقل الملوكية من البلاد،

ليسلط ويل العاصفة على كل البلاد،

للتخلي عن المراسيم الإلهية بأمر من آن وإنليل،"^(٥).

كان الإنسان العراقي القديم أمام كل مصيبة طارئة أو نكبة أو مرض مباغت أو كارثة غير متوقعة- وهذه كلها أمور تدخل في الرؤية المتمحورة حول الآلهة التي كانت لدى العراقيين القدماء عن سير العالم، ولم تكن تتسبب إلا إلى لقرار الآلهة وإرادتهم- كان الناس يفكرون حالاً فيهم وكأنهم سبب هذه الشرور. وكانوا مقتنعين بأن مثل هؤلاء الأشخاص العظام الذين لا يطالهم لوم ما كانوا يستطيعون العمل بغير معنى وكأنهم يعبثون دون سبب. لذا كان الناس مضطرين إلى إقحام معنى العدالة عندهم^(٦). لأن الإنسان العراقي القديم وهو يرى ازدواجية الفعل الإلهي وتقلب سلوكها وعدم التزامها بالقوانين التي وضعتها هي نفسها، أخذ يعتليه الشك والريبة تجاه إلهته، فقد غدت مصدر آلامه وعذابه^(٧). حتى أنه ومن خلال بعض المؤلفات الأدبية نراه قد وقع في حالة من الاغتراب الديني، وهذا ما نجده في قصيدة لأمجذن رب الحكمة^(٨).

(١) ادموند سولبركر، أسطورة الطوفان البابلية، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلي، الدار العربية للموسوعات، (بيروت، ٢٠٠٠)، ص ٢٠.

(٢) صموئيل نوح كريم، السومريون ... ، ص ٨٥.

(٣) فاضل عبدالواحد علي، من الواح سومر ...، ص ٣٢٤.

(٤) طه باقر، مقدمة في أدب ...، ص ٢١٦.

(٥) Michalowski, P., The Lamentation Over The Destruction of Sumer and Ur, (USA, 1989), p. 37.

(٦) جان بوتيرو، بلاد الرافدين ... ، ص ٢٧٨.

(٧) مزهر محسن الخفاجي ، خصائص الشخصية العراقية ...، ص ٢٥٥.

(٨) عبد الغفار مكاي ، جذور الاستبداد - قراءة في أدب قديم، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، ١٩٩٤)، ص ١٤٣.

قد تكون للصبغة السياسية التي أضفاها العراقي القديم على آلهته دوراً في خروجها بهذه الصورة الساخطة والكارهة للبشر^(١)، ولكن علينا أن نستذكر، وكما أشرنا سابقاً، أن تصور جوهر الآلهة وطبيعتهم ودورهم في الحياة كان قد تشكل في ذهنية العراقي القديم في مواجهته المباشرة لظواهر ومظاهر الطبيعة المجسدة لتلك الآلهة، وهذا التصور يسبق كل العوامل الأخرى التي أثرت على شخصيات الآلهة وسلوكها في الفكر العراقي القديم ومن ضمنها العامل السياسي.

فبالنسبة للعراقي القديم أن ما كان يحدث في الطبيعة من خصب وقحط، وأمطار وجفاف، وخضرة ويباس، هو في صميمه انعكاس لدرام إلهي أبطاله الآلهة أنفسهم. وهذه الطبيعة بما أنها انعكاس لقوى الآلهة المختلفة وشفافية عن كينونتهم القدسية، فإن كل مظاهرها والتغيرات التي تطرأ عليها والتحركات الظاهرة والخافية فيها، أن هي إلا انعكاس وترجمة لأحداث ومظاهر وتغيرات تقع فيما وراء الطبيعة، حيث عاش الآلهة بحياتهم وعواطفهم ونزعاتهم. ولما كانت البيئة الطبيعية في العراقي تتصف بالعنف والتقلب وعدم الثبات، فمن الطبيعي جداً أن تتصف الآلهة الممثلة لأجزاء تلك الطبيعة ومظاهرها المختلفة، هي الأخرى بصفة العنف والتقلب وعدم الثبات، وبأن تكون تلك الصفات جزءاً من جوهر الآلهة العراقية القديمة. لهذا فإن المفكر العراقي القديم لم يجد بداً من أن يدخل تلك الصفات وجميع الصفات غير السوية في أسماء النواميس الإلهية (الـمي - ME)، والتي نجد فيها قواعد تتحكم بالسلوكيات غير الأخلاقية إلى جانب القواعد التي تتحكم بالسلوكيات الأخلاقية.

(١) جورج كونتينو، الحياة اليومية ... ، ص ٤٤٣؛ ليو اوبنهايم ، بلاد ما بين النهرين ، ص ٢٤٣.

المبحث الثاني

أثر البيئة في تشكل جوهر الخلق في الفكر المصري القديم

أولاً: أثر البيئة في تحديد الآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم

شكل الدين أعظم العوامل تأثيراً في نفوس الشعوب القديمة، إذ لم تتواجد قوة في حياة الإنسان القديم كان تأثيرها متغلغلاً في جميع أوجه نشاطه كما كانت تفعل قوة الدين، وهو الحال الذي كان عليه الإنسان المصري القديم^(١). بل أن اهتمام المصريين القدماء بكل الأمور المتصلة بالعقيدة الدينية قد جاوز كل المقاييس وفقاً للمؤرخ اليوناني (هيرودوت). والذي بنى حكمه هذا من واقع ملاحظاته الشخصية لمدى الحرص الذي يؤدون به طقوس عقائدهم والتي تهدف في جوهرها إلى عبادة الآلهة. وما يؤكد ذلك هي تلك الآثار التي قدمت الأدلة-ومنذ العصور المبكرة وحتى عهد متأخر من تاريخهم^(٢).

إن المصري القديم كغيره من الأقطام المعاصرين له كان يرى قوة آلهته مجسمة فيما حوله من مظاهر وظواهر الطبيعة المختلفة والمتنوعة^(٣). وفي نطاق عالم العبادة المادي والمترامي الأطراف هذا فقد تواجدت الآلهة في كافة الأنحاء المكونة للعالم: أي في السماء والأرض، والحقول ومياه النهر، وفي الصحاري القاحلة أو البساتين اليبانة وغيرها^(٤). ونتج عن ذلك وجود عدد كبير من الآلهة التي عبدت في كافة أجزاء مصر القديمة^(٥). لكن تلك الآلهة لم تكن جميعها تتساوى من حيث المركز والأهمية في نظر المصري القديم، كما لم تتمتع جميعها بقدرة الخلق، فهذه القدرة اقتصرَت على عدد صغير من الآلهة المصرية القديمة^(٦)؛ والتي على الرغم من الأشكال الحيوانية والرموز الغريبة والعديدة التي أطلقها المصري القديم عليها، ألا أنها تبقى من حيث الجوهر تتفق مع مفهوم الكون والقوى المتواجدة فيه^(٧).

(١) جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين ...، ص ٣٠.

(٢) والاس بدج، آلهة المصريين ...، ص ص ٢٣-٢٤.

(٣) جيمس هنري برستد، تاريخ مصر من أقدم العصور ...، ص ٣٥.

(٤) كلير لالويت، الفن والحياة في مصر الفرعونية، ترجمة: فاطمة عبدالله، مراجعة: محمود ماهر طه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٣٤٥.

(٥) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج ١، ص ١٤٧.

(٦) أحمد مالك الفتیان، دراسات في التاريخ القديم، دار ابن الاثير - جامعة الموصل، ١٩٧٨، ص ٣١١.

(٧) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٢٩.

لقد عبد المصريون القدماء الآلهة منذ أبعد عهود ما قبل التاريخ، وهي وليدة عقيدة دينية ارتبطت منذ تلك العصور القديمة بالمظاهر المادية التي تجسدها تلك الآلهة^(١). لهذا فعلى الرغم من تطور العقيدة الدينية ومعها التصورات الإلهية بتقدم الحضارة، والذي يؤدي إلى تغير واختلاف المضمون الخاص ببعض الآلهة وفقا لتباين الفترات الزمنية وحقب التاريخ، ولكن الوظيفة الإلهية المرتبطة بجوهر الآلهة لا تتغير أبداً، فقد تضاف الخصائص الجديدة إلى سابقتها: فيعمل ذلك عل خلق جوهر مركب، ويضيف المزيد من الأهمية والفاعلية على الشخصيات الإلهية، ومع ذلك فإن جوهر الإله بقى على ما هو عليه منذ النشأة الأولى. أو كما يصفه حجر بالرمو منذ "مولد الآلهة"^(٢).

انبتقت الديانة المصرية القديمة من العقيدة السالفة عليها، إذ انبتقت مباشرة من عادات فلاحي عصر ما قبل التاريخ ورعاته. وعلى الرغم من قلة المعلومات عن ديانة المصري القديم في تلك العصور، إلا أن دراسة المخلفات المادية للإنسان تلك العصور تؤكد أن عقائده الدينية تركزت على عبادة القوى الطبيعية الأكثر أهمية وتأثيراً في حياته^(٣). فقد أخذ المصريون القدماء آلهتهم، في بادئ الأمر وفي معظم الأحوال، من طبيعة البيئة التي كانوا يعيشون فيها، مراعين في ذلك مدى أفادتهم من هذه الآلهة، سواء أكان ذلك بكشف الضر عنهم أو جلب الخير لهم، ولاسيما وأن التجارب قد علمتهم أن بعض الآلهة قد يتأتى عنها كثير من الخير، وبعضها الآخر قد يتأتى عنها كثير من الشر، ويظهر أثر البعض منها في جهات بعينها، وفي ظروف بعينها، أكثر مما يظهر أثر بعضها الآخر، الأمر الذي لم يكن يخلو من أعجاز في نطاق تصوراتهم في عصورها الأولى، والتي كانت لا تزال قليلة التجارب، محدودة الآفاق^(٤).

عاش الإنسان المصري القديم خلال العصور الحجرية الأولى حياة الترحال والتنقل لجمع الثمار وصيد الحيوانات البرية، وقد سيطر عليه الإحساس بعدم الاستقرار والخوف بسبب كثرة المخاطر المترتبة به، لهذا كان في حاجة إلى طلب العون من قوة خارجية أقوى منه توفر له باعتقاده الحماية من تلك الأخطار^(٥). أما في العصر الحجري الحديث وبعدما عرف الزراعة واستئناس الحيوان، فقد أنتقل إلى حياة الاستقرار قرب قراه الزراعية. وهذا الحياة الجديدة كانت مصحوبة بجملة تغيرات، ففضلا عن

(١) فرانسوا ديماس، آلهة مصر، ترجمة: زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٩٨)، ص ص ٢٤-٢٥.

(٢) كليز لالويت، الفن والحياة، ص ٣٤٦.

(٣) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ٢٦.

(٤) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٢، ص ص ٣٣٠-٣٣١.

(٥) عريان لبیب حنا، الشخصية المصرية، ص ٩٨.

التغيرات الاقتصادية والاجتماعية كانت هناك تحولات دينية، إذ ظهرت معتقدات دينية ترتبط بصورة رئيسية بعناصر الطبيعة الأكثر تأثيراً بالنمط الاقتصادي الجديد^(١). بدئها بتقديسه للخصوبة عبر طقوساً جماعية تؤدي من أجل رخاء المجتمع بضمان الخصب للأرض، ومجسدها في آلهة سميت (الآلهة الأم)^(٢). فهذه الآلهة تمثل فكرة الخصوبة والخلق الجديد أو زيادة الأنجاب وهي كلها أفكار ارتبطت بحياة الاستقرار بعد معرفة الزراعة، وقد عُثر في مواقع مختلفة من مصر على تماثيل الآلهة الأم في مواقع مرمرية بني سلامة، والبداري، ونقادة الأولى والثانية^(٣).

مع ازدياد استقرار الإنسان المصري القديم بوجود مجتمع القرية ومجتمع المدينة في عصر ما قبل الأسرات، ازداد تطور الفكر وتبلور العقيدة الدينية^(٤). فساكن تلك المجتمعات لم يكونوا كلهم من الفلاحين البسطاء، بل كان منهم من بلغ قدراً عالياً من السمو الفكري، الذين لم يرضوا بممارسة عقيدة تهدف إلى تحقيق الخصوبة فحسب، مهما أتممت مظاهرها الخارجية بالتعقيد^(٥). فقد توصل المصريون القدماء بعد تأمل وتفكير عميق بكل ما يحيط بهم في هذا الكون إلى: أن في الوجود قوى طبيعية وكونية أخرى كثيرة تتحكم في حياتهم ومصائرهم بطريق مباشر وغير مباشر؛ وأن كل عنصر من هذه العناصر تتكفل به قدرة إلهية تستوجب التقديس وتستحق العبادة^(٦).

ترك ارتباط المصري القديم بالأرض والنهر وأسلوب معيشته الرئيسي الزراعة بصماته على شخصيته وفكره، وجعله يركز على القوى الطبيعية الأكثر تأثيراً في اهتماماته تلك والتي تشكل أمنه الغذائي^(٧). فمن خلال تأمله للشمس لاحظ قوة تأثيرها عليه وعلى النبات وعلى بعث النور لكل الأرض، وفواعلها بأرض مصر بعد انحسار مياه فيضان النيل، كما لاحظ كتلة الأرض التي تتحسر عنها مياه الفيضان وكأنها تخرج من وسط المياه المتخبطة ويراهها بعد ذلك تخضر وتتبعث منها الحياة بعد أن كانت جافة بلا حياة وبلا زرع، مدركاً أهمية مياه فيضان النيل المحمل بالغرين لمحاصيله الزراعية^(٨).

(١) نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ١، ص ١٤.

(٢) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ٢٦.

(٣) نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ١، ص ص ٤٣-٤٤.

(٤) عريان لببيب حنا، الشخصية المصرية ...، ص ٩٩.

(٥) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ١١٥.

(٦) مصطفى النشار، الفكر الفلسفي ...، ص ص ٢٣-٢٤.

(٧) عريان لببيب حنا، الشخصية المصرية ...، ص ٩٨.

(٨) مختار السويفي، مصر والنيل في اربعة كتب عالمية، ط ٣، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، ١٩٩٦)، ص ٢٧.

لقد تشكل لدى المصري القديم من خلال ملاحظاته لقوى الطبيعة إدراكاً بأهمية وقوة بعضها على حساب باقي القوى الأخرى^(١)، فأيقن أن السماء والأرض والهواء والماء فضلاً عن الشمس هي القوى الكبرى في هذا الكون، جاعلاً من الآلهة التي جسدتها آلهة الكون العظام^(٢). وشيئاً فشيئاً بدأ المصريون القدماء يطورون فكرهم تجاه هذه الأرباب فيؤلفوا بينها وينظرون إلى علاقتهم بقضية الخلق^(٣). لتجسد الآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم، ثم نُظمت في مجاميع يسميها المصريون القدماء (بوت) تتكون من أعداد محددة من الآلهة كالثالوث والثامون والتاسوع. وقد اختلفت مجاميعها وأساطيرها وطبيعتها حسب الإله الخالق الذي اندرجت تحته، ولعل أشهرها هو تاسوع أيونو، وثامون خمنو^(٤).

كان الدين المصري القديم ثمرة تداخل عدد كبير من العبادات القبلية الأصلية وكان لكل مدينة معبودها الخاص^(٥). رغم أن الديانة المصرية القديمة كان أساسها المعبودات المحلية، لكن الآلهة الخالقة والتي تمثل: الأرض والسماء والهواء والماء والشمس. قد ارتقت بتطور التاريخ إلى أعظم المصائر رفعة، بعدما ارتبطت بالآلهة العظام، فقد عمل الكهنة على تعميق أغوار طبائعها وينسبون إليها علم لاهوت المراكز الدينية العظيمة، التي عرفت كيف تضع الآراء عن الطبيعة الإلهية وتنصب في النهاية في تيار علم لاهوت عظيم، يمكن أن يقال عنه أنه شائع لدى كل الإنسانية المتأمل^(٦).

بلورت هذه القوى، التي جسدت في هيئات بشرية، تحت مسمى الآلهة الكونية ذات الأهمية العامة للجميع، للدرجة التي لم تعد هذه الآلهة ترتبط في أصولها بأي إقليم أو مدينة في البلاد، فهي بوجودها في كل مكان لم يكن ثمة حاجة لشكل منظم لعقيدة لها أو معبد محلي محدد بعينه. وطبقاً لخيال المفكر المصري القديم أسقط على هذه المعبودات سلوكاً إنسانياً، كما كان يتم الإشارة إليها بلغة الطبيعة البشرية ذاتها، فدبجت الأساطير حول أشخاصها وأفعالها^(٧). وليفسر المفكر المصري القديم من خلالها أصل الوجود وبقاء العالم، فضلاً عن تبرير وجود القيادة السياسية^(٨).

(١) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٢، ص ٣٣٠-٣٣١.

(٢) عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود ...، ص ٣٣-٣٤.

(٣) مصطفى النشار، الفكر الفلسفي ...، ص ٢٣-٢٤.

(٤) خزعل الماجدي، الدين المصري، ص ٤٥-٤٨.

(٥) Gardiner, A. H., Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961, p.214.

(٦) فرانسو ديماس، آلهة مصر...، ص ٢٧.

(٧) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ٤٨.

(٨) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ٩٧.

كان لتأثير المتغيرات السياسية في مصر القديمة دوراً كبيراً في أحداث تغيرات دينية خاصة في تبدل مراكز الآلهة، مثل الاختفاء التام لبعض الآلهة من على مسرح الحياة الدينية، أو صعود البعض الآخر منها إلى المقام الأكبر، أو التغير التدريجي في صفات وطبيعة العديد منها^(١). وقد أدت هذه الأحداث السياسية إلى متغيرات عدة، منها حدوث تقارب بين الآلهة المحلية، فأصبح إله عاصمة الإقليم المعبود الرئيس في الإقليم، كما أضحى إله العاصمة السياسي للمملكة الموحدة بمثابة الإله الأكبر لها جميعاً. وفي هذا التطور حجت أو ضمرت بعض المعبودات لحساب الآلهة الأكثر أهمية، أو امتصت واندمجت فيها تماماً فاقدة قوامها الفردي، منتهية بذلك إلى النسيان، وقد عمد كهنة وأتباع الآلهة المحلية المهددة إلى النضال من أجل الحفاظ على آلهتها من هذا المصير، فأعلنوا أن معبوداتهم ما هي إلا أقنوم من أقانيم الإله الرئيسي لا يختلف معه في جوهر صفاته الخاصة إذا كانا يحملان بالفعل ملامح مشتركة بينهما، وقد تم على مدى الزمن التوحيد بين الكثير من المعبودات بدرجات مختلفة تتراوح بين المزج التام واختفاء أحدها كلياً في كيان الآخر، أو ظهور المعبود الأقل أهمية كمجرد نعت يضاف إلى ألقاب الإله الأعظم نفوذاً وأهمية. وهناك أسلوب آخر لجأ إليه كهنة الآلهة القديمة للحفاظ على كيانها وذلك بإدخالها عضواً في ثلوث مقدس مع آلهة رئيسية بجعل دورها بينهم دور الزوج أو الزوجة أو الأبن^(٢).

عموماً نستطيع أن نؤكد أن آلهة المصريين ظلت بدون تغيير خلال عصور مصر القديمة المختلفة وأن عقول المصريين أظهرت دائماً بروح محافظة ميلاً تجاه ثبات أشكال العبادة القديمة تجلت في معظم أمورهم وعبروا عنها في احترامهم للنصوص القديمة التي وصفوا فيها أشكال العبادة وطقوس الديانات وأداء الصلوات والالتزام بكل ما يتصل بعقائدهم الموروثة^(٣). لهذا فعلى الرغم من حركة التاريخ الدائمة وتطور الحضارة المصرية، فإن الإلهة المصرية القديمة ولاسيما الإلهة الكبرى منها قد حافظت على طبيعتها وجوهرها حتى وأن تبدلت أسمائها أو اندمجت بأخرى. فالأسماء التي أضيفت على الآلهة القديمة ليست إلا ألبيسة مصرية أضيفت على آلهة سابقة^(٤). والآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم اختصت بقدرة الخلق إلى الأبد كونها تمثل المظاهر والظواهر الطبيعية الأكثر تأثيراً في حياة الإنسان المصري القديم، وهي دائمة ومستمرة التأثير على ذلك الإنسان في البيئة المصرية.

(١) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٣) والاس بدج، آلهة المصريين ...، ص ٣٠.

(٤) فرانسو ديماس، آلهة مصر ...، ص ص ٢٤-٢٥.

ثانياً: أثر البيئة في تشكل جوهر الآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم

١- جوهر الشمس

كانت الشمس أهم مظاهر الطبيعة عند المصريين ولذلك كانت مركز عبادتهم وجوهرها^(١). فقد ظهرت عبادة الشمس في مصر القديمة منذ أقدم العصور تحت أسماء وشخصيات متعددة^(٢). مثلت قوة وأحوال الشمس ومظاهرها المتنوعة، فضلاً عن بعض الصور التي أختارها المصري القديم من بيئته الطبيعية لوصف ذلك الكوكب^(٣). ومن المحتمل جداً أن أقدم صورة تخيلها المصري لإله الشمس يرجع تاريخها إلى العهد الذي كان لا يزال فيه مصريو عصور ما قبل التاريخ يعيشون عيشة الصيد في منابع الدلتا، وذلك عندما تخيلوا إله الشمس في شكل صياد يدفع أو يجدف في زورق يشبه الرمث مؤلف من حزمتين من الغاب ليعبر به مستنقعات الغاب^(٤). وبينما أقيمت الروابط بين صور الشمس المختلفة، منذ زمن مبكر، فأنهم ظلوا، بداية بدء، آلهة متميزين في الجهات المنعزلة التي كانوا يعبدون فيها. ولا يزال باقيا في نصوص الأهرام ما كان يوجد من تفريق بين آلهة الشمس المحليين في العصور العتيقة. ولكن في العصور اللاحقة تم الدمج بين تلك الصور المتعددة^(٥). فنجد في العصور التاريخية أن رع إله أون، والذي يعني أسمه الشمس ويجسد القوة التي تكمن فيها، أصبح هو إله الشمس الرئيسي، والذي غطى على ما عداه من تسميات وصور الشمس الأخرى^(٦). وقبول المصري القديم بهذا الدمج نابع من أيمانه أن هذه التعددية ليست سوى أوجه عدة لجوهر واحد، وأنه ليس مما يؤثر في فردية الجوهر أو المعبود أن تختلف صورته وتتعدد وجوهه^(٧).

دأب المصري القديم على تأمل الطبيعة وملاحظتها في دقة متناهية، وكان يحلو له أن ينقل الأفعال البسيطة العادية إلى عالم الخيال، ومنها تصوراته عن بدء الخليقة. لهذا فبالرغم من أن صور الخلق التي تقدمها النصوص المصرية ذات صبغة خيالية أسطورية، لكنها في الوقت ذاته مبنية على

(١) خزعل الماجدي، الدين المصري القديم، ص ١٧٤.

(٢) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٢، ص ص ٣٦٣-٣٦٤.

(٣) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ١١٩.

(٤) جيمس هنري برستد، فجر الضمير ...، ص ٤٤.

(٥) جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين ...، ص ٣٧.

(٦) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٢، ص ص ٣٦٣-٣٦٤.

(٧) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم - مصر والعراق، مطبعة الانجلو المصرية، (القاهرة، ٢٠٠٤)، ص ص ٤٨١-

حقائق مادية استنتجها المصري القديم نتيجة ملاحظاته لعناصر بيئته الطبيعية وتفاعلاتها المتجددة فيما بينها.

فقد أدرك المصري القديم أن الشمس بضوئها وللدفع الذي تشعه، وبالحياة التي تقدمها للإنسان وللطبيعة بأكملها، ضرورة لمختلف أشكال ومظاهر الحياة على الأرض^(١)، وإذا كان هذا الإدراك قد يبدو عاماً لأغلب شعوب العالم القديم، فإن المصري القديم ينفرد عن معظم تلك الشعوب باعتقاده الواضح أن الشمس هي القوة المانحة للحياة ومصدرها. وهذا الاعتقاد ترسخ في عقلية المصري القديم كون الشمس، حتى في زمننا الحاضر، هي الظاهرة الطبيعية الأكثر قوة وبروزاً في بيئة وادي النيل والتي تؤثر وتحيط بكل شيء^(٢).

أبرز المفكر المصري القديم أهمية الشمس بالنسبة للحياة في بيئة مصر الطبيعية بجعله الإله المجسد لهذه القوة المسؤول عن خلق مختلف أشكال الحياة والضامن لاستمراريتها بواسطة جوهره الخلاق والمتمثل بأشعة الشمس وضياءها^(٣). وهذا ما تؤكد نصوص الأناشيد والتسابيح التي خاطب بها المصريون القدماء إله الشمس - تحت أي اسم عبده به - بأنه الإله الخالق لكل شيء^(٤). ففي ترنيمة موجهة إلى رع موجودة في كتاب الموتى نقراً فيها:

" لقد ارتفعت، أنت ارتفعت أنت تلمع أنت تلمع أنت الملك المتوج على الآلهة، أنت رب السماوات. أنت رب الأرض، أنت خالق من سكنوا القمة ومن سكنوا الأعماق. أنت الإله الأوحد الذي نشأ في بداية الزمن. أنت الذي خلقت الأرض، وشكلت الإنسان. وأنت الذي أوجدت مياه السماء، وخلقت قنوات الماء. أنت الذي خلق حابي وقت الفيضان. وأنت الذي وهبت الحياة لكل ما وجد. أنت الذي حبك ثبت الجبال معاً. أنت الذي جعلت الإنسان وحيوانات الحقول تأتي للوجود. أنت خلقت السماوات والأرض"^(٥).

ويتضح من أن المصريين القدماء قد عزوا إلى إله الشمس كل الأعمال العظيمة في هذا الكون ، مظهرين أنه خالق الإنسان والحيوان وكل الكائنات والموجودات.

(١) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ص ١١١-١١٢.

(٢) جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين ...، ص ٣٦؛ جيمس هنري برستد، فجر الضمير ...، ص ٣١٣.

(٣) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ٢٣.

(٤) والاس بدج، آلهة المصريين ...، ص ٣٤.

(٥) روبرت ارموار، آلهة مصر القديمة ...، ص ص ٢٠-٢١.

لقد توافقت الوظيفة الإلهية، وفي مقدمتها الآلهة الخالقة، توافقا تاما في مصر القديمة مع الدورات الطبيعية التي كانت حياة الناس تتعلق بها^(١). وهذا الأمر ينسحب على دورتي الشمس والنيل، فهاتان الظاهرتين الطبيعيتين كان لهما أعظم تأثير في سكان وادي النيل، كما كان للآلهة المجسدة لهما الدور الأكبر في معتقدات وأفكار المصريين القدماء بصورة عامة وفلسفتهم حول مسألة الخلق بصورة خاصة^(٢). لهذا تضع الأوصاف الأسطورية لإله الشمس ، ودوره في عملية الخلق، في اعتبارها تحولات الشمس المستمرة في أثناء النهار (دورتها اليومية)، وتغير مجراها الظاهري على مدار السنة (دورتها السنوية)، وكذلك تأثيراتها على الأرض وحياة السكان^(٣).

تتميز دورة الشمس السنوية في بيئة مصر بالوفاق والانسجام بين مواسم حرارتها وبين مظاهر الطبيعة الأخرى، وعلى رأسها فيضان النيل السنوي^(٤). فبقدر معاناة المصريين من التوافق المناخي بين الفترة التي تبلغ فيها الحرارة حدها الأقصى في بداية الصيف، وبين موسم التحريق حيث تنخفض مياه النيل كثيراً ، كان يقابلها شعورهم بالفرح والسعادة من انسجام الانقلاب الصيفي حيث تعادل أشعة الشمس منسجمة مع عودة تدفق مياه فيضان النيل المحملة بالغرين^(٥). والمصري القديم عندما كان يرى أشكال الحياة المتنوعة من نباتات وكائنات حية وهي تخرج من وسط الأرض المشبعة ببقايا رواسب مياه الفيضان المنحسر بفضل قوة إشعاع الشمس وضياءها^(٦). فضلاً عن تأثير ذلك التوافق على بذر محاصيله الزراعية وجنيها^(٧). وبالتالي تأثيرها المباشر والفعال على الإنتاج الزراعي عماد الاقتصاد في البلاد^(٨). أعتقد بأن إله الشمس هو الذي أخرج أشكال الحياة تلك من المياه الأزلية (فيضان النيل) بواسطة جوهره الخلاق (أشعة الشمس)^(٩).

(١) أ. س. ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات، ترجمة: حسان ميخائيل اسحق، ط٤، دار علاء الدين، (دمشق، ٢٠٠٩)، ص ١٨.

(٢) جيمس هنري برستد، فجر الضمير، ص ٤٣.

(٣) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ص ٩٢-٩٣.

(٤) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج١، ص ٣١٦.

(٥) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٨٦.

(٦) مختار السويدي، مصر والنيل، ص ٢٧.

(٧) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج١، ص ٣١٦.

(٨) رسل ماجد عبد وفاضل كاظم حنون، فلسفة التوحيد في مصر القديمة " عبادة الإله الشمس"، مجلة كلية التربية، مج ٥٣، ع ١، (واسط، ٢٠٢٣)، ص ٣٣٣.

(٩) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ٢٣.

إن ميلاد الشمس وموتها كل يوم، معالم طاغية في حياة المصريين وفكرهم. ففي بلد يكاد يكون عديم المطر، يصبح لدورة الشمس اليومية أهمية باهرة. ولعلنا نحسب أن مصر تعاني غلواً من الشمس، وأن الظل حاجة مطلوبة. غير أن المصري كان يمقت الظلام والبرد، ففي الليل " الدنيا في ظلام، كأنها ميتة". لهذا كان يضطجع سعيداً بمطلع الشمس ينبوع حياته من جديد^(١). وفضلاً عن المنفعة والبهجة التي وجدها المصري القديم من وجود مسار الشمس^(٢)، فقد لاحظ كذلك ارتباط شروق الشمس ببقطة الكائنات بعد النوم، وبالحركة بعد الخمول، والرؤية بعد قلة الرؤية^(٣). "... ان اشعتك تخلق النهار وتفتح العيون التي تستيقظ"^(٤). ونقرأ في الانشودة القصيرة لآتون من العمارنة:

" انت أم وأب لأولئك الذين صنعت عيونهم، عندما تشرق فانهم يرون بواسطتك. ان اشعتك تضيء الأرض كلها، كل قلب يتهلل عند رؤيتك (عندما) تشرق كسيدهم. (لكن عندما) تغرب في الأفق الغربي للسماء، فهم يرقدون على نمط من يموتون. تلف رؤوسهم، وتتوقف فتحات انوفهم، حتى تبزغ في الصباح في الأفق الشرقي للسماء. (عندئذ) (تبسط) أذرعهم في مديح لـ"كا". انت تعطي الحياة للقلوب بواسطة جمالك، وتوجد الحياة"^(٥).

يتضح من النص اعلاه أن المصري القديم جعل من الوجود دورة حياة تضاهيها دورة الشمس خلال مشرقها ثم توسطها للسماء ثم المغيب، وتمثل هذه الدورة حقيقة الحياة المادية لهذه الطاقة الحيوية المتسببة في الحياة والمحافظة عليها. وتبعاً لذلك كان إله الشمس يظهر في صور متعددة خلال اليوم اعتماداً على الدور الذي يقوم به في كل لحظة، وهذا ما يوضحه النص الآتي

"انا خبري في الصباح ورع في الظهيرة وآتوم في المساء"^(٦).

وهي صوراً تمثل مراحل مسيرة الشمس أو دورتها اليومية في البيئة المصرية كما لاحظها ونقلها المفكر المصري القديم في تلك الصورة الأسطورية.

(١) جون. أ. ولسن، مصر ...، ص ص ٤٧-٤٨.

(٢) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ص ١١١-١١٢.

(٣) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، ج ١، مصر والعراق، ص ٣١٦.

(٤) Wilson, A. John, "Egyptian Hymns and Prayers"..., p. 368.

(٥) محمد عبد اللطيف محمد علي، فكرة الخلق في مصر ...، ص ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٦) روبرت ارموار، آلهة مصر القديمة ...، ص ٢١.

تدور الحياة وفقاً للفكر المصري القديم حول الشمس كما أكد العلم هذه الحقيقة فيما بعد^(١). فوفقاً لذلك الفكر لا تقتصر مهمة إله الشمس على خلق الكون وما فيه بل تشمل كذلك الحرص على مده بأسباب الحياة. ولذلك يقال عنه أنه "خلق كل شيء موجود ... (و) يحفظ كل واحد حياً". لأن الإله الذي يعبد بوصفه خالفاً إذا لم يداوم على مسؤوليته تلك، فلن يكون لعمليته في الخلق معنى^(٢). وهذا يستند على أيمان المصري القديم أن القوة المانحة للحياة ومصدر الحياة والزند الدائم هي أشعة الشمس، فهي الوساطة المباشرة لها والتي تجلب النور والحرارة إلى الناس.

لهذا يمكن تسمية شروق الشمس اليومي (بأول فرصة) تماماً مثل (المرّة الأولى) عند بدء الخلق؛ عندما خلق العالم بقوة الشمس التي بعثت من غمرتها^(٣). إذ نقرأ في أحد نصوص بردية نسخنسو ما يلي: "عندما أضاءت الأرض للمرّة الأولى (عندما خلق أول صباح) صار هو الشمس، وأسبر النور والأشعة، وعندما يمنحها (أي الأشعة) تعيش كل الدنيا، وعندما يخترق السماء لا يصيبه أي نصب، وفي الصباح الباكر يستمر على حاله، وبعد الشيخوخة يقف كالفتى ويهزم حدود السرمدية، فيعبر السماء ويخترق العالم السفلي ويضيء الأرض لمن برأ"^(٤).

ويتضح من النص اعلاه أن الظهور اليومي للشمس، والذي يمثل نشوء أو ظهور الإله الخالق، كان ضرورياً في اعتقاد المصريين القدماء لبداية وتكرار الخلق واستمرار الحياة .

يطلق على شمس الصباح الإله (خبرر) أو (خبري)^(٥)، ويمثل أشعة الشمس الخفيفة التي تسللت بضوئها تدريجياً للوجود^(٦)، "... فإننا خبري الذي جاء إلى الوجود من تلقاء نفسه، لقد جئت إلى الوجود كجوهر رع لقد أعطاني قوته بوفرة"^(٧). ونقرأ من كتاب قهر عيب (ابو فيس) من العصر البطلمي: "هكذا تكلم سيد الجميع بعد أن أتى إلى الوجود: أنه أنا الذي أتى إلى الوجود كخبري"^(٨). وكعادة المصري القديم العاشق للرمزية والصورية في تعبيره عن كياناته المقدسة على أساس التطابق بينها وبين

(١) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ٢٥.

(٢) أريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية ...، ص ٢٠٨.

(٣) Frankfort, Henry, Kingship and gods, p. 156.

(٤) سليم حسن، مصر القديمة ...، ج ٨، ص ٧٧٤.

(٥) عريان لبیب حنا، الشخصية المصرية ...، ص ١٠٠. راندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ٣٨.

(٦) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ٤١.

(٧) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.147.

(٨) Faulkner, R. O., "The Bremner -Rhind Papyrus...,P.172.

عالمه المادي المحسوس، فقد ربط بين ظهور الإله خبري في بدء الخليقة وسلوك حشرة الجعران^(١). للتعبير عن فكرة الولادة، والتحول والضرورة والمتضمن مفهوم الطاقة الحيوية الكامنة، التي تعيشها الشمس عند بعثها من جديد بعد عبورها المناطق المظلمة الواقعة تحت الأرض^(٢). " لقد أتيت إلى الوجود في شكل خبري الذي أتى إلى الوجود في الوقت الأول، لقد أتيت إلى الوجود في شكل خبري عندما أتيت إلى الوجود"^(٣).

كانت عملية الخلق وازدهار الحياة تدريجية في الفكر المصري القديم، إذ يبدو أنها كانت تتناسب تصاعدياً مع ازدياد قوة إشعاع الشمس، فمع تربع الإله رع أو قرص الشمس المضيء في وسط السماء والذي يملأ بأشعته الوجود ضياءً وحرارةً، بدلاً من أشعة الصباح الخفيفة، تزدهر الحياة وتصل عملية الخلق إلى أقصى درجاتها.

فالإله رع، الذي يعني اسمه ببساطة (الشمس)، يمثل الشمس في أقصى قوتها خلال فترة الظهيرة^(٤)، ففي كتاب الموتى يقول إله الشمس: " أنا رع في ظهوره (الأول)، عندما بدأ يحكم ما صنعه"^(٥)، وفي أسطورة رع وإيزيس يوصف رع بكونه: " الذي صنع السماء والأرض والماء ونفس الحياة والنار والآلهة والناس والماشية الصغيرة والكبيرة والأشياء الزاحفة والطيور والأسماك"^(٦).

ويبدو أن المصريين القدماء عندما أرادوا التعبير عن قوة الشمس الخالقة استخدموا كلمة رع التي ربما كانت تعني لديهم- خلال فترة من فترات تاريخهم- (القدرة المبدعة الصانعة)، وأنهم اختاروا بذلك أسماً للإله المجسد لها ليعطي -كما يظهر من السياق الذي استخدموها به- معنى قريباً من كلمة (خالق)^(٧). وأصبح رع إله أون هو إله الشمس، الذي غطى على ما عداه من أسماء الشمس الأخرى^(٨).

وأخيراً تتخذ الشمس شكل الإله آتوم عند غروبها، ، والذي يظهر في شكل شيخ مسن يعتمد على عصاه، لأن كوكب الشمس يبدو عند غروبه وكأنه ينحدر ويفقد قواه، مع ذلك يقوم الإله آتوم بدور الإله

(١) كليز لالويت، الفن والحياة، ص ٣٥٨.

(٢) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ص ٤٩-٥٠.

(٣) Faulkner, R. O., "The Bremner -Rhind Papyrus..., P.41.

(٤) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج٢، ص ٣٦٢.

(٥) Wilson, A. John, "Egyptian Myths, pp. 3-4.

(٦) Ibid, p.12.

(٧) والاس بدج، آلهة المصريين، ص ٣٦٧.

(٨) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج٢، ص ص ٣٦٣-٣٦٤.

الخالق في نظرية نشأة الكون الخاصة بالأشمونيين^(١)، وأن اختيار المفكر المصري القديم لآتوم كخالق للوجود يعتبر إشارة بليغة الغروب الشمس لا تملك كل طاقاتها، مما يتطابق علميا مع تجميع طاقات وقدرات الشمس بعد انكماشها كي تكتسب قدرة و طاقة أكبر، ويحدث هذا عادة في موسم الشتاء^(٢). وربما كان السبب وراء اختيار المصري القديم لهذه الصورة للتعبير عن الشمس الغاربة، هو رغبة المصريين في أن يضمنوا تواصل دورات الكون، فتصوير الشمس الآفلة من خلال شخصية مرتبطة ببداية نشأة الكون يعني أنها تحمل معها وعود الحياة في الغد وتزيد من فرصة نجاح العملية التي تحكم تجددتها.

لقد آمن المصري القديم أن إشعاع الشمس وضوئها هما جوهر عملية الخلق والقوة الفاعلة الرئيسية لبدئها وازدهارها وديمومتها^(٣). فكان لابد من انتظام وجود هذه القوة الخالقة أي انتظام شروق الشمس اليومي. " ... ليس في مقدور أحد أن يغير طريقه (في سيره في السماء بوصفه الشمس)"^(٤).

لهذا فقد اعتبرت العواصف والأعاصير والأمطار والرعد، وكل ما يعتم الضياء ويحجب الشمس عن طريق ملء السماء بالسحب، والظل والضباب والظلام، قوى الفوضى الأولية وهي من أفعال وحش يدعى (أبيب) يحاول منع إله الشمس من ممارسة أعماله الخالقة، لهذا كان يجب قتل ذلك الوحش المرعب الذي يعيش في الأجزاء السفلى من السماء^(٥).

وتمثل القوى أو الآلهة، التي تقوم بالقضاء على قوى الفوضى تلك، الجانب العدوانى لقوة الشمس ومنها عين الشمس أو ابنته^(٦). وكذلك الإله ست الذي يجسد قوة الشمس الغاشمة، إذ على الرغم من أن العنف الذي يصدر منه يفتح ثغرة في التوازن الإلهي، لكنه في نفس الوقت هو الذي يدفع المرحلة الديناميكية في الكون إلى الحركة، والضرورية لاستكمال دورة الحياة. لقد تم ربط ست بكل ما لا ينتمي لمصر والنظام الذي يظللها، فهو سيد المناطق القاحلة في الصحاري المتاخمة للقطرين والمقيمين فيها، ويؤثر طابعة غير الدمث مع الاضطرابات، وعلى عاتقه تقع أيضا مسئولية الأعاصير المدمرة^(٧). وكانت

(١) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٥١.

(٢) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ٢٢.

(٣) جيمس هنري بريستد، فجر الضمير ...، ص ٣١٣.

(٤) سليم حسن، مصر القديمة، ج ٨، ص ٧٧٥.

(٥) إي. أ. واليس، الساكنون على النيل، ص ٢١٠.

(٦) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ١٤١.

(٧) عبد الحميد زايد، من أساطير الشرق الأدنى ...، ص ص ٨١٦-٨١٧.

عدوانيته مدعاة لتواجهه بين شاغلي المركب الشمسي بوصفه المجسد لعدوانية الشمس، الذي يصد كل يوم هجمات الفوضى الممثلة في الشعبان أبوفيس^(١). "الذي يشرق في الأفق الشرقي ويغرب في الأفق الغربي ويقهر أعداءه بواسطة ولادته كل يوم"^(٢). "قلبه يصبح مبتهجا، لأنه شتت الظلام (؟) والعاصفة الممطرة"^(٣).

كانت "وحدة الوجود الشمسي" أحد العناصر الأساسية في مفهوم الإله عند المصريين^(٤). إذ أن اتساع تأثير الشمس على حياة المصري القديم جعل من الإله الممثل له يتغلل بشكل كبير في مختلف مفاصل الدين المصري، فضلا عن إعطاء هذا الإله السيادة على الدولة المصرية، وهذا دفع بعض الكتاب إلى القول بأنها كانت أولى خطوات المصريين نحو التوحيد^(٥).

إن هذا التوحيد كان توحيداً في جوهر الشمس الخلاق وقدرتها الفاعلة المؤثرة في كل عناصر بيئة مصر الطبيعية وتميز الإله المجسد لها بتلك القدرة، وليس توحيداً بمعنى الوجدانية أي الإيمان بإله واحد، لأن المصري القديم آمن بالتعددية الإلهية. ولعل فكرة الخلق في الفكر المصري القديم توضح ذلك وتؤكد، فتلك الفكرة تقوم على الإيمان بأن الوجود لم يأتي من العدم بل جاء نتيجة تظافر جهود عدة قوى إلهية خلاقة أو بكلمة أوضح تفاعل قوى مادية طبيعية كان العنصر الأقوى فيها الشمس الذي مثل الإله الخالق الأول في الفكر المصري القديم. ومع أيمان المصري القديم بنظرية الخلق تلك لم يكن الفكر المصري القديم ليسمح بوحدة إله ما وتساميه فوق الوجود المادي، لأنها ببساطة تخالف المفهوم المصري عن الوجود، فالإله غير الموجود فقط هو الذي يمكن أن يملك خصائص مطلقة كاملة. ويرينا هذا التذليل لشرح المنطق أن وحدانية الإله أو الوحدة المتصورة عليه لم تكن واردة في تفكير المصريين بالمعنى الكامل للكلمة لأنهم كانوا يفكرون بلغة الافتراضات المتمم بعضها بعضاً. ونستطيع أن نرى أيضاً أن الوجدانية كانت مستحيلة في المنطق المصري، وبالتالي لم تصبح واقعا أبدا بالرغم من كل الخطوات التي اتخذت نحوها.

(١) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٢١٢.

(٢) أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة ...، ص ٢١.

(٣) عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود ...، ص ٣٤-٣٥.

(٤) أريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية ...، ص ١٢٧.

(٥) جيمس هنري بريستد، فجر الضمير ...، ص ٢٩١.

إن الحضارة المصرية القديمة ، كما أسلفنا سابقاً ، لم تعرف أسطورة رسمية أجمع عليها رجال الكهنوت لتفسير بدء الخليقة، وقد أشتت ذلك اختلاف في تسميات الإله الخالق لاختلاف المراكز اللاهوتية في البلاد، ولكن وبالرغم من ذلك كله، كان الإله الخالق في الفكر المصري القديم دائماً إله الشمس أو إله مدمج بصفات الشمس^(١). فقد أصبحت الشمس هي الإله الأعلى في الفكر المصري القديم^(٢). ورغم أن العوامل السياسية كان لها دوراً في أنتشار عبادتها في البلاد^(٣)، لكن مآل الشمس، بصورتها المهيمنة المعترف بها من جانب كل مصري كقوة خالقة، كان مقدراً لها أن تصبح ربا قومياً^(٤).

فقد تساعد العوامل السياسية على رفع إله أحدى المدن إلى منزلة الإله الأكبر في البلاد، وجعله الإله الخالق الأوحد، لكن ذلك ما كان لينجح ويلقى القبول لدى الناس، إلا إذا ترافق مع تغيير في طبيعة وجوهر ذلك الإله من قبل كهنته ليكتسب جوهر الإله الشمسي^(٥). وهذا ما نجده في حالة الإله آمون، فالأخير لم تساعد ثروته أو نفوذه السياسي في رفعه لمنزلة الإله الأكبر في البلاد إلا بعد دمج باسم وصفات رع إله الشمس. إذ بدأ جوهر طبيعته يتغير تدريجياً إلى إله شمسي تقريباً، وما يدل ذلك تلك التسبيحة التي كانت تتردد صبيحة كل يوم في طيبة تمجيداً للآمون، والتي وأن كان يعتبر فيها دائماً إلهاً أصيلاً خلق جميع الكائنات الحية، ولكن المديح يتناولوه أصلاً لصلته بالشمس قبل كل شيء^(٦).

" أي آمون، ذا الاسم الخفي عن الآلهة،... رع نفسه متحداً بجسده، وهو الواحد العظيم الذي في هليوبوليس، تنن هو اسمه، آمون الذي أتى قدماً من نون... الذي شكل رع، لقد أكمل نفسه كآتوم، في كونه عضو واحد معه"^(٧).

(١) محمد العزب موسى، أسرار الهرم الأكبر، ط٣، دار المعارف ، (القاهرة، ١٩٩٢) ، ص ١١٧.

(٢) أ. س. ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات، ص ١٠.

(٣) منذ نهاية حكم الأسرة الخامسة راحت السلطة الملكية تتراجع ببطء بينما تدعمت العلاقات بين الملك المستقر في عاصمته منف ولاهوت أون، واتاح ذلك التحالف بين الملك والشمس الفرصة للأول لتعزيز سلطته المتداعية ومدّ النفوذ القومي لتلك العبادة اعتماداً على الأوضاع السياسية. وامتد سلطان عبادة الشمس فشمّل مجموع الأراضي المصرية عموماً واشتدت قبضته أيضاً على العبادات الأخرى، للمزيد ينظر: رشا عبد الرؤوف علي ابو السعد، الأسطورة السياسية في مصر القديمة ووظائفها، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٤، ص ص ٤٥-٥٥.

(٤) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ١٢٠.

(٥) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج٢، ص ٣٦٤.

(٦) أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ص ١٥٤.

(٧) Erman, A., Literature of Ancient Egyptians, ..., pp298-301.

أن أهمية الشمس كقوة خالقة وترسيخ هذه الفكرة في عقول المصريين القدماء يتضح لنا حتى في دعوة التوحيد التي قام بها الملك امنحوتب الرابع (اخناتون)، إذ نجدها تستند إلى تلك الفكرة^(١). فهذه الثورة تركز على عقيدة مفادها: أن الإله آتون وهو الدائرة الشمسية، هو مصدر الحياة لجميع الأحياء، وكان إله الشمس هو الذي جسد نفسه في الحرارة الشمسية. وبمعنى آخر فقد جعل الحرارة (إله) وسماه آتون^(٢). لقد أدرك اخناتون أن الشمس، أو القوة المنبعثة من داخل قرص الشمس، أنها القوة الطبيعية العظمى المتسببة في الحياة وفي تجدد هذه الحياة، وبالرغم من أنه لم يلجأ للأساطير للتعبير عن هذا الإله الخالق، لكنه نراه في أناشيده يقدمه كقوة طبيعية بمعطياتها للدلالة على قدراتها المتمثلة في الضوء أو النور المتجلية في الكون كله وليست مصر فحسب^(٣). وهذا ما عبرت عنه بوضوح أكثر رسومات فناني اخناتون لهذا الإله، إذ صور كقرص الشمس تمتد منه أشعة تنتهي بأيدي بشرية تمسك برمز الحياة (عنخ) حتى أنوف الأسرة الملكية. وتصور هذه الصورة الضوء في وضوح كبير على أنه حامل نسمة الحياة، والضوء هو الحياة، يخلق ما يريد ويمنحه الحياة^(٤).

٢- جوهر الماء

نهر النيل هو المظهر الطبيعي المميز الثاني، بعد الشمس، في بيئة مصر الطبيعية^(٥). كونه المصدر الوحيد للمياه العنصر الحيوي والأساسي في حياة واستقرار المصري على مر العصور^(٦)، ففي بلد صحراوي المناخ يكاد يكون عديم المطر، لم يكن هناك من شيء يجعل الحياة ممكنة سوى مياه النيل، التي لولاها لما كانت هناك حضارة تذكر^(٧). وأصدق عبارة تعبر عن ذلك هي: (مصر هبة النيل)، للمؤرخ اليوناني هيرودوت^(٨)، وتلك الأهمية دفعت المصريين القدماء إلى تقديسه وعبادته في صور آلهة مختلفة. مثلت، بصفة عامة، مفاهيم الوفرة ومسبباتها وحالاتها لنهر النيل، والتي أشهرها هو فيضانه السنوي^(٩).

(١) خزعل الماجدي، الدين المصري القديم ...، ص ٧٥.

(٢) إي. أ. واليس، الساكنون على النيل ...، ص ٢١٨.

(٣) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ص ٦٠-٦١.

(٤) أريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية ...، ص ٢٠٧.

(٥) خزعل الماجدي، الدين المصري القديم، ص ١٧٤.

(٦) رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة، ج ١، ص ٥٥.

(٧) جون. أ. ولسن، مصر ...، ص ٤٤.

(٨) عباس علي عباس الحسني، مجتمع الآلهة في الديانة المصرية ...، ص ٦٥.

(٩) أريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية ...، ص ٧٦.

وفقاً للفكر المصري القديم عدّت المياه أو المياه الأزلية (نون) المصدر الذي انبثقت منه الحياة^(١)، فقد خرج منها الإله الخالق، وهذا ما نقرأه في أنشودة لرع عندما يغرب بكتاب الموتى يقال فيها عن إله الشمس: " أنك تأتي من الماء، لقد انبثقت من الإله نو"^(٢). كما أنها كانت مصدراً لكل الموجودات التي أبدعها هذا الإله الخالق، وهذا ما يبينه نص موجود في بردية أي من كتاب الموتى جاء فيه وعلى لسان الإله الخالق آتوم: " سوف أهدم كل ما صنعت، وسوف تعود هذه الأرض إلى نون، إلى مياه الفيضان كما كانت في حالتها الأولى (قبل بدء الخليقة) "^(٣). فالنص يوضح أن الإله الخالق يهدد بإفناء الكون الذي خلقه وذلك بإعادته إلى المصدر الذي خرج منه أول مرة وهو نون.

وإذ بينا في موضع سابق أن نون أو المياه الأزلية ما هي إلا صورة أسطورية أقتبسها المصري القديم من حالة البلاد وهي مغطاة بمساحات شاسعة من مياه فيضان النيل. فإنه من الواجب علينا هنا تبيان أثر فيضان النيل على أرض مصر والذي دفع المصري القديم إلى الاعتقاد بأنها السبب في نشوء الحياة على تلك الأرض. ففيضان النيل يحمل في مياهه الغرين الأسود اللون الخصب، الذي ينتزعه من جبال الحبشة، وتتدفق هذه الطينة البكر الخصبة على أرض الصحراء المصرية في وقت فيضان النيل- الذي يبدأ من شهر يونيو وينتهي في أكتوبر- أنه يضيف بذلك الخصب والنماء على الأراضي المصرية الجذباء القاحلة^(٤). لهذا يوصف فيضان النيل بأنه:

" كل من يرى النيل في فيضانه تدب الرعشة في أوصاله، أما الحقول فهي تضحك، وأما الشواطئ فتكسوها الخضرة، وتتساقط هدايا هذا الإله وتعلو الفرحة وجوه البشر، أما قلوب الآلهة فتخفق من السعادة"^(٥).

فلولا هذه الظاهرة لما تشكلت أرض مصر الخصبة على جانبي نهر النيل، والتي تبدو كشريط أخضر ضيق يعج بالحياة ويحيط به من الجانبين أراضي صحراوية قاحلة^(٦).

(١) عريان لبیب حنا، الشخصية المصرية ...، ص ١٣٤.

(٢) Budge, E. A. W., Book of the Dead, Vol. I, P.16.

(٣) Wilson, A. John, "Egyptian Myths...", p. 9.

(٤) كليز لالويت، الفن والحياة ...، ص ١٩-٢٠.

(٥) ادولف ارمان، ديانة مصر القديمة ...، ص ٣٣-٣٤.

(٦) جون. ا. ولسن، مصر ...، ص ٤٤.

كما أن فيضان النيل لم يكن مجرد تغير فصلي طارئ في سلوك النيل أدى إلى تكوين تربة مصر الخصبة، بل كانت ظاهرة سنوية، بصورة عامة، لهذا النهر وبمواعيد منتظمة. فكان مصدراً لا ينضب لتجدد خصوبة أرض مصر واستمرار ازدهار الحياة فيها^(١). ففي فصل الصيف يستكين النهر وتتخفض المياه إلى أدنى مستوياتها، وتختفي الخضرة والنباتات في الحقول التي بقربه، وتتفتت الأرض الخصبة تراباً تذروه الرياح نحو البادية. وكأن أرض مصر الخصبة تتحول إلى صحراء جرداء كما كانت أول مرة. وهزلت الناس والمواشي وارتخت، واستقرت الأنظار على وجه المجاعة. عندئذ، والحياة على أوهنها، يتململ النيل ويبدو فيه نبض من العزيمة. وترتفع مياهه طوال الصيف ببطء وبدفع متسارع، إلى أن تجعل مياهه الزاخرة تتسابق وتتلاطم، وتكتسح الضفتين، وتغطي على الأراضي المنبسطة الشاسعة التي على الجانبين، فتغمر الأرض مساحات مترامية من الماء الطيني الجاري، وإذا الأرض تتقلب من قاع رخوة غبراء إلى جدول ضحل كبير يحمل كميات من الطمي تعيد إلى الأرض خصبتها. وبعد أن يبلغ الفيضان ذروته، تتباطأ المياه، وتبرز من بين المساحات المغمورة مرتفعات صغيرة من التربة، وقد انتعشت بطين جديد خصب. فيزول الارتخاء عن الناس. ويخوضون نحو الطين السميك، ويبدوون متحمسين بزراعة محاصيلهم الزراعية. لقد عادت الحياة إلى مصر ثانية. وسرعان ما يبدو للعين بساط أخضر عريض من الزرع اللينع تتم به المعجزة السنوية، معجزة غلبة الحياة على الموت^(٢).

بناءً على ما سبق يمكننا القول أن المفكر المصري القديم قد عدّ نون مصدراً للحياة وتجدها المستمر، لأنه كان يمثل مياه فيضان النيل التي تحمل الغرين المخصب للأرض. أي أن الجوهر الخلاق لنون يتمثل في احتواءه على مادة الخلق، اللازمة لبدء عملية الخلق. فهذه العملية وفقاً للفكر المصري القديم تقوم على مبدأ أساسي يتمثل بأن الخلق لا ينشأ من العدم.

ارتبطت خصوبة مياه فيضان النيل بكثير من الآلهة في الفكر المصري القديم. لكن الجوهر الخلاق لتلك المياه قد أختص به نون تحديداً. وذلك لأنه يمثل مياه الفيضان الخصبة وقد غطت أرض مصر وامتزجت بها مكسبة إياها الخصوبة اللازمة لنشوء الحياة وتجدها. لهذا نجد أنه بالرغم من تحديد الأصل الإلهي للنيل وفيضانه بالإله حابي، فكان الفيضان السنوي يسمى (وصول حابي)^(٣). فضلاً عن الألقاب الخلاقة الكثيرة التي أطلقها المصريون القدماء على هذا الإله ومنها: واهب الحياة وخالق الكائنات

(١) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ٩٨.

(٢) جون. ا. ولسن، مصر ...، ص ص ٤٨-٤٩.

(٣) روبرت آرموار، آلهة مصر القديمة ...، ص ص ١٣٢-١٣٣.

ورب الرزق العظيم^(١). ووالد الآلهة، وسيدها على الأرض، وسيد الخصب والخلق^(٢). ولكن ذلك كله لم يؤهله لأن يلعب دوراً مهماً في مجمع الآلهة المصرية أو في الأساطير الخاصة بعملية الخلق^(٣). فالإله حابي كان يمثل الروح التي تكمن في نهر النيل، والتي تدفع بمياه فيضه حاملة الخصب والنماء^(٤)، أي أنه لا يمثل سوى الأمواج المجددة للحياة دون أن يكون المسبب لها^(٥). فهو وأن مثل فيضان النيل الذي يحمل القوة المخصبة الفاعلة في عملية الخلق في مجرى النهر، لكن تلك القوة تحتاج للتفاعل مع باقي العناصر الطبيعية على الأرض حتى يبرز جوهرها الخلاق. وهي الصورة التي مثلها نون لمياه الفيضان وقد انتشرت على أرض مصر^(٦).

كما أن ارتباط الخصوبة بفيضان النيل دفع المصري القديم إلى التوحيد بينه وبين الآلهة الخاصة بخصوبة الأرض، وفي مقدمتها الإله اوزيريس^(٧). حيث نجد بعض النصوص تطلق على اوزيريس إله النيل والفيضان^(٨). لكن هذا التوحيد كان توحيداً في الخصوبة ودورها في استكمال دورة الحياة الكونية^(٩). فأوزيريس بوصفه إله خصوبة الأرض في العقيدة المصرية، كانت قدرته على أحياء النباتات والخضرة وإسباغ الحياة على التربة تعتمد على مياه فيضان النيل بوصفه مصدراً للخصب وبوصفه مانحاً وهذا ما يوضحه أحد نصوص التوابيت: " يظهر اوزيريس عندما يفيض (الماء)"^(١٠). لذا كان التوحد مع اوزيريس توحداً مع الدورات الكونية للموت والميلاد من جديد^(١١).

(^١) Hart, George, The Routledg Dictionary of Egyptian Gods and Goddesses, 2nd, Edition, London, 2005,p.61.

(^٢) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج٢، ص ٣٨٨.

(^٣) أريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية ...، ص ٧٦.

(^٤) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج٢، ص ٣٨٨.

(^٥) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ص ٧٩-٨٠.

(^٦) Clark, Rundle, " Some Hymns to the Nile ", University of Birmingham Historical Journal, 5(1), 1955, pp. 27-30

(^٧) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج٢، ص ٣٨٩.

(^٨) خزعل الماجدي، الدين المصري القديم، ص ١٧٤.

(^٩) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ٩٥.

(^{١٠}) جيمس هنري بريستيد، فجر الضمير ...، ص ص ١١١-١١٢.

(^{١١}) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ٩٨.

(^{١٢}) المصدر نفسه ، ص ٩٥.

كانت استمرارية الحياة مهمة جداً بالنسبة للإنسان المصري القديم، حيث أصبحت هذه الغاية مادة ثابتة في كثير من الأساطير المصرية، ومنها الأساطير المتعلقة بفكرة الخلق^(١). وقد أدرك المصري القديم في خضم بحثه عن سر الحياة، أن سبل استمرار وازدهار المظاهر المختلفة لتلك الحياة وضمن تجدها يكمن في استمرار تدفق الجوهر الخلاق لمياه فيضان النيل على أرضه. وهذا الاستنتاج العملي لتأملات شعب زراعي ارتبطت أفكاره وعقائده بأرضه الزراعية، وجد صده في الفكر المصري القديم^(٢). إذ على الرغم من أن نون أو المياه الأزلية كان يمثل حالة الفوضى السابقة لحالة الخلق المنظمة، ألا أنها تمثل فوضى خلقة كان من الضروري استمرار وجودها، ليس لكونها مصدر الحياة فحسب، بل لكونها الطاقة الضامنة لاستمرار الحياة وتجدها. لهذا نجد في الأساطير أن نون لم يفنى أو ينتهي بعدما أنتهى الإله الخالق من عمله، بل أنحسر إلى أطراف الكون ليمثل المحيط المترامي الأطراف الذي يحيط بالعالم، أنه (الدائرة العظمى)^(٣). بصفته مصدراً لا ينضب للحياة والخصوبة الكامنة^(٤). فكانت مياه فيضان النيل السوداء تأتي من هذا المصدر وفقاً للفكر المصري القديم^(٥). وهذا ما نجده في نص المجاعة حيث يقال: " نون المحيط [العظيم] الذي وجد في الوقت الأزلي، والذي وفق مشيئته يسكب حبي (النيل) [فوق ضفتيه]".^(٦)

إن الأثر الكبير لدورة فيضان النيل على حياة المصري القديم وفكره كانت سبباً في أيمانه بأن الموت يشكل جزءاً من دورة الحياة وليس نهاية لها^(٧). فالجوهر الخلاق لمياه فيضان النيل والمتمثل بقدرته على بعث الحياة في أرض مصر وتكرار هذا البعث وانتظامه مع كل دورة زراعية جديدة، كان يجعل من دورة الحياة تبدو للمصري القديم وكأنها (حياة - موت - ثم بعث)^(٨)، وهذا الأمر مضافاً إليه دورة حياة الشمس والمتمثل بموتها في الغروب كل يوم ومبعثها عند الشروق، كانت سبباً في غرس شعور في نفس المصري القديم أنه في استطاعته هو الآخر أن ينتصر على الموت ويحيا حياة أبدية، وهو ما تمخض في النهاية عن عقيدة البعث بعد الموت في الفكر المصري

(١) روبرت آرموار، آلهة مصر القديمة ...، ص ١٣١.

(٢) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ١١٣-١١٤.

(٣) كلير لالويت، الأدب المصري القديم، ص ٧٤-٧٥.

(٤) Frankfort, H., Kingship and the Gods, p. 154.

(٥) إريك هورنونج، فكرة في صورة ...، ص ٧٢.

(٦) Budge, E. A. W., From fetish to good, p.484.

(٧) محمد عبد اللطيف محمد علي، فكرة الخلق في مصر القديمة ...، ص ١١٦.

(٨) Pinch, Geraldine, Egyptian Myth, Oxford University, New York, 2004, pp. 43-44.

تبيين الأساطير المصرية بوضوح أن المياه (المياه الأزلية) هي العنصر الأساسي في عملية الخلق. لأنها تمتلك الطاقة أو العناصر اللازمة لبدء تلك العملية. فعملية الخلق وفقاً لما تصفه "المرّة الأولى" هي عبارة عن انبثاق لعناصر ستتحقق ازدهار الحياة من داخل المياه الأزلية. وهذا بالضبط ما يذكره أحد نصوص بردية نيس على لسان الإله الخالق نفسه :

" كنت وحيداً، ولم توجد كائنات أخرى تعمل معي في هذا المكان، صنعت كل الأشكال التي ظهرت بها بواسطة (أو خارج من) الروح الإله التي بعثتها من داخل نون من حالة السكون(أو من الكتلة الساكنة)"^(١).

ففي هذا النص نجد أن كل الموجودات، بالإضافة إلى روح الإله الخالق، كانت موجودة في حالة سكون في التجمع المائي الخامد نون. لكن صورة الخلق تلك لا تعطي للمياه أي دور فعال باعث لخلق العالم. بل أنها على العكس من ذلك تُظهره كمبدأ جامدا يحتوي في نفسه على مادة الخلق الخاملة، التي سوف يتم تنشيطها وتشكيلها من أجل إتمام عملية الخلق بفضل قوى أخرى تتمثل بإله الشمس الخالق. بكلمة أوضح نقول أنه على الرغم من أدراك المصري القديم لأهمية المياه كمصدر جلي للحياة، لكنه بالمقابل، أدرك كذلك أن الشمس بقوة أشعتها ووضوح ضياءها وفواعلها بأرض مصر هي المبدأ الفعال لبدء الحياة وازدهارها.

يتجلى إدراك المصري القديم لجوهر كل من المياه والشمس في شخصية الإله خنوم. فهذا الإله كان يجسد خصوبة النيل ويدعى (رب المياه الطاهرة)، إذ كان يعبد في إقليم أبو (الفنتين)، إقليم البداية بالنسبة لأرض مصر، حيث أعتقد المصريون القدماء أن النيل كان ينبع من وراء الشلال الأول، حيث تخرج مياهه من كهفين تحت الأرض في الصخور الجرانيتية هناك^(٢)، وهذا جعل خنوم بصفته المتحكم بمياه الفيضان يمتلك سلطة منح الحياة، فصورته النصوص وهو يقوم بخلق الآلهة والبشر على دولا ب الفخار. ومع ذلك فإن جوهره الخلاق لم يكتمل إلا بعد أن أعطي صبغة شمسية^(٣).

(١) والاس بدج، آلهة المصريين ...، ص ٣٤٤.

(٢) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٢، ص ٣٨٩.

(٣) خزعل الماجدي، الدين المصري القديم، ص ١٦٧-١٦٨.

٣- جوهر الهواء

قد تختلف وتتعدد الطرق التي استخدمها المصريون القدماء لترتيب مجاميع آلهتهم التي لا نهاية لها^(١). لكنهم فيما يخص ترتيب الآلهة الخالقة اعتمدوا على تراتبية تتناسب مع أهمية القوى الطبيعية التي تجسدها تلك الآلهة وتأثيرها في حياتهم^(٢). ووفقاً للفكر المصري القديم فقد عُدَّ الهواء الجوهر الخلاق الثالث بعد الشمس والماء. فهو العنصر الأول الذي خلقه الإله الخالق الشمسي بعد خروجه من المياه: "لقد صنعت الرياح الأربعة لكي يتنفس منها كل إنسان مثل زميله أبان حياته، وذلك أول الأفعال"^(٣). إذ على الرغم من أن الهواء عنصر غير مرئي وهو بلا كيان ملموس فيزيقياً، لكن المصري القديم أدرك أن وجود الهواء ضرورة من ضروريات الحياة. لهذا كان من الطبيعي وأمرًا مطابقاً للعلم أن يوجد الهواء أو نفس الحياة قبل حياة المخلوقات^(٤).

استندت التصورات والمعتقدات التي توصل إليها المصري القديم حول فكرة الخلق على تأملاته الواقعية حول مبادئ الحياة ونظام الكون^(٥). لهذا كان من الطبيعي أن يربط الإنسان المصري القديم بين الهواء والحياة، كون الهواء هو الذي يمنح البشر أنفاس الحياة، وتوقف التنفس هو أول مظهر واضح للموت^(٦). لهذا تُطلق النصوص المصرية على إله الهواء شو اسم (الحياة): "، تفنوت، هي ابنتي التي ستوجد مع أخيها شو، واسمه (هو) "الحياة"^(٧). ويمثل في الكتابة الهيروغليفية بالعلامة (عنخ) المعبرة عن الحياة، والتي تمسكها الآلهة بأيديها في المناظر الدينية وتوجهها إلى كل الكائنات الحية، وليس للجنس البشري فقط، دلالة على منح الحياة^(٨).

لقد ربط المصري القديم بين شو ورياح الشمال "نسمة ريح الشمال". فتلك الرياح كانت تهب من الشمال، عبر البحر المتوسط، على وادي النيل. فتلطف من حرارة الشمس اللاهبة وتيسر العيش في

(١) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ٢٢٧.

(٢) كليز لالويت، الفن والحياة، ص ٣٤٦.

(٣) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج٢، ص ٤٤١-٤٤٢.

(٤) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ٥٥.

(٥) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ٧٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٤٤.

(٧) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ١٢٥.

(٨) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ٢٠٥-٢٠٦.

مصر. وهي على النقيض من الرياح الحارة الجافة التي تهب في أواخر الربيع من الجنوب، فتأتي من أفريقيا بزوايا رملية وحر هشّ. فريح الشمال ريح طيبة تحيي وتنعش، مثلها مثل الإله شو^(١).

يجسد شو (الهواء)، مع اخته تفنوت (الرطوبة)، الانبعاث الأول الصادر عن الإله الخالق في اللحظة التي يخرج فيها من المياه الأزلية، ومع أن كلاهما يعتبران المبدأ الأول لأي وجود، لكن الهواء متجسداً في شخصية الإله شو يلعب الدور الأكبر والأبرز في عملية الخلق في الفكر المصري القديم. فشو يجسد القوة التي ترد الفوضى الأولية وتحقق التحرك "أول مرة"، فأساطير الخلق المصرية تجعل من عملية الخلق كأنها خطة وضعها إله الشمس الخالق، أما عملية تنفيذها في الجانب العملي فقد أسندت إلى إله الهواء شو^(٢). وهذا ما يوضحه النص الآتي:

" تفتت الجوارح بصغار الطيور، وتحيا الذناب على السلب والافتراس...، ويقتات الناس بالحبوب، وتقتات التماسيح بالأسماك، والأسماك بما تجده في مجاري الماء، وكل ذلك يجري وفقاً لمشئة آتوم، غير أنني أنا من يكفل لهؤلاء جميعاً البقاء والاستمرار على الحياة...، أنا الحياة، أوجد في مناخرهم، وأدفع أنفاسي في حناجرهم...، أنا الحياة التي تعمر ما تحت السماء!"^(٣).

لقد بدأ العالم المنظم بفضل شو، فهذا الأخير بوصفه الأثير كان الواسطة التي نقلت القوة الخالقة (الضوء والاشعاع) من مصدرها الشمس إلى فوضى المياه الأزلية لتخرج منها أشكال الحياة^(٤)، وهو يمثل النور الذي بدد الظلام الذي كان سائداً مع الفوضى في مرحلة ما قبل الخلق^(٥). كما في النص الآتي:

" تسبح الآلهة الكبرى، ويتهلل الاجداد وينفض العراك ويتوقف القتال الدائر في هليوبوليس حينما يرون شو يفيض بنوره. أنه يمنح الرؤية لمن يريدها ويهب السعادة للجماعة المزدوجة. وإليه تجيء الآلهة متممة حينما يشطر الساعات بالغسق ويشبع الشمس بتقديم ماعت. وحينما يشرق شو، ابو الآلهة، يتلأل النهر حوله بالضياء."^(٦).

(١) روبرت ارموار، آلهة مصر القديمة ...، ص ٢٥.

(٢) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ١٢٥.

(٣) عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص ٣٥.

(٤) ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ص ٥٠-٥١.

(٥) روبرت ارموار، آلهة مصر القديمة ...، ص ٢٥.

(٦) راندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ٨٣.

إن تلك النصوص تجعل من شو وابيه (إله الشمس الخالق) لهما جوهرًا واحدًا^(١). أي أن القوة الخلاقة في الهواء ومثلتيها في الشمس واحدة^(٢)، وهذا الأمر جاء نتيجة لاعتقاد المصري القديم أن طريقة الإله الخالق في تشكيل أو ولادة ابنائه الآلهة كانت تتم بتنوع نفسه أو تمييزها إلى جمع متعدد من الآلهة الجديدة؛ وبالتالي فمن الطبيعي أن يكون لهؤلاء الأبناء أو الآلهة الجدد جوهر يتشابه مع جوهر والدهم الإله الخالق^(٣). لهذا فإن المصري القديم لم يعتبر الهواء مجرد واسطة لنقل القوة الخالقة فحسب، ليس لها جوهرها الخالق الخاص بها، بل أنه عرف ما للرياح بوصفها أحد أشكال الهواء كان لها دوراً هاماً في بيئته الطبيعية وتحديداً في انحسار مياه فيضان النيل السنوي عن الأرض. فالرياح تعمل على أبعاد فوضى مياه الفيضان (المياه الأزلية) أو بالأحرى تجفيفها، لتسمح ببروز الأراضي المصرية الخصبة والمستعدة لبدء دورة الحياة الجديدة.

هذه الحقائق المادية كانت المنطلق الذي بنى عليه المفكر المصري القديم تصوراتهِ الأسطورية عن كيفية تشكل الكون، فوفقاً للفكر المصري القديم تكونت السماء والأرض من تفاعل الهواء مع الرطوبة، أو بالوصف الأسطوري كانت نتيجة تزاوج شو مع تفنوت^(٤). لهذا فعلى الرغم من أن شو الهواء ذو جوهر خفي عن الأنظار وقد يبدو مندمج ومتواجد مع الخالق، إلا أنه قوة واعية بذاتها، ويمثل التفكير النشط بوصفه شكلاً متميزاً عن مادة العالم الخاملة (المياه الأزلية)^(٥). أنه الجوهر الفعال في الحياة^(٦). فشو (الهواء) يمثل في الواقع حلقة الوصل بين الخالق الشمسي والعالم المخلوق ، لأنه ينشر الطاقة الحيوية الفريدة في جميع أنحاء العالم^(٧).

رغم عدم وجود نص مصري صريح يخبرنا لماذا خلق الإله العالم، إلا أننا قد نؤمن أن تنظيم ما كان في حالة فوضى هو تبرير لذلك الخلق^(٨). إذ لم يكن المصري القديم يعتبر خلق العالم سلسلة من الأحداث المتتالية متتابعاً زمنياً، بل تأملات حول مبادئ الحياة ونظام الكون^(٩). فالكون المصغر (التل

(١) ياروسلاف تشرني، الديانة المصرية القديمة، ص ٥١.

(٢) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج ٢، ص ص ٣٧٣-٣٧٤.

(٣) Allen, James P., "Genesis in Egypt"..., p. 116.

(٤) عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص ص ٣٣-٣٤.

(٥) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ٨٠.

(٦) عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص ٣٥.

(٧) Allen, James P., "Genesis in Egypt"..., p. 192.

(٨) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٩) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ص ٧٨-٧٩.

البدائي) الذي ظهر من المياه الأزلية كان لابد من تنظيمه ليكون صالحاً من أجل تطور الحياة، لاسيما وأن ذلك التل أو الكون البدائي كان يمثل الأرض والسماء مندمجين^(١). وشو (الهواء) هو القوة التي فصلت السماء عن الأرض، وأستطاع وحده أن يغمر ما بينهما بالضياء والنور فضلاً عن الهواء والرياح^(٢). ففي أحد نصوص الأهرامات والتي يتخذ فيها الملك المتوفى شخصية شو نقراً: "أنك ترفع السماء بيدك، أنك تطأ (النص الحرفي: تضع) الأرض بقدمك". وفي نص آخر: "اي شو، انت الذي تحمل نوت إلى أعلى"^(٣). وفي نص آخر من نصوص الأهرامات -السطر ١٧٧٨ (ب)- نقراً: "أحضري رغبة آتوم، أي تفنوت (؟) لمن يفصل السماء عن الأرض ونون"^(٤). يتضح من النصوص السابقة، أن الإله شو هو الذي نظم الكون البدائي الذي يتكون من كتلة الأرض والسماء الملتحمين. فباعد بجوهره الخلاق بينهما رافعاً السماء عن الأرض والمياه الجوفية أو مياه العالم السفلي نون^(٥).

مما تقدم يمكننا القول أن الجوهر الخلاق لعنصر الهواء (الإله شو) في الفكر المصري القديم يتجلى في كونه يمثل أولاً: نفس الحياة الضروري لحياة كل الكائنات الحية، وثانياً: الأثير أو الفراغ الذي يحيط بالأرض ويعتبر الواسطة التي تنقل الضوء وإشعاع الشمس مصدر الحياة والقوة الخالقة على أرض مصر، وثالثاً: قوة الرياح وتأثيرها على الإنسان والأرض.

يكلف شو بمهمة تقديم الإله الخالق أو الشمس، التي من المفترض أنها أنجبته، إلى العالم كل يوم. ويحكم تلك التبعية الوجودية المتبادلة بين الكيان الخلاق ومن أنجبهما تصور للحياة يقوم على ديناميكية أبدية تربط بين الدورات الطبيعية في تسلسل لا ينقطع^(٦). إذ كان الظهور اليومي للشمس، كما قلنا سابقاً، بوصفها الإله الخالق، ضرورياً لبدء عملية الخلق وتكرارها اليومي. لهذا اعتبرت كل الظواهر التي تعيق هذا الظهور أو الشروق قوى شريرة تحاول نشر الفوضى. لهذا كان يقال عن الليل بأنه زمن القتال في هليوبوليس أو زمن الاضطراب والفوضى، فهي الفترة التي تسبق انبلاج نور النهار، لهذا يعد النور المساعد إلى ذرى السماء في كل صباح ليس إلا تكرار لأنفتاح الأرض والسماء على يد شو الذي أدى إلى انبثاق النور في الدنيا لأول مرة^(٧). فيقال في كتاب الموتى أن: "رع كان فوق (المكان المرتفع-

(١) Watterson, B., The Good of Ancient Egypt, London, 1994, p.4.

(٢) عبد العزيز صالح، فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة، ص ٣٥.

(٣) Mercer, Samuel, The Pyramid Texts Vol. I, "Translation", New York, 1952, p.304.

(٤) Hassan, S, Excavations at Giza, Vol. VI, part I, Cairo, 1947, P. 164.

(٥) Allen, James P., "Genesis in Egypt"...p.169.

(٦) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ١٢٦.

(٧) راندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ٨٤.

ذلك الذي في خمنو) قبل أن يأتي إلى الوجود ما رفعه شو في العلا^(١). نظراً لأن شو هو الفضاء الممتلئ بالنور بين السماء والأرض، ونظراً لأنه في ظلام الليل ورمادية الفجر تبدو الأرض والسماء كأنهما قد أدمجا في احتضان متقارب، وبينهما يأتي النور (شو) ويرفع السماء إلى أعلى، فبذلك يربط هذا النص فكرة خلق السماء وفصلها عن الأرض في عقيدة مدينة هرموبوليس.

٤- جوهر الأرض

لقد اعتقد المصري القديم أن الأرض مزدوجة، فهناك الأرض الظاهرة أو المساحة التي يتحركون فوقها وهي تشمل الأرض الخصبة وكذلك الصحاري المحيطة بها، وهناك الأرض السفلى في باطن الأرض والتي تنتمي إلى المجال الخيالي. لكن الأرض الحقيقية في نظرهم هي أرضهم الخصبة مانحة الحياة^(٢). وهذا الجزء المهم من أرض مصر، والذي لولاه لما كانت هناك حضارة مصرية تذكر، هو عبارة عن شريط أخضر ضيق يعج بالحياة يحيط به من الجانبين أراضي صحراوية قاحلة. حتى أن الشخص يستطيع أن يقف على طرف الأرض الخصبة واضعاً إحدى قدميه على التربة السوداء المروية والأخرى على رمال الصحراء. وفي هذا البلد الذي يكاد يكون عديم المطر، لم يكن هناك من شيء يجعل الحياة ممكنة على أرضه سوى مياه النيل وفيضانه السنوي^(٣).

دفع ارتباط حياة الإنسان المصري القديم بأرضه الزراعية إلى التمييز بينها وبين الأرض على إطلاقها، فقد اعتقد أن أرض مصر الخصبة هي الأرض الأولى التي تشكلت في هذا الكون، فاتخذ من الدورة السنوية لتعرض أرض مصر لفيضان النيل وظهورها بعد ذلك أرض خصبة كأنها تكونت أول مرة بعدما اكتسبت عوامل الخصوبة صورة لتصوراته عن كيفية تكون الأرض^(٤). فعندما أنتقل الإنسان المصري القديم من معيشة الصيد إلى معيشة الزراعة صار شعوره بالاعتماد على قوة استتبات الأرض هو العنصر الناطق في تعبيره الديني عما يخالجه بشأن التغير البين الذي حدث في حالة معيشته. إذ كانت الحياة الدائمة التي يراها في الأرض المثمرة التي تموت ثم تحيا ثانية مرات عديدة لا نهاية لها قد مثلت أول رافد فكري لتصوراته عن نشأة الحياة. إذ أن الأفكار التي تولدت في عقل الإنسان حينما صار

(١) محمد عبد اللطيف محمد علي، فكرة الخلق في مصر القديمة ...، ص ١٤١.

(٢) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٦٨.

(٣) جون. ا. ولسن، مصر ...، ص ٤٤.

(٤) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني ...، ص ٨٨.

متصلاً أتصلاً وثيقاً بحياة الأرض الخضراء ومتعاوناً فيها تعاوناً فعلياً يعد الآن من أقدم الأفكار التي خطرت في الفكر الإنساني^(١).

إن حياة الأرض في مصر التي يعتريها الاضمحلال والانتعاش على الدوام، ترتبط أحياناً بالمياه التي تعطي الحياة، وأحياناً بالتربة الخصبة أو مرة أخرى، تتبين في النبات نفسه. وباختلاف صور الجوهر الخلاق للأرض والتي كان يراها المصري القديم في بيئته الطبيعية فضلاً عن اختلاف المدارس اللاهوتية في البلاد، فقد جُستدت الأرض في الفكر المصري القديم بكيانات إلهية عدة^(٢). فهناك الإله "بيجا" الغامض الذي كان يمثل الأرض بكامل مداها، وفي منف كان الإله (تاتتن) الذي يمثل التربة التي تحيا من جديد بفضل النبات الوليد. وكان هناك الإله (آكر) الذي يحكم باطن الأرض الخفية التي يقيم فيها المتوفون وتتولد منها الشمس من جديد، وهو مكن تحولات الشمس التي يمتزج معها الملك في عصر الدولة الحديثة^(٣). كما أن الإله اوزيرس كان يتصل بالتربة أيضاً أتصلاً وثيقاً. فاوزيرس بوصفه إله الخصب، هو الذي يسبغ الحياة على التربة. لهذا حاول رجال الدين، وخاصة في عهد الدولة الحديثة، توحيد اوزيرس ليس مع التربة فحسب بل مع الأرض كلها^(٤).

إن الجوهر الخلاق للأرض في الفكر المصري القديم يتمثل في تربة مصر الخصبة التي تتجب المزروعات، فهي الموقع المتخيل الذي يحكم كافة التحولات المبشرة بتجديد الحياة. والإله الذي يجسدها يمثل في الواقع الطاقة الكامنة التي توفرها التربة^(٥)، وهو بجوهره هذا كان المسؤول عن خلق كل المخلوقات التي ستعمر الأرض وتديمها. لهذا فعلى الرغم من أن الأرض قد جسدت في الفكر المصري القديم بكيانات إلهية عدة، لكن يبقى الإله (جب) أكثرها شهرةً واتساعاً في ذلك الفكر^(٦). وتكمن شهرة جب بكونه، مع زوجته نوت إلهة السماء، والد (أي خالق) الجيل الثاني من الآلهة وهم: اوزيرس وايزيس وست ونفتيس، وهي الآلهة التي كان عليها أن تعمر وتحكم الأرض والسماء والعالم الآخر^(٧). فبعدما قام الإله الخالق الشمس (رع) بخلق الكون تراجع مبتعداً عما خلق، لقد حلت قوته في (شو) ثم انتقلت إلى (جب)،

(١) جيمس هنري بريستد، فجر الضمير ...، ص ص ١١٠-١١١.

(٢) جيمس هنري بريستد، تطور الفكر والدين ...، ص ص ٥٤-٥٥.

(٣) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٦٦.

(٤) جيمس هنري بريستد، فجر الضمير ...، ص ص ١١١-١١٢.

(٥) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ص ٦٦-٦٧.

(٦) إريك هورنونج، فكرة في صورة ...، ص ١٥٧.

(٧) روبرت ارموار، آلهة مصر القديمة ...، ص ٢٨.

الذي أورثها بدوره إلى أبنائه^(١). " أعطي جب ما ورثه وسلمه التاسوعة بأكملها"^(٢). وتصف لنا النصوص كيف أورث جب حكم الأرض لأبنه اوزيريس من أجل صلاح البشر، ووضع هذه الأرض في يده وماءها وهواءها وخضرته وقطعانها، وكل ما يطير وكل ما يرفرف وما يزحف، وكذلك وحوش الصحراء تركت رسمياً لأبن الآلهة نوت. كما تشير النصوص إلى تدخل جب لصالح اوزيريس في صراعه مع عدوه ست، ومن بعده لصالح حورس حفيده ضد ست كذلك^(٣).

عُدَّ الإله جب الشخصية الإلهية الأكثر شمولية وتمثيلاً لجوهر الأرض الخلاق في الفكر المصري القديم^(٤). فقد ارتبط بالحياة على سطح الأرض وبالموت تحتها، فعلى سطح الأرض كان مسئولاً عن الأشجار والنبات والبذور التي نضع جذورها في تربتها. وفي إحدى الحالات استدعى رع جب أمامه ليشتكي أن الثعابين التي على الأرض تسبب له المتاعب، وحيث أنها تأتي من منطقة جب فهي أذن ضمن مسؤوليته، وعلى ذلك طلب من جب أن يراقب الثعابين وأن يخبر الآلهة الأخرى عن خططهم وتحركاتهم^(٥). وكان الإله جب يصور كرجل مستقل على أديم الأرض، منعزلاً عن زوجته نوت المجسدة للعبة السماوية، وركبته وذراعه المرفوعة نحو السماء تصوران محاولاته غير المجدية للحاق بها^(٦).

على نقيض تصورات حضارات أخرى حول نشأت الكون، كانت الأرض تمثل بكائن مذكر في مصر، ولكن حتحور الأم الكونية هي التي تهيمن على المغارات والكهوف والمقابر التي تعتبر رحماً سحرياً، وليس هناك تناقض بين الطبيعة السماوية والشمسية للربة حتحور وبين دورها كحامية لتجويد الأرض؛ لأن قدرتها على التناسل ودورها كوعاء للكائنات الوليدة يدخلان في الاعتبار^(٧).

(١) رندل كلارك، الرمز والأسطورة ...، ص ١٧٢.

(٢) ادولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ص ١٠٣.

(٣) روبرت ارموار، آلهة مصر القديمة ...، ص ٢٨.

(٤) إريك هورنونغ، فكرة في صورة ...، ص ١٥٧.

(٥) روبرت ارموار، آلهة مصر القديمة ...، ص ٢٧-٢٨.

(٦) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٦٦.

(٧) المصدر نفسه، ص ٦٨.

٥- جوهر السماء

للسماء تأثيرها الدائم والعميق على عقول البشر، وذلك الشعور بوجود سر خفي في السماء ذات القبة الزرقاء المكونة أرضها من السحب قد ترك أثره بشكل ما في الفكر المصري القديم^(١). فقد أحتلت السماء مكانة كبيرة في اعتقاد المصري القديم وتصورات، وكان ذلك نابعا من تفكيره العميق في كيفية خلق الكون وبدايته^(٢). وكان خيال المصريون القدماء ينتقل بهم من منظر إلى منظر ومن صورة إلى صورة، ولم كان المجال الخيالي فسيحا أمام أفكارهم أمكن لخيالهم الانطلاق فيه دون أن يلتقي ما يمانعه أو يعارضه، فكان خيالهم بسبب ذلك ينسج نسيجا معقدا ضم أفكار وصور عدة حول السماء قد تبدو أنها غير قابلة للاندماج في وحدة متماسكة متجانسة^(٣).

استنادا إلى الرسومات التي تمثل أسطورة ابتعاد رع عن الأرض وبعض النصوص الأخرى، توجد أربع أفكار مختلفة عن السماء لدى المصريين القدماء وهي: المرأة، البقرة، المحيط (حيث يبحر القوارب) والسقف الذي يجب أن يسند فوق شو^(٤). ورغم الاختلاف والتباين في الصور التي تعبر عن تلك الأفكار إلا أنها تشترك في جوهر واحد أعتقد المصري القديم بأنه يمثل السماء. والذي يتمثل بكونها المصدر أو الأم العظمى (الرحم الكوني) للحياة في هذا الكون^(٥).

أشرنا في موضع سابق إلى أن المصري القديم أعتقد بان خلق الكون تم على يد الإله الأعلى، لكن هذا الأخير وفقاً للفكر المصري القديم لم يكن إلهاً أزلياً بل هو مخلوق تكون أو تشكل أو ولد بطريقة ما، لهذا كانت أغلب نظريات الخلق قد وضعت لتفسير نشأت هذا الإله الخالق. ولما كانت الخصوبة في مقدمة الأمور التي حاول المصري القديم فهم طبيعتها والقوى المتحركة بها، وذلك لدورها الأساسي في تكاثر محاصيله الزراعية وحيواناته المدجنة فضلا عن تكاثر الجنس البشري، مما جعلها محور اهتمام المصري القديم وأساس أفكاره. فقد اعتبر الرمز الأنثوي، المعبد للخصوبة، هو رحم الكون حيث تكوّن الخالق كأبن داخل ظلام هذا الرحم، وشكلت السماء (بمختلف مسمياتها) رمزاً للأمومة المطلقة، في ذهن المفكر المصري القديم.

(١) جيمس هنري بريستد، فجر الضمير...، ص ٩٩.

(٢) أحمد محمد البربري، السماء في الفكر المصري...، ص ٦.

(٣) جيمس هنري بريستد، فجر الضمير...، ص ٩٩.

(٤) روبرت ارموار، آلهة مصر القديمة...، ص ٣١.

(٥) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني...، ص ٣٣١.

ارتبطت الدورة اليومية للشمس، كما ذكرنا سابقاً، بمبدأ الخلق والتجدد في الفكر المصري القديم. والفترة التي تسبق شروق الشمس، أي تجدد حيوبتها، تكون بمثابة حمل، ومن هذا تولدت لدى المصري القديم فكرة مفادها أنه إذا كانت السماء موقع لبث الحياة في الشمس من جديد، فهي في حد ذاتها إذاً الرحم الذي تجري فيه التحولات التي تمهد لولادتها مرة أخرى. ولا تعود التمثلات لذلك المظهر للعبة السماوية ترتبط بحقيقتها المادية، ولكن بالدور الذي يبدو أنها تقوم به في دورة تجدد الشمس^(١).

أن اعتبار السماء في الفكر المصري القديم مصدر الحياة على الأرض لم يستند فقط لطبيعتها المتمثلة بمعطياتها من أشعة الشمس بحرارتها وضوئها، والأمطار، وما تحويه من نجوم^(٢). بل يرجع كذلك إلى مقارنتها وتشبيهها بما كان يراه المصري القديم حوله على الأرض^(٣). إذ عكس صورة الفيضان العارم (المياه الأزلية) للأرض قبل تشكلها على تصوراته حول السماء. فقد تخيل المصريون القدماء المحيط السماوي في صورة (فيضان عارم) وعبدوه في كثير من المواضع في صورة بقرة تغطي النجوم بطنها التي تشكل السماء. فالسما بوصفها المحيط الأزلي تعد أماً لسائر المخلوقات من شمس وقمر ونجوم^(٤).

منذ فترة ما قبل التاريخ ارتبطت البقرة ارتباطاً حميمياً بالسماء بل وامتزجت بها؛ فالبقرة والسماء قد اعتبرا مصدرا للتوالد الحيوي في الفكر المصري القديم، فالبقرة تعمل على تكاثر القطيع وتناسله، أما السماء فهي الأم التي تلد الشمس والقمر والنجوم، وهي تضيئ بنورها وضياءها اللازم لوجود البشر. ومن خلال دورها كأم كونية تجسد السماء أحياناً في صورة أمراءه، تصور في المنحوتات وهي تهيمن على الأرض قاطبة وقد تقوست على ذراعها ويديها حتى سطح الأرض غرباً، وعلى ساقها وقدميها (شرقاً)^(٥). وعبدت الشمس في صورة الإلهة حتحور التي كانت أكثر صور الآلهة العظمى جاذبية للمصريين، فحتحور هي وجه السماء، وتعد الإلهة نوت أشهر أسماء السماء في الفكر المصري القديم وخاصة في نظريات الخلق^(٦). إذ دعيت الإلهة نوت ومنذ العصور المبكرة بلقب الإلهة الكبيرة أم الآلهة، وتدعى

(١) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٤٢.

(٢) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ١٨٣.

(٣) أحمد محمد البربري، السماء في الفكر المصري، ص ٦.

(٤) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ص ٨٤-٨٥.

(٥) كليز لالويت، الفن والحياة، ص ٣٥٤.

(٦) رندل كلارك، الرمز والأسطورة، ص ص ٨٤-٨٥.

أحيانا بالأم البقرة العظيمة التي تلد رع يوميا . لذلك سميت الإلهة نوت بـ(البقرة التي ولدت الشمس)، أو "الأم التي ولدت الشمس والتي ولدت لأول مرة عندما لم يولد أي شيء آخر"^(١).

تعبر النصوص المصرية عن جوهر الإلهة نوت (السماء) والمتمثل بكونها الأم الكبرى التي ولدت كل شيء من رحمها. وهذا ما يعبر عنه النص الآتي الموجه إلى الإلهة نوت: " أنها الخالقة الوحيدة: أن كل ما هو كائن خرج من نسلها، ولا يوجد كائن ولد خارج ما قامت بصنعه"^(٢). فالسماء باعتبارها الأم الكونية لم تكن مسؤولة عن ولادة الإله الخالق ورعايته فحسب، بل أن مهمتها تشمل خلق أي ولادة لكل الكائنات في هذا الكون.

تجسد السماء المبدأ الانثوي في أساطير الخلق، بينما يجسد صنوها الأرض المبدأ الذكوري وذلك حرصاً على تحقيق التكامل^(٣)؛ وتماشياً مع الجوهر الخاص لكل عنصر منهما. فالإلهة نوت (السماء) ولدت من زوجها الإله جب (الأرض) الجيل الثاني من الآلهة ، ولهذا عرفت نوت في نصوص التوابيت بأنها "ذات الشعر المجدول التي ولدت الآلهة"^(٤). وتحتوي نصوص الأهرام على قصيدة طويلة ألقاها جب على زوجته نوت تبين لنا القوة والمكانة التي تمتعت بها هذه الإلهة : " يا نوت! لقد أصبحت روحاً، تكونت بقوة في رحم أمك تفنوت قبل ميلادك ، كم هو قوي قلبك، تحركت في رحم أمك باسم نوت، أنت في الواقع ابنة أكثر قوة من أمها، يا أيتها العظيمة التي أصبحت هي السماء، لك السيادة، فانت قد ملأت كل مكان بجمالك ، الأرض بأكملها تقع أسفلك، فأنت سيطرت عليها، أخذت موقعك هناك، أنت احتويت كل الأرض وكل شيء فيها بذراعيك، أنا جب سأحمل بك باسمك وهو السماء باسم السماء، وسوف أصل الأرض كلها بك في كل مكان، تعاليت فوق الأرض! أنت معظمة عن أبوك شو، ولك قوة كبيرة عليه، لقد أحبك كثيراً، حتى أنه وضع نفسه وكل الأشياء أما جانبك أو تحتك"^(٥). قصيدة الحب هذه تحتوي على جوهر شخصية نوت: فهي السماء التي بعلاقتها مع زوجها الأرض أنجبت من رحمها الكوني كل الموجودات السماوية والأرضية.

(١) أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة، ص ٤٠.

(٢) فرانسوا دوما، إلهة مصر ... ، ص ٩٨.

(٣) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٤٢.

(٤) روبرت ارمار، آلهة مصر القديمة ...، ص ٣١.

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢٩.

وفقا للفكر المصري القديم أن الأم العظمى هي المسؤولة عن خلق أو أيجاد العناصر الأربع الرئيسية المكونة للوجود، وتلك العناصر هي: الحرارة المتمثلة في قرص الشمس (النار) الذي يشع الضوء أيضاً، والهواء اللازم للنفس، والماء كطاقة حيوية ضرورية لحياة كل المخلوقات، والتربة حيث ينمو الغذاء، ويمثل هذا الكيان أي الأم العظمى روح العالم الكائنة في السماء من خلال الشكل التخيلي للبقرة الذي رصده في هذا السماء أي الطريق اللبني حيث يتحرك قرص الشمس^(١).

قد يظهر عنصر بعينه من الكون، وكذلك قوة طبيعية بعينها في أشكال مختلفة حسب الظروف، وحسب الأدوار المتنوعة التي يتعين على كل منها أن يضطلع بها، وعليه فإن الوصف الأسطوري يمكن أن يتمثل في شكل مختلف في صورة أو نصوص أخرى، وهذا ما أسماه عالم تاريخ الاديان هنري فرانكفورت "تعدد المعالجات". وهذا التنوع في التعبيرات عن واقع واحد يثير الحيرة، ولكن من السهل تفسيره بمجرد القبول بالمنطق الخاص بالفكر الديني المصري. فقد أدرك المصريون القدماء أن التعامل مع الأحداث الكونية لا يمكن إلا أن يتم من زاوية محددة وجزئية، فلم يحاولوا فرض النظم اللاهوتية المحلية كعقيدة مسلم بها، بل أنه يلاحظ، على العكس، أن الفكر الديني الناشئ حول إله معين والمفهوم الخاص بمولد الكون المرتبط به كان مصدراً دائماً للإلهام يمكن أن يوضع في الاعتبار في أي معبد آخر، ولم يزعم أبداً أي معبد أنه الوحيد الذي يملك الحقيقة الأزلية، بل كان يعتبر بالأحرى أن رؤيته للعالم معالجة ممكنة للمجالات الإلهية، ولم يتقرر أي تصور كهنوتي إلا بعد نضج بطيء، وعلى عكس ما نعتقد أحياناً، لم يكن ذلك التصور جامداً أو متحجراً إلى الأبد. وكانت الاتصالات بين المدن الكبرى غزيرة وغنية فساعدت على المزيد من التأمل حول الصفات الإلهية^(٢).

وهناك إلى جانب الواقع الحقيقي الذي يرمز إليه، والمكتوب والموصوف عن طريق إشارات تومئ إلى حقيقته المادية، يوجد مجال خيالي يخص الآلهة والموتى ومصائرهم وإن كانت المخلوقات الدنيوية لا تتركه بشكل مباشر. وهناك نموذج للمواقع الأسطورية في المجال المتخيل موجود في المجال الحقيقي مثل السماء والأرض ومنابع الفيضان، وإن لم يكن له في حد ذاته وجود ملموس، محاولة تحديد وضع الآلهة في المجال المادي مسعى لا جدوى منه، فعلة وجودهم لا تتمثل إلا في وظيفتهم، وفضلاً عن ذلك تتداخل مع تلك المجالات الخيالية، فعلى سبيل المثال: تتوافق السماء السفلى كمنطقة عبور مع الدوات

(١) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ٣٣١.

(٢) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٣٢-٣٣.

المتركز في أعماق الأرض، وهذه المجالات الخيالية تتحصر في أوصافها التقريبية التي لا تدركها العين^(١).

ثالثاً: أثر البيئة في تنظيم الآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم

وصف بعض من درس عالم الآلهة المصرية القديمة بأنه عبارة عن فوضى هائلة، ربما بسبب التعدد والتبادل ولو الجزئي للأشكال والأسماء والوظائف، لكن المصريون لم يتركوا ، وفقاً لتفكيرهم، عالم إلهتهم دون تنظيم^(٢). كانت البيئة الطبيعية أساس وجوهر الديانة المصرية القديمة، فقد خلص الإنسان المصري القديم، بعد تأمله في طبيعته المحيطة به، إلى تأليه أغلب ظواهرها ومظاهرها، خاصة تلك التي لها تأثير مباشر على حياته اليومية^(٣). وفي مقدمتها: الشمس، الماء، الهواء، الأرض، والسماء، جاعلاً من هذه القوى الطبيعة آلهة عظام تتحكم في هذا الكون الذي خلقته^(٤). وفي عالم محكوم بقوى لا يمكن التنبؤ بأفعالها، تكون متحالفة مع بعضها أحياناً ومتعارضة في أحيان أخرى، لا تتبع الأحداث التاريخية أية خطة حاسمة مسيطرة^(٥). كان على المصري القديم أن يجد طريقة يتعامل بها مع تلك القوى التي أعتقد بأنها تحكم الكون، وكيفية للتجاوز معها، مع الأخذ بعين الاعتبار اعتقاده بأنها موجودة بناء على الظواهر الملموسة التي تبدو مسببة لها، علماً بأنها تتجلى عن طريق تلك الظواهر. ومع أن وجود تلك القوى ملحوظ من خلال وقائع العالم المحسوس، إلا أن جوهرها يظل في حد ذاته موضع نظر، وبما أنها تتحقق في العالم المادي فإن جزءاً منها ينتسب إلى الواقع. وبوسع الإنسان أن يفترض أن هذه القوى القائمة حوله والظروف التي تتحقق فيها هي انعكاس لشخصية وتصرفات كيانات متواجدة في "العالم الخفي". وعليه يمكن ربط كل من تلك القوى بجسم ملموس يتم اختيار نموده في الطبيعة^(٦).

(١) Wilson, A. John, "Egyptian Myths", pp. 6-7.

(٢) فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر...، ص ٤٢.

(٣) سعد عبود السمار وسهاد علي عبد الحسين، "صراع الآلهة مع البشر في المعتقدات المصرية القديمة"، مجلة كلية التربية، العدد ٤٠، الجزء الثاني، واسط، ٢٠٢٠، ص ١٩٧.

(٤) عريان لبيب حنا، الشخصية المصرية...، ص ٩٩.

(٥) إريك هورنونج، فكرة في صورة...، ص ١٢٠.

(٦) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة...، ص ٣٠.

عندما أراد الإنسان المصري القديم أن يبلور أفكاره عن هذه القوى المتحركة في الطبيعة وفي الكون وفيه هو ذاته فصاغها رجال اللاهوت في صورة أساطير يحاولون فيها تفسير للقوى الكونية، ويحاولون إيجاد علاقات بين القوى بعضها ببعض، وبين هذه القوى والإنسان^(١). أثرت الطبيعة البشرية في تصورات الإنسان حول تلك الآلهة، فبفعل مبدأ التشبيه تصور القوم أن آلهتهم تشبه البشر في الصورة لكنها تختلف عنهم بالقوة والخلود. لقد تم جمع حشد من الآلهة المصرية في كل متماسك، والذي جاء نتيجة عملية إنضاج طويلة المدى لفكر الإنسان المصري القديم وتصوراتهم ومعتقداتهم حول القوى الإلهية، وصولاً إلى فكر لاهوتي مكتمل شكلت فيه آلهة مصر القديمة في مجتمع منظم ومتدرج المراتب، على غرار المجتمع البشري، حيث المهام موزعة بعناية على مختلف الأفراد^(٢). وتنظم هذه الآلهة في مجاميع يسميها المصريون القدماء (بوت) تتكون من أعداد محددة من الآلهة كالثالوث والثامون والتاسوع^(٣).

إن الأساطير المصرية تضع العناصر الطبيعية في إطار مجسد على هيئة البشر وتحرك هذه العناصر مثل البشر وتسبغ عليهم مشاعر وأحاسيس وسلوكيات مثالية أحياناً وشريرة في أحيان أخرى كي تستخلص منها (الماعت)، أو التوازن الواجب وجوده بين العناصر المتضادة المتكاملة في جوهر اختلافها^(٤)، لقد أبتكر المصري القديم عالماً متكامل من القوى الروحية أو الآلهة، تؤمن عالماً المادي وتضمن حسن سير الأحداث فيه، بوصفه الانعكاس المثالي لعالم الآلهة، فكل أجزاء هذا العالم، التي تمثلها الأرباب، متواجدة في مكانها الصحيح وتعمل بأحكام، وفقاً للنظام الكوني الذي أقامه خالق العالم مع بداية الزمن، وهذا الخالق متآلف مع (ماعت) المجسدة لمبدأ التوازن الكوني، وهكذا يأمن كل إله الحفاظ على الكون بأداء الدور الموكّل إليه، وقد نشأت تلك الشخصيات الإلهية في الوقت نفسه مع عالمنا، وهي لم تشارك بأية حال من الأحوال في ما سبق الخلق الذي يظل مجال الخواء الأولى^(٥).

إن الانجاز المنظم الدقيق الذي خلقه الإله الخالق تهدده دائماً وأبداً قوى الخواء، وحقيقة أن هذه القوى قد نبذت خارج نطاقه، ولكنها بالرغم من ذلك تشكل خطراً دائماً لا يتوقف أبداً. وتنظيم عمل الآلهة

(١) عريان لبيب حنا، الشخصية المصرية، ص ٩٩.

(٢) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٢٧.

(٣) خزعل الماجدي، الدين المصري، ص ٤٨.

(٤) نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني، ص ١١٠.

(٥) "يان اسمان، ماعت" مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية، ترجمة: زكية طبو زاده وعليه شريف، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، (القاهرة، ١٩٩٦)، ص ص ١٠-١١.

هو فقط القادر على الحفاظ على النظام العالمي^(١). وهذا التنظيم يقع على عاتق ماعت المجسدة للتوازن الإلهي الذي يبيت الحضور المشع للمنظم الأعظم للكون، فهي تنشأ في الوقت نفسه في العالم المحسوس وتجسد استقراره وهيبته المنضبطة، كما أنها ترمز إلى قوى التماسك التي تحافظ على بنية الفضاء المحسوس، ولما كانت تجسيدا للتوافق، فهي تؤدي دوراً مماثلاً في المجتمع الإنساني حيث تمثل الحقيقة والعدالة والنظام الاجتماعي^(٢).

مثل مفهوم (ماعت) للمصريين القدماء جوهر النظام والعدالة للكون والملك والمجتمع والفرد، ولخصت هذه الكلمة الفلسفة الروحية العميقة للأخلاق والقيم والعدل والمثالية، وإذا كانت (ماعت) قد تجسدت في إلهة الصدق والعدل لكنها أبعد من أن تعامل كإلهة أنثى ابنة لرع وزوجة لتحت، فهي أساس الحضارة المصرية والبعد الخفي والعميق لمدينة المصريين. فالعالم الفرعوني يركز على تبادل الماعت بين الآلهة من جهة والفرعون من الجهة الأخرى بكونه الوسيط الأكبر؛ في فوضى اضطراب العناصر الكونية، تأتي الماعت لتعيد المعايير والمقاييس في جميع أنظمة الخلق، حيث أرتبط قطبا الكون والاجتماع بثوابت مماثلة^(٣).

وفقاً للفكر المصري القديم كانت قوانين ماعت هي التي تؤدي إلى استقرار الكون ويتم بواسطتها المحافظة عليه^(٤). وذلك بجعل العلاقة بين ماعت والآلهة تمثل ارتباطاً بما لا فكاك له بين الوجود الإلهي وبين أعظم المقتضيات الخلقية عمقا في الطبيعة البشرية وجعل كل واحد منهما يتوقف على الآخر^(٥). أي أن ماعت تمثل الرؤية المصرية للجوانب الاجتماعية والفكرية والكونية، بكلمة أخرى أن المفكر المصري القديم جعل من الاخلاقيات المصرية جوهرًا لنظام الكون المتكامل، فالحقيقة تعني "الكلام المنسجم مع الواقع"، والعدالة تعني "الفعل المنسجم مع القوى المنظمة النشطة في الحفاظ على النظام المتكامل". أن الماعت كانت الوضع الحق في الطبيعة وفي المجتمع، كما ظهرت في عملية الخلق، والتي ينحدر منها مفاهيم أكثر تخصصاً مثل القانون والنظام والعدالة والحقيقة^(٦).

(١) كليبر لالويت، الفن والحياة ...، ص ٣٦٦.

(٢) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٥٢.

(٣) يان اسمان، ماعت مصر الفرعونية ...، ص ٨.

(٤) والاس بدج، آلهة المصريين ...، ص ٤٦٩.

(٥) فرانسو ديماس، آلهة مصر ...، ص ١٤٦.

(٦) يان اسمان، ماعت مصر الفرعونية ...، ص ص ١٤-١٦.

إن تحول الأساطير المصرية القديمة إلى مجرد قصص بسيطة تصور شخصيات شبيهة إلى حد كبير بالنموذج الإنساني، بفعل مبدأ التشبيه، لا يجعل من السهل تتبع أثر البيئة الطبيعية والعقيدة الدينية في تلك الأساطير والفكر المصري القديم عموماً، لهذا إذا أردنا تبيان هذا الأثر يجب علينا استذكار الطريقة التي تمت بها الخطوات الأولى وأوصلت المصري إلى آلهته^(١). فالفلسفة الروحية التي توصل إليها المفكر المصري القديم ولخصها في كلمة ماعت جاعلاً منها القوة الكونية المنظمة للعالم والباعثة على الانسجام والاستقرار بين جوهر الآلهة التي خلقتها^(٢). ترتكز على فلسفة مادية بالأساس، إذ على الرغم من الأشكال الانسانية والحيوانية والرموز الغريبة والعديدة التي أعطاهها المصري القديم لإلهته المختلفة، إلا أنها تبقى من حيث الجوهر تتفق مع مفهوم الكون والقوى المتواجدة فيه^(٣). فتلك الآلهة بالأساس ليست سوى عناصر الوجود المادية التي قام المصري القديم بتأليها بعد تأمل وتفكير عميق بفواعلها وتأثيرها على حياته في بيئته الطبيعية^(٤)، واختيار الآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم كان قد استند على تلك الفلسفة المادية في تأليه عناصر الوجود، فالآلهة الخالقة تمثل القوى الكونية : الشمس، الهواء، المياه، الأرض، والسماء.

وقياساً على ذلك فإن وصف المصري القديم لجوهر تلك الآلهة، مع الأخذ بعين الاعتبار اعتقاده بانها موجودة بناء على الظواهر الملموسة التي تبدو مسببة لها وأنها تتجلى عن طريق تلك الظواهر، كان مطابقاً للسلوك الذي تتبعه الظواهر والمظاهر الطبيعية الممثلة لها في البيئة المصرية^(٥). وهذه الأخيرة كانت تتصف، بصورة عامة، بالاعتدال والتنظيم والتوافق مع حياة المصري القديم . فاللهة مصر تستطيع أن تكون مرعبة، وخطره، ولا يمكن التنبؤ بها؛ ولكنها لا يمكن أن تكون شريرة، بل أنها بالعموم تتصف بالعطف والاعتدال والتنظيم المتسق مع الجوانب المختلفة لحياة المصري القديم^(٦). إذ لم يكن باستطاعتهم الخروج عن أتباع قوانين الطبيعة وسننها، ولذلك نجد أنه كان للآلهة المصرية طبيعتان، فمن جهة يظهرون بأنهم يتمتعون بإرادة حرة خالدة، ومن جهة أخرى وفي الوقت عينه كانوا قوة إيجابية وسلبية،

(١) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٢١.

(٢) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، ج ٢، ص ٤١٩.

(٣) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٢٩.

(٤) مصطفى النشار، الفكر الفلسفي، ص ٢٣.

(٥) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٣٠.

(٦) أريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ٢٢٠-٢٢١.

لأنهم قوى طبيعة خاضعة لدورة الفلك وظواهره^(١)، لهذا كانت آلهة الطبيعة العظام (الخالقة) ، الذين كان تأثيرهم كبيرا على حياة الإنسان، كانت أعمالهم في الفكر المصري القديم ذات صبغة عملية منظمة لا فردية محدودة، ولا يستثنى من ذلك إلا الظواهر الطبيعية التي تعترض سير نظام الكون من وقت لآخر وتظهر بأنها تعرضه للخطر، ومن ذلك خسوف القمر، أو تلك الظواهر التي تكون عودتها قياسية^(٢). ومثال ذلك: الصراع بين الإلهين حور وست الذي يمثل تعاقب النور والظلام وكذلك تقلبات النجوم المنيرة، وأخيرا بوجه خاص الحرب بين القوة المعمرة والقوى الشريرة المخربة، ومن كل هذا نجد أن حياة الآلهة تمر في سلسلة متصلة الحلقات من الصراع والتغيرات التي تحدث بنظام عام بعد عام^(٣). لأن الاضطراب المحدود أمر ضروري لحيوية الوجود وأي جماعة حية. إلا أنه لابد للآلهة والناس معا أن يضمنوا ألا تصل الفوضى إلى حد التغلب على العدل والنظام، وهذا هو معنى التزامهم تجاه ماعت^(٤).

إن الخطاب السياسي في مصر القديمة بكافة صوره كان جوهره (الماعت)، ومن ثم كانت الماعت هي الصيغة التي بنى عليها العقد الاجتماعي الذي استمر طوال تاريخ مصر القديمة بين حكامها ومحكوميه^(٥). فبالنسبة لعامة الشعب المصري القديم بل لكل أفراد لشعب كان النظام هو الاستقرار السياسي والإداري وهو في نفس الوقت تنفيذ أرادة الخالق ووجود النظام وهذا كله كان مرتبط بالعدالة والحق والصدق (ماعت) وبالأخلاق. وعندما يهتز النظام فان الفوضى تعم فتقلب المعايير ولا توجد قوة مهيمنة تقوم بتنفيذ العدالة وهو ما يهم الناس في المقام الأول^(٦). بكلمة أخرى أن أي اضطراب يمس الاستقرار السياسي والاجتماعي يشكل تعديا على ماعت. فعندما يكون الانسجام سائدا في الكون الخيالي، فإنه ينتشر بنفس القدر في العالم الدنيوي، وقياسا على ذلك فإن كل اضطراب في العالم الدنيوي يعني أن التوازن الإلهي كان بالتالي غائبا، ولو استمرت الفوضى لانعكست على العالم الإلهي وألحقت الضرر بكمال الآلهة^(٧). إذ مع وجود الفوضى لا ضمان للأخلاق السامية بل أن الاستقرار يهتز، وتهتز الثقة في كل ما تعلم الناس من عقيدة دينية ومثل خلقية وأمان اجتماعي واقتصادي، وهو ما حدث عقب الثورة

(١) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة ، ج ١، ص ص ١٧٦-١٧٧.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٣.

(٣) المصدر نفسه ، ص ص ١٧٦-١٧٧.

(٤) اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية ...، ص ص ٢٢٠-٢٢١.

(٥) مصطفى النشار ، الفكر الفلسفي في مصر القديمة، ص ٢٠.

(٦) عريان لبيب حنا، الشخصية المصرية ...، ص ١١٧.

(٧) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة ...، ص ٢٢٩.

الاجتماعية التي بدأت في فترة الاضمحلال الأولى^(١). أي أن الفوضى التي كانت تحاول منعها ماعت لم تكن ألا الفوضى السياسية، وليست كما صورها الفكر المصري القديم فوضى الظواهر والمظاهر الطبيعية التي كانت منتظمة بطبيعتها وفي جوهر الآلهة الممثلة لها.

كانت قوة الإنسان المصري القديم المنظمة في الخارج وقوة الناصح الخلق في الداخل عاملين باكرين في تشكيل الدين المصري القديم^(٢). وتلك المبادئ الاخلاقية للمصري القديم ما هي إلا ممارسات اكتسبها من ملاحظة الطبيعة ومظاهرها المتنوعة مما كان له أبلغ الأثر على فكره المتطور، فالفكر المصري أوجد شكلا متجانسا بين الدولة والعقيدة والثقافة العامة، فأصبحوا وحدة متكاملة لا تقوض أركانها، فإذا سقط أحد أركانها سقط الكل معاً.

(١) عريان لببيب حنا، الشخصية المصرية ...، ص ١١٧.

(٢) جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين ...، ص ٣١.

المبحث الثالث

أوجه الشبه والاختلاف لجوهر الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين وأثر البيئة في ذلك

أولاً: مقارنة حول أثر البيئة في تحديد الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري القديمين

أ- أوجه الشبه

نتج عن تأليه الإنسان العراقي والمصري القديمين لأغلب مظاهر وظواهر الطبيعة وجود عدد كبير من الآلهة التي عُبِدَت في البلدين. لكن هذا الجمع الهائل من الآلهة مثلما لم تكن جميعها تتساوى من حيث الأهمية والمركز فأنها كذلك لم تكن جميعها تتمتع بقدرة الخلق. فهذه القدرة اقتصرَت على عدد محدود من الآلهة في كلا الفكرين. وقد لعبت عوامل عدة وراء تحديد الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري نذكر فيما يلي ما كان مشتركاً بينهما:

١- مدى تأثير الظاهرة البيئية على حياة الإنسان كان المقياس الأساس للاختيار.

٢- كان لرواسب ديانات ومعتقدات عصور قبل التاريخ أثرها في تحديد الآلهة الخالقة في العصور التاريخية.

٣- اعتماد سكان البلدين على نمط الإنتاج الزراعي كأسلوب رئيسي للمعيشة ساهم في تشابه بعض القوى الإلهية الخالقة في كلا الفكرين.

٤- لم تتمكن التغييرات السياسية من تغيير جوهر الآلهة الخالقة أو إعطاء قدرة الخلق إلى الآلهة الجديدة، فجل الذي أحدثته تلك التغييرات هو استبدال أسماء الآلهة الخالقة أو دمجها مع أسماء الآلهة الجديدة دون التأثير على جوهرها.

صحيح أن التأكيد على التأثير المادي بمعزل عن التأثير الروحي، لا يعطي تفسيراً مقنعاً للتاريخ الإنساني وفكره وحضارته^(١). لكن مفكري الحضارتين العراقية والمصرية القديمتين في حدود مستوى التطور الفكري لديهم قدموا لنا فلسفة خلق، وهي ذاتها فلسفة الوجود لديهم، كانت تستند على أهداف عملية محضة^(٢). فقد كان أول الهموم التي اضطلعت بها مجتمعات تلك الحضارتين هما اقتصادياً يرتبط

(١) سامي سعيد الاحمد، العراق القديم ... ، ج ١، ص ص ٥٩-٦٠.

(٢) جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ ... ، ص ١٣٤.

بالدين بشكل وثيق^(١). فاقتصاد أي مجتمع، وبالخصوص المجتمعات القديمة، يؤثر على طريقة تفكيره ومذهبه الفكري كما أنه يتأثر به^(٢). لهذا كانت الديانة في كلا البلدين تتصف بالعملية، حيث كانت العقيدة في حالة تمازج مع مختلف أوجه النشاط الحياتي للمجتمع العراقي والمصري القديم^(٣).

إن الوقوف على أديان ومعتقدات الشعوب القديمة، ومنها العراقي والمصري، ومنذ أقدم العصور، جعلنا ندرك أن فكرة الالهوية لم تنبثق طفرة في قلوب أفرادها^(٤). فلم تكن في البدء ألا فكرة تكونت من ماديّات إلفها الإنسان في مظاهر وظواهر الطبيعة المحيطة به^(٥). إذ من المعروف عن إنسان تلك العصور أنه كان شديد التأثر، بحكم أسلوب حياته البدائية، بالظروف الطبيعية. ولا شك في أنه أحس من خلال تأملاته في ظواهر الطبيعة ومن خلال صراعه معها، وخاصة تلك التي كان لها مساس مباشر بحياته اليومية، بأن في تلك الظواهر قوى أو أرواحاً مما تسبب مثلاً هبوب الرياح والعواصف، وحدوث البرق والرعد، وهطول الأمطار وحدوث الفيضان.. وبالمثل فإنه عزى إلى مثل هذه القوى جميع مظاهر التجدد والعطاء من ظهور العشب وتفتح البراعم وتكاثر الحيوانات وكثرة الخيرات في موسم الربيع.

تابعت مجتمعات البلدين تحسين ذلك الجهاز الروحي لتنشأ منه عالماً كاملاً من الآلهة. ونتيجة لعمليات التحدي والتفاعل المتواصلة بين الإنسان وقوى الطبيعة، فقد كان منطقياً أن تنتخب مجتمعات البلدين مجموعة محددة من ذلك العالم الإلهي الكبير خصتها بقدرة الخلق والتجديد والتي تجسد أكثر الظواهر الطبيعية تأثيراً على حياتهم والنمط الاقتصادي لمعيشتهم ابتداءً من الصيد ثم الرعي وصولاً إلى الزراعة. مع حدوث تبدل في تلك العقيدة مع كل تبدل في النمط الاقتصادي لمجتمعات البلدين. نتيجة لاختلاف المظاهر الطبيعية المؤثرة في كل نمط اقتصادي. فإذا كانت عبادة الإلهة الأم هي العبادة الأولى التي انتشرت في مجتمعات العصور الحجرية لكلا البلدين كونها، في نظرهم، المسؤولة عن الخصوبة للبشر والحيوان والنبات. نجد في المقابل أن الآلهة التي جسدت الأرض والسماء والماء والهواء والشمس هي التي انتشرت في مجتمعات القرى الزراعية كونها العوامل المؤثرة في نمط الإنتاج الزراعي.

(١) حسين سيد نور، جذور الفكر ...، ص ٢١٩.

(٢) جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ ...، ص ١٢.

(٣) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في وادي الرافدين ووادي النيل ...، ص ص ٧٩-٨٠.

(٤) غوستاف لوبون، حضارة بابل وآشور ...، ص ص ٩٠-٩١.

(٥) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي ...، ص ٣٥٠.

إن تصورات مجتمعات القرى الزراعية في العراق ومصر حول مسألة الخلق جاءت متكافئة في مسارها مع مستوى واقع الحياة المادية لها، فهي في الغالب تشير إلى مجموعة أفكار وتصورات انعكست عن الاحتياجات المادية لتلك المجتمعات والتي تراكمت لديها خلال ممارستها لعمليات الإنتاج. وتشكلت عبر العصور فلسفة خلق طبيعية في الحضارتين العراقية والمصرية القديمة قام بوضعها رجال الفكر واللاهوت في البلدين معتمدين على ما ورثوه من معتقدات عصور قبل التاريخ التي ترسخت في عقول المجتمعات اللاحقة بفعل وحدة المنيب الفكري والعقائدي لشعبي البلدين. أن رسوخ تلك الفلسفة لدى أفراد المجتمعات العراقية والمصرية القديمة لم تستطع حتى التغيرات والتقلبات السياسية التي مرت على الحضارتين من تغييرها. فالآلهة التي تمتعت بجوهر الخلق لم تتغير أو تختفي من المجاميع الإلهية التي ظهرت في البلدين وعلى امتداد التاريخ الحضاري لهما. وجل ما أصابها بفعل العوامل السياسية والتطور الحضاري هو تغيير مركزها أو الصاق أسمائها مع أسماء آلهة أخرى.

ب- أوجه الاختلاف

شكلت الطبيعة البشرية (البيولوجيا) الإطار العام لديانة كل شعب من الشعوب، بينما كان الاختلاف والتنوع بين تلك الديانات متأثراً من الاختلاف في الفكر كونه متأثر ومنفعل بالبيئة^(١). وتأتي فلسفة الخلق في المكانة الأولى لتعكس ذلك الاختلاف كونها تمثل الطابع المميز لفكر كل شعب من تلك الشعوب وحضارتها^(٢). وقد تباينت فلسفة الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين في موضوع تحديد الآلهة الخالقة، نتيجة للتباين والاختلاف في البيئة الطبيعية للبلدين.

خَلَصَتْ فلسفة الخلق في الفكرين العراقي والمصري القديمين إلى أن قوة الخلق هي قدرة امتازت بها الآلهة التي تمثل عناصر الكون الأساسية لأن، حسب اعتقادهم، كل ظاهرة كونية أخرى تولدت من هذه العناصر. لكن الفكرين يختلفان في تحديد هذه العناصر وجوهر ودور وأهمية الآلهة الخالقة التي مثلتها، حتى وأن مثل أحدها نفس الظاهرة الطبيعية في كلا الفكرين. فوفقاً للفكر العراقي القديم كانت الآلهة الخالقة هي: (إله السماء، إله الهواء، إله الماء، إله الأرض). والتي تمثل عناصر الكون الرئيسية. بينما كانت الآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم هي: (إله الشمس، إله الهواء، إله الأرض، إله الأرض، إله السماء)، والتي تمثل عناصر الكون الرئيسية.

(١) حسين سيد نور، أثر الحتمية ... ، ص ٢٨٣.

(٢) صموئيل نوح كريم، الأساطير السومرية ... ، ص ٥٥.

ثانياً: مقارنة حول أثر البيئة في تشكل جوهر الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري القديمين

أ- أوجه الشبه

استطاع الإنسان القديم، ومن ضمنهم الإنسان العراقي والمصري القديمان، إيجاد الحل لمعضلة تمثيل الآلهة بشكل مادي في المعابد لكي يتسنى له خدمتها وعبادتها بفضل مبدأ التشبيه، فصورها بهيئة تماثيل أعطاها شكل وهيئة الإنسان نفسه^(١). لكن هذا الحل لم يعطِ للإنسان أجوبة لتساؤلاته حول جوهر تلك الآلهة، وهو ما وجده في مبدأ الحيوية، أي أيمانه بأن الآلهة هي أرواح أو شخصيات كامنة في مظاهر وظواهر الطبيعة المختلفة^(٢). فتلك الآلهة تكشف للإنسان عن جوهرها في لحظة مواجهته لها في الطبيعة^(٣). وفي ضوء هذا النظرة المشتركة لمفهوم الألوهية بين الفكرين فإن جوهر الآلهة الخالقة فيهما يشترك بالنقاط الآتية:

١- أن جوهر الآلهة الخالقة ليس إلا جوهر العناصر الكونية المؤهلة ذاتها.

٢- مادية الخلق من حيث الأسلوب والطرق والصورة العامة التي احتوتها.

إن منطق الفكر الأسطوري للحضارتين العراقية والمصرية القديمتين وتركيبه الخاص مستمد من وعي مستمر بالعلاقة النابضة بين إنسان البلدين وبيئته الخاصة. فمن دون شك أن تلك العلاقة كان لها الأثر البالغ في صياغة أفكاره الأولية فيما يخص الإله والألوهية بشكل عام. وفي تحديد الملامح العامة في كلا الحضارتين حول فكرة الخلق .

لقد ترتب على اعتقاد الإنسان العراقي والمصري القديم بحيوية الطبيعة، اعتقاده كذلك بحيوية الفعل الإلهي الذي كان يعتبره بموجب هذا التصور فعلاً طبيعياً كونياً. فذلك الإنسان وبسبب عدم تمكنه من أن يدرك الموقف الذهني المنفصل إزاء الطبيعة، لم يكن يجابها بـ((هو)) بل بـ((أنت)). لكونها باعتقاده تضم حشداً من الآلهة^(٤). ولما كانت هذه الآلهة شخصيات روحية وغير ملموسة فإن معرفة جوهرها وطبيعتها واتجاه إرادتها شيء لا يمكن إدراكه إلا من خلال الظواهر الطبيعية الممثلة لها^(٥).

(١) حسين سيد نور، أثر الحتمية ... ، ص ٢٨١.

(٢) فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز ... ، ص ص ١٣١-١٣٢.

(٣) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات ... ، ص ٧٢.

(٤) هـ . و . هـ.١. فرانكفورت، اعتناق الفكر من الأسطورة ... ، ص ٢٦٤.

(٥) جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ ... ، ص ص ٩١-٩٢.

بالتالي كان جوهر الآلهة الخالقة وفعلها الخلاق في الفكرين العراقي والمصري القديمين ليس إلا جوهر العناصر الكونية المجسدة لها وفعلها الطبيعي. كذلك كانت فلسفة الخلق في كلا الفكرين ذات صبغة طبيعية معظمها أشبه بالبدئية بل هي حقائق أولية. حقائق يمكن أدراكها إذا نظرنا إلى تلك فلسفة بمعزل عن أطوارها الأسطوري.

ب- أوجه الاختلاف

إن كون الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري القديمين هي تجسيد لأهم العناصر الطبيعية المؤثرة في حياة مجتمعات البلدين. جعل من جوهر تلك الآلهة على أشد التباين والاختلاف نتيجة للتباين والاختلاف الواضح في البيئة الطبيعية للبلدين. وهذا ما بينته المقارنة بين أساطير الخلق في فكري الحضارتين. والتي عكس فيها المفكر العراقي والمصري القديم تجربتهما المباشرة مع بيئتهما الطبيعية. لأنه وفي ضوء مفهوم الألوهية المشترك لم يكن التعامل مع الإله سوى التعامل مع الشيء المؤله ذاته^(١).

يجد الفاحص للأساطير الخليفة في الحضارتين العراقية والمصرية القديمتين الاختلاف الواضح في جوهر الآلهة الخالقة. فتلك الأساطير تبين لنا أن الصفة الغالبة لآلهة العراق القديم هي القوة والبطش والتقلب، لهذا فإن عملية الخلق تمت بالصراع والاحتراب ما بين تلك الآلهة^(٢). أما الآلهة المصرية الخالقة فهي عطوفة ورحيمة وثابتة رغم تمتعها بالقوة والإرادة الحرة، لهذا تمت عملية الخلق بهدوء بمجرد إرادة الآلهة^(٣).

إن التباين الواضح في جوهر الآلهة الخالقة وكيفية سير عملية الخلق في الحضارتين العراقية والمصرية القديمة جاء معبراً عن الفروق العميقة في التجربة الدينية الأصلية الأولى للشعبيين^(٤). والتي تولدت لديهما من عمليات التحدي والاستجابة تجاه البيئة الطبيعية في البلدين.

فقد جعل العراقي القديم مما تمتاز به بيئته الطبيعية من عنف وتقلب وعدم ثبات جوهرًا للآلهة الخالقة في الفكر العراقي القديم^(٥). كما جعل من صراعة مع تلك البيئة العنيفة فكرة معبرة عن نظرته

(١) محمد حسين النجم، فلسفة الوجود ...، ص ٥١.

(٢) طه باقر، مقدمة في تاريخ ...، ج ١، ص ٤٩.

(٣) محمد عبد اللطيف محمد علي، فكرة الخلق في مصر القديمة ...، ص ٢٢١.

(٤) هـ. و. هـ. ١. فرانكفورت، اعتناق الفكر من الأسطورة ...، ص ٢٦٧.

(٥) جورج كونتينو، الحياة اليومية ...، ص ٥٠٠.

لعملية الخلق^(١). أي أن بناء الإنسان العراقي القديم لحضارته العريقة وما تطلبه ذلك منه من عمل شاق على أرض الواقع، هي الصورة التي عكسها المفكر العراقي لتصوراته عن كيفية خلق الكون. فالصراع بين الآلهة العراقية والذي تزخر به أساطير البلاد لم يكن صراعاً من أجل الاحتراب فيما بينها فحسب، بل هو صراع توليدي يهدف إلى خلق الكون في النهاية^(٢). بكلمة أخرى أن استجابة العراقيين القدماء للتحدي الذي فرضته عليهم بيئتهم العنيفة كانت استجابة عملية وفكرية قرّنوا خلالها عملهم بعمل الآلهة. فقد ذهبوا إلى الاعتقاد، وهم يستوحون ذلك من تجارب واقعهم اليومي، بأن الكون في صراع مستديم بين مبدئين هما القوى الدافعة إلى الحركة، وتتمثل بالإنسان العراقي من الناحية العملية وبالآلهة الخالقة من الناحية الأسطورية، والقوى الدافعة إلى السكون، وتتمثل بفوضى الطبيعة والآلهة التي تمثلها. وفي هذا الصراع يتحقق النصر للقوى الدافعة إلى الحركة على القوى الدافعة إلى السكون.

لقد كان الإنسان العراقي القديم في حالة من القلق المستمر من طبيعته العنيفة. إذ بالرغم من جهوده الرامية إلى إخضاع تلك البيئة وما أثمرت عنه من بناء للحضارة العراقية القديمة، إلا أن إنجازاته تلك كانت مهددة على الدوام من تقلبات البيئة وأخطارها المتكررة كونها صفة طاغية فيها. وهذا الأمر انعكس على جوهر آلهته الخالقة. فهذه الأخيرة قد تبدو أحياناً رحيمة وعطوفة تجاه الإنسان العراقي القديم، فقد أقامت وخلقت الكون، ودفعت عجلة الحضارة، بعد أن قضت على قوى العماء البدئية، فأحلت النظام والترتيب محل الفوضى القديمة، وبدأ العالم عهداً جديداً، واضح المعنى والهدف والغاية، إلا أن قوى العماء لم تعلن استسلامها الكامل، فهي قوى فوضوية تتدفع بين الوقت والآخر، للهدم والخراب والقضاء على عمل الآلهة الخالق أو المنجزات البشرية. أي أن دوام صراع الإنسان العراقي مع بيئته جعل من صراع الآلهة وإظهار جوهرها العنيف والمتقلب أمراً لا بد منه للحفاظ على عملها الخلاق.

أما المصري القديم فقد جعل مما امتازت به بيئته الطبيعية من اعتدال وتنظيم وثبات جوهرًا للآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم^(٣). كما جعل من انتظام الدورات الطبيعية وثباتها بتوافق تام مع أسلوب حياته ونمطه الاقتصادي صفة لخلق الكون^(٤). أن الجهود التي بذلها الإنسان المصري القديم من

(١) احمد بشار جمعة، فكرة الصراع في الاساطير والملاحم العراقية القديمة (٣٠٠٠-٢٠٠٠ ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة واسط، ٢٠١١، ص ٢٣.

(٢) Lambert, W. G., "Myth and Mythmaking in Sumer and Akkad", in, CANT, Vol. III, (New York, 1995), p.1828.

(٣) إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة، ص ٣٠.

(٤) أريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية، ص ٢٢٠-٢٢١.

أجل بناء حضارته العريقة لا تقل عنما بذله أخيه العراقي القديم. لكن اختلاف البيئة الطبيعية بين البلدين وبالتالي اختلاف طبيعة التحدي الذي تفرضه على الإنسان العراقي والمصري، كان لابد أن يؤدي بالضرورة إلى وجود اختلاف في الاستجابة الفكرية والعملية بينهما. فالمصري القديم استجاب لتحدي بيئته الطبيعية وتمكن بعد جهود وعمل شاق من بناء حضارته عليها ومنذ أقدم العصور. لكن ثبات البيئة الطبيعية واعتدالها، بصورة عامة، وكذلك توافق أهم دوراتها الطبيعية من فيضان النيل ودورة الشمس مع أسلوب حياة المصري القديم ونمطه الاقتصادي المتمثل بالزراعة. جعل من الآلهة الخالقة في الفكر المصري القديم تتصف بالعطف وثبات الإرادة والتنظيم. فتلك الآلهة ورغم امتلاكها القوة والمقدرة والإرادة الحرة التي تجعلهم يمارسون العنف في بعض الأحيان، لكن صفتهم العامة هي أنهم قوة إيجابية غير شريرة خاضعة لانتظام وإيجابية البيئة الطبيعية في مصر .

إن اتصاف البيئة المصرية بالتنظيم والثبات جعل الإنسان المصري يؤمن باقتناع أساسي أن الذي لا يتغير هو وحدة ذو قيمة. لهذا فالمصريون القدماء كانوا يتصورون عالماً ثابتاً وغير متطور أو متغير. فقد خرج تماماً وبهدوء من بين يدي الإله الخالق^(١). أما الظواهر الطبيعية التي تعترض سير نظام الكون من ووقت لآخر وتظهر بأنها تعرضه للخطر، ومن ذلك خسوف القمر، أو تلك الظواهر التي تكون عودتها قياسية^(٢). ومثال ذلك: الصراع بين الإلهين حور وست الذي يمثل تعاقب النور والظلام وكذلك تقلبات النجوم المنيرة، وأخيراً بوجه خاص الحرب بين القوة المعمرة والقوى الشريرة المخربة^(٣). ليست أكثر من اضطرابات سطحية للنظام المقرر، أو أحداث متكررة لمغزى لا يتغير. والماضي والمستقبل كانا موجودين ضمناً، بصورة تامة، في الحاضر^(٤).

كانت الروابط بين الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري القديم وما كان ينتج عنها تمثل بمجموعها عملية الخلق في أساطير الفكرين. وخلال تلك العملية كان يتم التعبير عن جوهر كل إله من تلك الآلهة الخالقة. وبقدر ارتباط تلك الآلهة بأجزاء الطبيعة، فإن جوهرها الخاص كان يتم التعبير عنه عبر الترابط الذي تقيمه مع الأجزاء الطبيعية الأخرى. بكلمة أخرى، أنه بالرغم من أن كل إله من الآلهة الخالقة في الفكرين كان يتمتع بجوهره الخاص، لكن أساطير الخلق في البلدين لا تعبر عن هذا الجوهر

(١) هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة ... ، ص ٢١.

(٢) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة ... ، ج ١، ص ١٨٣.

(٣) المصدر نفسه ، ص ص ١٧٦-١٧٧.

(٤) هنري فرانكفورت ، فجر الحضارة ... ، ص ٢١.

بصورة منفردة بمعزل عن جوهر الآلهة الخالقة الأخرى. لأن الإنسان العراقي والمصري القديمين قد أستقى جوهر الآلهة الخالقة من فواعل الأجزاء الكونية الممثلة لها، وهذه الأجزاء لا تعمل بمفردها في الطبيعة بل تتفاعل وتؤثر وتتأثر مع الأجزاء الطبيعية الأخرى. ونتيجة لاختلاف البيئة بين البلدين فقد اختلف التعبير عن هذا الجوهر من قبل مفكري الحضارتين.

فكون الماء قد عُدَّ في الفكرين العراقي والمصري القديمين مصدر الحياة ومغذيها، إلا أنه جوهره قد جُرا التعبير عنه في شكل يخالف الآخر. فالمياه الأزلية مصدر الحياة في الفكر المصري القديم كان ذكراً هو الإله نون، وكان يعتبر وسيلة الإخصاب، لهذا فهو عامل دائم الوجود في الكون المخلوق، إذ يروونه في المياه الجوفية وفيضان النيل السنوي. أما في الفكر العراقي القديم فأن المياه الأزلية كانت أنثى هي الإلهة نمو في الرؤية السومرية والإلهة تيامة في الرؤية البابلية وكلاهما يختفيان بعد إتمام عملية الخلق بالاستنفاد أو بالقتل تباعاً. لأن قوة الإخصاب المائية كانت تتمثل في الإله انكي-آيا والذي لا صله له البتة بالمياه الأزلية^(١).

هذا التباين نجده كذلك في نظرتهم إلى جوهر الأرض. فالعراقيون القدماء كانوا يعبدون ((أما كبرى)) رؤوما، يرون خصبها في نتاج التربة، وقد ازدادت خطورتها الدينية بشتى الاقترانات التي نسبت إليها. فالأرض لديهم صنو السماء، أنو (فهي أذن زوجته) أو صنو الماء، أنكي، بل صنو إنليل، الإله-العاصفة. أما في مصر القديمة . فالأرض ذكر - جب، أو بتاح، أو اوزيرس، ولا شأن للآلهة الأم بالتربة، رغم وجودها في كل مكان. وقد جُعِلت هذه في صورة بقرة- وهي صورة بدائية قديمة - أو عُكست على السماء، نوت، التي تلد الشمس والنجوم كل فجر ومساء، بينما لم تكن السماء آلهة حانية على بنيتها لدى العراقيين القدماء ، بل كانت إلهاً ذكراً هو أرفع الآلهة وأقصاهم بعداً عن الإنسان^(٢).

(١) هـ . و . ١. فرانكفورت، اعتناق الفكر من الأسطورة ... ، ص ٢٦٥.

(٢) المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٥-٢٦٦.

ثالثاً: مقارنة حول أثر البيئة في تنظيم الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري القديمين

أ- أوجه الشبه

أولى الإنسان العراقي والمصري القديمين مسألة تنظيم القوى الإلهية قدراً كبيراً من الاهتمام. سيما بعد أن تبدت له تلك الآلهة، بفعل مبدأ التشبيه، شخصيات وكيانات مستقلة تتمتع بجوهر وإرادة خاصة بها. فتوصل مفكري البلدين إلى خلق عالم إلهي مطابق لعالم البشر من حيث الروابط والعلاقات والتنظيم السياسي. حيث تنتظم الآلهة في مجاميع تكون السيادة فيها للآلهة الكبار الخالقة في الحضارتين. فضلاً عن توصل كل فكر إلى إيجاد مجموعة من القوانين تهدف إلى توحيد إرادات وقوى الآلهة لتحقيق مبدأ الانسجام الكوني. يدعى بـ(مي) في الفكر العراقي القديم، وبـ(ماعت) في الفكر المصري القديم. فكلاهما يدل على نظام الوجود والكون وعلى شموليتها.

ب- أوجه الاختلاف

أدى اختلاف جوهر الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري القديم إلى وجود اختلاف في مدى التزامها بالقوانين الكونية. فبينما كانت الأساطير العراقية تزخر بالإشارات التي توضح ازدواجية أفعال الآلهة العراقية واتصافها بسلوك متقلب جعلها تخالف النواميس الإلهية (مي) التي وضعتها هي نفسها لتنظيم إدارة الكون وضمان حسن سير الأحداث فيه^(١). مثل قرار الإله إنليل المتفرد بهلاك البشر، وقرار الإله ذاته بإسقاط آكد، وقرار آن/أنو وإنليل بإسقاط مدينة أور^(٢). نجد في المقابل أن الآلهة في الأساطير المصرية تلتزم بـ(ماعت) القوة الكونية المنظمة للعالم والباعثة على الانسجام والاستقرار في العالمين الإلهي والبشري^(٣). بل أن تلك الأساطير تجعل البشر هم الذين أخلو بهذا العقد الاجتماعي والاقتصادي بين الآلهة والبشر. وأدى عدم التزامهم هذا إلى حدوث الفوضى وانعدام الاستقرار السياسي في البلاد مثلما حدث في الثورة الاجتماعية الأولى خلال فترة الاضمحلال الأول^(٤).

جعل اكتساب الآلهة العراقية والمصرية القديمة للصورة البشرية من الأحداث التي تناولتها أساطير البلدين تبدو كدرامة إلهية أبطالها الآلهة أنفسهم. وربما قد تكون العوامل السياسية وراء بعض تلك

(١) ف . فون زودن ، مدخل إلى حضارات...، ص ٢٠٣.

(٢) فاضل عبدالواحد علي، من الواح سومر...، ص ٣٢٤.

(٣) محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم ...، ج ٢، ص ٤١٩.

(٤) عريان لبيب حنا، الشخصية المصرية...، ص ١١٧.

الأحداث. لكننا وبالرغم من ذلك كله علينا إلا ننسى أن الدافع الأساسي وراء تلك الأحداث وكيفية تصرف أبطالها الآلهة هي الطبيعة. فالأساطير، وخاصة أساطير الخليفة، هي بالأساس انعكاس وترجمة لأحداث ومظاهر وتغيرات الطبيعة. فلما كانت الآلهة العراقية بجوهرها العنيف والمتقلب هي انعكاس لصفات متأصلة في البيئة العراقية، فإن المفكر العراقي القديم لم يجد بداً من إدخال تلك الصفات في أسماء النواميس الإلهية (مي)، والأخيرة باحتوائها على صفات متناقضة تتحكم بالسلوكيات الاخلاقية وغير الاخلاقية في آن واحد. فإنها خير تعبير للمفكر العراقي القديم عن ازدواجية فعل الآلهة العراقية القديمة وتناقض جوهرها. في المقابل فإن الآلهة المصرية القديمة، رغم قوتها وقدرتها على العنف، لكنها تتصف بالعموم بالعطف والاعتدال والتنظيم المنتسق مع الجوانب المختلفة لحياة الإنسان المصري القديم. حالها حال البيئة الطبيعية التي مثلتها. هذا التوافق والانتظام بين البيئة والإنسان عبر عنه المفكر المصري القديم في (ماعت). فهذه الأخيرة أقرب إلى العقد الاجتماعي بين الآلهة والإنسان المصري، تستمر الآلهة من جانبها بضمان استمرار انتظام أفعالها الخلاقة بمقابل انتظام عمل الإنسان المصري والتزامه بأعظم المقتضيات الخلقية في الطبيعة البشرية وجعل كل واحد منهما يتوقف على الآخر.

لقد كانت إحدى انعكاسات اختلاف جوهر الآلهة الخالقة في الفكرين العراقي والمصري القديمين هي اختلاف الرؤية في ثبات الخلق والبيت في المصائر بين الفكرين. ففي الفكر العراقي القديم لم تكن تلك مسألة ثابتة مرة واحدة لتستمر أبداً، بل كان الاعتقاد السائد هو أنها عرضة للنظر والمراجعة السنوية المشروطة تأسيساً على مبدأ تجدد الصراع الكوني كل عام واستحالة التكهن بنتائج ذلك الصراع^(١). في حين اعتقد المصري القديم بأن عملية الخلق وتقرير المصائر مسألة ثابتة منذ المرة الأولى حينما قام الإله الأكبر بخلق الكون وقرر مصير جميع الموجودات مرة وإلى الأبد^(٢).

هذا الاختلاف بين الفكرين انعكس على طبيعة الاحتفالات والاعياد الدينية في الحضارتين. ففي العراق القديم امتزجت في عيد رأس السنة الجديدة البابلي (الأكيتو) فكرة الزواج المقدس بقصة الخليفة في وحدة متناغمة حيث جرت مزامنة تحول الطبيعة من الجذب إلى النماء مع استتباب النظام الإلهي الكوني في إطار جدلي. وفي تلك ((الدراما)) المزدوجة أُسند إلى مردوخ الدور الرئيسي ليجمع مع شخصيته الخاصة كإله للخصب والنماء شخصية أنليل بطل وملك الآلهة^(٣). احتفالاً يرمز إلى الصراع بين القوى

(١) جورج رو ، العراق القديم ... ، ص ٥٣١.

(٢) Frankfort, Henry, Kingship and gods..., p.19.

(٣) جورج رو ، العراق القديم ... ، ص ٥٣١.

الطبيعية وانتصار العناصر المولدة للحياة في الربيع، وانتصار آلهة الخير على أرباب الخراب في الكون ممثلة في فوز الإله مردوخ على قوى الشر التي تزعمتهم تيامة^(١). ولتجتمع بعد ذلك الآلهة ((لتشرع بمقادير)) للبشر وفقاً لهواها^(٢). أما في مصر القديمة نجد أن الاحتفالات كانت تعكس عبر مجرى العام الذي يعيشه التناغم الطبيعي للفصول. فقد كانت للمصري القديم أعياده السنوية التي كانت تتوافق مع ارتفاع مياه النيل ونهاية الفيضان، ومع انبعاث (اوزيريس) وانتهاء الحصاد، وهذه الاحتفالات تشير إلى انتظام مراحل سير المجتمع عبر العام الذي يعيشه، وللتأكيد بأن كل شيء على ما يرام في الكون الذي أقيم لمرة واحدة بشكل أزلي وذلك منذ أن تم خلقه^(٣).

إن عدم ثبات البيئة في العراق وكثرة تقلباتها وتماثل تلك الصفات مع جوهر الآلهة في الفكر العراقي القديم. أدى إلى ولع العراقي القديم بالسحر والتنجيم وتطورهما لديه^(٤). فتحت تأثير تلك الظروف كان الإنسان العراقي القديم يشعر بأنه تحت رحمة مقررات إلهية لا يد له فيها ولا يسبر غوراً لها ولذا، لا ينقطع الملك ومشاوروه عن التمعن في الأرض والسماء بحثاً عن الدلائل التي قد تكشف لهم عن (برج) متغير يشير إلى تحول في النعمة الإلهية، لعلهم حينئذ يتنبؤون بالكارثة ويتجنبوها أما في مصر فلم يتطور التنجيم أو التنبؤ أي تطور يذكر^(٥).

أن التأثيرات الناتجة عن اختلاف البيئة الطبيعية بين العراق ومصر كان لها انعكاسات تعدت الاختلاف في فلسفة الخلق بين فكري الحضارتين. ومنها نظرتهما حول الموت والعالم الآخر، كذلك اختلاف نظام الحكم بين الحضارتين.

(١) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية ... ، ص ٥٥.

(٢) هـ. و. هـ. ا. فرانكفورت، اعتناق الفكر من الأسطورة ... ، ص ص ٢٦٦-٢٦٧.

(٣) Frankfort, Henry, Kingship and gods..., pp. 18-19.

(٤) سامي سعيد الاحمد، المعتقدات الدينية ... ، ص ص ٧٢-٧٣.

(٥) هـ. و. هـ. ا. فرانكفورت، اعتناق الفكر من الأسطورة ... ، ص ٢٦٦.

نتائج الدراسة

توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

١- كان لتفاعل الإنسان العراقي والمصري القديمين مع بيئتهما الطبيعية واستجابتهما الإيجابية للتحديات التي فرضتها تلك البيئة عليهما، أنتج حضارتين غاية في الرقي والأصالة هما الحضارتان العراقية والمصرية القديمتين. لكن اختلاف البيئة بين البلدين أدى إلى اختلاف في طبيعة الاستجابة الفكرية والحضارية للمجتمعين العراقي والمصري القديمين وبالتالي اختلاف في الطابع العام المميز لفكر حضارتيهما.

٢- تقف فلسفة الخلق الخاصة في كل من الفكرين العراقي والمصري القديمين، والتي احتوت تصوراتهم ومعتقداتهم حول أصل الكون ووجود الآلهة والإنسان، في مقدمة أسباب الاختلاف في طبيعة الحضارتين وفكريهما. فكون تلك الفلسفة متأثرة ومنفصلة أساساً بمجموع المؤثرات البيئية الخاصة بالبلدين، جعلها تأتي في المكانة الأولى من حيث الأهمية والدلالة الفكرية لتعكس الطابع المميز لفكر كل من الحضارتين ومقدار الاختلاف بينهما .

٣- جعل التأثير الكبير للبيئة الطبيعية على حياة الإنسان العراقي والمصري القديمين من الأسس المادية مرتكزاً لكل تصوراتهم ومعتقداتهم وأفكاره الدينية. ومنها تصوراتهم حول فكرة الخلق. حيث ساهم التأثير البيئي بدرجة كبيرة في تقييد تصورات ومعتقدات مفكرو الحضارتين حول فكرة الخلق ضمن فلسفة مادية، وحال لاحقاً بينها وبين الانطلاق نحو التجريد في الأفكار. وأبرز سمات تلك الفلسفة المادية تتمثل في نفي تصور الخلق من العدم، والأيمان بوجود مادة أولية (المياه) خرجت منها كل أشكال الحياة. وأساليب وطرق خلق مادية بحتة.

٤- أدى ارتكاز الديانتين العراقية والمصرية القديمتين على مبدأ حيوية الطبيعة، إلى جعل علة الخلق التي حاول مفكرو الحضارتين أدراكها بأسلوب أسطوري متأصلة في الطبيعة المؤلهة. كما جعل من الجوهر الخلاق لتلك الآلهة مطابقاً لخواص ومزايا العنصر الطبيعي المجدد لها.

٥- إن الأسلوب الأسطوري الذي أتبعه مفكرو الحضارتين العراقية والمصرية القديمتين للتعبير عن تصوراتهم وأفكارهم حول فكرة الخلق، يمثل في الواقع مدارك الإنسان العراقي والمصري

القديمين وآرائه في بيئته وخصائصها الطبيعية في هذا الكون. فالروابط والعلاقات بين الآلهة الخالقة وما كان ينتج عنها والتي كانت تمثل بمجموعها عملية الخلق في الأساطير العراقية والمصرية القديمة، لم تكن في جوهرها سوى انعكاس أسطوري لعمليات التأثير المتبادل والمستمر بين أجزاء الطبيعة.

٦- كان لنمط الاقتصاد السائد في كل مرحلة تاريخية من تاريخ الحضارتين العراقية والمصرية القديمتين تأثيراً واضحاً ومباشراً في تحديد الآلهة الخالقة في فكري البلدين. حيث كان الإنسان في كلا البلدين ينتخب أهم الظواهر والمظاهر البيئية وأكثرها تأثيراً في حياته ونمطه الاقتصادي جاعلاً من الآلهة الممثلة لها هي القوى الخالقة في الفكر الخاص به. وضمن هذا الإطار توصل مفكرو البلدين إلى أن الإله الذي يلعب الدور الأكبر في عملية الخلق كان هو الإله الذي يمثل الظاهرة الطبيعية الأكثر تأثيراً في حياة الإنسان العراقي والمصري القديمين.

٧- أدى التباين في البيئة الطبيعية لكل من العراق ومصر إلى وجود فروق عميقة في الشعور الديني المتولد لدى الإنسان العراقي والمصري القديمين في تجربتهما المباشرة مع تلك البيئة. فالبيئة الطبيعية العنيفة والمتقلبة في العراق ولدت لدى الإنسان العراقي القديم شعور ديني بأن جوهر الآلهة الخالقة لعالمه والمتحكمة به هو القوة والبطش والتقلب، كما جعل من صراعه المستمر مع بيئته تلك من أجل بناء حضارته فكرة معبرة عن نظريته لعملية الخلق، وهو ما عبرت عنه حالة الاحتراب والصراع بين الآلهة التي تزخر بها أساطير الخلق في الفكر العراقي القديم. فيما ولدت البيئة المصرية المعتدلة نسبياً والثابتة والمنتظمة في مظاهرها ودوراتها الطبيعية، شعوراً دينياً لدى المصري القديم بأن جوهر الآلهة الخالقة لعالمه والمتحكمة به هو العطف والرحمة والثبات في قراراتها، وهذا التوافق بين الإنسان المصري وبيئته عبرت عنه حالة الهدوء والثبات التي تمت بها عملية الخلق في أساطير الفكر المصري القديم.

٨- أمتاز العراقي القديم بنظرة ديناميكية إلى الكون، بسبب استمرار التحدي الذي تفرضه عليه فوضى البيئة الطبيعية في العراق وتقلباتها المستمرة، والتي تطلبت منه استجابة فكرية تركز على مفاهيم دراماتيكية تؤمن بضرورة العمل الشاق والمستمر لمجابهة تلك التحديات. وهذا الأمر أدركه المفكر العراقي القديم وأكدت عليه الأساطير والنصوص العراقية العديدة بجعلها العمل هو الغاية التي خلق من أجلها الإنسان. في المقابل فإن قلة التحديات التي فرضتها الطبيعة

المنتظمة على الإنسان المصري القديم جعلت من استجابته الفكرية أشبه بالمثالية وجعلته يمتاز بنظرة ستاتيكية للكون. فتوافق جهود الإنسان المصري مع دورات الطبيعة جعلته يعتقد بأن الآلهة خلقت هذا الكون وسخرت كل موارده من أجله. مما جعله يعطي لنفسه مركزاً محورياً في الوجود، حتى أن بعض النصوص لم تفصل السلالة البشرية عن السلالة الإلهية. وربما كان هذا الاعتقاد هو السبب وراء ندرة المصادر المصرية التي تناولت موضوع خلق الإنسان.

٩- نتيجة لأيمان العراقي القديم بمبدأ تجدد الصراع الكوني كل عام واستحالة التكهّن بنتائج، ساد اعتقاد لديه بأن مسألة الخلق والبت بالمصائر ليست ثابتة بل هي عرضة للنظر والمراجعة السنوية من قبل الآلهة. فيما اعتقد المصري القديم أن تلك المسألة ثابتة منذ المرة الأولى للخلق. وهذا الأمر كان له انعكاسات على طبيعة الأعياد الدينية في الحضارتين، وكذلك علاقته بتطور التنجيم في الحضارة العراقية القديمة مقابل العكس في الحضارة المصرية القديمة. فضلاً عن أثرها في نظرة الفكرين لحركة الزمان، الذي أخذ الشكل الدائري في الفكر العراقي القديم أي أنه ينتهي من حيث بدأ، بينما أخذ الزمان الشكل اللولبي في الفكر المصري القديم.

١٠- إن اعتماد الفكر العراقي والمصري القديم في اختيار الآلهة الخالقة على القوى التي تجسد أكثر العوامل البيئية تأثيراً في حياة أفراد مجتمعاتها وترسخ تلك القاعدة الفكرية لدى مجتمعات البلدين. منع حصول تبدل أو تغير في مراكز تلك الآلهة وجوهرها الخالق حتى مع حصول التغيرات والتقلبات السياسية والتطورات الحضارية. فجل ما أحدثته تلك العوامل هو استبدال أسم الإله الخالق أو دمجها مع أسم الإله الجديد، من دون قدرتها على تغيير الجوهر الخالق للإله الأصلي كونه يستمد جوهره ومكانته مما يمثله بالطبيعة التي يختبرها الإنسان العراقي والمصري القديم في حياته اليومية.

١١- إن اختيار مفكرو الحضارتين لحالة الفوضى المائية التي تسببها فيضانات أنهار البلدين كصورة أسطورية للحالة السابقة للعالم المخلوق، جعل من عملية الخلق في كلا الفكرين ليست سوى عملية استخلاص للكون المنظم من حالة الفوضى المائية السابقة له. لكن اختلاف طبيعة فيضانات البلدين أدى إلى التعبير عن تلك الحالة بصورة متباينة بين الفكرين. كما أسهم بجعل عملية خلق الكون في الفكر العراقي القديم تبدو كفعل اضطراري قامت به الآلهة إزاء قوى

الفوضى المائية، في مقابل ظهورها بصورة الفعل الرائع الذي قام به الإله الخالق وفق تخطيط وغاية مسبقة في الفكر المصري القديم.

١٢- أدى ربط الفكر العراقي والمصري القديم بين ظهور الآلهة بالتزامن مع ظهور الأجزاء المادية لها، إلى نفي صفة الأزلية عن تلك الآلهة والأيمان بأزلية المادة الإلهية في كلا الفكرين.

١٣- كان للعامل الجغرافي دوراً هاماً في تباين الفكر العراقي والمصري القديم بصورة عامة وتصوراتهما حول فكرة الخلق بصورة خاصة. فالعراق الذي يعد إقليم جغرافي مفتوح جعله معرض لهجرات وغزوات متكررة خلال تاريخه الطويل، أسهمت في تنوع الأفكار الخاصة بعملية الخلق كون أفكار تلك الشعوب المهاجرة قد تولدت لديهم من بيئاتهم الأصلية المغيرة لبيئة العراق. بينما أسهم موقع مصر الذي يعد إقليماً جغرافياً مغلقاً في تقليل الهجرات والغزوات التي تعرضت لها الحضارة المصرية القديمة، وبالتالي تقليل تأثيرها على الفكر المصري.

١٤- أستمريت فلسفة الخلق المادية هي السائدة في الحضارتين العراقية والمصرية القديمتين حتى عصورهما المتأخرة، فرغم التطورات الحضارية والفكرية وظهور أساليب خلق أقرب إلى الروحية مثل الخلق بالكلمة الإلهية في الفكرين. لكن استمرار مادية علة الخلق أي الآلهة وعدم أيمان المجتمعين بقوة إلهية سامية منفصلة عن الطبيعة، حال دون تجرد الفكرين عن الأسلوب المادي لعملية الخلق.

١٥- إن الفكر الأسطوري الذي عبر من خلاله مفكرو الحضارتين العراقية والمصرية القديمة عن تصوراتهم لفكرة الخلق قد توصلت رغم طابعها الأسطوري إلى حقائق سبقت بها النتاج الفلسفي اليوناني اللاحق. ومنها فكرتين أساسيتين هما: إرجاع الكون إلى مادة أولية سابقة وإلى عناصر الكون الرئيسية (الماء، التراب، الهواء، والسماء)، وهي الفكرة التي تبناها الفلاسفة الطبيعيون الأوائل. والفكرة الثانية تتمثل بضرورة التلازم بين المادة والصورة في إطار الموجودات العينية وفكرة المحرك الأول، وهي الفكرة ذاتها التي التزم بها أرسطو طاليس.

المصادر والمراجع

أولاً: - المصادر العربية والمعرية

أ - الكتب

- ابراهيم احمد رزقانة، الحضارات المصرية في فجر التاريخ، مكتبة الآداب، (القاهرة، ١٩٤٨) .
- ----- وعبد الغني عبد العزيز، الجغرافية التاريخية: الهدف والميدان، الزعيم للخدمات المكتبية، (القاهرة، ٢٠١٦).
- ابراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط ، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ، ٢٠٠٤.
- ابراهيم شريف، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الاسلامي، مطبعة شفيق ، (بغداد، ب.ت) ، ج١.
- احمد عبيس فيروز الرماحي، تبدل مراكز الآلهة في المعتقدات الدينية لبلاد الرافدين ومصر القديمة، دار تموز، (دمشق، ٢٠٢٠).
- احمد فخري، مصر الفرعونية ، دار ممفيس للطباعة ، (القاهرة، ١٩٥٧).
- احمد مالك الفتیان، دراسات في التاريخ القديم، دار ابن الاثير - جامعة الموصل، ١٩٧٨.
- احمد محمد البربري، السماء في الفكر المصري القديم، الحضري للطباعة، (القاهرة، ٢٠٠٤).
- احمد موسى محمود خليل، مقدمة في الجغرافيا البشرية المعاصرة، المكتب العربي للمعارف، (مصر، ٢٠١٤).
- ادموند سولبركر، أسطورة الطوفان البابلية، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلي، الدار العربية للموسوعات، (بيروت، ٢٠٠٠).
- ادوارد كيبيرا، كتبوا على الطين، ترجمة وتعليق: محمود حسين الامين، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، (بغداد، ١٩٦٢).
- أدولف ارمان، ديانة مصر القديمة نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة، ترجمة: عبد المنعم ابو بكر ومحمد انور شكري، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٥).
- اريك هورنونج، ديانة مصر الفرعونية الوحداية والتعددية، ترجمة: محمود ماهر طه ومصطفى أبو الخير، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٥).
- _____، فكرة في صورة مقالات في الفكر المصري القديم، ترجمة: حسن حسين شكري، مراجعة: محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة ٢٠٠٢).

- أ. س. ميغوليفسكي، اسرار الآلهة والديانات ، ترجمة: حسان ميخائيل اسحق، ط٤، دار علاء الدين، (دمشق، ٢٠٠٩).
- اسامة عدنان يحيى، الآلهة في رؤية الإنسان العراقي القديم - دراسة في الاساطير، دار اشور بانيال، (بغداد، ٢٠١٥).
- اياد عاشور الطائي و محسن عبد علي، التربية البيئية ، ط١، المؤسسة الحديثة للكتاب، (طرابلس، ٢٠١٠).
- إي. أ. واليس، الساكنون على النيل، ترجمة: نوري محمد حسين، مطبعة الديواني، (بغداد، ١٩٨٩).
- إيزابيل فرانكو، أساطير وآلهة (نفثات رع إله الشمس)، ترجمة: حليم طوسون، مراجعة: محمود ماهر طه، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، ٢٠٠٥).
- باروخ سبينوزا ، علم الأخلاق ، ترجمة: جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، (بيروت، ٢٠٠٩).
- بديعة امين، في المعنى والرؤيا دراسات في الأدب والفن، دار الرشيد للنشر، (بغداد، ١٩٧٩).
- بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، (بيروت، ١٩٩٤).
- ببير مونتيه، الحياة اليومية في مصر في عهد الرعامسة من القرن الثالث عشر إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ترجمة: عزيز مرقس، مراجعة: عبد الحميد الدواخلي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (القاهرة، ١٩٦٥).
- تقي الدباغ، الفكر الديني القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٩٢).
- ثروت عكاشة، الفن العراقي القديم: سومر بابل وآشور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ب.ت).
- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ط٣، المركز الثقافي العربي، (بيروت، ١٩٩٢).
- جان بوتيرو وآخرون، الشرق الأدنى الحضارات المبكرة ، ترجمة: عامر سليمان، دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٨٦).
- _____ ، بلاد الرافدين -الكتابة - العقل - الآلهة، ترجمة: الأب البير ابونا، مراجعة: وليد الجادر، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٩٠).

- _____، الديانة عند البابليين ، ترجمة: وليد الجادر، مركز الانماء الحضاري، (دمشق، ٢٠٠٤).
- جان بيار فرنان، أصول الفكر اليوناني، ترجمة: سليم حداد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٨٧).
- جان فيركوتير، مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاتي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (القاهرة، ٢٠١٢).
- جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، دار الافاق العربية، (القاهرة، ٢٠٠١).
- جودة حسنين جودة، أسس الجغرافيا العامة ، منشأة المعارف، (الاسكندرية، ٢٠٠٤).
- جورج رو ، العراق القديم ، ترجمة وتعليق: حسين علوان حسين، مراجعة: فاضل عبد الواحد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، (بغداد، ١٩٨٤).
- جورج كونتينو ، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم طه التكريتي، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٨٦).
- جوردون تشايلد، ماذا حدث في التاريخ، ترجمة: جورج حداد، الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، (القاهرة، ١٩٥٦).
- جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة، ترجمة إمام عبد الفتاح، مراجعة عبد الغفار مكاي، سلسلة منشورات عالم المعرفة، (الكويت، ١٩٩٣).
- جيرار جيهامي ، موسوعة مصطلحات الفلسفة والمنطق، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- جيمس هنري برستد، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ترجمة: زكي سوس، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، (القاهرة، ١٩٦١).
- _____، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة: حسن كمال، مراجعة: محمد حسنين الغمراوي، ط٢، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٦).
- _____، فجر الضمير، ترجمة: سليم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة، ب.ت).
- حسام الآلوسي ، الزمان في الفكر الديني والفلسفي وفلسفة العلم، دار أوما، (بغداد، ٢٠١٧).
- حسام الدين جاد الرب، الجغرافيا البشرية ، مكتبة الاسكندرية، (مصر، ب.ت).

- أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية ، (بيروت ، ١٩٩٠)، ج ٢.
- حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي، ط٨، دار المعارف، (القاهرة، ٢٠٠٠).
- حسين سيد نور الاعرجي، جذور الفكر وروافده في العراق القديم: قراءه في نشأة وتشكل الفكر العراقي القديم، دار آرام للدراسات والنشر، (بغداد، ٢٠١٩).
- حسين طه نجم وآخرون، البيئة والإنسان، دراسات في الايكولوجية البشرية، ط٣، وكالة المطبوعات للنشر، (الكويت، ١٩٨٤).
- حسين عبدالحميد رشوان، البيئة والمجتمع ، المكتب الجامعي الحديث ، (مصر، ٢٠٠٦).
- حكمت بشير الأسود، أدب الرثاء في بلاد الرافدين، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق، ٢٠٠٨).
- خزل الماجدي ، متون سومر، الاهلية للنشر والتوزيع، (عمان، ١٩٩٨).
- _____، الدين المصري، دار الشروق للنشر والتوزيع، (عمان، ١٩٩٩).
- _____، عراقولوجي ١- عراق ما قبل التاريخ - ، دار الرافدين، (بيروت، ٢٠١٧).
- خليل سعيد، معالم من حضارة وادي الرافدين، مطبعة النجاح الجديدة، (المغرب، ١٩٨٤م).
- دانيال تي بوتس، حضارة وادي الرافدين الاسس المادية، ترجمة: كاظم سعد الدين، الهيئة العامة للآثار والتراث، (بغداد، ٢٠٠٦).
- دوجلاس بريور وإيملى تيتز، مصر والمصريون، ترجمة، عاطف معتمد، ومحمد رزق، ط١، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٩.
- دون نارودو، الأساطير المصرية، ترجمة: احمد السرساوي، مراجعة وتعليق: علاء الدين شاهين، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، (القاهرة، ٢٠١١).
- رشيد الناصوري، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٩٠)، ج ٣.
- رمضان عبده علي، حضارة مصر القديمة منذ اقدم العصور حتى نهاية عصور الاسرات الوطنية، مطابع المجلس الأعلى للآثار، (القاهرة، ٢٠٠٤)، ج ١-٢.
- رندل كلارك، الرمز والأسطورة في مصر القديمة، ترجمة: احمد صليحه الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٨٨).
- روبرت ارموار، آلهة مصر القديمة وأساطيرها، ترجمة: مروة الفقى، مراجعة: محمد بكر، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، ٢٠٠٥).

- رينيه لابات، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين، ترجمة: الأب ألير أبونا ووليد الجادر ، (بغداد، ١٩٨٨).
- زكريا ابراهيم، مشكلات فلسفية ، دار مصر للطباعة، (القاهرة، ١٩٧٦).
- زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء، ط٢، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣.
- سامي سعيد الاحمد، العراق القديم ، جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٧٨)، ج ١.
- _____ وجمال رشيد احمد، تاريخ الشرق القديم، جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٨٨).
- _____، السومريون ، دار الشؤون الثقافية ، (بغداد، ١٩٩٠).
- _____، المعتقدات الدينية في العراق القديم، المركز الاكاديمي للبحوث، (بيروت، ٢٠١٣).
- سامي نصر لطف ، فكرة الجوهر في الفكر الفلسفي الإسلامي ، كلية الآداب ، جامعة عين الشمس، ١٩٧٨.
- سبتينو موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة، ترجمة: السيد يعقوب بكر، دار الرقي، (بيروت، ١٩٨٦).
- سليم حسن، موسوعة مصر القديمة ، مؤسسة هنداوي، (القاهرة، ٢٠١٧)، ج ١ + ج ٨ + ج ١.
- الأب سهيل قاشا، اثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية، بيسان للنشر والتوزيع والاعلام، (عمان، ١٩٩٨).
- سيد القمني، قصة الخلق- منابع سفر التكوين من حضارات الشرق الأدنى القديم، دار سيناء، (القاهرة، ١٩٩٨).
- سير ألن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة: نجيب ميخائيل ابراهيم، مراجعة: عبد المنعم ابو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٧٣).
- شاكرا مصطفى سليم، المدخل الى الانثروبولوجيا، مطبعة العاني، (بغداد، ١٩٧٥).
- صادق جلال العظم، دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة، ط٣، دار العودة، (بيروت، ١٩٧٩).
- صبري فارس الهيتي وآخرون، الفكر الجغرافي وطرق البحث، مطبعة بغداد، (بغداد، ١٩٨٥) ج ١.
- صلاح حفني، في الصورة الشعرية دراسة تطبيقية على شعر الحبس في تراث المشرق العربي، ط٢، مكتبة دار العلوم، (الفيوم، ٢٠٠٦).
- صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير عند سيد قطب، دار الفنون المطبعية، (الجزائر، ١٩٨٨).

- صموئيل نوح كريم، الأساطير السومرية، ترجمة يوسف داود عبد القادر، الناشر جمعية المترجمين العراقيين، مطبعة المعارف، (بغداد، ١٩٧١).
- _____، السومريون- تاريخهم حضارتهم وخصائصهم، ترجمة: فيصل الوائلي، وكالة المطبوعات، (الكويت ١٩٧٣).
- _____، من الواح سومر، ترجمة: طه باقر، مراجعة وتقديم: احمد فخري، دار الوراق، (بغداد، ٢٠١٠).
- صموئيل هنري هوك، الاساطير في بلاد ما بين النهرين، ترجمة: يوسف داود عبد القادر، وزارة الثقافة والاعلام، (العراق، ١٩٦٨).
- طه باقر، ملحمة كلكامش، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٧١).
- _____، مقدمة في أدب العراق القديم، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٧٦).
- _____ وآخرون، تاريخ العراق القديم، مطبعة جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٨٠)، ج ١.
- _____، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الوراق، (بغداد، ٢٠٠٩)، ج ١.
- _____، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، دار الوراق، (بغداد، ٢٠١١)، ج ٢.
- عامر سليمان واحمد مالك الفتیان، محاضرات في التاريخ القديم، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي العراقية، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٧٨).
- _____، اللغة الأكديّة (البابلية-الآشورية)، دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٩١).
- _____، العراق في التاريخ القديم- موجز التاريخ السياسي، دار ابن الاثير للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٩٢)، ج ١.
- عامر عبدالله الجميلي، المعارف الجغرافية عند العراقيين القدماء، دار المشرق الثقافية، (دهوك، ٢٠١١).
- عباس علي عباس الحسيني، مجتمع الآلهة في الديانة المصرية القديمة (دراسة مقارنة)، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، (عمان، ٢٠١٢).
- عبد الباسط سيدا، من الوعي الاسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري (بلاد الرافدين تحديداً)، دار الحصاد للنشر والتوزيع، (دمشق، ١٩٩٥).
- عبد الحميد زايد، الرمز والأسطورة الفرعونية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٧٣).
- _____، مصر الخالدة- مقدمة في تاريخ مصر الفرعونية منذ اقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق.م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ٢٠٠٢)، ج ١.

- عبد الرضا الطعان ، الفكر السياسي في العراق القديم، دار الرشيد للنشر والطباعة، (بغداد، ١٩٨١).
- _____ ، الفكر السياسي في وادي الرافدين ووادي النيل ، مطبعة جامعة بغداد، (بغداد، ١٩٨٥).
- عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، مطبعة الانجلو المصرية، (القاهرة، ٢٠٠٤).
- عبد الغفار مكايي ، جذور الاستبداد - قراءة في أدب قديم، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، ١٩٩٤).
- عبد الفتاح محمد وهيبه، جغرافية السكان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (بيروت، ١٩٨٠).
- عبد الله عطوي ، الجغرافية البشرية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٩٦).
- عبدالله الدبوبي وآخرون، الإنسان والبيئة دراسة اجتماعية تربوية، ط٣، دار المأمون للنشر والتوزيع، (الأردن، ٢٠١٢).
- عريان لبيب حنا، الشخصية المصرية في مصر القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ٢٠٠٣).
- علي البطل، الصورة في الشعر العربي-أصولها وتطورها ، ط٣ ، دار الأندلس ،(بيروت ، ١٩٨٣).
- علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، دار الكتاب الثقافي، (عمان، ٢٠٠٥).
- علي حسين حنوش، البيئة العراقية وسبل حمايتها، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد، ٢٠١٣).
- علي شحيلات وعبد العزيز الياس، مختصر تاريخ العراق القديم، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠١٢)، مج ١.
- علي عبد الفتاح المغربي، الفكر الديني الشرقي القديم وموقف المتكلمين، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، (القاهرة، ١٩٩٦).
- علي ياسين الجبوري، قاموس اللغة الاكدية-العربية، ابو ظبي للثقافة والفنون،(ابوظبي ٢٠٠٩).

- غوتفريد فيلهلم ليبنتز ، المونادولوجيا أو مبادئ الفلسفة ، ترجمة: البير نصري نادر، المنظمة العربية للترجمة،(بيروت، ٢٠١٥).
- غوستاف لوبون ، حضارة بابل وآشور، ترجمة: محمود خيرت، دار الرافدين، (بيروت، ب.ت).
- ف . فون زودن ، مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ترجمة: فاروق اسماعيل، دار المدى للثقافة والنشر، (دمشق، ٢٠٠٣).
- ف.آ. بيلافسكي، اسرار بابل ، ترجمة: رؤوف موسى، دار المأمون للترجمة والنشر، (بغداد، ٢٠٠٨).
- الفارابي ، الحروف ، ط١، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، ٢٠٠٦).
- فاضل عبد الواحد علي، الطوفان في المراجع المسمارية، (بغداد، ١٩٧٥).
- _____ وعامر سليمان، عادات وتقاليد الشعوب القديمة، مؤسسة دار للكتب للطباعة والنشر، (الموصل، ١٩٧٩).
- _____ ، عشتار ومأساة تموز، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٨٦).
- _____ ، المعتقدات الدينية في العراق القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٨٦).
- _____ ، سومر اسطورة وملحمة، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ٢٠٠٠).
- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى ، ط١١، دار علاء الدين للنشر، (دمشق ١٩٩٦).
- _____ ، لغز عشتار، الالهة المؤنثة واصل الدين والأسطورة، ط٨، دار علاء الدين للطباعة والنشر والترجمة، (دمشق، ٢٠٠٢).
- فرانسو ديماس، آلهة مصر، ترجمة: زكي سوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب،(القاهرة، ١٩٩٨).
- فرانسواز دونان وكريستيان زفي كوش، الآلهة والناس في مصر من ٣٠٠٠ قبل الميلاد إلى ٣٩٥ ميلادياً، ترجمة: فريد بوري، مراجعة: زكية طبو زادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، (لقاهرة، ١٩٩٢).
- فيصل الوائلي، من أدب العراق القديم ، دار الوراق للنشر، (بغداد، ٢٠٠٧).
- قاسم الشواف، ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، الكتاب الأول- أناشيد الحب السومرية، تقديم واشرف: ادونيس، ط١، دار الساقى، (بيروت، ١٩٩٦).
- كارم محمود عزيز، اساطير العالم القديم، مكتبة النافذة ، (القاهرة، ٢٠٠٧).

- كارين ارمستونغ ، تاريخ الأسطورة، ترجمة: وجيه قانصو، الدار العربية للعلوم ناشرون، (بيروت ٢٠٠٨).
- كاشا شباكوفسكا، الحياة اليومية في مصر القديمة، ترجمة وتقديم: مصطفى قاسم، المركز القومي للترجمة، (القاهرة، ٢٠١٣).
- الكسندر هايدل، سفر التكوين البابلي قصة الخليقة ملحمة " حينما في الأعالي"، ترجمة: سعيد الغانمي، منشورات الجمل، (بغداد، ٢٠٠٧).
- كلير لالويت، الأدب المصري القديم، ترجمة: ماهر جويجاتي، مراجعة: طاهر عبد الحكيم، دار الفكر للدراسات والنشر للتوزيع، (القاهرة، ١٩٩٢).
- _____ ، الفن والحياة في مصر الفرعونية، ترجمة: فاطمة عبدالله، مراجعة: محمود ماهر طه، المجلس الأعلى للثقافة، (القاهرة، ٢٠٠٣).
- ل. ديلاپورت ، بلاد ما بين النهرين الحضارتان البابلية والآشورية، ترجمة محرم كمال، مراجعة عبد المنعم أبو بكر، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، ١٩٩٧).
- ليو اوبنهايم ، بلاد ما بين النهرين، ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق، دار الرشيد للنشر، (بغداد ١٩٨١).
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ط٨، مؤسسة الرسالة، (بيروت ، ٢٠٠٥).
- محمد ازهر سعيد السماك وآخرون، العراق دراسة اقليمية، جامعة البصرة ، (البصرة، ١٩٨٥) .
- محمد العزب موسى، اسرار الهرم الأكبر، ط٣، دار المعارف ، (القاهرة، ١٩٩٢) .
- محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، الحضارة المصرية، دار المعرفة، (القاهرة، ١٩٨٤)، ج٥.
- _____ ، مصر والشرق الأدنى القديم، " مصر منذ قيام الملكية حتى قيام الدولة الحديثة" دار المعرفة الجامعية، (الاسكندرية، ١٩٩٣)، ج٢.
- محمد حجازي محمد، نحو دراسة في جغرافية مصر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، (القاهرة، ١٩٨٦).
- محمد حسين النجم ، فلسفة الوجود في الفكر الرافديني القديم وآثارها عند اليونان، بيت الحكمة، (بغداد، ٢٠٠٣).
- محمد خميس الزوكه ، البيئة ومحاور تدهورها وآثارها على صحة الإنسان، دار المعرفة الجامعية، (القاهرة، ٢٠٠٠).

- محمد صفي الدين أبو العز، مورفولوجية الأراضي المصرية ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، (القاهرة، ١٩٩٩).
- محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار الثقافة ودار العودة ، (بيروت، ١٩٧٣).
- محمد فهد ، قصة الخليقة بين الألواح المسمارية والكتب السماوية، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق، ٢٠١١).
- مختار السويفي ، مصر والنيل في اربعة كتب عالمية ، ط٣، الدار المصرية اللبنانية، (القاهرة، ١٩٩٦).
- مرغريت روثن، علوم البابليين ، تعريب وايضاحات: يوسف حبتي، دار الرشيد ، (بغداد، ١٩٨٠).
- مزهر الخفاجي ، خصائص الشخصية العراقية والشخصية المصرية في التاريخ القديم، بيت الحكمة ، (بغداد، ٢٠١٤).
- مصطفى النشار، الفكر الفلسفي في مصر القديمة، الدار المصرية للطباعة والنشر، (لقاهرة، ٢٠٠٤).
- مصطفى ناصف، الصورة الأدبية ، ط١، دار مصر للطباعة،(القاهرة، ١٩٥٨).
- ابن منظور ، لسان العرب ، ط٣، دار صادر، (بيروت ، ١٩٩٤) ، مج ٤.
- نائل حنون، عقائد الحياة والخصب في الحضارة العراقية القديمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ٢٠٠٢).
- _____ ، أسطورة الخليقة البابلية- النص المسماري الشعري، شركة المطبوعات، (بيروت، ٢٠٢١).
- نجلاء حبيب الزحلاوي، تطور الفكر الإنساني: حضارة مصر القديمة ، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ٢٠١٤).
- نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم - مصر من فجر التاريخ إلى قيام الدولة الحديثة، ط٤، دار المعارف بمصر،(الاسكندرية، ١٩٦٣)، ج ١.
- نخبة من اساتذة التاريخ ، دراسات في تاريخ العراق وحضارته - العراق في مواجهة التحديات ، وزارة الثقافة والاعلام، (بغداد، ١٩٨٨)، ج ١.
- نخبة من العلماء، تاريخ الحضارة المصرية- العصر الفرعوني، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، ب. ت)، مج ١.

- نعيم الرضوي الحصونة، ملامح التوحيد في الديانة العراقية القديمة، دار الفيحاء، (بيروت، ٢٠١٩).
- نعيم اليافي، مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٨٢.
- ابن النفيس، شرح الوريقات في المنطق، تحقيق: احمد فريد المزيدي، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت، ٢٠١٥).
- هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة: خالد اسعد واحمد غسان، مؤسسة ودار رسلان، (دمشق، ٢٠١١).
- هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الادنى، ترجمة: ميخائيل خوري، دار مكتبة الحياة، (بيروت، ١٩٥٩).
- _____ وآخرون، ما قبل الفلسفة - الإنسان في مغامراته الفكرية الأولى، ترجمة: جبرا ابراهيم جبرا، ط٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (بيروت، ١٩٨٠).
- هولي. ام، وآخرون ، الانسان والبيئة ، ترجمة : عصام عبد اللطيف، الموسوعة الصغيرة، ع٣٩، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٧٩).
- والاس بدج، الديانة الفرعونية-افكار المصريين القدماء عن الحياة الاخرى- ترجمة وتقديم يوسف سامي اليوسف، دار منارات، (عمان، ١٩٨٥).
- _____ ، آلهة المصريين ، ترجمة: محمد حسين يونس، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٨).
- ياروسلاف تشرنى، الديانة المصرية القديمة، ترجمة: احمد قدرى، مراجعة: محمود ماهر طه، دار الشروق، (القاهرة، ١٩٩٦).
- يان اسمان، " ماعت" مصر الفرعونية وفكرة العدالة الاجتماعية، ترجمة: زكية طبو زاده وعليه شريف، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، (القاهرة، ١٩٩٦).
- يوسف الحوراني، الإنسان والحضارة: مدخل دراسة ، ط٢، دار مكتبة الحياة، (بيروت، ١٩٧٣).
- _____ ، البنية الذهنية الحضارية في الشرق المتوسطي الأسويي القديم، دار النهار للنشر، (بيروت، ١٩٧٨).
- يوسف كرم ، الطبيعة وما بعد الطبيعة ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، (القاهرة، ٢٠١٢).

ب - البحوث والدراسات

- اكرم محمد عبد كسار، " قراءة فينتاجات الإنسان الفنية الأولى"، سومر، مج ٣٩، (بغداد، ١٩٨٣).
- بديعة امين ، "فكرة الصراع في الأدب السومري"، ق ١، مجلة آفاق عربية، العدد الأول، (بغداد، ١٩٧٨).
- بن لعلام سمهان وبنان كريمة، "التربية البيئية والانسان- مقارنة نظرية شاملة حول جدلية العلاقة والتأثير"، مجلة العلوم الانسانية والطبيعة (HNSJ) ، مج ٣، ع ٦، (الجزائر، ٢٠٢٢).
- بهنام ابو الصوف، "تجارة العراق الخارجية في عصور ما قبل التاريخ"، مجلة ما بين النهرين، العدد ٤٨، (بغداد، ١٩٨٥).
- تقي الدباغ ، "العراق في عصور ما قبل التاريخ"، في كتاب العراق في التاريخ، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٨٣).
- _____ ، "الثورة الزراعية والقرى الاولى"، كتاب حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج ١.
- _____ ، "البيئة الطبيعية والإنسان"، كتاب حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج ١.
- _____ ، " التدجين والانتاج ونظم الزراعة"، العراق في موكب الحضارة، دار الحرية، (بغداد، ١٩٨٨)، ج ١.
- ثوركيلد جاكوبسن، "أديان ما بين النهرين"، ضمن كتاب موسوعة تاريخ الأديان، تر، محمود منقذ الهاشمي، منشورات دار علاء الدين، (دمشق، ٢٠٠٤)، ج ٢.
- حسين سيد نور جلال الاعرجي، "الفكر الوجودي في العراق القديم- ملحمة كلكامش نموذجاً"، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، ع ٣٨، (واسط، ٢٠٢٠)، ج ١.
- _____ ، "أثر الحتمية البيولوجية في الفكر الديني العراقي القديم"، مجلة واسط للعلوم الإنسانية، (واسط، ٢٠٢٠)، مج ١٦، ع ٢.
- حماد حسين، "مصطلح الصورة"، حولية كلية اللغة العربية، ع ١٥، ج ٥، جامعة الازهر، ٢٠١١.
- رائد راكان قاسم الجواري، "اسهام حضارة وادي الرافدين في ظهور المدارس الجغرافية الحديثة (دراسة في الفكر الجغرافي) "، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية ، المجلد ٣، العدد ،(تكريت، ٢٠١٩).
- رسل ماجد عبد وفاضل كاظم حنون، "فلسفة التوحيد في مصر القديمة (عبادة الإله الشمس)"، مجلة كلية التربية، المجلد ٥٣، العدد ١، (واسط، ٢٠٢٣).

- ساعد هماش ، "سوسيولوجيا البيئة في ظل المدارس النظرية والاتجاهات المفسرة"، مجلة الباحث الاجتماعي، العدد ١٣، ٢٠١٧.
- سامي سعيد الاحمد، "المظاهر الدينية في العراق القديم"، في، كتاب حضارة العراق، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج ١.
- سعد عبود السمار وسهاد علي عبد الحسين، "صراع الآلهة مع البشر في المعتقدات المصرية القديمة"، مجلة كلية التربية، العدد ٤٠، الجزء الثاني، (واسط، ٢٠٢٠).
- سعدون عبد الهادي برغش الأمير، "ملاحم الفكر الاجتماعي في أدب العراق القديم"، مجلة واسط للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ١٧، ع ٤٧، جامعة واسط، ٢٠٢١.
- سنوسي سامي، "نظرية الجوهر الكلامية ودورها في إبطال سرمدية العالم الفلسفية"، مجلة العقيدة، العدد ٢١، ٢٠٢٠.
- صلاح سعد الدين احمد، "الجوهر عند ليبنتز - عرض ومقارنة بالفكر الإسلامي"، المجلة العلمية لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، المجلد ٣٩، (القاهرة، ٢٠٢٠).
- طه باقر، "ديانة البابليين والآشوريين"، مجلة سومر، مج ٢، ج ١-٢، (بغداد، ١٩٤٦).
- ——— وبشير فرنسيس، "الخلقة واصل الوجود"، مجلة سومر، مج ٥، ع ٢، ج ١، (بغداد، ١٩٤٩).
- عبد الحميد قاوي، "مفهوم الصورة الفنية في النقد الأدبي الحديث"، مجلة الباحث، مج ٧، ع ٢.
- عبد الحميد زايد، "من أساطير الشرق الأدنى القديم"، مجلة عالم الفكر، مج ٦، ع ٣، (الكويت، ١٩٧٥).
- عبد العزيز صالح، "فلسفات نشأة الوجود في مصر القديمة"، مجلة المجلة، العدد ٢٦، (القاهرة، ١٩٥٩).
- ———، "الوحدانية في مصر القديمة"، مجلة المجلة، العدد ٣١، (القاهرة، ١٩٥٩).
- فرج بصمه جي، "أقوام الشرق الأدنى القديم وهجراتهم"، مجلة سومر، مج ٣، ج ١، (بغداد، ١٩٤٧).
- فؤاد جميل، "الطوفان في المصادر السومرية البابلية الآشورية والعبرانية"، مجلة سومر، مج ٢٨، ج ١+٢، (بغداد، ١٩٧٢).
- فؤاد سفر، "البيئة الطبيعية القديمة في العراق"، سومر، مج ٣٠، ج ١+٢، (بغداد، ١٩٧٤).
- فوزي رشيد، "المعتقدات الدينية"، حضارة العراق القديم، دار الحرية للطباعة، (بغداد ١٩٨٥)، ج ١.

- كزار محمد جهاد و اريج خيرى عثمان، "أثر الأنشطة البشرية ودورها في تلوث هواء البيئة الحضرية في محافظة ذي قار"، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مج ٢٩، ع ١٠، (القادسية، ٢٠٢١).
- محمد حميد عباس الساعدي ، "البيئة والمجتمعات البشرية واثار العلاقة المتبادلة بينهما" ، مجلة لارك، المجلد ٣ ، العدد ٤٦ ، (واسط ، ٢٠٢٢).
- محمود عليوي جلاوي العبدلي، "أهمية نهر النيل وأثره في المعتقدات والافكار الدينية للحضارة المصرية القديمة"، مجلة ايسن، جامعة القادسية، العدد ٢، تموز-كانون الاول ٢٠٢١.
- نائل حنون، " شخصية الإلهة الأم ودور الإلهة انا عشتار في النصوص السومرية والاكديّة"، سومر، مج ٣٤، ج ١-٢، (بغداد، ١٩٧٨).
- ندى موسى عباس، "تأثير البيئة الطبيعية على شخصية الفرد العراقي"، مجلة ديالى ، ع ٤٠ ، (ديالى، ٢٠٠٩).
- نعيم عودة الزبيدي وجمعة حريز الطلبي، "أثر البيئة في ظهور المدينة ونشوء الدولة في بلاد الرافدين، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية"، مج ٢٢، ع ١، (القادسية ٢٠١٩).
- وسناء حسون يونس، "النشاط الزراعي في مصر القديمة"، مجلة التربية للعلوم الإنسانية، مج ١، ع ٢، ٢٠٢١.
- وسناء حسون يونس، "أهم الخصائص الجغرافية لمصر القديمة" ، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد ١٧، العدد ٩، تشرين الأول ٢٠١٠.
- يوسف اليوسف، "قراءة في ملحمة التكوين البابلية" ، مجلة المعرفة السورية، العدد ١٩٧، تموز، ١٩٧٨.

ج- الرسائل والأطاريح

- احمد بشار جمعة ، فكرة الصراع في الاساطير والملحاح العراقية القديمة (٣٠٠٠-٢٠٠٠ ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة واسط، ٢٠١١.
- رشا عبد الرؤوف علي ابو السعد، الأسطورة السياسية في مصر القديمة ووظائفها، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٤.
- على محمد مهدي ، دور المعبد في المجتمع العراقي من دور العبيد حتى نهاية دور الوركاء، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٧٥.
- مایسة أحمد على الفار، أثر الأسطورة والبيئة المصرية في ترميز الآلهة في الفن المصري القديم كمدخل لإثراء التذوق الفني، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة المنصورة، ٢٠٠٦.

- محمد عبد اللطيف محمد علي، فكرة الخلق في مصر القديمة حتى الألف الثاني ق. م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٨.
- مريم موسى عمران، الفكر الديني عند السومريين في ضوء المصادر المسمارية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٦.
- ولاء مهدي محمد، الجوانب الفلسفية في فكيروادي الرافدين وأثره في العهد القديم، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ،جامعة بغداد، ١٩٩٩.

References

ثانيا- المصادر الأجنبية

Books

أ- الكتب

- Allen, James P., "Genesis in Egypt" The Philosophy of Ancient Egyptian Creation Accounts, Yale University, 1988.
- Bevan, A., Stone Vessels and Values in the Bronze Age Mediterranean, Cambridge University Press, (London, 2007).
- Bickel, Susanne, La cosmogonie égyptienne: avant le Nouvel Empire, University of Zurich ,1994.
- Bottero, Jean, Religion in Ancient Mesopotamia, Translated by Tresa Lavender Fagan, (Chicago, 1992).
- Boumann, H., The Land of Ur, (Oxford, 1969).
- Budge, E. A. W., From fetish to good in Ancient Egypt, London 1934.
- Diakonoff, I. M., The City-States of Sumer, (Early), Chicago, 1991.
- Erman, A., Literature of Ancient Egyptians, translated in to English: by Blackman, A. M., Methuen and Co. Ltd, London, 1927.
- Faulkner, Raymond O., A concise Dictionary of Middle Egyptian, (Oxford, 2002).
- Frankfort, Henry, Kingship and gods, Chicago, 1948.
- Gardiner, A. H., Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1961.
- Hart, George, The Routledge Dictionary of Egyptian Gods and Goddesses , 2nd, Edition, London, 2005.
- Jacobsen, T. H., Toward the Image of Tammuz and other Essays on Mesopotamian History and Culture, (TITC), (Cambridge, 1970).
- Leick, G., A Dictionary of Ancient Near Eastern Mythology, (DANEM), (London, New York, 1992).
- Loprieno, Antonio, Ancient Egyptian Literature –History and Forms, New York, 1996.

- Mercer, Samuel, The Pyramid Texts Vol. I, "Translation", New York, 1952.
- Michalowski, P., The Lamentation Over The Destruction of Sumer and Ur,(USA, 1989).
- Philips, Jacke, Ancient Egypt, The Aegean, And The Near East, USA,1997.
- Pinch, Geraldine, Egyptian Myth, Oxford University , New York,2004.
- Pritchard, James, B, Ancient Near Eastern Texts- Second Edition, (ANET), Princeton, U. S. A. 1955.
- Ring , George C. , Gods of the Gentiles , (Milwaukee 1938).
- Sethe, Kurt, Amun and Die Acht Urgotter Von Hermopolis, (Berlin,1929).
- V. Lois , Egyptian Mythology, Italy,1968
- Watterson, B., The Good of Ancient Egypt, London,1994
- Wittfogel, Karl .A., Oriental Despotism A comparative Study of Total Power, Yale University Press, (New Haven and London, 1957).

Studies and Researches

ب - البحوث والدراسات

- BAINES, J., "Egyptian Myth and Discourse", (JNES), Journal of Near East Studies, (Chicago), 50, 1991, p. 81-105.
- Budge, E. A. W., "Book of the Dead", 3 Vols. (published in a series of "Books of Egypt and Chaldea" Vols. VI. VII. VIII.), London,1909.
- Clark, Rundle, " Some Hymns to the Nile ", University of Birmingham Historical Journal, 5(1), 1955.
- Faulkner, .R .O., " The Bremner -Rhind Papyrus-III" (in) Journal of Egyptian Archaeology,(JEA), Vol. XXIV, London,1938.
- Gelb, J. I., and Others, CAD, (Chicago, 1962), Vol.16.
- -----, CAD, (Chicago, 1973), Vol.9.
- Hassan, S, Excavations at Giza, Vol. VI, part I, Cairo, 1947,
- Komoroczy, G., "work and strike of Gods (New light on the divine society in the Sumero-Akkadian mythology)", OIKUMENE, Vol. 1,(1976).
- Lambert, W. G., "Myth and Mythmaking in Sumer and Akkad", in, (CANT), Civilizations of the Ancient Near East. Vol. III, (New York , 1995).

- Oppenheim, A. L., " A Bird's-Eye View of Mesopotamian Economic History" ,in, Trade and Market in the Early Empires: Economies in History and Theory, Ed. Karl Polanyi and Others, (Chicago, 1971).
- Wilson, A. John, "Egyptian Hymns and Prayers", in, ANET - Second Edition, Princeton, U. S. A. 1969.
- ----- , "Egyptian Myths, Tales, and Mortuary Texts", in, ANET - Second Edition, Princeton, U. S. A. 1969.
- ----- , "Observations on Life and the World Order", in, ANET - Second Edition, Princeton, U. S. A. 1969.

Abstract

The ancient Iraqis presented a civilization that had the forerunner of excellence originality and perfection, making it a beacon that illuminated the darkness of antiquity, but that civilization, like any other human civilization, was interspersed with forms and images of exploitation and human injustice, The most prominent phenomenon of despotism, Which permeated all social, economic, religious and political frameworks, to transform the life of the ancient Iraqi individual into an endless series of misery and misery.

The phenomenon of despotism in general and in the East in particular has been addressed in a large number of studies and works, especially from Western scholars and philosophers. However, these studies give it an idea that is closer to being a racist idea , As it made the phenomenon of despotism a natural phenomenon for the peoples of the East, including the ancient Iraq, claiming that the nature of such peoples as slaves subject to surrendering to the manifestations of tyranny and despotism, or the pretext of inevitability the emergence of despotism in those areas depending on climatic factors and natural or economic factors, and even linked to factors Religious. Hence the hypothesis of the research, first to clarify that the phenomenon of despotism as a bad social phenomenon can affect all societies and at any time and place, and can't be limited to a society or an era in itself, either the second is to clarify that despotism is a global phenomenon linked to several factors and reasons And not a particular specific factor, as most of these studies tried to prove, by emphasizing a specific factor and the sole or main reason for the emergence of the phenomenon of despotism without other factors.

That the comprehensiveness of the subject required that the study be in four chapters with an introduction and a preface as well as our conclusions. We explained in the preface the linguistic and theological meaning of despotism, and explain its overlap with the concept of despotism, and the questionnaire of the concept of Oriental Despotism and response to it, as well as dealing with the most important factors of the emergence of despotism in general. While noting in the conclusions the most important points of the study.

The first chapter Which is entitled "Social despotism" dealt with Two sections, The first "Family and tribal despotism" dealt with the prevalence of despotism in these two social forms, While the second (class despotism) dealt with the practice of this phenomenon classically against the slaves Firstly, and against the classes ruled by the ruling class secondly.

The second chapter Which is entitled "Economic despotism", dealt with two sections, We discussed in the first the authoritarian nature of the ancient Iraqi economic thought, while the second dealt with forms and manifestations of economic despotism.

The third chapter, which we have described as "religious despotism " has been divided into two sections, to study the forms and images of religious despotism according to the ancient Iraqi thought, In the first part of the first section (despotism of the gods) we dealt with the despotism of gods against gods, In the second part of this section we dealt with the despotism of the gods against man, By his creation of labor and servitude And the confirmation of death on him, As well as dealing with the divine sanctions of despotism against human beings and the absence of divine justice Authoritarianism, Either the second section (the despotism of the religious institution), we dealt with the Authoritarianism practices of that institution against the community Firstly and against the political authority secondly.

The fourth chapter Which is entitled "Political despotism" was devoted to the study of the Authoritarianism practices of political power in the ancient Iraq, so we divided it into three sections, In the first section we explained the transformation of the old regime from the democratic to the monarchical monarchy. In the second, the tyranny of political authority against the political opponents came. The third is to show the authoritarian practices of political power against the ancient Iraqi society.

The present study has come up with a number of results, the most important of which is that despotism is a bad human phenomenon that can manifest itself in various human societies in every place and time, and can't be limited to a specific society or a specific period of time, For ethnic or religious reasons, Because their appearance depends on general causes, including human nature and psychological factors as well as social, economic, religious and political factors.

Researcher

**Republic of Iraq
Ministry of Higher Education
and Scientific Research
University of Wasit– college of Education
For Humanities
History Department**



The Impact of the Environment on the Formation of Creation Imagery and Its Essence in Ancient Iraqi and Egyptian Thought – A Comparative Study

A thesis Submitted by the Student

Mahmoud Anima Khalifa Al- Abady

To the Council of the College of Education For Humanities,
University of wasit - as a partial Fulfillment to the Requirement of
doctorate degree in the Philosophy of Ancient History.

Supervised by prof. Dr.

**Saadoon Abdulhadi Barghish
Al-Ameer**

2026 A.D

1448 A.H